

اللاعب والتعبئة

عالم الاستخبارات الأميركية

في اعترافات احد رجالاته

دار الحمراء

الطبعة الأولى

١٩٩٠

كلمة الناشر

من «لعبة الأمم» إلى «اللاعب واللعبة»

لا بأس من تذكير القارئ في تقديمنا لهذه «الاعترافات» بالقواعد التي طلب إليه أن يعرضها نصب عينيه فيما لو أراد أن يفهم ما تعنيه «لعبة الأمم» وترمز إليه هذه العبارة التي دخلت القاموس السياسي المعاصر. إنها القواعد الست التالية:

كل أمة من الأمم تجعل في مقدمة أهدافها البقاء في اللعبة وممارستها وليس إلى الخروج منها. تنصرف الأمة في غالب الأحيان على نحو لا يهدف إلى احراز النجاح داخل اللعبة بقدر ما تسعى لضمان استمرار التأييد الجماهيري لزعيمها أو لقيادتها .

التصريحات الرسمية حول السياسة الخارجية لا يمكن قياسها بصفاء النيّة، بل قوامها المناورة والمداورة والكتمان والازدواجية: اللاعب الرئيس لا يكتنف أوراقه، بل يظهر ما لا يبطن .

لا تهدف الأمم المتخاصمة من وراء إظهار حسن النوايا والإقرار بوجود أهداف مشتركة سوى إلى تحسين أوضاعها الداخلية أو إلى ممارسة الضغط على فريق ثالث، وقلماً يحدوها الأمل المخلص في تحقيق ما تعلن عنه حقيقة .

حين تعتمد دولة عظمى إلى مغازلة أمة ضعيفة والتؤدد لها، فإن الأمة الضعيفة سوف تلتفت في غالب الأحيان صوب الخصم الرئيس للدولة العظمى بغية إثارة التنافس بين الخصمين وحملهما على خطب ودّها لكي تنتهز الفرصة لتحقيق الأرباح والمكاسب.

عندما تحرز الأمة الضعيفة في اللعبة مركزاً دبلوماسياً وقوة من خلال استغلال مقولة التنافس، فإن من شأنها تبوء مركز استراتيجي يسهم في مساعدتها على نيل المزيد من القوة والنفوذ، وذلك من خلال لجوئها إلى التهديد بالاقدم على مغامرات لا تحبذها الدول العظمى – لأن فهمها للعبة يتطلب ذلك !

هذه هي القواعد التي تشرحها مايلز كوپلاند عام ١٩٦٩ في كتابه عن «لعبة الأمم». ولتبسيط الشرح وتلخيص القواعد بعبارة موجزة، يمكن القول إن «لعبة الأمم» هي كناية عن النشاط الذي تمارسه نظارة الخارجية الأميركية في واشنطن من أجل رسم المخططات الملائمة لبسط النفوذ الأميركي على بلدان العالم أجمع عن طريق استخدام السياسة والخداع والحيلة بدلاً من اللجوء إلى أضرام نار الحرب المسلّحة. إنها التخطيط السياسي لتوجيه الصراع على مناطق النفوذ في العالم من خلال استخدام أساليب الحرب الباردة – وما أكثرها تنوعاً وأوسعها حيلة !

وفي الكتاب الذي بين أيدينا يبوح العميل السياسي واللاعب المتمرس في قواعد اللعبة بالكثير من الخفايا والأسرار التي اكتتفت ممارسة اللعبة في بلدان الشرق الأوسط وغيرها من بلدان العالم. ويعترف المؤلف للقارئ بوجود أكثر من لعبة يمارسها اللاعب على مختلف الأصعدة وفي ثنتي المجالات. مثلما يكتشف المؤلف عن «العمل السياسي في الخفاء» والعمليات السرية أو الخفية التي تمارسها أجهزة إدارة اللعبة في الولايات المتحدة وخارجها، هذا بالإضافة إلى الجيل القذرة التي تستخدمها وتلجأ إليها على سبيل التغطية والتنويه، متذرة بلوغ الهدف .

ليس الغرض من هذه الكلمة إنقال كامل القارئ بالثروحات والتعليقات والتنبيهات. ولا حاجة بنا إلى التذكير بتلك الوفرة العارمة من الكثير والترجمات والاقتراسات التي تقذف بها المطابع وتملأ رفوف المكتبات. بل نكتفي بالإنارة إلى دلالة هذه «الاعترافات» التي جرى تعريبها بتصريف دون الإساءة إلى فحواها وتنويه محتواها .

ومن ناقل القول إن ناشر الكتاب لا يعتبر ما جاء على صفحات «اللاعب واللعبة» بمثابة «فصل الخطاب»، كما أنه لا يتبنى الآراء والمواقف الواردة في فصوله. إنها وجهة نظر من داخل المؤسسة يبوح بها أحد اللاعبين الكبار والقدامي على رقعة العمل السياسي الخفي في الشرق الأوسط. ولا غرو فإن القارئ الفطن لن يفوته الكثف عن الكثير من الآراء المتحيزة والمعلومات الخاضعة للتلاعب علاوة على «التنظير» المضلل والممل في كثير من الأحيان. فالاطلاع على هذه الاعترافات، بالرغم من اللمسات والتشطحات الشخصية التي تشوب مواقف اللاعب وتكتف مغامراته التنظيرية واستغرافه في السرد – يغدو ضرورة لا بد منها على سبيل أخذ العلم والإلمام بالمخططات التي ترسم للسيطرة على مقدرات بلادنا والتحكم بمصيرنا من خلال التذرّع بتأمين مصالح الدول الكبرى.

إنها اعترافات لاعب متقاعد، واكب أجهزة بلاده منذ أنشائها بهدف جمع المعلومات في ظروف الحرب العالمية الثانية وحتى اتساع نطاقها وتثعب اهتماماتها وانتفاخها البيروقراطي، وصولاً إلى اعتماد الجيل القذرة والأساليب اللا أخلاقية في ما يطلّفون عليه تسمية «العمل السياسي الخفي». ولا ضير في الاطلاع على تفاصيل السجلات وكيفية وضع السيناريو المطلوب لبلوغ الأهداف المنشودة من وراء ممارسة اللعبة .

بيروت في ٣٠ أيار (ماريو) ١٩٩٠ الدار

الفصل الأول

البداية في ولاية الاباما

ضمّ فريق العلماء النفسانيين الذين استجوبوني تمهيداً لتكليفي «بمهمة خاصة» كلاً من: الدكتور أغرتن باللاتشي من جامعة ستانفورد الذي سبق له أن عمل مع فريق الدكتور هنري موراي من جامعة هارفارد، والدكتور موراي مؤلف كتاب «تقويم الرجال» الذي صار فيما بعد من المراجع الكلاسيكية في حقله أثناء الحرب العالمية الثانية . وضّم أيضاً الرائد وليم مورغن، وهو عالم نفساني من جامعة ييل درس بإمعان قدرة العملاء على «تحمل الإحباط» في حالات «اليأس من تحقيق الغايات المنشودة». وكانت في الفريق أيضاً الدكتور مايل تيرنر وهي سيّدة لطيفة في العقد السابع من عمرها هبطت في صباها ست مرات وراء خطوط العدو في الحرب العالمية الثانية وحازت على عدد مماثل من الأوسمة تقديراً لثجاعتها وإقدامها وهي أيضاً مؤلفة كتاب ارتنادي عنوانه : «العقيلة الإجرامية وعمليات التجسس». ذاع صيتها في وكالة الاستخبارات المركزية (سي. أي. إي - CIA) على أنها امرأة عطوفة متوقّدة الذكاء والتفهم بحيث يعلم كل صاحب خطيئة أن عليه مراجعة خطاياها معها قبل بلوغ مرحلة تحديد اللياقة الأمنية.

عندما بدأت جلسة التقويم كنا قرابة الثمانية أو التسعة رجال نرتدي بدلات من محلات «بروكس اخوان» ومعنا ثيابة واحدة تضع على عينيها نظارتين وتبدو عليها دلائل الجدية، وهي عائدة حديثاً من حملة تنقيب عن الآثار في شرق افريقيا. ولما حان موعد الامتحان الخطي، أطلت سكرتيرة برأسها من خلف الباب ودعتني دون غيري إلى غرفة مجاورة ليس فيها سوى طاولة واحدة وقلّة من الكراسي الخفيفة حيث جلست بمفردي للإجابة عن أسئلة بإحدى كلمتي: «نعم» أو «لا» وثم لاختيار جواب صحيح من مجموعة أجوبة عن أسئلة أخرى، ثم لسرد ما توجيه إليّ بعض الكلمات، وأخيراً مررت باختبار «رورشاخ» وهو عبارة عن سرد ما توجيه إليّ بعض بقع الحبر المتناسقة الترتيب على قطعة من الورق. وراحت أمرأتان ثابتان وجذابتان، عليهما مسحة تومئ بانتمائهما إلى الوسط الأكاديمي، تراقباني عن كثب على امتداد الامتحان الخطي. فتارة تقرأ الواحدة منهما ما أسطره على الورق وطوراً تحدّقان بوجهي بإمعان لمراقبة تغيرات قسماته كلما واجهت أسئلة وهما على علم مسبق بما تتطوي عليه من خدعات .

انتهيت من الامتحان الخطي خلال فترة أقصر بكثير من الوقت المحدد له وعدت إلى الغرفة التي كنت فيها مع المرشحين الآخرين فإذا بهم قد ذهبوا كلهم وإذا بي أفف أمام العلماء النفسانيين الثلاثة. بادرتني الدكتورة تيرنر بطلب أن اذكر لها ودون التوقف للتفكير أسماء أشخاص ثلاثة أكن لهم البغضاء. لم يخطر ببالي أي اسم وبعد أن حككت رأسي لبضع ثوانٍ أخبرتها بذلك .

قالت : «اسمع الآن، لا بد ان ثمة شخصاً لا تحبه». ومرة ثانية لم أتمكن من تلبية طلبها رغم محاولتي الصادقة، وكان قد شاع بين الناس آنذاك ترديد عبارة اطلقها ول روجرز تقول: لم ألتق قط شخصاً وبغضته». لم أستطع بالطبع الذهاب إلى ذلك الحد في جوابي، ولكن كان باستطاعتي وبكل صدق القول بأنني لم أقابل قط أي رجل - أو

أمرأة — أمقته. غير أن حدسي فرض عليّ عدم البوح بذلك. فقد كنت قيد الاختبار لكي يسدى إليّ القيام «بمهمة خاصة» لمؤسسة لا تعتبر فيها المحبة المطلقة للانسانية من الصفات المرغحة .

قلت: «لست من المعجيين جداً بادولف هتلر». لم تحدث ملاحظتي تلك مجرد ابتسامه بل كانت كقول مريض بدء الايدز(أو السيدا): «إني على الأقل أحافظ على انخفاض وزني». وهنا توجه إليّ أحد الثلاثة ببضعة أسئلة عن معتقداتي الدينية. فقلت في نفسي لقد أدركت الآن ما يرمي إليه بذلك السؤال، وأوضحت له بأن محبتي للانسانية — أو ان هذا العجز المؤسف عن مقت أي جزء منها — تعود إلى لاشئ لا يتعدى في أهميته تقصاً غدياً وبأن ليست لدي أي قاعدة اخلاقية له على الاطلاق. وأضفت: «فإن كنتم تريدون مني تصفية شخص ما فسأفعل ذلك بكل سرور». وأردفت بابتسامه بريئة «ولكن لا تطلبوا مني ان أكرهه». جاء الجواب محكماً وحصلت على أول مهمة لي عبر البحار: في دمشق في سوريا حيث مثل ذلك الموقف جوهرى.

وهكذا انتقلنا إلى الأسئلة التي حملتني على ذكر جلسة الامتحان هذه في هذا الفصل بالذات. سألني الدكتور باللاتشي «هل تذكر المؤثرات المبكرة في حياتك التي أسهمت في صيرورتك إلى ما أنت عليه اليوم؟» أجبتة: «بالطبع، هناك الأنسة إدي والأنسة آرثيبالد والأنسة كالن وتخصص أو اثنان غيرهن ولكن الأسماء تقوتني الآن، ولكن كان لهن جميعاً تأثيراتهن العميقة». وأوضحت له بأنني ذكرت الأسماء الأولى التي تبادرت إلى ذهني من أسماء معلّمتي في المدرسة الثانوية.

قال: «لم يكن هناك رجال؟ هل كان كل الذين علّموك في المدرسة نساء؟»

قلت: «أظن كان هناك البعض منهم ولكنهم نكرات وما عدت أذكر أيًا منهم».

قال: «من منهن كانت مثلك الأعلى؟»

قلت: «أظن ينبغي أن أقول الأنسة آرثيبالد». فاليونغ آرثيبالد! هل ثمة اسم أفضل؟ كانت تقريباً...» وتوقفت عن الكلام لمشاهدتي دلائل اهتمامهم الشديد، ولكنه كان في غير محله. وأدركت فجأةً إلام كانوا يرمون، فقلت: «أعني انها انسانة لطيفة جداً وأعجبت بروح النكتة لديها وبطريقتها في التعاطي مع الناس وغير ذلك. أما مثلي الأعلى فهو دو غلاس فيربانكس. نعم، انه دو غلاس فيربانكس». (نجوت بأعجوبة).

تنفس الجميع الصعداء ذلك ان المهمة التي أعدها لي رؤسائي تتطلب رجولة جديّة لا مكان للهو فيها. وعلمت فيما بعد أن العلماء النفسانيين الثلاثة دوّوا في ملف تقويمهم لتخصيبي ملاحظات متعددة منها: «علاقات جنسية سليمة جداً» تليها مبانثرة عبارة «لا اخلاقياً تماماً». وتبين لي، عندما سرقت ملفي التخصي من ديوان الوكالة أن نتيجة امتحان «إبحاء الكلمات»، وبقع الحبر أظهرت للنساء تأثيراً بالغاً في حياتي، وهو بالطبع أمر لا يزال صحيحاً حتى اليوم. غير أن ما يصح قوله فيُصح أيضاً في جميع الشباب الذي ربوا في الاباما خلال العشرينات والثلاثينات. وكانت النساء اللواتي يتمتعن بالذكاء والتربية الرفيعة والجانبية — وكنا آنذاك ندعوهن «السيدات» — يقبلن بالرواتب المتدنية في قطاع التربية والتعليم التي لم يكن الشباب يقبلونها رغم الحاجة في تلك السنوات العجاف.

بتُ أعلم الآن ماذا حدا بي آنذاك للخروج بذلك الجواب السخيف الذي اعتبرته في حينه يصور حقيقة أفكارى. فعندما ذهبت أولاً إلى مكتب الخدمات الاستراتيجيّة ومنه فوراً إلى وكالة الاستخبارات المركزيّة ترك في نفسي

علم وثقافة كل الذين رأيتهم فيهما انطباعاً عميقاً ليس فقط لكونهم حملة شهادات الدكتوراه بل لكونهم يحملون شهاداتهم تلك من جامعات مثل هارفارد وبيبل وغيرهما من جامعات الدرجة الأولى. وأدركت كذلك ان الانسات: إدي وارثيبالد وكالز ودايفس وغايم وكروس ولوبي، كنُ جميعاً أنخاضاً ممتازين يعلمن علم اليقين ان ما يجري داخل غرف صفوف المدرسة ليس تلقيناً بل اكتساباً للمعرفة والعلم وان مهمتهن هي اثاره اهتمامنا بهما وتزويدنا بأصول تصنيف الأمور وتقويمها. استطيع القول الآن دون أن يرفُ لي جفن بأن «الثقافة» — حسبما تعلمت استعمال هذه الكلمة — التي نلتها انا وغيري في «مدرسة إرسكن رمزي الفنية العالية» في مدينة بيرمنغهام في ولاية الاباما تضاهي تلك التي حصلها الكثيرون من حملة شهادات الدكتوراه سواء من جامعة هارفارد أو ييل أو برنستون الذين عملت معهم لاحقاً في الوكالة أكانوا أرفع أو أدنى مني رتبة.

دعوني أسوق هنا مثلاً بسيطاً. فقد طلب إلينا في الامتحان استعمال البارومتر (جهاز قياس ضغط الهواء) لتحديد ارتفاع ناطحة السحاب «امباير ستايت» في نيويورك. وفيما راح المرشحون الآخرون يسترثدون بما تعلموه من أصول الرياضيات في جامعاتهم المختلفة خرجت بالجواب الذي نتج عنه استدعائي إلى الغرفة المجاورة حيث خضعت للامتحان الافرادي كما سبق وأوضحت، فقلت: «أبحث اولاً عن المهندس الذي صمّم البناية وأقدم له هدية هي عبارة عن بارومتر جديد وجذاب شرط أن يقول لي الرقم الصحيح لارتفاع البناية». وهذا بالفعل ما كنت لأفعله لو انني واجهت في الحياة الواقعية موقفاً كهذا.

كانت دهشة الأساتذة الثلاثة — باللاتشي ومورغن وتيرنر الذين صاروا فيما بعد من أقرب أصدقائي — كبيرة من جوابي بمقدار ما كانت دهشتي منهم. لقد كان شعوري إذ يحيط بي رجال ونساء من ذوي الكفاءات العلمية الرفيعة مزيجاً من التواضع أمامهم والاحترام البالغ لتفوقهم العلمي من جهة والدهشة المستمرة من إصدارهم على تحويل القضايا البسيطة إلى قضايا معقدة من جهة أخرى. ثم، وبعد عجزهم عن حلها، رغم معرفتهم لمسئبائنا، تبقى لديهم غير قابلة للحل. العقليات المماثلة تحيط بي منذ بداية معاطاتي مع وكالة الاستخبارات المركزية. ولدى سؤالي عن المؤثرات الأولى التي عملت في نفسي كان من الطبيعي ان الجواب الأول الذي سبق غيره إلى ذهني جاء متعلقاً بمؤهلاتي الدراسية رغم ادراكي للتفاوت الشاسع بينها وبين تلك التي يتمتع بها أفراد الهيئة الذين يستجوبونني.

لنرى إذاً ممن جاءت تلك المؤثرات؟ أمن أبي؟ كلا، فقد كان أكبر سنناً من والدتي بثمانية عشر أو بعشرين عاماً أي من سن أجداد أنرابي لا من سن آبائهم. إن كل ما أذكره عنه أنه كان يؤمن بالتلقين لا بالتعليم وانني كنت أقاوم كل شيء أردني أن ابتلعه ابتلاعاً. فنتج عن ذلك وجود ثغرات في ادراكي حيث ينبغي أن أرى الأمور بجلاء، وتقرّر في نفسي لكل ما هو مفروض عليّ فرضاً. ام أنها من أمي؟ اجل، فقد كانت عطوفة وغبورة ومرحة وقصاصة ممتازة، وقادرة على رؤية البقعة المنيرة في أي محنة كالحة، والناحية المضحكة في أي كارثة، وثفوفة في الوقت نفسه على ضحية الكارثة.

أصبت قبل موعد دخولي المدرسة بداء السبل الصدري فقضيت سنتين في الفراش. وعندما دخلت المدرسة وجدتني متقدماً جداً عن هم بعمر من أنرابي ذلك لأنني قضيت سنتين من الدراسة المكتفة. فعلى يدي عمي التي اعتبرت تعليمي تحدياً لها تعلمت القراءة والكتابة والجمع. وكان هناك أيضاً جارنا المفكر وايفس تايلور الذي

أرشدني إلى ماذا أقرأ، كما علمني تفتيقي الأصغر، هنتر، وهو الرياضي في حيننا، كيف استغل الرياضة في حياتي المتبرعمة. وهكذا سرعان ما اكتشفت بعد دخولي المدرسة أن الذكاء ليس خطيئة، وأن هزال البنية ليس خطيئة هو الآخر، وأن اجتماع الذكاء والهزال هما بالنسبة لباقي الطلاب بمثابة الاعلام الحمراء لثور المصارعة. تفتيقي مع واقع ان باستطاعة أخي الذي يصغرني بسنتين أن يصدني كلما حاولت مهاجمته جعلني ما أنا عليه اليوم. فلما أدركت عدم قدرتي على انتزاع ما أريده منه بالقوة لجأت إلى الحيلة ونجحت فيها، بل تفوقت.

قبل بلوغي العشرين من العمر صار بإمكانني ليس فقط التحايل على تفتيقي بل وكذلك على باقي الرفاق والحصول على ما ابتغيه منهم. فقد جعلتهم مرة يقفون طابوراً طويلاً لشراء طابع بريدية تذكارية مزورة، ومرة أخرى لشراء تذاكر يانصيب «لرحلة لغز»، وثالثة لشراء مهبّجات تؤثر في الثنابات «المهذبات»، وللاتسترانك في «حديقة حيوانات» تجمع فيها حيوانات ولاية ألاباما بواسطة الافخاخ في وقت غير محدد، على أن يقوم الكثاف المحلي بذلك. ولما انفصح أمري في نهاية المطاف قال المستر تي. سي. يونغ مدير المدرسة ان على ضحاياني ان يشكروني لأنني لغنتهم درساً سيكون بالغ الاهمية وجزيل الفائدة لهم في المستقبل عندما يدخلون العالم الحقيقي. وكان المستر يونغ نفسه أول «مثنرك» في «حديقة الحيوان» تلك، وأحد الذين تذوقوا قبل غيره لذة طعم العالم الحقيقي الذي تحدث عنه.

الله، كيف تجرجر الذكريات بعضها بعضاً! جالك هولبندر، نجم حفلة الربيع في المدرسة سجل حدثاً في التاريخ المسرحي. فقد أصابة انتصاب وثنوه بوضوح من آخر مقعد في القاعة، أثناء تأديته مع فتاة من عمرة تدعى مايبل البرناني أغنية «أه، أوعديني». لم يكن ذلك الفتى المسكين يدرك، لحدائة سنة، ما حدث له علماً بأنه لا بد تشعر بأن لا مساكه بيد مايبل ثنائاً ما بذلك. ولم تظن مايبل بدورها لما يجري حولها حتى أخذت همسات الحضور تتحول إلى ضحك ثم إلى فهمة فانتبعت إلى انتفاخ سروال جالك وصاحت بأعلى صوتها هاربة عن الخشبة لا تلوي على ثنيء.

أما الفتى المسكين الآخر هركي مكدومك فقد اعترته البراغيت — نعم، براغيت! فلم يعد أحد يقترب منه، ناهيك عن الجلوس بقربه في الصف. ولا بد انه كان في ذلك الوقت أنس فتى في الوجود، لجأ إلى الاستحمام مرتين في اليوم فضلاً عن استعمال جميع أنواع العقاقير المعروفة في حينه، ولكن دون جدوى. وأخيراً عندما علمنا أن البراغيت لا تحب سواه ولا تنتقل إلى غيره صرنا تقترب منه أثناء الفرصة نمازحة بشأنها. ولكنها لا تكاد تودعه حتى تعود ثانية متجاهلة باقي الرفاق. وهكذا وبفضل البراغيت صار هركي للمرة الأولى في حياته محور اهتمام أترابه فأنترقت أساريره بالرضى والارتياح واكتسب ثقة المجتمع. وفي اعتقادي ان عليه الاعتراف بجميل البراغيت لصيرورته أنهر محام تجاري في الولاية.

وكان بيننا أيضاً فتى هزيل البنية قصير القامة يدعى بوربغارد روزبلوم اسمناه «بو» تصغيراً وتحبباً، صار الآن أحد كبار جراحي الدماغ في نيوبورك. و«بو» هذا يلثغ بحرفي السين والكاف. وكمثل ديموستين الخطيب، قام بتنمية قدرته الخطابية فبات يسحر المؤتمرات الطبية ببلاغته وإلقائه وهو يحاضر عن التهابات أطراف الأعصاب وأمراض الغدة النخامية والحركات العصبية اللاإرادية. وكان نطقه ميؤوساً منه كلياً وهو في الثانية عشرة من

عمره. في المناسبة التي أنير إليها هنا طلب من «بو» ان يلقي في الاجتماع الدوري الاسبوعي في مدرج المدرسة خطبة الرئيس لينكولن في ذكرى معركة غتيسبرغ.

بدأ الالقاء: «منذ ثمانين وثبع ثنوات...» ثم استمر بجدية وبصوت أخذ في الارتفاع حتى كاد يصبح زعيقاً فيما كان المستمعون يضحكون لدى تلفظه بكل كلمة فيها حرف سين أو حرف كاف. ولما ضاق ذرعاً توقف عن الالقاء ونظر إلى الحضور نظرة استمزاز وتحدي ثم تقوه بكلمات صارت فيما بعد كلمات خالدة في المدينة، إضافة إلى سلاح الاشارة في الفرقة الحادية والثلاثين من الحرس القومي قد تبناها. صاح قائلاً: «بامانتكم تلتسم أن تلتحنوا تقاي !!!» ونزل عن المنبر بخطى ثابتة تتم عن شعوره. فما كان من الحضور إلا أن نهضوا من مقاعدهم يصفقون له بحماس. وصار «بو» الآن أحد أبطال مدينتنا الاسطوريين .

يبقى سرد بعض ذكرياتي هذه مبتوراً إن أنا تغاضيت عن ذكر رجل طيب حقاً هو الاستاذ الوحيد الذي أتذكره من بين الرجال الذين علموني في المدرسة. وكان باستطاعتي الافصاح بسهولة بالغة عن أنه أدنى قسطاً وفيراً في تكوين شخصيتي لولا ذلك البحر الواسع من العلم والمعرفة الذي أحاط بي أثناء تأدية كل تلك الفحوص والامتحانات في وكالة الاستخبارات المركزية. إنه المدرب كلي، أو «فرد»، كما صار يسمح لنا بمنادائه بعد بلوغنا مرحلة الشباب.

الزمان: أظنه العام ١٩٤٤. والمكان جادة الثنانليزية في باريس. كنت سائراً في ذلك الشارع الشهير وإذا بي أرى المدرب كلي مقبلاً علي. إنه مثلي برتبة ققيب، علماً بأن رجلاً يتمتع بذكاء وتخصية كلي ينبغي أن يكون برتبة عقيد أو أرفع منها. تبادلنا التحية بحرارة صادقة وسألته كيف يريدني أن أخاطبه، ذلك أن «مستر كلي» تبدو عبارة سخيفة ومصطنعة في تبادل النكات بين ضابطين من رتبة واحدة، فقال: أن «فرد» تقى بالعرض. ذهبنا لتناول الغداء وأخبرني قصة مدهشة أعيدها الآن لمصلحة أصدقائنا القدامى في برمنغهام الذين قد يقرأون هذا الكتاب شرط أن يعدوني بالأيقنوا سرها. ولكن لا بد لي من سرد خلفية تلك العلاقة الخاصة التي نشأت بيني وبين المستر كلي.

خلال العام الدراسي ١٩٣٠ - ٣١ حصل في مدرستنا سلسلة من المزاح، بعضه برئ والبعض الآخر أقل براءة، كتبديل العلاقات على مسابقات الامتحانات وتعليق ثنرات على لوحات الاعلان عن علاقات عاطفية بين المعلمات والمعلمين الشباب ومذكرات تنصح وترشد ضحايا الحب والغرام إلى أساليب اكتساب ود الفريق الأخر أو إلى وسيلة للتخلص منه. كل ذلك من باب التسلية واللهو ولكنه ملفت للنظر. استعار التخص عن تلك التقلبات اسم أرسين لوبن، اللص الباريسي المختص بسرقة التحف الفنية ودارت حول مغامراته قصة احد أول الأفلام السينمائية الناطقة. ولما كنت أحد الطلاب المعروفين بشعورهم بالمسؤولية المجتمعية تقدمت بعدة اقتراحات للقبض على ذلك النذل وذهبت إلى حد إنشاء فريق حراسة لمراقبة الردهات حيث توجد لوحات للاعلانات. وفي النهاية قدمت للمستر كلي قائمة بافخاخ، إذا نصبت وخضعت للمراقبة بدقة، أدت إلى كشف هوية ذلك المحتال.

أما المستر كلي الذي كان يعرف سراً تلك الهوية - أي أنا - فنصب الأفخاخ في الأمكنة التي تضمن وقوعي فيها وتمكن من ذلك قبل شروعي بحملة دعائية عن علاقة عاطفية بينه وبين الأنسة مون، معلمة الجغرافيا اللطيفة المعروف عنها أنها تكن له مودة خاصة. يا له من ثعلب عتيق! طلب رئيس المدرسة طردي منها عقاباً على

أفعالي، ولكن المستر كلّي كان قد استمتع بتلك الألاعب انه استطاع انفاذي مما هو أكثر جديفة بكثير من البقاء بعض الوقت الاضافي بعد الانصراف ولبضعة أيام في صف معلمة اللغة اللاتينية الأناسة غايم الجميلة فلم اعتبر ذلك قصاصاً صارماً.

هكذا التقينا المستر كلّي - فرد - وأنا في باريس وكان قد بلغني انه مرُّ بفترات صعبة. فعلى الرغم من كونه رجلاً ثريفاً وعلى الرغم من أن أحداً لا يستطيع أن يتهمه بأي سوء ائتمان سواءً من حيث التلاعب بأموال المدرسة أو تضخيم فوائبر نفقاته أو حتى خيانة زوجته مع أرملة ثرية، لم يفقه مجلس أمناء المدرسة كيف استطاع المستر كلّي شراء منزل جميل في حي راق وسيارتي بيوك واحدة له والثانية لزوجته. سأفصح الآن سره.

أنا تناولنا طعام الغداء قال فرد: «سأدلي باعتراف حبسته سراً طيلة هذه السنوات. هل سبق لك أن قرأت مجلة «التبجح؟» طبعاً، هل هناك من لم يقرأها؟ لقد كانت أكثر المجلات المختصة بقصص الاجرام والتحرري شعبية، واقْبَس عنها برنامج اذاعي اسبوعي مدته ساعة كاملة اجتذب المستمعين من كل الأعمار مساء كل يوم أحد. حسناً، ابن الاعتراف؟ المدرس فرد كلّي هو «التبجح» فقد كان يتقاضى ثلاثة سنتات عن كل كلمة يكتبها للمجلة في قصة مؤلفة من ١٥ ألف كلمة. ولا شك في أن دخلاً متوسطه الاسبوعي ٤٥٠ دولار إضافية إلى راتبه في المدرسة وإلى الاتاوة التي يتقاضاها من المحطة لقاء اذاعة رواياته تشكل في تلك الأيام مدخولاً كبيراً. لقد كنا هو وأنا شخصين متشابهيين في التفكير ومختلفين في بعض وسائل التعبير. المدرب كلّي صاحب مخيلة غزيرة ومقدام لا يتورع عن الخوض في أمور يعتبرها العاديون حوله بعيدة عن منالهم إلى حد وصف التفكير بها على انه مجرد أحلام قصية، ولكنها كانت كافية لجعلهم في سنوات الكساد في الثلاثينات ينعنونه بأطف القسوة الممكنة كقولهم: «إنه رجل طيب ولكن قدميه ليستا على الأرض». وإذا حذفنا عبارة «إنه رجل طيب» تظل العبارة الثانية هي الصفة التي ألصقها به اساتذتي ورفاقي في الصف والمدرسة.

الفصل الثاني

المدرسة، فرق موسيقي الجاز

والجيش الأميركي

لنرى بماذا خرجت من مدرسة رامزي العالية اضافة إلى امتلاكي لنظريات بولن في الجبر وهندسة اقليدس ولنظرية لعبة الرياضيات ولمجموعة التعابير الفلسفية ولمنطق الاخلاقيات وما شابه ذلك؟ صحيح بماذا؟ ولكن شغفت بنشاطين غير مدرسيين: الأول هوس بمتابعة ما لدى رفاقي من دراهم الجيب، لأنني كنت قد حفظت عن ظهر قلب تراكيب لعبتي البوكر والبلاك جاك. أما الثاني فكان مبعث أمل لثياب حساس لم يبلغ العشرين من عمره بعد في أيام الكساد الكبير من أعوام الثلاثينات: انه نفخ البوق. لكنني كدت أكفر بالبوق وبالنفخ فيه لأن والدي جعلني أفضي ساعة من التدريب القسري عليه كل يوم. غير أن ميلي الطبيعي للموسيقى وأذني الحساسة جداً بها سهلاً عليّ اتقان العزف والحلول في مرتبة عازف البوق الأول في فرقة المدرسة. ولكن برز في تصرفي الموسيقي ثنواذ لم أدرك له سبباً إلا بعد ما صرت أباً لعقبري موسيقي: قلت ان والدي أجبرني على قضاء ساعة في التمرين على العزف صباح كل يوم. فكنت أعزف خلالها أحد الألحان المفضلة لديه، تشاراً فقط نكايه به وثراً

من إكراهي على التمرين، وفي الواقع كنت استرق ثلاث أو أربع ساعات من التمرين بعد ظهر كل يوم قابلاً في فناء قاعة الموسيقى في المدرسة.

يعود الفضل في صيرورتي عازفاً مرموقاً لا إلى تلك الساعة الكئيبة التي فرضها أبي عليّ داخل البيت بل إلى ساعات التمرين السري في المدرسة. وما أن أطل العام ١٩٣٢ حتى أصبحت أهد عازفي فرقة الاذاعة المحلية وتعافتت معنا احدى شركات العطورات لتقديم اعلانها من الاذاعة. تحولت الفرقة المتواضعة إلى فرقة كبيرة وحملني البوق إلى جامعة الاباما التي دخلتها وكلي تصميم على متابعة الدروس فيها إلى أن اغاظني عازف السكسوفون الكبير، جيري جيروم، حتى الجنون. ففي كل مرة زعق فيها بوقي بنوثة تشازاً، نظر إليّ جيري نظرة اشمزاز وتوقف برهة عن العزف ليهز رأسه ثم عاود العزف وكأنه يقول: «لا حول ولا ...» وأطلق عليّ لقب «بوق المدرسة». كنا آنذاك في فرقة عرفت باسم «كافاليرز» [الفرسان].

فعلت بي تقاضي الموسيقى ما فعله اللثغ بـ «بو». فقد كنت أيام المدرسة في بيرمنغهام استرق ساعات التدريب استراقاً أما الآن فتخلّيت كلياً عن التظاهر بمتابعة الدروس الجامعية وأخذت أفضي في التمرين من ست إلى ثماني ساعات يومياً، وكان ذلك طريقي بالقول لجيري وغيره في فرقة كافاليرز: «بامتانتم تلتّم أن تلتحوا تقاي». لم أفضي الساعات الطويلة هذه بالتمرن على عزف السلام الموسيقية والدروس العادية بل على عزف وصلات البوق المنفردة من ضمن المعزوفة العامة. صحيح أنني لم أعلم قط عزف مقطوعة «طيران ذكور النحل» مثلما يعزفها هاري جايمس، ولكن عندما التقى جيري بهاري في فرقة بني غودمن قال الأول للثاني بأن عليه التخفيف من غلوه ومتابعة ما يقوم به صديقه القديم في كل من بيرمنغهام ونيو أورلينز. وفي الواقع أخبرني هاري بذلك عندما زارتي خصيصاً ليدعوني للالتحاق بفرقته في العام ١٩٣٧.

كان انتزاع إعجاب جيري غاية بحد ذاتها عندي، وبعد بلوغه أعلى قمم الفرق الموسيقية آنذاك لم يكف عن اطرائي في أوساط فرق الجاز بحيث بت مديناً له بعضوية كل واحدة من الفرق الكبرى التي انضمت إليها فيما بعد. لا أنسى ذلك الاسبوع الذي حاولت فيه جهدي مكافحة النعاس طيلة أيامه التي أمضيناها في فرقة غلين ميلر نعزف في مربع ليلى على سطح فندق روزفلت في نيو أورلينز أواخر صيف ١٩٤٠ وفي اعتقادي ان ذلك الاسبوع رغم ما عايناه فيه من إرهاق شكّل قفزة كمية في اسلوب حياتي الآخذ بالتسارع. ففي آخر ليلة من ليالي تعافدنا مع الفندق جمع غلين أفراد الفرقة ليطلعنا على فكرة رائعة خطرت له، وقال: «سبطلنا التجنيد الاجباري جميعاً فربما استطعنا دخول الجيش معاً». كان غلين نفسه قد تخطى سن خدمة العلم، أما نحن فكنا كلنا ثشاباً أصحاب راقصتنا جداً فكرة قضاء فترة الحرب نعزف الجاز ترفيهاً عن الجنود في مختلف المواقع. حملت الفكرة على محمل الجدبة خصوصاً بعدما قال غلين أنه هو وأفراد الفرقة الدائمون سينضمون إلى الجيش بعد انقضاء أجل التعافد مع مربع ميدو بروك في ولاية نيو جيرزي.

غاب عن ذهني الآن معظم تفاصيل دخولي الجيش، لكنني ما زلت أذكر أنني ذهبت، بعد عودتي إلى الاباما بقراءة الاسبوعين، إلى مركز الحرس القومي والتحققت بفرقة فرسان «راينبو» المشهورة بأن البلهاء فيها أكثر عدداً من الجياد. كنت آمال في الانتهاء من فترة التدريب بحيث انضم إلى ميلر وفرقته لدى دخولهم الجيش، ولكن ثنات

الظروف أن يتأخروا سنتين قضيتهما في الخدمة الفعلية في أوروبا وفي حياة مختلفة كلياً عن سابق أسلوبى فبت كأننى في عالم آخر.

إنه لعالم جديد بالتأكيد. فبصفتى عازف جاز كنت أفاضى رانباً كبيراً (بالمقارنة مع روائب تلك الأيام) وأحظى باحترام بل وباعجاب زملائى، كما كنت استمتع أيضاً بعزف موسيقى الجاز أكثر من أى عمل آخر (أو بطالة عن العمل) قمت به قبله أو بعده. ولكن عالم المراح الليلية والأفلاك التى تدور فيها فرق الجاز لم يكن عالمى المفضل. لقد أحببت زملائى كثيراً واطنهم أحبونى أيضاً. ولكن لم يحدث إلا مرتين أو ثلاثاً خلال وجودى بينهم طيلة سبع أو ثمانى سنوات ان قال لى أحدهم مجرد «قم لنذهب إلى السينما بعد ظهر اليوم». وبالمقابل كانت الحياة فى الجيش مختلفة كلياً. لقد كنت أسوأ جندي فى العالم ولكننى استطعت الاختلاط بسلاسة مع كل الذين استغللت برقتهم. وخلت اننى عثرت على موقعى الطبيعى.

كان أمر الوحدة هناك المقدم كو غديل يعمل فى أيام السلم بائع لبوليصات تأمين. لا يعرف فى الشؤون العسكرية بمقدار ما يعرفه من التزلفات الرخيصة. انضم إلى الحرس القومى لأن فى ذلك فائدة له فى تزويج أعماله واستطاع بلوغ رتبة «مقدم» لأنه تفوق من حيث مواهبه بقدرات فتيان فرق الكنفاف فى أيام السلم. عين ابنه البالغ الثامنة عشرة من العمر برتبة عريف أول، وعين نائباً للعريف قاضى الناحية لأنه سيحتاج إلى خدماته. أما معى أنا فقد ارتكب احدى أقبح غلطاته، على كثرتها. ذلك انه لا بد ان مظهر ثرائى المتمثل بأناقة ملابسى وبسيارتي الفخمة التى وصلت فيها إلى المركز قد أتر فيه فعيننى الرقيب الثالث. ثم عين معنا بوب كرايخ وهو عازف الطبل فى احدى الفرق الموسيقية المحلية المرموقة وأحد أمرح الرجال فى الدنيا، وجاءنا أيضاً بصديقى هيو باربر وبيجورج آلن سميت وهو ابن أحد القساوسة فى المدينة الذى تجرأ أن يناقسنى فى مغازلة أجمل بنات المدينة، وبيضة ثياب آخرين ارتحت كثيراً لمخالطتهم. لقد كان ذلك الجو جوئى الامثل — لتلك الحقبة على الأقل.

أما الوظيفة؟ كانت ممتازة حقاً، فلا يحتاج المرء فيها حتى لدماعه! فكنت أجلس طيلة النهار أراجع حسابات الروائب بسرعة ودون تفكير، فيما يبتعد عقلى عن عملى ذلك مسافة ألف ميل. المقدم وابنه أبلهان دون شك، ولكننى أحببتهم. فقد كانا لطيفين معى دون أن يخلو ذلك من بعض التزلف، وأضفيا الكثير من الهزلية على حياتنا. فبحضورهما كان علينا بالطبع أن نحملهما على محمل الجد. أما فى غيابهما فكنت أنا وهيو وبوب تبادل الآراء التثفيفية والنكات عنهما وعن تصرفاتهما التى لو كتبناها آنذاك لكانت تشكل الآن، بعد أربعين سنة، حواراً لسبناريو الفيلم الذى طلب منى كبير أنبائى كتابته. الواقع اننى، مثل اينشتاين، بارع فى الرياضيات وضعيف جداً فى الحساب. فأخطائى فى الجمع البسيط عديدة إضافة إلى صعوبة تحديد مواقع فى الفواصل فى الكسور العشرية. ومنها مثلاً اننى حسبت الرائب لثهرين لملازم ثانٍ فى المركز على أنه ١٣٠,٠٠٠ دولار. لا ريب أنه قدّر لى اربحيتى ولكنه كجندي نزيه ينتظر ترفيته إلى رتبة ملازم أعاد التنيك وعرضه على المقدم الذى أمر فوراً بدفع رائبه الصحيح، فقط ١٣٠ دولار لا غير. (قال لى الملازم لاحقاً: «ستكون هذه الحرب طويلة»). المهم ان المقدم حدد مهمتى فقط بتعداد أوامر صرف الروائب لا بتعبئة خانات الأرقام فيها.

وفى النهاية اسمعنى المقدم كو غديل ما يشبه العبارة التقليدية التى يقولها كل مدير مدرسة للطلاب الراسين بأنه «قد يكون من الأفضل لهم الالتحاق بمدرسة أكبر» مقترحاً بكل ما أوتى من كياسة بأننى قد أكون «أكثر سعادة» فى

وحدة «أقل تميزاً» ليس فيها أي مجال للحساب – أي وحدة مثناة عادية أو ما شابهها. وهنا أنقذي رنين الجرس. ولكن نشاء الصدف ألا يكون مجيئي على ذكر إينشتاين مجرد هراء. فقد تبين أنني رجل ذكي فكان ذلك الاكتشاف نقطة تحول أخرى في حياتي. فقبل أن نستقل القطار العسكري باتجاه مخيم بلاندينغ في ولاية فلوريدا، وهو أول مكان تنقل إليه فرقة الحرس القومي الحادية والثلاثون جُمع بضع مئات منا في مركز الفرقة حيث أخضعنا لما عُرف آنذاك بالامتحان التصنيفي العام للجيش، وهو امتحان يشبه امتحان تحديد نسبة الذكاء أدخلت عليه تعديلات لقياس المهارات ولاستثناء الأسئلة «ذات الصلة الحضارية» التي من شأنها عدم انصاف الأفراد المتممين إلى عرقيات «أقل ثقافة». ولما كان معظم الأسئلة من النوع الذي يختار فيه المرشح جواباً من بين عدة أجوبة، فأى إنسان يتمتع بغريزة المقامرة يدرك بأن عليه اهمال الجوابين الأقل منطقاً واختيار واحد من الجوابين الآخرين. وهكذا فعندما أجهل فعلاً الجواب الصحيح أعمل الحس في الاختيار. جاءت نتائجي في الامتحان، كما عملت لاحقاً، بتصنيفي بين العباقرة.

وفيما كان المقدم يكتشف مدى بلاهتي انكبت دائرة شؤون الملاك في الجيش على دراسة مجالات الافادة من قدرتي العقلية المتفوقة. وما أن انتقلت فرقتنا إلى مستنقعات لوبزباناً لإجراء مناورات الربيع تحت المطر – في الأراضي الموحلة، حتى دعيت إلى مكتب مساعد القائد العام ومنه إلى معسكر ليفينغستون في مونروفيا، في ولاية لوبزباناً، للخضوع لامتحانات اضافية. لم يكن في غرفة الامتحان سوى جنديين غيري. قدّمت الامتحان فكانت النتيجة مثابها لنتائج الامتحان السابق أي ١٦٠ نقطة بينما المعدل العام المقبول به للجنود محدد بمئة نقطة وذلك المقبول به لتدريب الضباط هو ١١٠ نقاط، مقابل ٨٥ نقطة فقط للسود والهنود الحمر – الواقع أنني سجلت ١٤٥ نقطة في الامتحان الأول و ١٦٠ في الثاني، علماً بأن من يحصل على ١٤٠ نقطة وما فوق يعتبر في مصاف العباقرة.

بلغني فيما بعد أن علامتي الأخيرة هي أعلى علامة سجلت في القوات العسكرية الأميركية، وأعلى من علامة ابن خالي، دون سكوت (يبدو أن الذكاء من سمات أسرتنا) وتكاد تتماثل مع المستوى المقدر لألبرت إينشتاين، وليوهان فولفغانغ غوته. وللسيد المسيح حسب ما أظهرته دراسة أجراها فريق من علماء النفس في جامعة ستانفورد ضم البروفسور إغرثن باللاتشي الذي ذكرته في مطلع الفصل السابق. قلت لنفسي بأنني ذو عقل متفوق. فماذا تراني أفعل تحت المطر وفي الوحل بين كل هؤلاء الفلاحين المساكين؟

لما رجعت إلى خيمة المالية أخذت قلماً وورقاً وسطرت رسالة إلى أحسن رجل في العالم، النائب جون سباركمن، الشيخ سباركمن فيما بعد، وأقوى رجل في لجنة مجلس الشيوخ للشؤون الخارجية، وصاحب أفضل متعددة أسبغها علي في السنوات اللاحقة. ثم أدعيت وفاة جدتي أو غيرها عذراً للحصول على اجازة لعشرة أيام وتوجّهت بالقطار السريع إلى واشنطن العاصمة. ولدى سماعه عن عبقريتي الفذة أرسلني النائب سباركمن فوراً إلى مكتب الجنرال «وايلد بل» دونوفان الذي كان آنذاك يشكل ثنياً سمي «مكتب تنسيق الاستعلامات» الذي تحول إلى «مكتب الخدمات الاستراتيجية» الشهر] OSS= Office of Strategic Services = وهو مكتب الاستعلامات

الأميركي لأيام الحرب ثم إلى وكالة الاستعلامات المركزية في أيام السلم CIA =Central Intelligence Agency

قامت بيني وبين الجنرال دونوفان علاقة تقاهم ومودة منذ لقائنا الأول. وصلت مكتبه بعيد الظهر ولم يكدي يمضي بضع دقائق حتى بدأت أقصُّ عليه حكايات المناورات في مستنقعات لويزيانا والفترة التي قضيتها مع المقدم كو غديل وابنه. راح الجنرال يضحك ويضحك ثم سألني عما إذا كنت قد تناولت طعام الغداء. فإذا بي بعد دقائق قليلة أتناول السندويشات وأترب الجعة في مكتب ويلدبل دونوفان الشهير علماً بأن الاتصال به متعذر إلا على الرئيس روزفلت. خرجت من مكتبه بتأكيدات بأنه سيتصل بي قريباً.

وهكذا عدت إلى الوحل وإلى تعداد أوامر الصرف. وأصبت بضربة الشمس وتسممت بسموم الأعشاب ونلت حصتي من فرصات البعوض ونمت في فراش بللته الأمطار ونزلت بي جميع أشكال البؤس والثقلاء التي يمكن أن تحل بانسان عليه العيش في مستنقع بارد وممطر ليلاً وحار ورطب نهاراً. كنت أخلق ذقني صباح كل يوم حتى في أيام المناورات، حسب الأوامر، أنا كانت بزتي مجعدة وملطخة بالوحل اليابس. باختصار كنت في حال تعيسة كحال المقدم كو غديل لدى معرفته، عبر الأوامر السرية جداً، بأنني موضع تحقيقات تمهيداً لتكليفني بمهمة في واشنطن. شعر المقدم بارتياح كبير لفكرة التخلُّص مني لم يقابله شعور مماثل لما تمَّ عنه تلك البشائر. دعاني في إحدى الامسيات قبيل موعد العشاء ولما رأني قال: «إنك تحقير لبرنك!».

تحقير لتلك البزة؟ حاولت جهدي التمالك من الضحك فلم أتمكن من ذلك. وعندما رأيت أن المقدم لم يقدر الدعابة في ذلك الموقف حاولت استعادة الجدية ثم انفجرت ضاحكاً لأعود وأتمالك نفسي ثم رحت أفهقه من جديد حتى أفلت من يدي فأخذت أندرج على الأرض والدموع تتهمر من عيني من ثبدة الضحك، في حين جلس المقدم كو غديل يزداد حقناً واحمراراً. وكان المقدم قد استشاط غضباً قبل تلك المقابلة لأن دماغه ذا المئة وعشر تقاط قد تمكن بتشكل ما من الإدراك بأن جدتي لم تكن على فراش الموت وبأنني استعملت اجازة العشرة أيام لا اعداد صفقة ما وبأنني استعملت النفوذ السياسي الذي يختص هو به لتأمين نجاح تلك الصفقة. وكنتم آنذاك قد أخذت أضحك منه وجهاً لوجه. وهنا قال لي: «من الأفضل لك أن تصلي ليلاً من أجل الحصول على تلك المهمة، أيأ تكن، ومن الآن وصاعداً لن يكون هذا المكان مكاناً فرحاً لك».

لم تقم وسيلته في جعل حياتي بؤساً على اعطائي المزيد من أوامر الصرف لأعدها وهو أمر لم يكن ليهمني، بل على أهمالي كلياً. فكان ذلك من حسن حظي لأنه سمح لي بأن أنسلل إلى موقع قيادة كتيبة لويزيانا وزبارة فرقة الجاز التي تضم موسيقيين من نيو اورلينز وبعضهم من أصدقائي والبعض الآخر انخرط في الجيش على أمل الانضمام إلى فرقة غلين ميللر التي سيتم تأليفها بعد زهاء السنة. ومن دون الخوض في التفاصيل أجريت الترتيبات لنقلي إلى الكتيبة المذكورة ربمما تنتهي الاستقصاءات والتحقيقات الأمنية بشأنني.

وهكذا عدت إلى فرقة للجاز. ولما رأى المقدم كو غديل ان انتقالني إلى الفرقة يعني تخفيض رتبتي من رقيب إلى مجرد جندي ارتاح بل فرح، وازداد فرحه عندما سمح ان أفراد الفرق الموسيقية العسكرية لا ينفخون في أبواقهم في ساحات القتال الفعلي بل تسند إليهم مهمة اخلاء جثث الجند القتلى. وفيما كان يوقع على الأوراق المتعلقة بنقلي قال: «هذا العمل ينا سبك شرط الأ يطلبوا منك ان تعد الجثث».

ليس من الدقة في شيء القول بأنني بلغت أوج خدمتي العسكرية في الأسابيع القليلة التي تلت انتقالني. فسحب الدمى المخضبة بطلاء أحمر من ساحة قتال وهمية لم يكن ذلك العمل المضني خصوصاً وانه فرض علينا ساعة

من التمرين على الموسيقى العسكرية صباحاً وثلاث ساعات من التدريب على موسيقى الجاز بعد الظهر يومياً. وبينما كنت أنأمل وضعي في ليلة ممطرة تحت خيمة شاطرنى إياها هانك فريمن، سمعت صوتاً في العتمة الدامسة يناديني باسمي. خامرني الثلثك في بادئ الأمر بحسن سمعي، ولكن الصوت ازداد ارتفاعاً ووضوحاً بحيث لم يعد ثمة مجال للتشكيك بما سمعت إذ قال عند باب خيمتي تلك: «الجندي كوپلاند، معي أوامرسرية جداً بحيث لا أستطيع قراءتها».

كان الساعي عريفاً يرتدي معطفاً يقيه المطر وعليه اشارات مضيئة تنبئ بمهمته. سلمني الرسالة وأثار مصباح يد كيما أقرأها فقرأتها وإن بها تقول بوجوب توجهي فوراً إلى معسكر ليفينغستون وسحب مني دولار (ما يعادل ألف دولار اليوم) وشراء تذكرة درجة أولى بالقطار، والسفر إلى واشنطن العاصمة عن طريق بير منغهام حيث يحق لي قضاء إجازة عشرة أيام وشراء ملابس مدنية.

في اليوم التالي، وبعد أن استلمت أوراق تسريحي من معسكر ليفينغستون من الضابط المسؤول عن الملاك والذي أبدى إعجاباً شديداً بالأوامر السرية التي أحملها، جلست في مركبة الطعام في القطار ارتشف كأساً من المرطبات بانتظار تناول وجبة عشاء فاخر. نظرت من نافذة المركبة فيما كان القطار يسير مسرعاً عبر ساحة المناورات وإذا ببحر من الجنود يستعدون للمبيت في خيمهم في ليلة غزيرة الأمطار. وهكذا عدت إلى «العصبة الكبيرة» التي لم تكن هذه المرة سوى فرقة موسيقى الجاز.

الفصل الثالث

واشنطن في الحرب

ها أنا أخيراً في واشنطن. توجهت إلى مقر قيادة الجنرال دونوفان فوجهوني إلى منزل خاص تحول إلى مكتب أطلق عليه اسم «فرقة شرطة الاستعلامات» التي ما لبثت أن تحول اسمها لاحقاً إلى «مكتب مكافحة الجاسوسية». والظاهر أن مكتب تنسيق الاستعلامات كان في طور التحول إلى مكتب الخدمات الاستراتيجيية الذي لم يكن قد بلغ مرحلة استيعاب «عملاء» كمثل ما هو مقرر لي. غير أن جيم مورفي المساعد الرئيسي للجنرال دونوفان أكد لي بأن الأمور تجري على ما يرام وبأنني سأجد العمل مع العقيد غوردن ثنين، رئيس فرقة شرطة الاستعلامات، وبأنني سأنتقل فيما بعد إلى مكتب الخدمات الاستراتيجيية هذا في حال لم أقرر البقاء مع فرقة الشرطة المذكورة.

العقيد غوردن ثنين شخص منفتح وتثييط وهو نموذج للرجولة ومن أوائل الأميركيين الذين حازوا الحزامين الأسودين في فني الجيدو والكارايتيه. وتبين أيضاً أنه جعل من نفسه ما يشبه جايمس بوند في أيامنا – ان لم يكن في الواقع ففي تخيلاته والقصص التي يسردها عن نفسه. المهم انه ممتاز وتجسيد لتخصيية الرئيس الذي كنت بحاجة للعمل تحت إشرافه في تلك الحقبة من حياتي. إن إدراكه المحدود جداً لواقع الأمور – هذا اذا توافر – نابع كله من أفلام وروايات المغامرات البوليسيية والجاسوسيية، ولكن العقيد ثنين ليس بمهارة والتزماني من حيث الاخراج. لقد درّب نفسه تدريباً شافاً ومتقناً كما انه يتمتع دون ريب بقدرة التعاطي الفعال مع أي من الحالات المستجييلة التي يتصورها، وبفضي ساعات يقظته كلها في اعداد الخطط الرامية إلى جعل تلك الحالات تحصل فعلاً.

بكلام آخر أفسح العمل مع غوردن ثنين مجالاً واسعاً لتخص منلي. ولحسن الحظ، ومن أجل التدريب – مع بعض التصرف في استعمال هذا التعيير – عيّنت للعمل مع الشرك الأمتل للفادة من الفرص التي أتاحتها غوردن

ثنين. إنه فرائك كيرنز الذي صار أقرب صديق ورفيق لي طيلة السنوات العشرين التي تلت لقاءنا، وأضحى فيما بعد أحد كبار المرسلين الخارجيين لوكالة سي. بي. أس للأخبار. إنه يتمتع بموهبة جعلته لا يُقدَّر بثمن. فما أن ينصب معدات التصوير، سواء في شارع خلفي في كارائشي أو في جادة مطلة على البحر في بيروت حتى تبدأ الحوادث المثيرة الجديدة بالتصوير. طبعاً كان ذلك بعد لقائنا الأول بسنوات عديدة. عندما التقيتَه للمرة الأولى، وكان آنذاك في السابعة والعشرين أو في الثامنة والعشرين من عمره، بدا لي وكأنه توأم صديقي ورفيقي في إحدى فرق الجاز، ستان كنتن، إنما أحاطت حلقتان بأسفل عينيه من كثرة السهر والمغامرات المرافقة للسهر، وتمائلت رغباتنا في الكثير من الحالات تماثلاً سيزداد وضوحاً من خلال صفحات هذا الكتاب.

كان معظم تدريبي على يدي فرائك كيرنز عبارة عن تركيز على اثنان استعمال كل العبارات التقليدية التي ترد في تحرير المقابلات والتحقيقات. وبمساعدة فرائك سرعان ما تعلمت فن تحريرها دون القيام بها فعلاً، وهو فن استغلتيه أحسن استغلال بعد سنوات عديدة عندما أُنيط بي تحرير مراجعات الكتب في صحيفة «واشنطن بوست»، هذا علماً بأن معظم تلك الكتب كان على كل حال من باب الكلام الفارغ. وهكذا باستثناء فترات بعد الظهر التي لم نكن نشاهد أنا وفرائك مباريات «البايس بول» أو فيلما في إحدى دور السينما، رحت أحاول التوفيق بين تخيلاتي وتخييلات العقيد ثنين فكانت محاولتي تلك تشبه محاولة إعادة معجون تنظيف الأسنان إلى انبوهه. وفي كل مرة ذهبنا أنا وفرائك إلى مكتبه لابلغه عن نقص جديد ما اكتشفناه في نظام وقاية أمن بلادنا، كان يقول لنا شيئاً تشبيهاً بـ «بذكرني كلامكما للمرة الأولى التي زرت فيها طوكيو حيث أُنيط بي أمر كثف وسيلة التخابر بين الاستخبارات اليابانية وبين...» وبمضي في الكلام مسترسلاً ينسج حكاية غزل خيوطها من حقائق قليلة ومما قرأه في الليلة السابقة في إحدى مجلات المغامرات النافمة، هذا إضافة إلى أن الرواية تتغير في كل مرة عن سابقتها. بعد إحدى تلك الزيارات قال لي فرائك: «إن العقيد المفضل عندنا رجل يصعب حمله على التقيد بشيء».

استطعنا أخيراً الإمساك به من ضمن ما كان إحدى أصعب وأبله وأنعب المهمات التي أوكلت إليّ خلال الأسابيع القليلة الأولى من خدمتي في جهاز شرطة التجسس. ففي إحدى الليالي القارصة في منتصف كانون الثاني (يناير) أُنيط بي وبفرائك القيام بالدورية من الساعة العاشرة ليلاً حتى السابعة من صباح اليوم التالي حول المربع الذي يقوم فيه المقر الرئيسي لجمعية الصليب الأحمر الأميركي والذي يبعد قليلاً عن مبنى وزارة الخارجية. كانت مهمتنا مراقبة جواسيس أو مخربين من المتوقع أن يهاجموا المبنى في أي وقت. جواسيس ومخربون يهاجمون جمعية الصليب الأحمر؟ إنه حقاً لخيال خصب! ما زلت أذكر أنني لم أغضب من البارون مونثهاوزن* _ مثلما أخذ فرائك يسمي العقيد ثنين _ كما غضبت منه في الساعات الأولى من تلك المهمة في صقيع ووحدة ورباح تلك الليلة الجليدية.

لا مجال للريبة في ان تلك المهمة _ وهي البساطة بعينها _ أعدت أصلاً لإبعادنا أنا وفرائك عن مرابع جورجتاون الليلية، ولكنها في مضامينها تحولت إلى ما يشبه رواية معقدة الحبكة. لا مجال بين دفتي هذا الكتاب لذكر كل التفاصيل ولكن يكفي القول إن خبرة تلك الليلة باتت بمثابة القاعدة الأساسية التي اعتمدها في لعبة حياتي: أي إذا كنت تبغي التيقن مما يرمي إليه عدوك عليك أولاً أن تقدر مقدرته مثلما تقدر مهارة خصمك في لعبة البوكر

* بارون كارل مونثهاوزن ضابط في القرن الثامن عشر بات بدوافيقه الخيالية موضوع قصص خرافية.

ثم تضع نفسك مكانه وتُفكر بما يفكر به هو لفترة وبعد ذلك تضع خطتك وتنصرف كما لو كنت مكانه في تلك الظروف .

بعد ليلة من الدوران حول مبنى الصليب الأحمر والأبنية المجاورة وفي جو بارد حرارته تحت الصفر وتفتيش خزانات مقر الصليب الاحمر، وتصادم مع شرطة واثنتان، وبعد رثوة رقيب في الشرطة وتهديده بفضحه لإعادة الرثوة إلينا، أمضينا ساعتين في مقر إقامتنا أعدنا خلالها تقريراً بعنوان «المضامين الامنية للفساد في شرطة واثنتان العاصمة». وعند وصول العقيد ثنين إلى مكتبة في الساعة الثامنة صباحاً اعترفنا أمامه بأننا لم نقض طيلة الليل في الدوران سيراً على الأقدام في ذلك الطقس البارد، بل استعملنا بعضاً من تلك «المبادرة» التي طالما تغنى بها أمامنا، لندخل بناء الصليب الأحمر بالكسر والخلع وفحصنا ملفاته سعيًا لمعرفة ما الذي يحتمل أن يبحث عنه الجواسيس الألمان.

لم تبدو على العقيد ثنين إمارات تتم عن أي امتعاض أو دهشة، بل تتم قائلًا: انه كان ليعتبرنا أكثر جنوناً مما ظن لو اننا قضينا تلك الليلة الجليدية نرتجف برداً. وأبدى اهتماماً فورياً بالاقتراح الذي عرضناه عليه. قلت: «أيها العقيد، لقد بذلنا وما زلنا نبذل جهداً كبيراً في تكديس المعلومات والحفاظ على سريتها دون أن يكون عندنا أدنى فكرة عن أي من تلك المعلومات يبحث الالمان. كما أننا لا نعرف كيف يحاولون الوصول إلى تلك المعلومات. إننا نأتي باقتراضات قد لا يكون لها أي مسوغ، وأظن بأن ثلاثة أرباع الاجراءات الاحترازية التي تتخذها ليست ضرورية وبأن الجواسيس الألمان الذين قد يكونون هنا يركزون على التقاط التي لا نوليها الحراسة الدائقة بها».

واقترحت بأن نتحل أنا وفرانك شخصية جاسوسين المانيين لفترة لنرى ما يمكن أن نعثر عليه. ومن أجل ذلك يمكننا أن نفعل شيئين: الأول معرفة ماذا يمكن لهؤلاء الجواسيس فعله لتخطي مختلف وسائل الوقاية والمراقبة البالغة التكاليف التي نصبناها. والثاني ماذا يمكنهم معرفته بعد ذلك التخطي. أضف العقيد على ذلك اقتراحاً انه بإمكاننا أيضاً معرفة ما الذي يفعله الجواسيس بالمعلومات بعد حصولهم عليها نظراً لأن نقل المعلومات أصعب من الحصول عليها. فهل يتفلقونها بواسطة رسائل بالحبر غير المرئي؟ أم هل لديهم أجهزة لا سلكية يبتنونها وكأنها محاورة بريئة بين هواة التخابر بتلك الأجهزة؟ واسترسل في مثل تلك الاقتراضات. ثم قال لنا: «إن فكرتكما مدهشة»، وهنا تبادر إلى ذهني انه كان سيقول بأن الفكرة خطرت له نظراً لأنه يعيش في عالم من نسج خياله.

لا وسيلة عندي لمعرفة ماذا حدث لفكرتنا بعدما أرسلها غوردن ثنين إلى أعلى للمواقفة – وهذا يعني بالطبع موافقة منظمة الجنرال دونوفان التي كانت مشغلة في صراعاتها البيروقراطية لوضع كل هذه المثاربع في عهدها. ولكنني أعرف انها بعد أن أعيدت إلينا مخفضة إلى درجة حتى لتكاد تعادل مجرد حاجز للأمن. وبعد الانتظار جاءتنا التعليمات بأن نقوم بدور جاسوسين المانيين وزودنا بوثائق وأوراق الصليب الأحمر المزورة تزويلاً واضحاً. كان الغرض من ذلك معرفة أي من تدابيرنا الاحترازية المتعددة يمكن اختراقها .

استعرضنا جميع الاحتمالات وأخيراً ركزنا على الوسيلة التي تؤدي إلى نتيجة حقيقية هي «تجنيد العملاء وتفعيلهم» التي طلب إلي بعد عشر سنوات أن أضعها في كتاب اعتمده وكالة الاستخبارات المركزية في تعليم عملائها. ما هي الأسئلة التي يسعى ضابط الاستعلامات للحصول على أجوبة عنها بواسطة التجسس؟ انها التالية :

— ما هي المعلومات التي يحتاج إليها رؤسائي لوضع خطتهم الدفاعية والهجومية وأي قسم من تلك المعلومات يمكن الوصول إليه فقط بالتجسس عوضاً عن استعمال الوسائل التقنية أو المراقبة المفضوحة ؟
— أين توجد تلك المعلومات ؟

— مَنْ هم الأشخاص الذين لهم وصول إلى تلك الأماكن ؟
— أي من هؤلاء الأشخاص بحاجة ماسة إلى ثنيء ما بإمكاننا توفيره له، أو بإمكاننا حمله على الحاجة إلى ثنيء نستطيع توفيره له؟

— ما هي أفضل طريقة لمقاربة هؤلاء الأشخاص، وحملهم على الحاجة لثنيء والعرض عليهم بتوفيره لهم مع تجنب خطر وثائيتهم بنا إلى رؤسائهم أو غيرهم؟

على كل حال انتهت لعبتنا هذه بعد أن رفعنا تقريراً أعربنا فيه عن الاحتمال بأن الاستخبارات الألمانية ربما بنت هيكلية جاسوسيتها حول أشخاص أميركيين اجتازوا التحقيقات المتعلقة بلياقتهم الأمنية راجين لهم الوصول إلى معلومات سرية جداً، ولكنهم معروضون بطريقة ما للابتزاز أو ضعفاء أمام الاغراءات المادية المثوقة.

لم يطل الأمر بنا، أنا وفرائك، حتى تقدمنا بطلب لتقلنا إلى خارج الولايات المتحدة. وبعد ظهر أحد أيام خريف العام ١٩٤٢ كنت عائداً برفقة فرائك إلى مقر إقامتنا بعد التحقيق في قضية بالغة الصعوبة (أي كنا عائدتين من مباراة في لعبة الباييس بول) فعلمنا أن فريقاً من جهاز شرطة التجسس جمع على عجل وغادر المقر قبل ربع ساعة فقط من وصولنا ووجهته استراليا. ولو أننا عدنا إلى المقر بسيارة تكسي لكان كل مجرى حياتنا قد تبدل. ولكن فرائك أصرت على العودة بالباص كي يقتصد بعض القروش ليومه الأسود. صحيح أن استراليا فانتنا ولكننا عينا لمهمة في لندن وأمرنا بالتوجه إلى مركز طبي لتلقي التلقيح والتنطعيم اللزمين للوقاية من الأمراض التي قد تتعرض لها في بريطانيا. زدنا بما يلزم لرحلة عبر المحيط الأطلسي، والتعليمات الأمنية المناسبة وبعد اسبوع كنا على سفينة تقلنا مع الجيش إلى أوروبا .

كنا اثني عشر رجلاً من المخابرات وكل منا باستثنائي أنا يحمل شهادتين جامعتين أو أكثر ويحسن التكلّم بواحدة أو أكثر من اللغات الأوروبية، كما كنا أذكى رجال جهاز مكافحة التجسس قاطبة. (تجدد الاشارة هنا إلى أن جهاز شرطة التجسس كان قد أعيد تسميته فصار يعرف بجهاز مكافحة التجسس). قطعنا المحيط الأطلسي الشمالي ببيرده وضبابه واغبراره على متن سفينة الكوين اليزابيث وكان معنا ضباط وجنود فرقة المشاة الأولى في الجيش الاميركي المؤلفة من مختلف أصناف الجنود والضباط وزهاء الخمسين ممرضة وقد أعطين المقصورات المخصصة لركاب الدرجة الأولى إبان رحلات السفينة الفخمة في أيام السلم .

ضُمت وحدة جهاز مكافحة التجسس في تلك الرحلة الاثني عشر «عميلاً خاصاً» الذين ذكرت وثلاثة ضباط باللباس العسكري هم الرائد كيربي جيليت والتقيب موراي فوكنر (تنقيب الادبيين وليم وجون) والملازم لن آلن وكلهم موظفون سابقون في مكتب التحقيق الاتحادي أبدوا اهتماماً واحتراماً بالغين بمن عهد بهم إليهم من أهل العلم والعالم. فقد أمنوا لنا كل ما أمكن تأمينه في سفينة مكتظة بالجنود رغم معارضة بائع الأحذية السابق في مدينة مهفيس من ولاية تنسي المايجور جنرال أرنولد جينينغز المسؤول الأول عن جميع من هم على ظهر السفينة. بلغ جينينغز رتبته هذه من خلال الحرس القومي. ولما كان غير واثق من نفسه وخائفاً على مركزه صار يثك في كل

أمر لا تتص عليه صراحة التعليمات العسكرية التي لا تنطبق علينا بصفتنا مدنيين. فقد قال لنا مرة «إذا خالفت أنظمة الجيش وقوانينه أنتم أول من يرفع تقريراً بذلك، وهذا ما أتوقع منكم فعله». لا شك في أن الجنرال جينغز ضابط ممتاز يراعي ضميره ومتقيد بمبادئه على استعداد لبذل أفضل طاقاته في سبيل وطنه. إنه بكلام آخر شخصية تافهة تماماً.

في أيام السلم كانت الناحية المخصصة لنا في السفينة تشكل الجسر وغرفة المرضى، وقد تأمنت لنا فيها أسباب الراحة المقبولة قياساً إلى الظروف. ولكن وقع حدثان كان من شأنهما تحسين أوضاعنا على ظهرها. فقبل إبحارنا بأسبوع التقى قبطان السفينة البريطاني الكابتن هاويز بريلي في حفلة كوكتيل في نيويورك بالمقدم المحبب إلينا غوردن ثين. ولا بد أن هذا الأخير همس في اذن الضابط البريطاني (مع غمزة لها مغزاهما من عينه اليسرى) وبصوت ينم عن أنه يطلعه على معلومات سرية وجيوية بأننا «عملاء خاصون» وبأنه، أي الكابتن هاويز بريلي، يسدي خدمة ضرورية وفعالة لتحسين العلاقات البريطانية الاميركية أن هو عاملنا المعاملة الحسنة والخاصة واللائقة التي تستحقها مهمتنا الخطيرة. راح الكابتن يبحث عنا فحتر علينا بعد يومين وأمن لنا المشرب (بار) المزود أحسن تزويد وطاولة وكدسات الورق للعب إضافة إلى عدد من المجلات التي تكثر فيها صور النساء والمصادرة من أفراد طاقم السفينة .

أما الشيء الثاني الذي زاد من تحسين وضعنا فكان القضية التي صارت فيما بعد تُعرف بـ «الحادث»، وقد تم وصفه في تقرير غطى صفحة واحدة لا غير مكتوب بالآلة الكاتبة رفعت إلى الدوائر الرسمية المختصة. أما بالنسبة إلينا فكان «الحادث» قفزة كمية إلى الامام كما وصفها لا حقاً الرائد كيري جيليت المسؤول عن وحدتنا. لم نشاهد فصول ذلك الحادث انما يبدو أن أفراد طاقم المطبخ في السفينة، المؤلف من مدنيين بريطانيين متمين إلى اتحاد البحارة، طلبوا من الجنود بتفتيشنا. ولما رفض هؤلاء أخذ عمال المطبخ يرمون بالقمامة، ومعظمها مواد سائلة، في المكان الذي يفترضه ليلاً رماة الرشاشات التابعين لفرقة المشاة الأولى. في اليوم الثالث من هذه الممارسة طلب أمر الرماة العريف أول جاك كويغلي - وبزيد وزنه عن المئة كيلو غرام من العضل المفتول - من المسؤول عن العمال وممثل اتحاد البحارة على السفينة إزالة تلك الأوساخ فأجابته: «نظفها بنفسك» .

وهنا استدار كويغلي إلى رجال المشاة الواقفين يتخرجون وقال: «أنت، وأنت، وأنت، وأنت، ارموا بهذا الابن كذا إلى البحر». ودون تردد ولو لبرهة قصيرة أمسك الرجال الأربعة بالمسكين من يديه ورجليه وأرجحوه بضع مرات ثم رموا به إلى مياه المحيط الأطلسي الباردة .

ذهل رجال طاقم السفينة الذين كانوا هناك وقبل أن يتمكنوا من العودة إلى صوابهم صاح كويغلي بالباقيين «من هو المسؤول بينكم؟» فساد صمت قصير قطعه كويغلي بأن اثنار إلى أضخمهم جثة وقال: «إسمع أنت وخذ هؤلاء البلهاء إلى أعمالهم». انتهى الأمر وأخذ العمال المكاس والمماسح وشرعوا ينظفون المكان سمح كويغلي أحد البريطانيين يتمتم عن نوعية الخدمة التي سينتلقاها الأميركيون فأمسك به وهدد بأنه إذا ما شعر أحد الجنود الأميركيين بمجرد ألم في المعدة أو في الامعاء فسينتهي الأمر بإلقاء جميع الموظفين البريطانيين إلى البحر. لم يترك هذا الكلام أي مجال للشك في أذهان الموظفين بجذبه الرقيب، كما أن «الحادث» كله حصل خلال دقائق قليلة.

لم تشهد «الحادث» بأنفسنا كما قلت بل سمعنا به في اليوم التالي من قبل الكابتن هاويز بريلي الذي لم يستدع الرائد جيليت بل جاء بنفسه إلى مقرنا. إنه رجل مرح يوحى بالثقة وبالطيبة المتوقعة من قبطان سفينة سياحية جعل المتمرسين منا بالأسفار يتذكرون بعض السفن الكبيرة التي كانت في أيام السلم والبحبوحة توظف قبطانين (أثنين) للسفر بين ميناء لوهاقر الفرنسي وميناء نيوبورك يقوم احدهما بالقيادة ذهاباً بينما يقضي الثاني وقته بالسكر ويعود بها الثاني فيما يقضي الأول وقته مع الركاب يحسنون مختلف أنواع الخمر .

بدأ الكابتن هاويز بريلي حديثه بطريقة تومئ إلى انه يقوم بزيارة ودئية متحدثاً عن محبته للأميركيين وتقديره لمجيئهم للمساعدة في الحرب وعن أفرءاء له في مدينة ميوكي ثم انتقل إلى صلب الموضوع فقال: «يبدو ان بعضاً من ثبابكم ألقوا بأحد طهاة السفينة في البحر». وأخبرنا بما تناهي إليه عن الحادث مؤكداً انه سرد لنا كل ما يعرفه عن الموضوع وانه يريد ان يعرف حقيقة ما جرى.

بدا من كلامه انه حمل كل الكلام الفارغ الذي سمعه من العقيد ثبين على محمل الجد واعتبر ان باستطاعتنا اجراء تحقيق «بصفتنا اختصاصيين» ولنا من الاتصالات على المستويات الرفيعة في واشنطن ولندن ما لا يعرفه إلا الله واعتبر أيضاً اننا قادرون على تمبيح القضية كي لا تؤدي إلى اساءة في العلاقات بين البلدين. وسبق له ان تحدث في الموضوع مع بائع الأحذية واتفقنا على انه بإمكاننا القيام بما يلزم .

بعد دقائق فقط من مغادرة القبطان هاويز بريلي مقرنا وصل قائدنا بائع الأحذية سابقاً وعلى وجهه كل دلالات الاحترام والوجوم الذي يقارب الوجوم الجنائزي وأيد طلب القبطان بأن تقوم بالتحقيقات اللازمة، وطلب إلينا إيداعه تقريراً مفصلاً وصادقاً يكون في الوقت نفسه صالحاً لرفعة إلى رؤسائه. أجابه الرائد جيليت: سيقوم بالمهمة بكل سرور، ورأى في ذلك فرصة أخرى جديرة بالافتتاص بغية الحصول بالمقابل على تحسينات إضافية في رفاهيتنا خلال الاسبوع المتبقي من رحلتنا عبر الاطلسي .

انتدب كيربي جيليت للمهمة رفيقنا هاري امرمن الذي لا يعرف له جفن وهو رجل يمكن الاتكال عليه لاستقصاء الوقائع «بطريقة ذكية وخالية من العواطف كما لو كان زائراً حلُّ بنا من كوكب آخر»، حسب قول لا حق منسوب إلى هنري كيسنجر. أعلن هاري فوراً بأنه ليس بحاجة إلى أي مساعدة في عملية التحقيق بحد ذاتها ولكنه أسرُّ بأنه سيكون شاكراً لي ولفرانك إذا ما عاوناه على «استغلال الفرص» التي توقع توافرها نتيجة لمجهوداته. جاءت تحقيقات هاري، مثلما توقعناها، أكثر مما كان رؤسائنا ينتظرون. فقد تبين منها أن الضحية (أو «السبَّاح» كما سُمَّاه أحد الكتبة القليلي الذوق في قيادة الشرطة العسكرية) كان رجلاً مهذباً وهادئاً ومخلصاً لعمله قبل بتمثيل اتحاد موظفي طاقم السفينة لعدم قبول أي شخص آخر به. ومما كاد يُدمع عيني حزنًا عليه انه كان من أمهر لاعبي البوكر وان تقيصته الوحيدة في اللعب ميله اللارادي إلى توزيع أوراق اللعب من أسفل الكدسة عند تخلي الحظ عنه. أما أفراد الطاقم المدنيون غيره والبعض من رجال الجيش الأميركي، فوضعهم مختلف كلياً، ذلك انه خلال اسبوعي الرحلة تمكنوا من اقامة عمليات سوق سوداء في السفينة مبنية على السرقة من مستودعاتها وتخبئة المسروقات للتصرف بها بعد بلوغنا ميناء الوصول، مما أثار دهشتي واعجاب كلُّ منا — أنا وفرانك الذي قال: «أنتي متأكد منذ الآن بأننا سنربح هذه الحرب!» ولكن «السوانح التي تنتظر الاستغلال» أسالت لعابنا كما انها حولت أذهاننا عن التفكير بأن «أبن الكذا وكذا نال ما يستحق» إلى التفكير بالناحية الرياضية المسلية من القضية.

بعد يوم أو اثنين من استجواب «الثهود» في وضع كان يستوجب التستر عوضاً عن البحث عن الدقة والصراحة، أعد هاري تقريراً بدأه بما يشبه الجملة التالية: «تقع البقعة التي لامست الضحية الماء فيها فوق منطقة جرف فارادي عند طرف سلسلة جبال مغمورة تدعى جرف شمال الأطلسي حيث يبلغ عمق المياه أكثر من ميل واحد بقليل» وأنهى تقريره بعبارة تصف ملايين الليترات من المياه التي تشكلت قبر البحار. وتضمن متن التقرير سرداً واقعياً للحادث مع ملاحظة من قبل الضابط الأول في السفينة بأنه سيبني جميع موظفي المطبخ في مختلف القوافل البحرية المقبلة بتفاصيل الحادث الذي وصفه بأنه «درس جيد».

أما نحن فتلقينا درساً من نوع آخر جاءنا عن اللجنة التي أعادت النظر في التقرير - وكانت نوعاً من «لجنة تحقيق» حسبما قيل لهاري. جلس حول طاولة تعلوها أكداش من كراريس الأنظمة العسكرية المختلفة كل من قائد الشرطة العسكرية في فرقة المشاة الأولى ونائب قائد الفرقة المسؤول عن التفاصيل الإدارية المتعلقة بالرحلة وأمين صندوق الباخرة وهو أيضاً الضابط الحفوقي فيها، إضافة إلى شخصين أو ثلاثة أشخاص آخرين لم يعرف هويتهم. بالنسبة للمجتمعين كان عنوان اللعبة تقادي المسؤولية فلم يظهر أو أي اهتمام على الاطلاق «بالضحية» باستثناء أحد كبار الضباط الذي سأل: «هل أخطرتم عائلته؟» للمرة الثالثة بعد أن قيل له إن العقيد لم يترك خلفه أي عائلة. ثم قال أحد أعضاء اللجنة: «أمل بالأ نفسد ملف عريف ممتاز بسبب موت مدني تافه». وهنا توجهت الأنصار إلى هاري الذي قال: «سأروي الأثنياء كما رأيتها» ولكن لما نمت نظرائهم عن عدم موافقتهم أردف قائلاً: «إلى حد ما بالطبع».

بعد ان انتهى هاري من تقريره التنفهي أعرب كل من أعضاء اللجنة عن رأيه في طريقة التعاطي مع القضية واختصر قائد الشرطة العسكرية النتيجة بقوله: «وقاة بسبب حادث مؤسف»، وأعقبه بعبارة أو اثنتين تترك انطباعاً بأن تجاراً قام بين مجموعة من المجندين وأخرى من طاقم السفينة سقط «الضحية» أثناءه في البحر. وتخلق الضابط حول هاري ينظرون إلى ما يكتبه، فعدل تقريره على الفور وصار التقرير متوافقاً مع الحقائق التي نطق بها قائد الشرطة العسكرية وانتهى الأمر.

كان كل ما جاءنا به هاري إلى غرفة التسلية التي أفمنها بالقرب من موقعنا صفحة واحدة بالآلة الكاتبة هي عبارة عن صفحة غلاف تقريره الأصلي المؤلف من اثنتي عشرة صفحة. أما الفرص القابلة للاستغلال فقد أنيط أمرها بي وبفرانك واستلزم ذلك بعض التخطيط والتخيل ولكننا نفذنا المهمة التي برهنا على أننا بمستواها ففي بادئ الأمر سجلنا نقطة لصالحنا مع العريف كويغلي وشركائه الأربعة بالجريمة بأن أوهمناهم بخطورة وضعهم ثم طمأناهم بأننا سنصف الحادث بطريقة تقيم شر العقاب. ثم تحولنا بالطريقة عينها إلى الطاقم البريطاني مؤكدين لهم بأننا سنشبح النظر في تقريرنا عما تكثف لنا عن سرقاتهم وتهريبهم وعلاقاتهم بالمرضات (حصل على الأقل اغتصاب واحد) على ظهر السفينة، وخوفنا كبار ضباطها أيضاً بوسائل أخرى وبالمخالفات الكبيرة التي كشفتها تحقيقات هاري.

انبرى فرانك فجأة ليقول لهؤلاء: «لكم الحق في أن تتوقعوا تعديراً مالياً رمزياً لما تقومون به حيالنا. لقاء تنادي التئباب الذين قاموا بذلك العمل الرهيب، تنادوا عن طيبة قلب وليس عن شعور بأي الزام وقدموا مبلغاً من المال لنوصله إليكم». ثم توجه نحوي قائلاً: «هيا بنا، أعطهم المبلغ». فألزمي بأن أدفع كل المبلغ الذي ربحته من

رفاعي في لعبة البوكر الليلة السابقة. لست أذكر قيمة المبلغ ولكنه بالطبع أكبر بكثير من كل البقتيش الذي حسب عمال المطبخ انهم سيحصلون عليه من الجنود طيلة الرحلة. ونجحت العملية نجاحاً تاماً. أما الرجل الذي ألقى به إلى البحر فلم أعد أذكر إلاّ انتهت قضيته أو أن النسيان لفها قبل نهاية رحلتنا، وتبلغ أقرب أقربائه وهو ابن عم أحد أبناء عم عمومته الأقدمين نبأ وفاته في رسالة تعزية تقليدية حذفت منها أسباب الوفاة مراعاة لا اعتبارات تتعلق بالأمن القومي.

كم قدّر عمال المطبخ بادررتنا! وفيما أبدت مهارة في الضغط أظهر فرانك مهارة مماثلة في تحديد البدل. ولما كان بنيتنا الحصول على خدمات أخرى جعلنا البدل معقولاً فقد طلبنا من زعماء عمال المطبخ تحضير وجبات طعام خاصة بأفراد فريق جهاز مكافحة التجسس وتقديمها لهم في مقرهم. وهكذا وخلال الأيام السعة الأخيرة من رحلتنا تناولنا أصنافاً لذيذة من الطعام لم نتناول ما يشبهها طيلة سنوات الحرب، باستثناء الأثمنر القليلة التي قضيناها في باريس بعد إنزال الجيوش في أوروبا.

ولكن بقي أمامنا سبعة أيام قبل الوصول إلى بريطانيا بينما خلالها أن قيادة جهاز مكافحة التجسس في واشنطن اتخذت قراراً حكيماً جداً باختيارها أعضاء فريقنا كأول فريق ترسله إلى بريطانيا. وعلى الرغم من أن المنطقة المخصصة للمرضات في السفينة محظورة على الرجال استطاع فرانك تهريب البعض منهن لإقامة حفلة راقصة في موقعنا ثم هرب واحدة إلى مقصورة على الثرثرة حيث قضيا معاً سويغات بعد الظهر والليالي التي تبقت من الرحلة. أما أنا فقضيت تلك الأيام في الفراش نهائياً وفي مراقبة لعبة البوكر ليلاً والمرافقة على لاعبين من فرقة المشاة الأولى يعتمدون على الخرافات أكثر من اعتمادهم على الرياضيات فكانت النتيجة أنني وطئت اليابسة في بريطانيا وفي جيبي أكثر من ألفي دولار. وبعد الحرب قطعت المحيط الأطلسي أكثر من عشر مرات على متن السفينة كوبن اليزابيت – ٢ وعلى سفن فخمة أخرى وكانت رحلتي تلك كلها في الدرجة الأولى وأكثر، ولكنني أقول الآن دون أي تردد أن رحلتي في أيام الحرب وبرفقة زملائي في مجموعة جهاز مكافحة التجسس كانت الأفضل وأنتي على استعداد للقيام بها ثانية لو أمكن ذلك، وبدفع كلفتها في الدرجة الأولى.

أما ماذا حدث لتقرير هاري؟ كانت تلك ضربة المعلم. فبينما كانت حقيبة الأوراق السرية جداً على وشك أن تُفقد وتُختم استطاع هاري سحب ذلك الورقة الملفقة وأن يدسُ محلها تقريره الأصلي وقد كتب بخط يده على الصفحة الأولى: «فلتسقط القطع أينما شاءت». أما إذا ما قُبض لها أن تسقط في أماكنها أو انها لم تسقط فيها، فأمر لم يدرك مسامعنا قط.

الفصل الرابع

لندن في الحرب

بعد شهر ممل في تشلثم ملأته المماحكة والمناقشات مع العقلاء والمقدمين في محاولتهم لمعرفة هويتنا وغايتنا، أردتينا ألبسة مدنية واستقلينا قطاراً خاصاً إلى لندن. ليست محطة بدينغتن أجمل ما بطالعك عند وصولك إلى ما صارت الآن مدينتي المفضلة والتي وصلناها في يوم بارد وممطر من أيام أيلول (سبتمبر). ولكن الانطباع الأول الذي تركته في نفسي رائع حقاً! الروائح، الأصوات، الأبنية القديمة، كل ذلك في حي من المدينة سرعان ما تعرفت إلى انه يضم

الكثير من الفنادق الصغيرة يقيم فيها طلاب فقراء وتشتقت فيه رائحة ثحم الضان والسجاد المتعفن . عذفته و اغرورقت عيناى بالدمع وخيل إلي اننى لربما قد اُقيمت فيه خلال حياة سابقة .

وفيما كان الآخرون ينتظرون بصبر من يستقبلهم امسكت بفرائك وبرفيق آخر وأوقفت سيارة تاكسي توجهت بنا إلى مكتب إسكان كبار الضباط في شارع اودلي الجنوبي . أبرزنا هوياتنا أمام ملازم ثان فكان لها عميق الأثر في نفسه وأخبرناه بأننا في «مهمة خاصة وطويلة الأمد» وقلنا له بأننا نفضل مسكناً فخماً يكون قريباً من سفارات الدول الكبرى في آسيا و افريقيا وغير بعيد عن السفارة الأميركية في ساحة غروسفونور . حولنا فوراً إلى مسكن كامل التأثيث في ساحة اوفنغتن على بعد قرابة المئة متر من محلات هارودز الشهيرة، ولا شك في ان البيت المذكور قد أصبح الآن منزل أحد ثيوخ النفط العرب، وكان بدل اجاره الشهري في أيامنا ١٢٠ جنيهاً تنفاسمها مثالته . لم يطل الأمر حتى جاءنا طاقم من الموظفين المنزليين المشهورة بهم البيوت البريطانية الثرية يضم بستانياً و خادمة وطاهياً قادراً على تأمين فطورنا كل صباح وعلى اعداد وتقديم وليمة عشاء فاخرة لنا ولضيوفنا عند الحاجة، نأتي بموادها الأولية من الأطايب التي كانت متوافرة في محلات هارودز ومن أطايب أخرى نستطيع تهريبها من مطعم كبار الضباط القائم في شارع اودلي الجنوبي . وقد استطعنا ذلك بمساعدة الضابط المسؤول عن مستودعات المطعم الذي تصادق فرائك معه في اليوم الثاني من وصولنا إلى لندن .

كنت بعد ظهر أحد أيام الاحاد أتمنى في شارع شافنسيبوري فسمعت تدريباً على المقاطع الأخيرة من كونشيرتو للمؤلف راخمانينوف تُعزف على بيانوين . اقتربت من مدخل مسرح كامبريدج، مصدر الموسيقى وتبين لي أن ماريا هس تعزف على بيانو وأرت تائم يعزف على الآخر وجاء في الاعلانات عند باب المسرح أن العازقة الشاببة الاعجوبة مورا ليمباني تحيي الحفلة . مورا ليمباني ! اندفعت دون التوقف لحظة واحدة نحو باب المسرح الخلفي وقلت للبوابة بأنني مندوب اوركسترا فيلادلفيا السمفونية وأن عليّ مقابلة الأنسة ليمباني ومدير أعمالها في غرفتها داخل المسرح لبحث جولتها المقبلة في الولايات المتحدة . ولدى سماعه لهجتي الأميركية سمح لي بالدخول دون أي اسئلة .

توجهت نحو مورا مباشرة وهي خارجة من على المسرح، وسط تصفيق يصم الأذان وعرفتني بنفسى . وعلى طريقتها الخاصة قالت لي : - «نعم، نعم، تفضل مع الآخرين إلى كينغزود بعد أن أعزف مقطوعة أخرى إرضاء لاصرار الحضور» . ليست أذكر بالتحديد كل «الآخرين» إنما كان هناك عازقة بيانو ارجنتينية تحولت فيما بعد إلى رجل وصديقها الشاب الغريب المظهر الذي تبين فيما بعد أنه عشيقها (مع بعض التصرف باستعمال هذه الكلمة) وهو عازف ناى يعمل في مخزن للآلات الموسيقية، وطالب أو اثنين، ورجل بلجيكي وزوجته وهما من جيران مورا في كينغزود التي ستوجه إليها جميعاً بعد الحفلة .

وكان أيضاً بين أفراد هذه المجموعة رجل نحيل طويل القامة أتيق اللباس في أو اسط الأربعينات من العمر يضع نظارتين كثفت الاطار وبدخن من حامل سجائر طويل . بدالى هذا الرجل شريراً جداً . أذكر اننى قلت في بداية هذا الكتاب بأننى لم أكره أحداً في حياتى؟ غير أن هذا الرجل، كولن ديفرايز، وهو القيم على مورا ورفيقها ومرافقها في العزف على البيانو الثاني وعشيقها كما تبين لي سريعاً، هذا الرجل كاد أن يكون استثناء لما قلته في بداية الكتاب . باختصار، لم يستسغ واحدنا الآخر منذ اللحظة الأولى للقاءنا .

كانت مورا مدهشة . فقد بدأت تعاملني كما لو كنا صديقين منذ طفولتنا، وانضم الآخرون إلينا ودارت الأحاديث بيننا بالانكليزية وبالفرنسية في السيارة الفخمة التي نقلتنا إلى محطة وانزلوا التي انتقلنا منها بالقطار إلى كينغزود ثم لتناول العشاء في منزل كولن الأنيق حيث كانت مورا تقيم ومعها يانواها. أبدى الجميع مودة جملة تجاهي باستثناء كولون تناولنا طعام العشاء وقضينا ساعات طويلة نتبادل الأحاديث قبالة نار بهيجة غذتها قطع الحطب الضخمة وانتهى بي الأمر أن بت ليلتي هناك. أفقت صباح اليوم التالي لتناول وجبة الفطور الانكليزية الشهية ثم قضيت بعض الوقت مع مورا تنتزه في الغابة وساعتين استمتع إليها تتمرن على البيانو قبل أن نستقل القطار عائدین إلى لندن. وإذا ما تبين أن في تلك التجربة نقصاً في اثاره غيرة كولن فلا تجوز ملامتي للتقصير في المحاولة.

يوم الثلاثاء التالي تناولت طعام الغداء مع مورا في فندق دورستون، ودعتها لتناول العشاء في مطعم ميرابل برقفة فرانك كيرنز ومعها ممثلة مختصة بتمثيلات شكسبير اسمها روزالند فولر تعرف إليها بطريقة تشبيهة بطريقة تعرفي إلى مورا. ولكن مورا جاءت إلى المطعم برقفة كولن الذي كان بغيضاً حقاً في تلك المناسبة. فقد أستاذت بالحديث منذ بداية اللقاء وطيلة السهرة وغيته اظهار براعته في صياغة الدم بصيغة المدح التي وجهها إلى الأميركيين عموماً (أنه يراهم قوماً يبعثون «الانتعاش» في النفوس) وإلي بشكل خاص. أما أنا فرأيت فيه «مشكلة» (حسب التعريف الوارد في التعليمات الموجهة إلى ضباط فريق جهاز مكافحة الجاسوسية، اي انه شيء يجب ان الته من الطريق المؤدية إلى الهدف المقصود.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ جلسنا قبالة الموقد المشتعل في منزلنا نبحت في الصعوبات التي تعترضنا. وكم كانت دهشتي لمعرفتي أن فرانك كيرنز استلطف كولن. على كل حال، وبعد استعراض عدة احتمالات تساءل فرانك: «لماذا لا نقتله، هكذا بكل بساطة؟» لست أذكر تفاصيل بحثنا في الموضوع باستثناء ان فرانك كرر القول بأننا في حال حرب وبأننا «سنقتل خلالها الكثير من الناس» وأضاف متسائلاً مرة ثانية «ماذا يهم نقصان أو زيادة سفينغالي* واحد؟

سفينغالي! نعمرانه الجواب. لقد كان كولن سفينغالي عن حق وحقيق غرر بفتاة صغيرة موسيقية وعبقرية مثلي، وأطبق عليها على براءتها ببرائته الشريرة. أما قصتها، كما روتها لي خلال نزهتنا في الغابة فتتلخص بأنها كانت في جولة موسيقية في أوروبا عند نشوب الحرب فاحتجزت هناك فترة ثم عادت إلى بريطانيا ومعها يانواها ووالدتها وهرتها الصغيرة وليس لها بيت تأوي إليه. تدخل الصناعي الثري كولن ديفرايز، وهو أيضاً من هواة عزف البيانو الممتازين، وعرض عليها الإقامة في منزله الجميل في كينغزود، إضافة إلى استعداده لمراقبتها على البيانو الثاني في عزف المقاطع المخصصة للاوركسترا في الكونشيرتو فيما تعزف هي متن الكونشيرتو. رأت مورا أن العرض أفضل بكثير من أن يرفض خصوصاً وان كولن أكد لها بأنه «من عمر أيها».

وهكذا، وخلال الأثني القليلة التالية أخذنا أنا وفرانك وجايمس تقضي معظم أوقائنا في التخطيط جيداً لاغتيال مواطن بريطاني معروف. وأولينا الموضوع كل الاهتمام والمهارة المهنية اللذين عالجت بهما فيما بعد وأثناء عملي في وكالة الاستخبارات المركزية كل القضايا التي تهمننا على الصعيد الوطني. أخيراً قرأ رأينا على أن يضرب كولن بالهراوات أثناء خلاف محدود ومدبراً سابقاً — شرط أن يقوم بذلك تخصص غيرنا حسب رأي قائدنا الرائد جيليت.

* شخص يحاول عادة بالترغيب أو بالترهيب حمل شخص آخر على تنفيذ ما يطلبه منه. Svingali

حصل كل ذلك منذ أكثر من أربعين عاماً وبات ضباب النسيان يلف التفاصيل، ولكنني ما زلت أذكر جيداً أن الخطة بدت لنا في حينه ممتازة، هذا فضلاً عن أننا أعدنا خططاً بديلة ومساندات، كأبي تخطيط عسكري صحيح. وعندما أصبحنا على استعداد للتنفيذ كنا قد استشرنا كل الذين يحتمل أن نستعين بمعرفتهم ومهارتهم في القضية. توقعنا بأننا سنحتاج إلى بعض العون الخارجي فذهبت إلى الشرطة وبحثت الموضوع أو لأمع العريف بلاك ثم مع لمفتش كوفني: المفوضين لوقاية وحدتنا من أي طيش. دعوني هنا أسدي نصيحة لكل منكم يريد أن يغتال أمه أو زوجته: في أمر كهذا لا تعتمدوا على أية مساعدة تأيكم من سكوتلنديارد أنهم جماعة لا يرجى منها خيراً! فهم لا يكتفون بمعارضة الاغتيالات بل يخلقون لكم جميع العرافيل البيروقراطية التي يمكن اقامتها بوجهكم، وهذا يعني الكثير في بريطانيا.

حصلنا من زملائنا الأميركيين على الكثير من التأييد والتشجيع وعلى التقليل جداً من الارشاد والمساعدة ذات القيمة الفعلية لمشروعنا. وعندما انتهينا من وضع اللمسات النهائية كان في ساحة غورسفونر كلها أقل من عشرة أشخاص يجهلون بأننا نخطط لاغتيال مواطن بريطاني بارز. على كل حال ما زلت حتى اليوم ألتقي بطاقات بمناسبة عيدي الميلاد ورأس السنة من أصدقائي القدامى في إيتوزا (الأحرف الأولى من كلمات عبارة «المسرح الأوروبي لعليمات الجيش الأميركي في أوروبا» تشكل كلمة «إيتوزا»). البعض منها في مظاريف معنونة على نحو: «السيد والسيدة قائل ك. كوبلند» وفي البعض منها عبارة: «هل تخلصتم من بريطاني ما في الفترة الأخيرة؟»

أما ماذا حدث في النهاية، فقد سالت مياه كثيرة تحت الجسر منذ ولادة الفكرة والموعد المحدد لتنفيذها، إلى ان انقضى عدة ثهور ونسبت كل التفاصيل باستثناء مورا، ولعلها تجد هي الي، صعوبة في التعرف إلي. هكذا انتهت القضية. إن استمرارني في التخطيط لها ونسج المؤامرات لتنفيذ المخططات إلى ان تخليت عنها، عائد فقط إلى انني انغمرت بالمخططات بحد ذاتها. ولم اكن مستعداً بالطبع للمضي في تنفيذ عملية الاغتيال. فعلى الرغم من انني قتلت زهاء ستة أشخاص منذ ذلك الوقت ولكن لم يكن بينهم اي شخص قامت بيني وبينه علاقات اجتماعية. كلا، فالفرق كله يكمن هنا.

عندما كتبتها جاءت مؤامراتنا لاغتيال كولن قطعة أديبة رائعة باعتراف الرائد كيربي جيليت والضابط الأرفع منه رتبة في هرمية القيادة رأى فيها جميع هؤلاء السادة المتنفذين، أو ادعوا بأنهم رأوا فيها «عملاً من أعمال الخيال مكتوباً ليكون مثلاً يساق في صفوف الأركان»، هذا على الأقل ما ورد في الكتاب المرفق بها الذي أرسله كيربي إلى مكتب رئيس عمليات إيتوزا المعروف عنه بـ ج - ٣. وتلقى كيربي ملاحظة خطية من رئيسه العقيد كالفرت جاء فيها: «أمل بأنكم تستغلون هذه المواهب في أمكتتها المناسبة» فسُر كيربي بالملاحظة هذه انها تعني فرائك وتعني ان عليه اختلاق مهمات خالية من المشاكل ينيطها بنا نحن الاثنيين لا بقائناً بعيدين عن المتاعب. وهكذا فبدلاً من تكليفنا بتتبع الجواسيس والقبض عليهم جعلنا كيربي تتحرى خروقات سرية أمن الدولة، الحقيقية منها والخيالية.

انتابنا الملك وبسببه حل بنا التهوره * قبضنا مرة على «جاسوس» الماني سمعت إشاراته البرقية احدى صديقات فرائك (هكذا قالت) المقيمة في ثقة محاذية لثقتته. أخذناه إلى مقر جهاز مكافحة التجسس بسيارة تاكسي وضعناه فيها بيننا وصوب كل منا مسدسه المرعب من عيار ٤٥ إلى رأس المسكين الذي كان يرتعد فزعاً.

دفعنا للسائق اجرته فعاد المكان على عجل وفيها هممنا بإدخال أميرنا إلى المبنى توقفت سيارة رسمية خلفنا وخرج منه صديقنا كوفني وبلاك من سكوتلنديارد يرافقهما رائد أميركي اسمه روجر سكسن المساعد الخاص

للعقيد كالفرت. بصوت مرتفع قال لنا المفتش كوفني: «سنهتّم نحن بأمر هذا الرجل»، فيما ارتسمت على وجه الرائد سكس امارات الثمائه بنا وكأنه يقول: «هذه المرة ستتالان جزاء فعلتكما، أيها الغيبان». اتقضى عدة أشهر قبل أن أدرك ما عناه ولماذا لم تتل مبادرتنا التّدجاعة الاستحسان الذي حسبناها تستحقه. أما سكس الذي سدّأتني على ذكره في فصول لاحقة. فقد غمر قلبه الاقتناع بوقوعنا في ورطة صعبة أثلجت صدره.

قبل دخول قواتنا ساحات الحرب جدياً مررنا بخبرة أخرى تعلمنا منها شيئاً جديداً. واستناداً إلى تشكيلك أبدأه أحد المسؤولين بأن يكون البريطانيون إما مهملين جداً في تعقب الجواسيس والتقبض عليهم، أو انهم يتعقبونهم ويتقبضون عليهم دون اعلامنا بذلك، قرر رؤسائنا وجوب قيامنا بمجهود مستقل في هذا المجال بغية معرفة حقيقة واقعا فيه. ولما كنا ضيوفاً في بريطانيا لم نستطع متابعة ومعالجة القضايا المحددة كل بمفردها بل كان بإمكاننا على الأقل تحديدها والتعرف إليها باعتبار انها قد تشكل خطراً على مجهودنا الحربي. ولدى تحديد المهمات قال العقيد كالفرت بأن علينا أن وكيربي القيام ببعض المهمات لميدانية ليس من أجل القبض على جاسوس أو اثنين بل من أجل التحسس بما تحتاجه طبيعة العمل .

أضاف العقيد بأن السؤال الأول المطروح هو: ما هي المعلومات التي تحتاج إليها الالمان عنا في قيادة ايتوزا ولا يستطيعون بلوغها إلا بتجاوزهم ضوابطنا الأمنية؟ وبوصفنا خبراء في مكافحة الجاسوسية افترضنا بأن الالمان يبذلون قصارى جهدهم لمعرفة متى وأين سنوجه ضربتنا، وبأن أول ما علينا فعله التعرف إلى نقاط الضعف التي سيركز الالمان محاولاتهم للنفاد منها إلى جهاز مكافحة الجاسوسية عندنا.

استحوذت الفكرة على مثاعر فرائدك فخرج على غير عادته برأي جيد: ان نسرق الخزنة من مكتب ج - ٣. أخذ رأيه هذا يزداد جاذبية كلما ازداد تفكيرنا به وتقليبنا له ومساء الجمعة قررنا سرقة الخزنة. قضينا طيلة عطلة الاسبوع في التخطيط للعملية وصباح الاثنين كنا أمام مدخل القيادة في شاحنة كبيرة ومقفلت سرقتها من المرآب المشترك (ليس من اللائق التقدم بطلب رسمي للحصول على الشاحنة). خرج من الشاحنة رقيبان في الشرطة العسكرية (بدلتاهما مسروقتان أيضاً) وخلفهما رجلان بحجم الغوريلا يجران عربة لنقل قطع الاثاث الثقيلة الوزن.

لم نلق أي صعوبة على الاطلاق في اجتياز المدخل الأساسي ونحن في بدلتين مدينتين ومزودين ببطاقتين مزورتين لدخول المبنى. مررنا بحراس المدخل الذي أدوا لنا التحية وتوجهنا إلى المصعد فالطابع الرابع. في الساعة الواحدة تماماً اي في موعد وجبة الظهر دخلنا المكتب «الهدف» وحيدنا السكرتيرة، وكانت بمفردها فيه، وسألناها: «هل لك يا أنسة أن ترشدنا إلى الخزنة التي يريد العقيد أدامز نقلها إلى بناية نورفك؟» أنارت إليها فوضعنا على العربة فيما عادت السكرتيرة إلى المجلة التي تقرأها. (أندكرون كيف دخل مراسل صحيفة «ديلي اكسبرس» إلى المنطقة المحرمة في مطار هيثرو بعد تفجير طائرة بان اميركان في كانون الثاني - يناير - ١٩٨٩؟) وكذلك لم تعترضنا أي صعوبة إلا عند بلوغنا الباب الرئيسي. فتح الحراس لنا الباب وفيما كنا نحمل الخزنة في الشاحنة هرول نحونا ملازم ثان في شرخ شبابه وعلى ذراعه شارة الشرطة العسكرية .

قال: «عفواً سيدي انما هل معكما استمارة رقم ٥٢٠٠ لعملية النقل هذه؟»

قلت له: «أسف أيها الملازم، فنقل هذه الخزنة ليس عملية عادية. ذلك ان الجنرال أنولد أمر بأن تكون هذه الخزنة في مكتبه في مبنى نورفك قبل الساعة الثانية وها قد تجاوزت الساعة الآن الواحدة..» ومضينا في مثل هذا

الكلام. ثم تحولنا تارة إلى اللطف وطوراً إلى التهديد ولم نحصل من الملازم المسكين الذي اعتراه الرعب إلا على: «نعم سيدي، إنني أفهم تماماً ولكن الأوامر تقضي بالألا نسمح بخروج أي شيء من المبنى دون إذن على استمارة ٢٠٠ موقعة وممهورة بتوقيع وخاتم مكتب نائب القائد العام».

أخرج فرائدك دفترًا صغيراً من جيبه ودون فيه اسم الملازم — وما زلت أذكره تماماً، أنه ألبرت موللينز. ومع أننا أربناه لم يتزحزح عن موقفه بعد اعطائنا اسمه. وفي هذا الوقت كنا قد استقلينا الشاحنة ولذنا بالفرار. وبعد الغذاء اتخذنا الترتيبات اللازمة لإعادة الخزنة إلى مكتب ج — ٣ ثم جلست لوضع تقرير عن الحادث ملأته اطراء على الملازم موللينز الشاب. ونظراً لما قد يترتب على القضية من ذيول فكرنا بأنه من الأفضل تسليم التقرير باليد فتوجهنا إلى مكتب قائد الشرطة العسكرية، العقيد براند في الطابق الأول من المبنى رقم ٢٠ في ساحة غروسفونر. اكتشفنا ان العقيد براند، رغم سمو مركزه في الشرطة العسكرية، رجل ودود تأثر إيجاباً بأوراقنا الثبوتية الصادرة عن جهاز مكافحة الجاسوسية.

أخبرنا العقيد بما حدث وأدخلنا في تقريرنا التشفهي بعض المضحكات ابتسم لدى سماعه القسم الأول من الحكاية ولما وصفنا له كيف أصر الملازم موللينز على موقفه ارتفعت فهفته عالية وكان لا يزال يضحك عندما رفع سماعة الهاتف ليقول للسكرتيرة: «دعي الملازم موللينز يدخل».

كان الملازم جالساً في الردهة بانتظار مقابلة العقيد ليروي له الحكاية على طريقته، ولم يكن على علم باننا سبقناه إلى ذلك. فتح الباب ودخل ولما رأنا جالسين هناك ثجب لونه حتى اليباض ذلك انه لم يلاحظ اننا جميعاً مبتسمين. قال له العقيد: هدي من روعك يا آل. فقد علمت بأنه لا يزال أمامنا فرصة لكسب هذه الحرب طالما بقيت حراسة مقر قيادة إيتوزا بين يديك. إجلس».

بدا الارتياح على وجه الشاب المسكين وتحول إلى ابتهاج عندما أخبره العقيد بأنني اقترحت التتويه، به وأعدنا سرد وقائع الحكاية ضاحكين وإنني على يقين من أن أأ موللينز يقصها على أحفاده. بالطبع كان الناتج النهائي لحكايتنا وضع تقرير «بغطي غباوة جمع من البلهاء». ولما كنت على دراية وأعرف من أين تؤكل الكتف لم ينطو تقريري إلا على التفریط. وضع آل كالفرت على التقرير كلمة: «نهائي»، وأرسله رأساً إلى الجنرال إيزنهاور قائلاً لي: «رفيقك لا لعب اللعبة».

الفصل الخامس

الاستعداد لعملية أوفرلورد»

في أواخر العام ١٩٤٢ وفيما كانت مجموعة الجيش الحادي والعشرين تستعد للنزول على شواطئ شمال أفريقيا، فصلت إلى وحدة في قيادة المجموعة وعيّنت نائباً لروجر سكسون، الرجل الذي اغتبط كثيراً عند مشاهدتنا، أنا وفرائدك كيرنز نسوق «الجاسوس» الألماني إلى مدخل المبنى رقم ٢٠ في ساحة غروسفونر. وبسبب قصة غرامية عارمة كنت فس خضمها مع إحدى سكرتيرات السفارة، فصلت البقاء في لندن وأمّلت في ان يساعدني روجر في ذلك. ولكنه خذلني إذ وافق دون تفائن على وظيفتي الجديدة. رأيت أن علي حملة اتخاذ اجراء ما فأخترت إنارته بالتحجج بأنني قادر على اقصائه عن مركزه والطول محلّة خلال شهر. ومع انه على يقين من انني لن أنمکن من ذلك أدى به قلقه على مركزه إلى التحرك. فادعى القلق الشديد على صحتي وحالتي العقلية وأخبر آل كالفرت عن

قصتي العاطفية مع موظفة السفارة وخفض منها من أحدى وعشرين إلى ثماني عشرة سنة ليظهر فارق السن بيني وبينها مما يدل على مدى التشويش العقلي الذي أعاني منه واقترح ان أعود إلى الولايات المتحدة لقضاء شهر من الراحة كي استعيد صحتي العقلية. أثارت تليفقات روجر سكسون قلقاً أصيلاً في نفس العقيد ألن كالفرت فوافق على نقلي إلى الولايات المتحدة على أن أقضي شهراً في مركز التدريب على أعمال الاستخبارات في معسكر رينثني في ولاية ماريلاند حيث ألقى المحاضرات وأتلقى الدروس الخاصة بأعمال أركان الاستخبارات المتعلقة بغزونا المنتظر لشواطئ أوروبا عبر بحر المانش. (عملية أوفرلورد). OVERLORD لم يرق هذا الاجراء لروجر سكسون فراح يحاول بكل ما أوتي من وسائل افناع العقيد كافتت بأنني لست في الواقع على تغيير الانهيار وبأن انتشالي وانتقادي من بؤر لندن العاطفية يستند عيان قضاء شهرين من الاستشفاء في جبال اسكتلندا حيث أعلنت مدرسة مغاوير القوات الحليفة عن استعدادها لقبول عدد محدود من ضباط القيادة شرط اجتيازهم بنجاح فحص اللياقة البدنية. تقبل العقيد كالفرت حجج سكسون المقنعة، وعلى الأخص قوله بانني لا أصلح للخدمة العسكرية، فوافق دون نقاش. أسدى لي روجر سكسون خدمة جلييلة لم أدرك قيمتها إلا لاحقاً. فالدروس التي تلقيتها في المدرسة المذكورة شكلت أحد أهم مراحل تعليمي. ذلك انها رفعت لياقتي البدنية إلى أعلى مستوياتها وحسنت من مهارتي بتدبير أمورتي كقدرتي مثلاً على تفادي المواد القاسية، والا هم من ذلك أنها جعلتني أعمق استشفافاً لعقلية مكافحة الشر مما كان له أثره العميق في عملي في وكالة الاستعلامات المركزية التي انضمت إليها بعد الحرب، وعلمتني أيضاً مبادئ الاستراتيجية الشخصية التي صارت أساسية في حياتي.

وصلت إلى لندن شخصاً مختلفاً وكان أول ما قمت به التخلي عن الإقامة في البيت برفقة فرانك كيرنز وجايمس إيلبرغر وحل مكاني رائد ما استقال من منصبه في مكتب الاستقصاءات الاتحادي «لخلاف في الرأي» مع مدير المكتب ج. ادغار هوفر، يقضي كل أوقات فرائه بتنظيف مسدساته وبالتدريب على سحبها بسرعة أمام المرأة. ورأيت في فرانك رجلاً آخر أيضاً فقد استقر في مهمته الجديدة كرئيس لفريق جهاز مكافحة التجسس في لندن ويقضي عمله بمراقبة الوحدة الأمنية التي تعمل كشرطة سرية لدى القائد العسكري في لندن أوائل العام ١٩٤٤ عاد إلى لندن الجنرال إيزنهاور بعد حملة موفقة في شمال افريقيا ليصبح القائد الأعلى للقوات الهجومية الحليفة المسؤول عن «عملية أوفرلورد»: وهي خطة غزو أوروبا التي يحتلها النازيون. وأبدى فرانك مقدرة الممييزة بأن استطاع اختراق سرية موعد وصول قطار الجنرال إيزنهاور إلى محطة بريمرز في لندن، منتصف ليل ١٥ كانون الثاني (يناير) وراقب تقارير الارصاد الجوية التي انبأت بأن الضباب الكثيف سيلف المنطقة في تلك الليلة فقام مع وحدته باستكشاف المحطة وجوارها أثناء النهار للتأكد من سلامتها الأمنية عند وصول الجنرال إيزنهاور وحادثيته .

ثم تصادق فرانك مع كاي صمرسبي، سائقة سيارة إيزنهاور ومساعدته الشخصية، واستمرت علاقته بها حتى انتهت من وضع كتاب بعنوان: «انزنهاور كان رئيسي». (العنوان الأصلي «اربع سنوات تحت إيزنهاور» رفض من قبل دار النشر على انه عديم الذوق) (*). وتعرف فرانك عبر كاي إلى فتاة بريطانية جذابة جداً اسمها غوبن صارت فيما بعد زوجته .

(*) تجدر الإشارة هنا إلى أن الظرف «تحت» في العنوان المرفوض يعني بالانكليزية أيضاً «بأمر» أو

لم يمض وقت طويل حتى تزوجت أنا بدوري. أخذت بعد عودتي من مدرسة المغاوير ارتدي البزة العسكرية برتبة ملازم أول مما حرمني دخول نادي الضباط في شارع اودلي الجنوبي. أدخل التفكير بالزواج تعديلاً جديداً في حياتي فقد نفضت عني الشعور بالحاجة إلى ما اسماه فرانك «كل المزينات والزركنات» التي تشكل جزءاً من اللغزية المحيطة برجال جهاز مكافحة الجاسوسية. كما أدى الخلود إلى حياة أكثر استقراراً إلى ما أظنه حتمية لقائي بالأنسة لورين ادي، ابنة طيبب شهير بجراحة الدماغ والاعصاب في شارع هارلي، لقاء تبعته (بختمية أيضاً) علاقة غرامية أوصلتنا إلى مذبح الكنيسة لا إلى العديد من حفلات الخطوبة الزائفة. وهكذا تزوجنا – وأخذت لنا الصور لتنتشر في المجلات الراقية – في كنيسة مريم في شارع غرايت پورتلند وخذنا إلى حياة عائلية هادئة في ضاحية لندن. «كوبلند الجديد»! لم يحمل رؤسائي هذا المفهوم على محمل الجد في بادئ الأمر ولكن العقيد كآفرت قرر في النهاية تكليفي بعمل تُستغل فيه مواهبي العقلية بدلاً من ميلي إلى المغامرة. وكان القرار وضعي في غرفة اللعبة! وكان ذلك ما ابتغيته .

انثذت «غرفة اللعبة» – «القيادة العليا الالمانية»، حسب تسمية المثرثرين لها – المبنى رقم ٢٠ في ساحة غروسفونر لتكون «نصب هدية بعيد الميلاد» للجنرال ايزنهاور لدى عودته من الجزائر في أوئل كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٤، ليبداً منها أعداد عملية «أوفرلورد». ولئن لم تلق الغرفة اهتماماً يذكر من قبل الجنرال (وما كذت على علم آنذاك بأنه يطلع فيها على الاتصالات الدائرة بين القيادات الالمانية التي تصل بعد فك رموزها المسماة «أشارت الأحجية») ، فقد حصلت لي تنوبها أو اثنين ووسام جوفة الاستحقاق. كان في الغرفة تقرير لم يتمكن المخططون عند الجنرال ايزنهاور من تجاهله طويلاً علماً بأنه بقى منسياً مدة طويلة في الأدرج في مبنى نورفوك. فقد أثار بشكل مقنع إلى الاحتمال بأن يكون الألمان قد حولوا اهتمامهم عن استراتيجيتهم التي قد بدأنا نفهمها نحو تطوير جيل جديد كلياً من الاسلحة تتركز في معظمها على الصواريخ. وعلى الرغم من ان المسؤولين داخل «غرفة اللعبة» لم يكونوا على علم بالتقدم الذي أحرزناه في تطوير القنبلة الذرية – أو لعله بسبب جهلهم لذلك – جاء تقريرهم بما تقتنعر له الأبدان. فقد أشاروا ببراءتهم إلى احتمال وجود سلاح نووي لدى القيادة العليا الالمانية وان هتار لن يتوانى عن اصدار الأمر باستعماله إذا ما شعر بأن الحرب انقلبت عكس مصلحته .

ومع علمي بوجود «مشروع منهانن» (اسم برنامج الأبحاث الخاصة بتطوير وصنع القنبلة الذرية) وبأنه يتعلق بسلاح علمي متطور، لم أكن حائزاً على المرتبة الأمنية اللازمة للوصول إلى تفاصيله. وهكذا تجاوزني النقاش بين ٢٠ ساحة غروسفونر وبين مبنى نورفوك. ولكن العلماء في لوس الاموس، في ولاية نيومكسيكو، حيث قيادة مشروع منهانن كانوا على بينة تامة بما يجري. وقد وصل إلى لندن أحدهم المقدم بوريس باش إبان بلوغ الزوبعة وسط الفججان أوجها وذروتها بشأنه تقرير «غرفة اللعبة» .

هكذا تعرقت ببوريس باش الذي فتح لي عيني على حقيقة الحرب – بشكل خاص على حقيقة انه على الرغم من التفوق الظاهري في قوة المانيا العسكرية تبقى المشكلة الأساسية ليس كيف نربح الحرب بل ماذا سنفعل بالقنبلة الذرية بعد كسب الحرب. فاحتمال أو أمكانية امتلاك الالمان للقنبلة الذرية او اقتراحهم من انجازها، أفلق استراتيجيتنا. ولكن بدأ يخطر ببالي بعد بضعة أسابيع من العمل مع العقيد باش ان قلقتنا لم يكن من احتمال استعمال الالمان للقنبلة بقدر ما كان من احتمال بلوغ الروس قبلنا أسرار الأبحاث الالمانية بعد انتهاء الحرب .

بدأ عملي مع العقيد باتش في اجتماع لما يسمى لجنة افضليات الاستعلامات المشتركة عقد بعد ظهر يوم شديد الحر في غرفة واسعة جداً في وزارة الحرب البريطانية ستقفها بالغ الارتعاج، وفيها طاولة كبيرة تنسج لعشرون شخصاً . جلس عند احد جانبي الطاولة أربعة أميركيين – باتش وأنا وممثل عن سفارتنا في لندن وضابط في ملحقة البحرية في السفارة بيزته العسكرية – واحتل المقاعد الأخرى الباقية مندوبون عن شركات بريطانية كبرى وموظفون رفيعو المراكز في الحكومة وممثلون عن وزارة البحرية وعن وزارة الحربية وعن وزارة التموين وعن وزارة الخارجية، وكان خلف المندوبين البريطانيين مجموعات من المساعدين والسكرتيرات الذين ما انفكوا يتهايمسون مع المندوبين الجالسين إلى الطاولة فكان الكثير من الرواح والمجيء ومن تغليب الأوراق .

لست في معرض وضع النقاط على الحروف . ففيما كان البريطانيون يعرفون تماماً سبب وجودهم في الاجتماع كنا نحن الأميركيين سبب وجودنا فيه لم أدرك حقيقة ما كان يجري إلا عندما جئت لاعداد التقرير الذي وجب رفعه إلى رئيسي آنذاك العقيد آلن كالفرت : خلال السنيتين الماضيتين كان البريطانيون يفكرون بالأهداف التي سيتوجهون إليها يوم النصر في أوروبا، وراحوا يفترضون، حتى في أدلك ساعاتهم، بأن الحلفاء سيربحدون الحرب . إضافة إلى ذلك فإن الأهداف التي حددتها اللجان البريطانية لم تكن فقط أهدافاً عسكرية، بل عسكرية وتجارية، أو حتى تجارية كلياً . فقد أدركوا منذ زمن بعيد ان الأبحاث التي يجريها الالمان تسبق بأنسواط أبحاث الأميركيين والبريطانيين في مجالات الصواريخ والمتفجرات والمحركات النفاثة والكيمياء وصناعة المعادن والتصوير الفوتوغرافي ومختلف أوجه الهندسة . ولكن يبدو انهم لم يقيموا لذلك التفوق أي وزن على الاطلاق نظراً لاقتناعهم بأن الفوز في تلك الحرب مؤكد لجانبنا، وسيكون مايمكننا الحصول عليه من الامكانات العلمية الالمانية «العنصر الأثمن من عناصر تعويضات الحرب» التي قد يتسنى لنا الحصول عليها من العدو المهزوم .

بت أدرك الآن أن معظم كبار ضباطنا كانوا على بيئة من المعلومات التي جمعتها خلال أبحاثي في ذلك الاسبوع، علماً بأنها كانت جديدة عليّ آنذاك . ولعل التقرير الذي رفعته عنها في حينه هو الأول الذي عرض الموضوع في السياق التاريخي الذي كانوا بحاجة إليه . وعلمت أن الأركان الامبراطورية العامة (البريطانية) انشأت «لجنة أبحاث وتطوير محدودة» لوضع مخطط بغية وضع اليد على منشآت الالمان الصناعية ولعلمية وان اللجئة نسقت مخططها ليتماشى مع عملية «اوفرلود» دون تحسيس مخططي «اوفرلود» بذلك، حسب ما قاله لي لاحقاً أعضاء في قيادتنا . واقام البريطانيون أيضاً تسهيلات التدريب المحققين ورجال الكوماندوس الذين أسندت إليهم مهمة تتبع كبار العلماء الالمان والقبض عليهم، بمعزل عن نشاط جهاز مكافحة التجسس (الاميركي) وشرطة أمن الميدان البريطانية . وبعد أن أخذت أرافق بوريس باتش في جولاته الميدانية علمت من اصدقائي – في مكتب الخدمات الاستراتيجية ومختلف دوائر الاستخبارات البريطانية الذين كانوا يعملون معاً طوراً وبتناقضون تارة – بأن البريطانيين ينظمون فرقة اغارة خاصة ليسبقوا نظرائهم السوفيات في بلوغ منشآت الأبحاث الالمانية ووضع اليد على وثائقها التي نريدها إما لابعادها عن أيدي السوفيات أو لاستعمالها من قبلنا .

أعددت تقريرتي بمساعدة هامة جداً قدمها لي نات سامولز، وهو محام مختص بالقانون الدولي ، أسندت إليه مهمة تسجيل أرقام سيارات الجيب الخاصة بجهاز مكافحة التجسس تحت مراقبة التقيب دويل المتيقظة . سبق لي أن اعتدت الحصول على تقرير لا عمال لم أقم بها أنا، وعدم الحصول على التقرير لعمال قمت بها فعلاً . أما التقرير

الذي مكنتني نات دويل من كتابته فكان العمل الأول الذي لم أحصل فيه على أي تقدير على شيء لم أفعله. ومع ان التقرير لا يحمل توقيعاً لم يبق احد من كبار ضباط إبتوزا الذين يستطيعون الرؤية إلى أبعد من أتوهم. وغاب التقرير عن نظري ولم أتناهده بعد رفعه إلى مرجعه إلا في ملفات إيزنهاور الشخصية عندما كان البروفسور وليم بوينغ يقوم بأبحاثه لوضع كتابه الممتاز بعنوان «إيزنهاور الرئيس».

عفا الله عما مضى. غير أن ذلك الاختبار علمني الكثير لمصلحتي الشخصية ووفر لي أبعداً جديدة وثمينة. إنني أذكر بشكل خاص نقطة اعتلام برزت خلال حديث جرى بيني وبين نات صاموبلز من جهة وبين موظف بريطاني رفيع المستوى من جهة أخرى. فبعد احتسائنا كمية من الكحول قال لنا الموظف ما مختصره: «عندما تفكران بهذه الخبيصة تدركان ان لها نوعاً من المعنى التشرير. ها نحن مثرفون على الدخول في معركة مع أفضل ما تشهده العالم من الجيوش من حيث التدريب والانضباط والعتاد، يتفارع فيها إيزنهاور وموتنغومري وباتن وغيرهم من كبار قوادنا مع قواد شرفاء ومخلصون، ومع ذلك نستطيع الاقتراض باطمئنان إلى انه مقدر لنا ان نربح الحرب. أتعرفان ماذا ينتظرنا؟

هناك هتلر، بالطبع. ولكن صديقنا البريطاني كان يفكر كيف أن شخصاً مثل هتلر قد ارتقى إلى مركز يتمتع بتلك القوة التي لاتصدق في بلد متمدن مثل المانيا. وتساءل: «من سيدتفيد في النهاية عندما تضع هذه الحرب أوزارها، من سيكون فوق؟ — ليس فقط من جهتنا بل ومن الجهة الثانية كذلك. ألقيا عليهم نظرية جيدة ثم اسألا نفسيكما السؤال التالي: هل سيكونون بحال أفضل مما كانوا عليها قبل الحرب أم بحال أسوأ؟ هل كانت الحرب بالنسبة إليهم ربحاً واضحاً أم خسارة واضحة؟ لقد كانت الحرب بالنسبة لي شخصياً ربحاً واضحاً. وكأنت بالنسبة لجميع الآخرين تقريباً في مركز قيادتنا، ولكنني أثنك فيما إذا كان صاحبنا البريطاني يفكر بتلك الصغائر. وفيما كنت عائداً إلى البيت برفقة نات مثيياً على الأقدام قال لي ان ذلك الرجل يحاول تصوير الحقائق بشكل دراماتيكي. ثم أردف: «سيكون هناك دائماً لاعبون ولكن لن يستطيع أي منهم الايتيان بأي حركة على رقعة اللعب إلا عندما يقدم لهم شخص ما نوتة الموسيقى ويجمع افراد الأوركسترا ويستأجر القاعة. إليك النوعين من الناس الذين يجعلون الأحداث تحصل في العالم».

أما بالنسبة لي فكان السؤال الهام في ذلك الوقت كيف أنعاطي في المستقبل مع منظمي الاوركسترا عوضاً عن التعاطي مع العازفين وكيف أستطيع التوفيق بين ما تعلمته من الجنرال لوتن، قائد مدرسة المغاوير وبين ما تعلمته لتوي من نات. لم تكن الحرب العالمية الثانية، في نهاية المطاف، حقبة تاريخية منفردة لها بدايتها ووسطها ونهايتها، بل أنها جزء من عملية طويلة تنطوي على خبيصة هائلة من العقد الاقتصادية والسياسية والعسكرية تجعل أبطالها الأبيين يبدون تافهين بالمقارنة معها. فإذا وضعنا فارق السن جانباً، فإن إدراك ذلك هو الذي جعل من إيزنهاور جنراً الأومني تقيباً.

الفصل السادس

جهاز مكافحة التجسس

ابتعد بوريس باش عن المسرح قبل عدة أشهر من موعد انزال الجيوش الحليفة إلى ثواطئ أوروبا فذهب أولاً إلى لوس الاموس ثم عاد إلى لندن بمهمة سرية فوق العادة لم يكن فيها بحاجة إلى مساعدتي فعدت للعمل مع رئيسي العاديين آلن كالفرت وهاورد ولسن اللذين اكتفيا بتكليفي بمهمات تتناسب ومواهي ومزاجي الفني. أتهما، كل على طريقته، رجلاً خارقاً وانني مدين لهما أكثر بكثير مما اقدتهما — علماً بأنني خدمتهما بكل ما أوتيت من نشاط . فقد كتبت أوراق التخطيط للعقيد كالفرت وقمت بين حين وآخر «بتحقيقات خاصة» — أي تحقيقات تخرج نوعاً ما عن الاساليب المألوفة — بتكليف من العقيد ولسن .

كانت الحرب بالنسبة للعقيد آلن كالفرت أكثر بقليل من تسلية . فمع العلم بأنه أخلص جداً لعمله وأتقنه تماماً فقد بقي في علقه وروحه ماكان عليه في الحياة المدنية أي احد أنرياء النفط من ولاية اوكلاهوما. اعتبر الحرب حقبة «انتقالية» نظر إليها بجديّة طالما هو فيها ولكن كان اهتمامه الأكبر الانتهاء منها والعودة إلى حياته الطبيعية . وكغيره من كبار الضباط في الرقم ٢٠ ساحة غروسفورد اعتبر بأننا سنخرج منها منتصرين .

أما هاورد ولسن فلا يقل «انتقالية» في نظرته عن آلن كالفرت وهو محام من مدينة كينغزبورت في ولاية تنسي يتحلى بجميع الخصال التي نقدرها، نحن أهل الجنوب: الكرامة المقرونة بالمرح وبروح النكتة على غرار الأديب مارك توين . ففي تصرفاته التخصّصية يلتزم التزاماً صارماً بالانضباطية ولكنه يتساهل بالقدر المعقول مع ذلك النوع من الناس الذين يبدون ميلاً نحو النشاطات الفكرية كما انه من ذوي العقول التي تهتم بالرأي السديد أكثر من اهتمامها بالأفكار الرائعة، يترك هذه الاخيرة لأشخاص مثلي ومثل فرانك كيرنز وجايمس إيلبرغر . وفيما أكتب كل هذا، بعد نيف واربعين سنة من حدوثه، لا تلك في أن هاورد ولسن، المعروف تحبياً باسم القاضي ولسن الختير، هو الآن في كينغزبورت بولاية تنسي مشغول مع السيدات يحاولون جمع الأموال للأعمال الخيرية . عمل هاورد في مراحل علاقاتنا الأولى مع كل من ثيودور روزفلت ومع التينخ سباركمن ومع الجنرال دونوفان والأعضاء الآخرين في «هيكلنا» . وعندما أخذ فرانك كيرنز وزوجته يقضيان أكثر أوقانهما مع ثلثة تشلسي حل ولسن محل كيرنز كأفضل صديق لي — وهي علاقة نمت أكثر فأكثر بعد استلامه رسالة من زوجته بدأنها بعبارة : «عزبزي جون» (طلب الطلاق) انتقل على أثرها للإقامة في بيتنا بضاحية لندن .

عندما أفكر بالظاهرة الحكومية المعروفة بـ«بناء الامبراطورية» — الجديدة عندي آنذاك — يكون في ذهني هاورد ولسن . ذلك انه في أي هيئة حديثة وكبيرة، سواء كانت مصنفاً أم جيشاً، هناك فريق يقرر ما يجب عمله وفريق آخر ينفذ — أو اولئك الذين يرشدون الرئيس إلى الأهداف وإلى وسائل بلوغها وأولئك الذين يقومون بتنفيذ العمل المطلوب . يعرف الفريق الاول بأنه «الاركان» ومهمته ما يسمى «وضع السياسة» أما الفريق الثاني فيسمى «الخط» ويقوم أفراد ما نسميه نحن الاختصاصيين بمثل هذه القضايا: «العمليات» . ضباط الاركان يخرجون بالحلول؛ أما ضباط الخط فيطبقونها — ولا داعي للقول بأن على هؤلاء تقع الملامة والعقاب في حال الفشل . من البديهي فيما بين مسؤولي مقر القيادة ان الفريق الأول يتمتع بالسلطة الخالية من المسؤولية (لا أحد يلقي باللوم عليهم إذا ما قصرت الحلول التي خرجوا بها عن حل أي شيء شرط أن تكون تلك الحلول قد «صيغت صياغة جيدة»)

والعكس بالعكس للفريق الآخر. كان هاورد ولسن من أفراد «الخط» فيما كان آن كالفرت في «أركان» فريق ج – ٢ بقيادة العقيد بريان كونراد. ولكن العلاقات داخل جهاز مكافحة الجاسوسية خلت من قضايا السلطة والمسؤولية إلا عند مجيء ضباط ممتننين مثل ابن الكذا وكذا روجر سكسن يبحثون عن حالات يستغلونها فيثيرون تلك القضايا. المشاكل والحلول ومن هو المسؤول عن هذه ومن المسؤول عن: تلك، هذا هو جوهر القيادة العامة في أي منظومة، وتصرف العضو الطموح في المنظومة سيتأثر بل سيستترئذ بهذه الحقيقة. فإن أنت أسندت مسؤولية حل مشكل ما إلى فرد في المنظومة لا يثق باستقراره فيها – وهل ثمة عضو في منظومة كبيرة يشعر بتلك الثقة؟ – لن تكون أفكاره الأولى موجهة نحو البحث عن كيفية حل المشكل. أفكاره هذه تأتي في المرتبة الثانية بكل تأكيد. فالسؤال الأول الذي يخطر بباله هو: «كيف أستطيع أن أجعل من هذا الأمر التافه الذي اخترعه لي رئيسي ليشتغل وقتي به، مشكلاً ذا أهمية بالغة؟» – فمن البديهي أن المرء ينال تقديراً أكبر لحله مشكلاً كبيراً مما يحصل عليه لقاء حله مشكلاً صغيراً.

وهكذا يمكنك ان تتصور ما كنا نمر به في جهاز مكافحة الجاسوسية – فليس بوسعك أن تتوقع من جواسيس يعملون ضدك ان يفصحوا عن هويتهم. فكر إذاً بإمكانات تضخيم المشاكل التي لا تستطيع رؤيتها! الوقائع والحقائق قابلة للقياس، أما التصور والخيال فلا حدود لهما. نحن نشاهد بالعين أي جواسيس (وكان فرائدك يجمع الملاحظات لتأليف كتاب بعد الحرب سيكون عنوانه: «لم تقبض على أي جاسوس»)، ولكن ذلك لا يعني انه لم يكن هناك جواسيس. كل ما يعنيه ان البريطانيين المحتالين عرفوا كيف يتحاشون يقظتنا أو انهم على علم بالجواسيس ولم يخبرونا بذلك.

بحثت في أحد الأيام مع هاورد ولسن في كل ذلك متشدداً على عدم اتصال سلطات الأمن البريطانية بنا، خصوصاً من قبل الفرع الخاص في سكوتلنديارد (لم نكن نعلم آنذاك بوجود جهاز الأمن العسكري – ٥ عند البريطانيين) وأشرت إلى انهم لما تمنعوا عن مساعدتنا في أمر صغير كاغتيال رجل يقف بين ضابط أميركي وبين صديقه فليس لنا بالتالي أن نتوقع منهم المساعدة في قضية كبيرة كالتقبض على جواسيس ألمان.

ثم حذرت الجواب. ترى لماذا انفعل الفرع الخاص في سكوتلند يارد – واغتبظ روجر سكسن – عندما قمنا أنا وفرائدك بتمثيلتنا في ساحة غروسفنور مع «الجاسوس» الالمانى الذي أرشدتنا إليه صديقه فرائدك؟ إن الجواب الوحيد المقنع، على ضوء امتناع أصدقائنا البريطانيين عن التعاون معنا، هو انهم قبضوا على جميع الجواسيس الالمانى في بريطانيا وأنهم لا يريدون ان تتدخل جماعة من الهواة في طريقة استعمالهم للجواسيس وسيلة لارسال معلومات مغلوبة إلى برلين. سألت هاورد ولسن عما إذا كان يظن بأن الامر كذلك فأجاب بالإيجاب وأضاف بأن علينا أن نحصر عملنا بالتشؤون التي تخص الأميركيين وألا يغيب عن بالنا باذنا ضيوف في بلد نشعب فضى بضع سنوات في الحرب ولديه حساسية تجاه حفنة من رعاة البقر القادمين إليهم دون التردد لاستيعاب الحساسيات العديدة في البلد. وأردف قائلاً: إن ما تعودت عليه من النظر «واقعيًا» إلى مشكلة كسب الحرب هي بحد ذاتها عادة غير واقعية. وأوضح أن المشكلة الأميركية الحقة لم تكن كيفية كسب الحرب بل كيف نحقق ذلك مع هذا النوع من «الامبراطورية» بشكل يفيد منه الجميع. كدت أطم وجهي غضباً من نفسي لعدم استطاعتي إدراك تلك النقطة من دون مساعدة أبي الروحي الآنى.

إذاً إنه بناء الامبراطورية؛ وقد ساهم فيه جهاز مكافحة التجسس في مسرح العمليات الأوروبية مساهمة متواضعة انما فقط بمقدار الحصول على الموافقة لضابطين واحد عشر عميلاً من الجهاز لكل فرقة عسكرية. ولكننا شرعنا مذاك بالعمل الجدي. وبدأ هاورد ونائبه الذي تعين حديثاً وهو رجل بثوش مرح اسمه كلود غوزا، يبعثان بالرسائل يطلبان فيها تزويدنا بالمزيد ومن المزيد الرجال من معسكر ريتشي في ولاية مرييلاند حيث يجري تدريب الجنود والضباط على القيام بمختلف أعمال جمع المعلومات والاستطلاع فاستوعبنا كل الذين استنطعوا ارسالهم لنا فاسترسلنا في ذلك. ثم خطر لهاورد أو لكلود، لم اعد أذكر لمن منهما، بانه يوجد في ايسلندا عدة مئات من رجال جهاز مكافحة الجاسوسية الذين يتمنون أن ينقلوا إلى بريطانيا الجميلة. وهكذا طيرت برقيات مستعجلة أدت إلى نقل عدد من رجال الجهاز من ايسلندا إلى بريطانيا في زمر تتألف الواحدة منها من ثمانية إلى عشرين رجلاً وقد عجبنا لما كانوا يفعلون في ايسلندا .

كنا نعلم ما العمل المتوقع من وحدات جهازنا القيام به عندما تصل إلى أوروبا فرق الجيش التي كانوا ملحقين بها. وتشرع بمقابلة الالمان. حددت لنا أوامرنا ان علينا «تأمين المناخات» المحيطة بقواتنا المقاتلة في تقدمها وتوغلها في أوروبا وبأن علينا عمل كل ما في وسعنا للتأكد من عدم وجود جواسيس المان بين السكان المدنيين يستطيعون توجيه رسائل لاسلكية إلى الالمان. ولكن وعلى ضوء ما راقبناه من الحرب حتى ذلك التاريخ، فهل كان لتلك من معنى ؟

لم يقم المستقبل الذي خططته لنفسه ولزملائي في جهاز مكافحة التجسس على مفاهيم القيادة لما ينبغي لوحدات المكافحة الاسهام به في المجهود الحربي بقدر ما قام على حقائق الوضع التي اتضحت لي من سياق عملي مع بوريس بلش . أما تلك الحقائق فهي :

أولاً — إنه عندما تندفع القوات الحليفة داخل أوروبا لن يكون هناك أي استخبارات المانية لنجابهها. فتسعون بالمئة من الفرنسيين والهولنديين والبلجيكين والالمان الذين جذتهم الاستخبارات الالمانية للعمل وراء الخطوط الحليفة بصفة جواسيس ومخبرين سينسابقون على الانضمام إلى الفئة الرابعة في الحرب. أما العشرة بالمئة من الذين تمنعوا عن ذلك فسيكون الاهتمام بهم الغباء بعينه. فإذا كنا لناخذ الأوامر السارية المفعول على حريتها سينتهي بنا الأمر إلى الصيرورة نوعاً من مؤسسة لرعاية المهجرين. وعليه، فما ان تنزل قواتنا على شواطئ مقاطعة نورمندي الفرنسية حتى نرمي على عاتق الشرطة العسكرية مسؤولية مهمة اعتقال ليس الجواسيس الحقيقيين الذين سيسلمون أنفسهم بل كذلك جماعات السوق السوداء والناس العاديين الذين سيبدعون بأنهم جواسيس ليستفيدوا من الإقامة في مراكز التحقيق المريحة بدلاً من معسكرات اسرى الحرب البائسة. وعلينا القيام بأعمال تتناسب مع المهارات التي حملتنا إلى جهاز مكافحة التجسس. حقاً أنها «تأمين المناخات» السليمة .

ثانياً — علينا الحصول على حصة مما سيصبح دون شك المهمة الرئيسية لمجهود الاستخبارات الاجمالي: ملاحقة الالمان والقبض عليهم سواء كانوا مدنيين أم عسكريين الذين (١) قد يكونون مفيدون لنا بعد الحرب أي العلماء الذين قدموا لالمانيا تفوقها التقني ورجال الاستخبارات الذين تجسسوا على السوفيات أو (٢) النازيين الاصوليين الذين يحاولون الهرب إلى امكنة اخرى في العالم حيث يتمكنون من انعاش حركتهم من جديد. لم يكن أي

من هذين التصنيفين وارداً على قائمة «التوقيت الألي» انهما لم يكونا، حسب معلوماتي، موضوع اهتمام أي هيئة استعلامات أخرى .

ثالثاً – وأخيراً هناك الواقع البديهي وهو أن رؤساءنا المباشريين – كالفرت وولسن وغيرهما – كلهم توافون لانتهاه الحرب والعودة إلى الوطن، وعليه سيوافقون مع أي تجديرات اجرائية تحول عمل جهاز مكافحة التجسس إلى عمل روتيني يسهم في تسهيل حياتهم في الفترة المتبقية من الحرب. كان العقيد كالفرت كله أذان عندما عرضت عليه تلك «الحقائق» فأخذها فوراً إلى العقيد برايان كونراد في قيادة ج – ٢ وبعد اسبوع من العمل من هيئة التخطيط صدرت أوامر جديدة اسندت إلى وحدات جهاز مكافحة التجسس مهمات أمنية بسيطة وسمحت بانشاء وحدات خاصة تقوم بأعمال «انتقالية» أي تلك التي تساعد في تحويل المانيا الهتلرية إلى دولة تكون «مأمونة للديمقراطية». (استعملنا هذه العبارة فعلاً).

هنا، أحيل القراء الذين يظنون بأنني أحاول إعطاء نفسي تقديراً يفرق ما استحق (خلاقاً لما تعلمته في مدرسة المغاوير) أحيلهم على البراءة المرفقة بوسام جوقة الشرف التي تنص صراحة على انني نلته تقديراً «لإسهامي في وضع خطط مكافحة التجسس قبل عملية اوفرلورد»، وعلى التاريخ الرسمي للحرب العالمية الثانية الذي يفصل ذلك التخطيط تفصيلاً دقيقاً. أما ما لم أحصل على تقدير من أجله فهو إسهامي في تأليف فريق «انتقالي» خاص بنا مؤلف من أحد عشر عنصراً تم اختيارهم خصيصاً من بين عملاء مكافحة التجسس للخدمة بقيادة هارولد وولسن وبأوامر خاصة كانت مطاطة ومثقلة بالتعابير العسكرية الروتينية إلى درجة أنها ائتملت على كل شيء – إنما على أساس مؤقت – أعتبرنا أنها يجب أن تشتمل عليه.

ذهبت إلى أكثر من ذلك إذ جندت، بموافقة هارولد وولسن بالطبع عدداً من عملاء جهاز مكافحة التجسس الواقدين على بريطانيا من معسكر رينشي للتدريب المخابراتي في ولاية ماريلند. فقد كان معي نات سامولز الذي ارثدني إلى مواطنه من نيكاجو هنري راغو الشاعر المعروف واستاذ من اسانذة الفلسفة في جامعة نوتردام صار لاحقاً رئيس تحرير مجلة «شعر» الراقية. وكان هناك أيضاً بعض الاكاديميين الذين تعلموا وعلموا خارج الولايات المتحدة، ومراسل أجنبي أو أكثر لم تسعفهم مستنداتهم في الإفلات من التجنيد الاجباري، ورجل الماني المولد وأميركي الجنسية يتقن اللغتين صار فيما بعد النجم الساطع عند الحاجة بين محققينا. وضمت مجموعتنا أيضاً أفراداً «عرقين» من الغرب الأوسط (الأميركي) مثل انطوني فايفادا وهو ليتواني الأصل وأميركي الجنسية ومحلل سياسي يتقن الفرنسية والالمانية فضلاً عن مختلف لغات دول أوروبا الشرقية. أضفت على المجموعة كذلك رجلين من تكساس هما تشارلي بوكر وجون باريش مساعد استاذ اللغة الفرنسية في جامعة تكساس. وعلى الرغم من انهما تعلمتا الفرنسية من الكتب المدرسية فقد كانت طلاقتهما بنطقها تقى بحاجاتنا، هذا فضلاً عن أنهما يكملان حكمتي القروية التي جعلتنا نميز بين الصحيح والمزيف. ثم جاءنا هارولد وولسن بجول نولين وهو كندي فرنسي صار حلال المشاكل في وحدتنا وكذلك بالثقيب دويل الذين احتفظ لسبب اجهله بـ ناب صمويلز يدهن سيارات الجيب في لندن. وكان دويل الرجل المثالي عندنا: فهو لا يدخن ولا يشرب الكحول ولا يطارد النساء.

ومنذ ذلك الوقت وحتى مرور شهر على الانزال في أوروبا، أي موعد نقلنا إلى فرنسا، قضينا الوقت في التعارف على بعضنا البعض وفي تبادل الأفكار عما سنفعله عندما نصل القارة الأوروبية. أما أنا فمألت أوقات

فراغي بتجديد تعارفي بأصدقائي القدامى في مكتب الخدمات الاستراتيجية وهو المؤسسة التي كنت أمل الالتحاق بها في نهاية المطاف.

ومن خلال زيارتي إلى قيادة المكتب بلغني أن منظمة الأمن البريطانية المعروفة بإثارة إم أي ٥ (ربما تعني «الاستخبارات العسكرية - ٥») كانت قد أطبقت فعلاً على كل الجواسيس الالمان ليس فقط في بريطانيا نفسها بل وكذلك في أيسلندا وغربلند وشييتزبرغن وجزيرة جان مايان حيث كانت مهمتهم ارسال تقارير عن حلال الطقس وهي معلومات حيوية جداً لاسلح الجو الالمانى في غاراته على الاهداف البريطانية. وقد جعل الانجاز البريطاني هذا وجود جهاز مكافحة التجسس الأميركي في تلك المناطق غير ذي شأن فلم يعد ثمة مجال للعجب من أن فرق مكافحة التجسس الأميركية وقائدها شعروا ليس فقط ببرودة الأجواء هناك بل وبجو من عدم المحبة والتقدير. من هنا إذا السهولة التي استطعنا بها سحبهم إلى بريطانيا. وبعد أن قبض جهاز الامن العسكري البريطاني على الجواسيس حولهم إلى خدمته، وجعلهم يرسلون إلى الاستخبارات الالمانى معلومات خاطئة ترثدهم إلى أماكن مغلوبة يغير عليها سلاح الطيران الالمنى في بريطانيا.

الأهم من ذلك انني علمت بعد أن حصلت على التصريح السري فوق العادة الذي صار يحق لي بموجبه الاطلاع على تفاصيل «عملية اوفرلورد» ان ثمة أربعين أو خمسين ضابطاً من كبار الضباط اشغلوا بتخطيط جميع تفاصيل الفترة المتبقية من الحرب وأنهم يمارسون «لعبات الحرب» التي أخذت في الحسبان عناصر لم تخطر لي ببال . وباعتباري لاعب بوكر اطلع على كل ما كتب حتى ذلك التاريخ عن نظرية اللعب والسجال أدركت أن وراء تلك الالعب خبرة واختصاصاً رفيعي المستوى. وتسنى لي الاجتماع بما يكفي من الضباط المنخرطين في تلك الالعب لأرى بنفسى انهم على بينة تامة مما يفعلون.

الفصل السابع

الطريق إلى باريس * الدخول إلى باريس

ما هو القاسم المشترك بين هنري كيسينجر وويلبور إيفلند وج. د. سالينغر ووليم سارويان وجون غلينون وجايمس إيكلرغر ومايلز كوبلند؟ هل كونهم جميعاً من أئد الرجال ذكاءً؟ أجل، هذا واحد من القواسم المشتركة. ولكن القاسم الذي كان يجول بخاطري هو اننا جميعاً ذهبنا إلى أوروبا بعد يوم انزال الجيوش فيها وبصفتنا عملاء في جهاز مكافحة التجسس على أن يكون لكل منا دوره في اسقاط هتلر، حسبما جاء في مذكرات سبايك ميلينغ عن الحرب، وقد نشرت بعدها بزهاء ثلاثين سنة. على كل حال أذكر انني وصلت أوروبا في المجموعة التي ضمت غلينون وسالينغر وكان ذلك قرابة الأول من شهر آب (أغسطس) ١٩٤٤، ولست أدري متى وصلها الآخرون الذين ذكرت

بعد ليلة لطيفة ومثيرة رقدنا في آخرها في أكياس النوم العسكرية على تباطئ نور ماندي الرملي يلفحنا نسيم عاطر وتطل علينا النجوم البراقة من سماء نقية، ويشذف أذاننا هدير الطائرات المستمر ودوي المدافع الآتي من بعيد، انطلقت بنا قافلة من ناقلات الجند وسيارات الجيب فحططنا رحالنا في مباني ثكنة فرنسية مهجورة في فالون على بعد كيلومترات قليلة من بلدة كاين وأكثر من مئة كيلومتر من باريس. هنا في الثكنة أخرجنا النرد وورق

اللعب من جعباتنا وخلصت بعض البلهاء من قرابة ٥٠٠ دولار خلال أيام قليلة وخسرت في بعض الأحيان فقط لتقادي سأم استمرار اللعب حسب الأصول .

عندما عدنا إلى ثكنتنا أنا وهاورد ولسن وجون باريش عصر أحد قبيل موعد الكوكبيل رأينا عملائنا الاثني عشر في جهاز مكافحة الجاسوسية وقد تحلقوا حول ثياب يتكلم بسرعة ولم يطلق نذنه مند بضعة أيام وفي اسمال بدلة ضابط الماني، استحوذ على انتباههم بما افترضنا انه قصة يرونها عن إحدى مغامراته الشخصية الحديثة .

وما أن رأنا أحد عملائنا (ربما كان جول نولن) حتى قفز وأففاً على قدمية ليقول لنا: «إن اضخم غنيمة في مكافحة الجاسوسية خلال هذه الحرب» قد سقطت في أحضاننا. بدا الرجل أقرب إلى مهرج في أحد مراتع سوهو الليلية منه إلى ضابط الماني. ولكنه كان في الواقع ملازماً في الاستخبارات الالمانية، ضالماً في محاولة اغتيال هتلر، ونجا من الاعتقال بأعجوبة استحوذ بسردها على اهتمام رجالنا.

هل قلت أنفاً كوكبيل؟ أجل هكذا كانت حياتنا في وحدتنا المرافقة للقيادة. والحقيقة هي ان امسياتنا في وحدات جهاز مكافحة الجاسوسية في أوروبا تختلف إلى حد ما عن حياة باقي المجندين العاديين فقد استقدمنا الطهارة المهرة الذين يعرفون كيف ومن أين يحصلون على اللحوم والخضار الطازجة .

في شخصية هذا الضابط الالمانى، واسمه هيرمن رديكي نوع من السحر. فهو، وان كان يتكلم بثقة المهرج المسرحي، متواضع جداً يتقن الانكليزية اتقاناً تاماً ذلك انه نشأ في منهانن في نيوبورك حيث كان أبوه (حسب قوله) موظفاً في شركة المانية اميركية للنقل البحري. وهو بطبيعته قصاص من الدرجة الأولى ينقل معلوماته إلى المستمع بشكل حكايات تشبه تلك التي تحكى حول نار المخيم في المهرجانات الكثفنية. أما في سرد التفاصيل الدالة على الذكاء فيتوقف عندها بما يكاد يشبه الهوس بها حتى اصغرها. ففي منتصف حكاية او نكتة ما عن أحد كبار الضباط الالمان مثلاً — كخلاف بينه وبين زملائه أو بعض صفاته الشخصية، او اسلوبه في لعب البوكر وغير ذلك — تراه يتوقف ليسترسل في ذكر سن الضابط ووضع العائلة وطول قامته ووزنه ولون شعره وعينه.

لم تتمكن من سير غوره ولكننا وجدنا انا وهاورد ولسن ان حكايته متماسكة جداً ومنطقية تماماً مع صورة الوضع العام في ذهننا آنذاك لأن تكون كلها ملفقة. وعليه قضينا اليوم بأكملة نحاول استشفاف غاية مكيافيلية أو عمالة مشتركة دفعت به للمجيء إلينا. وعندما طلبنا إليه البوح بالحقيقة طلب منا مواجهته بضابط جهاز مكافحة التجسس النقيب مارتن وس الذي علم عنه بطريقة ما انه موسوعة متحركة عن استخبارات القيادة العليا الالمانية .

ولعل ذكر الضابط الالمانى لاسم النقيب الاميركي وس كان سبب اهتمام البروفسور جون باريش الذي قال لهاورد في اليوم التالي: «لكي نصدق أن هذا الرجل يقول الحقيقة، علينا أن نصدق ان مارتني وس أصاب الهدف في وصفه تفاصيل لعبات الحرب التي يمارسها جميع ضباط القيادة العليا الالمانية. فهل تقول بشكل فوري ان هذا الصعلوك حصل على معلوماته من مشاهداته الشخصية أم من قراءته ملف مارتن وس؟

كان الجواب واضحاً، أكده مارتن بنفسه عند وصوله إلى معسكرنا بعد ظهر اليوم نفسه، إذ بادر أسيرنا بالقول:

— «مرحباً يا هرم» ،

— «مرحباً يا مارتى»، أجاب هرمن ببعض الكآبة وان كان قد بدأ يهدأ روعه قليلاً.

قال مارتن: «لقد كنت قتى ثقيلاً».

أجاب هرمن: «أعلم ذلك يا مارتن».

انتهى الأمر، ولاحظنا عند ذلك ان الجنديين الذين وصلا في سيارة الجيب مع مارتى ينتميان إلى الشرطة العسكرية. توجه مارتى إليهما قائلاً: بأن القوة ليست ضرورية وبأن هرم سيأتي طوعاً. أما هرم ردمن وليس ردى — فكان ترجمانا باللغتين مع الجيش السابع، سبق له أن اشتغل بأمر مارتى .

الان ما هو الدرس؟ لقد كان الدرس الأهم آنذاك كامناً في اجوبة هرم عن أسئلة وجهها سام إليه. فقد كانت فرق جهاز مكافحة التجسس الأميركية حتى قدوم هرم إلى معسكرنا تتصور بأننا نحارب المانيا النازية. وكان الرجال يؤمنون باستحالة محاولة العدو المهزوم الانضمام إلينا في حرب ضد «عدو مشترك» هو روسيا السوفياتية. أما أنا وبفضل عملي مع العقيد باش في لندن، فلم يستحوذ على مثل ذلك الوهم، وبت الآن أدرك ان ما سمعه زملائي من هرمن كان الاشارة إلى التي تلقوها عن أن كبار قادتنا ينظرون إلى أبعد من المانيا النازية، إلى الروس الذين تعلمنا أن نتكلم عنهم بعطف ونسميهم: «حلفاءنا الحمر الأبطال». فمن هرم العائد لتوه من مقر القيادة علمنا أن رؤساءنا في واشنطن ولندن يصدقون بأن هناك فعلاً حركة مناهضة للنازية وربما على نطاق واسع في الجيش الالمانى، قد تكون ذات فائدة بعد انتهاء الحرب.

هارولد ولسن وغيره من الذين لم يهتمهم سوى انتهاء الحرب والعودة إلى حياتهم الطبيعية فلم تثرهم تلك الحقائق إلا قليلاً بل ربما أزعجتهم بعض الشيء. أما بالنسبة إلينا نحن الذين نظرنا إلى المستقبل من منظار الاستخبارات لفترة ما بعد الحرب، فقد فتحت أمامنا آفاقاً جديدة.

اضطرت، بعد الكثير من التردد، إلى وضع حد لقصة اعتمدها لسنوات عديدة هي خرافة كوني أول اميركي دخل باريس فور تحريرها من الالمان صحيح انني لا ادعي فخر القيام بعمل لم أقم به فعلاً إلا عندما أتيقن من أن أمري لن ينفصح. أما في تلك الاحال فقد كان هناك الكثير من ابواق الدعاية المناهضة لي، من الذي يعرفون الحكاية على حقيقتها، ولعل واحداً منهم أو أكثر من بين قرابة المليون شخص الذين سيقع هذا الكتاب بين أيديهم يكن لي من العداء ما يجعله يوجه رسالة إلى رئيس تحرير الصحيفة التي نشرت مراجعة لهذا الكتاب أثنت فيها عليه .

أما بشأن التفاصيل فلست على دراية بكامل الحكاية لأنني لم أكن أعرف إلا القليل مما يجري حولي وأخذ الأمور كما تصادفني دون تدوين ملاحظات وحفظنا. كما أن ما اعرفه الآن مستقى من مراجعتي للتقارير القديمة التي وضعت عن الأحداث بعد وقوعها ببعض الوقت، وإلى محادثاتي مع اصدقائي القدامى أمثال لاري كولينز ودومنيك لايبير اللذين ألف ذلك الكتاب الرائع «هل باريس تحترق؟» أما من حيث التواريخ فكل ما استطعت التثبت منه هو انني وصلت باريس قبل يوم واحد من دخول ارنست (پاپا) هيمينغواي إليها. ولا بد أن قرائي القدماء ما زالوا يذكرون انه ادعى لفترة من الزمن بانه أول أميركي وصل باريس في شهر آب (اغسطس) عام ١٩٤٤ — وهو يعني بالطبع انه كان أول شخص من بين المشاهير أدى دوراً بارزاً في تحرير المدينة. ولا ريب في انه كان

على علم بأن مكتب الخدمات الاستراتيجيية استطاع تسريب قرابة الاثني عشر عميداً من عملائه إليها قبل أن تغادرها الجيوش الالمانية .

لنبدأ من البداية. ففي اليوم التالي من إرسالنا هرمن إلى لندن لالتقاط أنفاسه واستعادة عافيته النفسية وصل إلى معسكرنا مقدم في الجيش اسمه غروفر آدمز ينتمي إلى الاسرة الشهيرة في بوسطن، حاملاً ظرفاً مختوماً كبيراً ورسالة خاصة من رئيسه غوردن ثبين الذي رقي في حينه إلى رتبة عميد وكان آنذاك لا يزال في مقر قيادة جهاز مكافحة التجسس في واشنطن. لم يطل به الوقت حتى طلبني المقدم وقال لي: «إن الجنرال ثبين يقدرك تقديرًا رفيعاً وبرى بأذك العميل المناسب للقيام بخدمة صغيرة له نصفها رسمي ونصفها الآخر شخصي. أما النصف الرسمي منها فقد يأتيك بوسام آخر» .

ما هي تلك «الخدمة الصغيرة؟» انها حمل الظرف إلى فندق «ماجيسيتيك» الواقع في جادة فيكتور هوغو المتفرعة عن جادة الثنائيليزية قرب ساحة النجمة في باريس وتسليمه إلى المقدم كورت ثناماخر مساعد الجنرال ديتريخ فون خولنتز قائد القوات الالمانية في باريس وضواحيها. أما النصف الرسمي من المهمة فكان استعمال ثنتي الوسائل لتأمين مكان في فندق «جورج الخامس» للجنرال غوردن ثبين وكبار ضباط ج - ٢ الذين سيأتون من واشنطن عندما تسقط باريس في أيدي الحلفاء. أضاف المقدم آدمز قائلاً «انك تعرف هؤلاء الديويبين فإن لم نسبقهم نحن إليه استقروا هم فيه. أما نحن الأشخاص المهمين حقاً في هذه الحرب فسيبرسلونا إلى نزل صغير» .

ولكن الالمان كانوا يملأون باريس فكيف لي، بالله عليك دخولها؟ أم هل أنكم تتوقعون مني وأنا في بزة ضابط أميركي دخول فندق ماجيسيتيك، مقر القيادة الادارية للجيش الالمانى والتوجه إلى مسؤول الاستعلامات المهذب طالباً منه إرنادي إلى مكتب القائد العام؟ «أه» قال آدمس: «لقد سهلنا لك الأمور فلا داع لأن تطلع على محتويات الظرف وليس مطلوب منك أن تعرف أن كورت ثنوماخر هو في الواقع من كبار ضباط الاستخبارات الالمانية . ولكن يجب أن تعرف بأن الضابط الذي سيرافقك إلى باريس هو تقيب في الاستخبارات الالمانية ولدينا جميع المسوغات ولوضع ثقنا به وهو يعرف كل المداخل والمخارج. أنه التقيب فالتر غليم وستلتقي به في مدينة شارتر حيث تم الاتصال بينه وبين وحدة مكتب الخدمات الاستراتيجيية. ومن هناك وصاعداً ستكون الأمور سهلة .

هكذا اذكر الحديث الذي جرى قبل نيف وأربعين عاماً. وكأي انسان صارت حياته في أقول لست أذكر طعام الفطور صباح اليوم انما لا زلت أذكر بوضوح حديث ذلك اليوم خصوصاً وانه يشكل محطة هامة في حياتي العملية. غير أنني عندما قصصت الحكاية ثانية على غروفر آدمز بعد عدة سنوات من حدوثها وكنا قد أصدبنا صديقين وتشاركنا في بعض الأعمال، انكرها أولاً ثم قال: «لعلي قلت شيئاً من ذلك القليل على سبيل المزاح. فكل ما أراده منك الجنرال غوردن آنذاك العثور على ثنوماخر أينما كان «حتى ولو استلزم ذلك زهابك إلى فندق ماجيسيتيك، للعثور عليه» قارنت ذكرياتي لذلك الحديث مع بعض الزملاء القدامى فقالوا انهم يتذكرون ان المحادثة جرت حسبما أوردتها.

المهم انني اعرف الآن ما فهمته آنذاك. وعليه وبعد أربع وعشرين ساعة وبعد تحاشي طرق القوافل العسكرية، والشرطة العسكرية التي تسهل السير، والمرور بالمدينين المرجين بجنودنا ومختلف أصناف الفوضى في حرب

قاربت بلوغ نهايتها، أوقفنا سياراة الجيب أمام فندق ريفي لفة الالهال يقع في غابة متاخمة لمدينة شارتر وفيه شاهدت الملازم دان هنتر من مكتب الخدمات الاسترائجية .

فرح دان كثيراً لرؤيتي وبادرني بالقول : «كلما عجلتم في تخليصنا من هذا الرجل كلما كانت الغاية أقرب منالاً . إنه يحمل أوراقاً ثبوتية هامة مدعومة من قبل الجنرال سيبيرت ولدي تعليمات من قبل العقيد بروس تقضي بعدم التعرض الفضولي له» أما الجنرال ادوين سيبيرت فهو قائد ج - ٢ في مجموعة الجيش الثاني، أي رئيسنا جميعاً، وأما العقيد دايفد بروس فهو رئيس مكتب الخدمات الاسترائجية في أوروبا، وسبق لي أن تعرفت به في لندن. أردف قائلاً : «إنه حسب ذوقي مفرط بالثقة بنفسه» .

في غرفة هي عبارة عن مشرب (بار) وصالة للتسلية كان الغناء قد توقت، وأصغى بعض صغار ضباط مكتب الخدمات الاسترائجية ورجال المقاومة الفرنسية، بإعجاب إلى ثاب الماني أنقر الشعر ووسيم الوجه يتحدث بمزيج من الفرنسية الباريسية والانكليزية النيويوركية قائلاً : «اسمعوا، يا جماعة، ماهو أمن حيوان في الدنيا (بالفرنسية) أنكم تعلمون! (بالانكليزية) احزوا! (بالفرنسية)» . قلت في نفسي لقد بلغت حكاية التماسح الالمان. فقد كانت قيد التداول في مقر قيادة «إيتوزا» طيلة الثناء المنصرم .

قال الالمانى: «أنتسلمون؟ إذا سأخبركم. أنه ذكر التماسح . إنه أمن الكائنات الحية في العالم. فالانثى تضع ألف بيضة في السنة وبأتي الذكر فيلتهمها كلها باستثناء عشر بيضات أو اثنتي عشرة منها. فلواه لكنا غارقين حتى الحقوبن في بحر من التماسيح» . أخذ هذا الالمانى الذي من المفروض أن أدخل باريس برفقته، يفهقه على الحكاية بمفرده. أما المستمعون إليه بكل ذلك لاهتمام المقرون بالانزعاج بدلاً عن السرور فلم يفتر ثغر أي منهم عن ابتسامة باهتة .

لم أبتسم أنا أيضاً. لقد كان من السهل علي أن أتصور ذلك الثاب وعلى خديه ندبات من جراء المبارزة بالسيف جالساً في مشرب للجة في ميونيخ يصخب بصحبة فتیان نازيين. ولكنه مثل هرمن وكأنهما نسختان عن نفسيهما في هوليود يتكلمان الانكليزية باللهجة الأميركية الدارجة التي لا تشوبها أي لكنة .

راقبت المشهد لبضع دقائق برفقة دان وكنا واقفين في الجهة المقابلة في الغرفة . وهنا سألتني دان : «ما رأيك؟» .

قلت : «أود الذهاب إلى مكان أبكي فيه بمرارة. ولكن دعنا ننتهي من هذه القضية» .

راقبني دان إلى الطاولة التي جلس إليها النقيب فالتر غليم متحدثاً . لم ينتظر غليم أن يعرف دان عنا بل نظر إلينا نظرة يفترض فيها أن تكون نظرة صداقة وقال : «أه، جاك ارمسترونغ، الثاب الأميركي بكليته!»

— قلت : «فرصة سعيدة» .

أجابني «لسان حالي» : هل سنحمل هذه المغامرة الصغيرة على محمل الجدية ؟ أعني هل تتوقع مني جدياً أن ارافقك إلى باريس ؟ .

كانت فكرة دخول باريس أثناء وجود الالمان فيها مجرد وهم خطر بمخيلاتي، ولكن رأيت نفسي عندها أحمل الموضوع فجأة على محمل الجدية فأجبتة : «هذه هي الفكرة بشكل عام» .

قال: «لابد أن هناك مجنوناً». وتحول إذ ذاك النقيب غليم إلى كل حديثه فقال: «المكان يعج بالالمان: أعني أنني الماني وأعلم ما أقول. أقلم تدرك مغزى حكايتي عن التمساح.؟»

الحقيقة انني لم أدركه ولكن دان أدركه فأمسك بي من ذراعي وسرنا مبتعدين عنه ثم قال: «أظن انه من الأفضل لنا أن نتحدث قليلاً».

أطلعني دان أثناء تناولنا طعام العشاء على الوضع العام في مكتب الخدمات الاسترنايجية وفي جهاز مكافحة التجسس وعلى الصورة العامة التي تكونت في ذهنه على أثر وصول النقيب الالمانى. فقال: إن رؤساءنا اعتبروا باريس حينذاك عبئاً علينا. فقد سبق للجنرال ايزنهاور أن سأل مستشارية اللوجستيين: «ماذا ستعمل بها بعد الاستيلاء عليها؟» فأجابوه بأنه إذا أراد عدم تحمل مسؤولية تجويع شعب أجمل مدينة وأكثرها قابلية للانفجار في العالم، عليه أن يكون مستعداً لامدادها يومياً بأربعة آلاف طن من الغذاء والدواء والوقود، أي ثلاثة أضعاف ما يلزم الجيش الأميركي في زحفه نحو الحدود الالمانية. إضافة إلى ذلك فإن القيام بهجوم مباثر على باريس سيجمد عدة فرق من الجيش في حرب ثوارع تدوم طويلاً ينتج عنها خراب المدينة وتحويلها إلى جبال من الركام على غرار ما شاهدنا أثناء مرورنا بـ «سان لو» وبـ «كاين».

وفضلاً عن ذلك اعتبر كبار محلي الاستخبارات الاميركية ان احتلال باريس قبل أن يصبح ذلك ضرورة استرنايجية سيضع الجنرال شارل ديغول (احدى المزعجات البروتوكولية، حسب قول دان) قبل الاوان في موضع المسؤولية داخل البلاد. عندئذ يصبح بين أيدينا حكومة ديغولية تشكل ازعاجاً شديداً لنا بعد الحرب. ولم نكن قد أدركنا آنذاك أن الحكومة التي يستطيع ديغول تأليفها هي بالضبط الحكومة التي كنا بحاجة لوجودها في فرنسا.

على كل حال، هكذا كان التفكير السائد قبل وصولي إلى ثارتر، ومن مصادر عليمه عرف دان انه من المستحسن اتخاذ الترتيبات لاقامة وحدته في ثارتر اقامه مريحة لا حتمال بقائها فيها شهراً آخر على الأقل. قبل دان (وهو الذي يجب التنزه في الثوارع الواسعة الجميلة ويتطلع إلى بلوغ باريس بلهفة صبي ينتظر حلول عيد الميلاد) بهذا الواقع صاغراً وأرسل فريقاً من المستطلعين لشراء الخمر الفاخرة والمكونات اللازمة لطبخ أطباق الذوافة وغير ذلك من الأطايب اللازمة لمجموعته لقضاء الصيف كله.

وفجأة تغير كل شيء وراح دان يتساءل عما إذا كان لمهمتي، أيأ كانت، أي علاقة بالسيناريو الجديد. غير أن فاتر غليم ألقى بعض الضوء على الوضع: بدا ان رأي الالمان قد تبدل. أعتبرت القيادة العليا الالمانية أنها ستبقي قوائها في باريس طالما أدى ذلك إلى تجميد قوائنا حول المدينة في محاولة لاحتلالها، وأقرحها التفكير بأننا سنتحمل أمام التاريخ مسؤولية تهديمها في حرب الثوارع فيها. ولكنها قررت لدى أدراكها باننا تخلينا عن خطة احتلالها وبأننا سنتجاوزها، قررت — بل قرر هتلر — تدميرها لاحتلالها أطلاقاً وركاماً متفحماً .

ولكن جاءت المفاجأة إذ علمنا أن الأوغاد البريطانيين لم يكتفوا بالقبض على كل الجواسيس الالمان في بريطانيا وتحويلهم إلى خدمتهم بل استوظفوا أيضاً نسبة كبيرة من ضباط وعمالء المخابرات الالمانية ليس فقط العاملين منهم في فرنسا بل وكذلك في مركز قيادتهم العليا. إضافة إلى ذلك قاموا بعملهم هذا مزدربين بنا ازدرء المهنيين بالهواة: ذلك أنهم أدركوا بأن دوافع الاجاسوس آنية واتجاهها يميل نحو الفريق الذي يبدو راجحاً. كما أنهم لم يتفقوا ولم يقتنعوا

مطلقاً بهذه «الجاسوسية المفاجئة» التي انشئت قبيل بدء تحول الحرب إلى مصلحتنا. وكان قد بات واضحاً إلا للذين أعماهم تعصبهم أن ميزان القوى يميل باتجاهنا.

وبدا ذلك واضحاً بشكل خاص للقائد الألماني في باريس الجنرال فون خولتيتز الذي تسلم أوامر من هتلر مباشرة بوجود تدمير باريس في أنون من نار ومتفجرات. ولكن فون خولتيتز الذي رأى أن اسمه سينزل في التاريخ على أنه أئد جنوناً من هتلر نفسه، احجم عن تنفيذ الأوامر. ولما ظهر تردده اندفع العملاء البريطانيون بين ضباطه، ومعظمهم من أصحاب الرتب العالية في الاستخبارات الألمانية، يؤبدون موقفه ويستخدمونه رأس حربة في حركة مناهضة للقيادة العليا الألمانية.

عند بزوغ شمس يوم الاثنين في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٤٤ جاءتنا الأوامر من قيادة فريقنا بوجود التحرك الفوري نحو رامبوي الواقعة على بعد ٥٥ كيلومتراً عن باريس حيث سنلتقي بالمقدم كنيث دوانز (رئيس مكتب الخدمات اعتمد البرودة وحتى الانكماش وان كان دون تدخل عن مودة .

سألته لماذا تعرف كالا هبل في الليلة السابقة، الاستراتيجية في مجموعة الجيش الثاني عشر) إضافة إلى تشكيلة من وحدات المكتب ومعها مما معها من أمر مهمة «بإحكام القبضة على المدينة لجهة الاستخبارات». وكان على وحدة دان أن تتحرك قبل حلول الظهر .

ولما كنا قد وصلنا أنا وفالتر ونحن على أتم الاستعداد للمسير تيسر لنا بعض الوقت لتناول طعام الفطور ببعض الراحة .

كان فالتر في ذلك الصباح شخصاً مختلفاً كلياً، هادئ الطبع بل حتى واجماً متأنقاً في بزة عسكرية لا ثنارات عليها قد تكون لضابط من أي رتبة في جيش أي دولة وعليه امارات جديده العمل – ولكنه خلافاً لما كان عليه في الليلة السابقة، فأجاب: «ما أرتدت لأصدقائك ولا هم ارتاحوا لي وبكل تأكيد لم أكن على استعداد للاجابة على أي من أسئلتهم .

لم يكن التحادث سهلاً خلال رحلتنا إلى رامبوي بسبب ضجيج القافلة على طريق خربتها الدبابات والمجنزرات وثاحنات المعدات الثقيلة، إلا ان فالتر استطاع أن يسمعني بأنه من الأفضل اغتنام أول فرصة للتحدث فيما بيننا بعيداً عن الباقيين، وأن يقول لي: «لا أظن بأن الجنرال ثنين أراد منك حقاً الذهاب إلى باريس. تذكر بأنه لا بد اختارك لانه يعتبر اذك تقدم على أخذ المبادرة. أما الآن فقد تغير الوضع كلياً» .

سنحت لنا فرصة التحدث بعد ذلك بقرابة ساعة من الزمن عندما توقفت قافلتنا افساحاً في المجال لمرور الفرقة الفرنسية الثانية. ثرح لي فالتر ان ضابط الاستخبارات الألمانية الذي على مقابلته في باريس كورت ثنوماخر هو صديق قديم للجنرال غوردن ثنين وقد سبق لهما قضاء عطلة فصل الصيف بكاملها معاً وهما دون العشرين من العمر يعمل والدهما كملحقين عسكريين في احدى عواصم الشرق الأقصى .

ما أن مضى علينا في الحديث وقت قصير حتى انضم إلينا دان فأوجزت له ما دار بيننا وأوضحت لفالتر انني منذ الآن فصاعداً سأبقي دان على اطلاع تام بكل شيء. كانت نتيجة الحديث تفاهماً على انني لن انحرف كثيراً عن

الأوامر مهما كانت الظروف إلا إذا أردت اقتحام باريس بمفردي، وأنه من الأفضل ان اترك لفالتر مهمة نقل رسالة الجنرال ثينين إلى ثوماخر. وبطريقة لم تكن قد حددناها بعد، أذهب إلى باريس «بأسرع ما يمكن». وتشمل تقامنا أيضاً أن يغادر فالتر بضجيجهم حسبنا هم من رجال المقاومة السرية. ثم دخل رئيسنا جميعاً العقيد دايفر بروس قائد مكتب القافلة في سان كلود ووجد طريقه إلى بيت آمن يلتقي فيه بكورت ثوماخر حسب خطة بديلة أعدت منذ مدة. عندئذ وبحضور دان سلمت الظرف المختوم لفالتر.

في مكان ما ونحن في الطريق بين شارتر ورامبويي تهنا عن القافلة فاضطررنا للبحث قليلاً ن فندق «غراندي فينور» حيث من المقرر أن يلتقي وحدات مكتب الخدمات الاستراتيجية. وعندما عثرنا على الفندق وجدنا أن حفلة كوكتيل جارية فيه حيث المقدم كنيث داونز رئيس وحدات مكتب الخدمات الاستراتيجية التابعة لمجموعة الجيش الثاني عشر يتبادل الحكايات مع جوني اوكنس (من صحيفة نيويورك تايمز) وبين ولز (ابن مساعد وزير الخارجية سمير ولز) وفرانك هو كمب (رائد في المارينز ربي في باريس مثل دان هنز) وآخرين من نجوم مكتب الخدمات الاستراتيجية الذين أخذت انظر إليهم وقد استحوذت بي البهجة كطالب صغير محاط بشباب في حفلة تخرجهم من الجامعة. ارتعشت عظامي فرحاً. وكان فالتر واقفاً إلى جانبي ولم يسترع انتباهه أحد نظراً لوجود أشخاص كثيرين يرتدون بزات عسكرية مختلفة ونظراً لأنه يتكلم الانكليزية كأبي واحد منا.

عند الساعة التاسعة دعينا إلى عشاء فاخر يختلف كثيراً عما نتناوله عادة في نادي الضباط. وأثناء تناولنا الطعام دخل علينا الأديب ارنست همينغواي (بابا) دخولاً مسرحياً يتبعه عدد من الفرنسيين والخدمات الاستراتيجية فيه أوروبا كلها.

بدالي لبعض الوقت أنه لا يمكن الوصول إلى العقيد بروس. وتوقفنا جميعاً عن الطعام وانتصدنا واقفين وتوجهنا للترحيب بضيوفنا المفاجئين. لم تمض ثوان قليلة حتى شاهدي. نظر إلي نظرة ود مقرونة بالدهشة ثم ناداني جانباً وسألني: «ماذا تفعل هنا بحق الثيباطين؟» قدمت فالتر إليه ثم اخبرته عن الظرف المطلوب مني أخذه إلى فندق ماجستيك. دهش للأمر ووقف فائحاً فاه ينتظر تفسيراً.

أوضحت له أن التعليمات تقضي بالآ يرى الظرف احد قبل أن يصبح بين يدي الضابط الالمانى الذي يجب أن يصل إليه. العقيد بروس شهم واثق من مركزه رسمياً واجتماعياً ولم ينخرط قط في المنافسات الداخلية في القيادة العليا. اكتفى بابتسامة وقال: «أيها الثقيب، القرار عائد لك فافعل ما يمليه ضميرك. أما أنا فلن أطلب إليك ان تعصا الأوامر». وهنا أخبرته بأن الأوامر صادرة عن الجنرال ثينين فابتسم وقال: «امض في مهمتك، يا بني، سيكون كل شيء على ما يرام. ولكن لعله من الأفضل أن تخرج من هذا المكان قبل أن تتحرك قافلة الغجر هذه بعد غد». ثم صافح فالتر وقال: «أتمنى لكما حظاً سعيداً»، وابتعد عنا وهو يبتسم ويهز رأسه.

استمرت الحفلة الليل بطوله تقريباً ووددت لو استطعت البقاء لمشاهدة وصلة همينغواي — أو قل لمشاهدة نجوم مكتب الخدمات الاستراتيجية، بعض يسر بها والبعض الآخر يمل منها. وكنت في ذلك الحين وما زلت من محبذي بابا همينغواي. وأكدت لي لقاءاتي معه بعد سنوات عديدة وحتى وفاته انطباعي الأول عنه وهو «انه شخصية محببة رغماً عن نفسه». ولكن كان عندي في تلك الأمسية والتر غليم ووجوب التخطيط للقائنا بعد ان نفترق. خطر لي

فجأةً اننا على الرغم من الفترة القصيرة التي قضيناها نتبادل الثقة واحداً بالآخر أثناء رحلتنا إلى هذا المكان، لم نعر أي اهتمام لما يجب أن نقوم به بعد اقتراحنا في سان كلود. فغادرنا الغرفة وصخب الحفلة وجلسنا وحدنا على الشرفة نعد خططنا ومعنا أقداح الكونياك وفناجين القهوة.

لم يمض على خلوتنا هذه إلا بضع دقائق حتى انضم إلينا داونز منسق عمليات دخول عملاء مكتب الخدمات الاستراتيجيية إلى باريس. وحدث انه أثناء الحفلة وصل إلى فندق «غراندي فينور» ضابط فرنسي من عملاء الاستخبارات العسكرية البريطانية «أم أي ٦» يحمل أخباراً مفادها أن القائد الألماني لمتقة باريس الجنرال فون خولتيتز قد قرر تنفيذ أوامر هتلر بنسف باريس بمرمتها، وان فون خولتيتز، خلافاً لمعلوماتنا السابقة بات على وثك التنفيذ. وكان كن داونز قد أمر الضابط الفرنسي بالعودة سريعاً إلى باريس لمساندة تحرك أميركي نحو باريس نتقدمه مجموعة الجيش الثاني عشر بقيادة الجنرال برادلي وقال كن: «سنكون بحاجة إلى كل عناصر الاستخبارات التي يمكننا الحصول عليها»، وتوجه إلي بالكلام قائلاً: «ربما باستطاعتك مساعدتنا».

لانا ما قاله كن داونز على انه ليس على علم بمهمتنا، غير ان ذلك لم يكن ذا ثمان بالنسبة إلينا. فقد عرض علينا أن يتقلنا إلى باريس بحيث ندخلها قبل الوحدات الأخرى من مكتب الخدمات الاستراتيجيية مع ضابط من المكتب هو جاك موفينكل وهو من عمري تقريباً له ميول متقاربة من ميولي وسبق لي أن التقيته عدة مرات على طاولات البوكر في لندن كما أنه الرجل الذي أفضله على الآخرين من رجال المكتب لمراقفتي لدخول باريس أثناء وجود الالمان فيها. لم يوافق فالتز وقال: «هذا الرجل راعي بقر. إذهب معه. أما أنا فسأبقى على اتفاقنا السابق وسأنفصل عنكم عن سان كلود».

لست أذكر بالضبط ماذا حدث بين ذلك الوقت ولحظة استفاقتي لأجد نفسي مع سائق سيارتي الهندي الأحمر تشارلي هانثت ضمن قافلة جاك الهادرة في شارع إيطاليا المفضي إلى قلب باريس. كل ما أعرفه انني لم أكن أول أميركي دخل باريس حتى ولو استنيت زهاء المئة عميل من عناصر مكتب الخدمات الاستراتيجيية الذين دخلوها قبل قرابة الشهر تمهيداً لاحتفالات يوم التحرير. غير انه باستطاعتي القول المؤكد اننا انا وجاك وتشارلي كنا الأميركيين الأوائل الذين دخلوها دون أن يكون لهم مهمة محددة فيها. كادت نصيحة فالتز لنا هي الانزواء قليلاً في بادئ الأمر إلى أن يكون الأميركيون الآخرون قد اخذوا يتشاهدون في المدينة بشكل مألوف لدى الناس، ثم الخروج وكأني كنت فيها طول الوقت. وعليه انضم جاك وسيارات الجيب الثلاث المرافقة إلى قافلة من الدبابات الفرنسية المتجهة إلى شارع ريفولي. انعطفنا أنا وتشارلي إلى شارع جانبي ومنه إلى فندق ريتز فيما كان القتال لا يزال دائراً في ساحة الكونكورد. وبينما كان جاك يقفح فندق موريس حيث ينتظر الجنرال فون خولتيتز سنوح الفرصة للاستسلام كذت أنا وتشارلي نشرب الشمبانيا ونأكل الكايفار في مقصف فندق ريتز برفقة مديره الذي اخذته الدهشة. وفيما كنت في قبولتي بعد الغداء الكحولي الذي تناولته انضم كن دوانز إلى جاك وأخذنا يقيمان مركز القيادة لارسال البرقيات إلى الجنرال برادلي ترثنده إلى أنسب الطرق لدخول المدينة بحيث لا يثير إلا الحد الأدنى الممكن من حساسية الفرنسيين. وكان الأهم من ذلك انه استطاع الالتقاء بالقوات الفرنسية التي اقتحمت فندق موريس لاعتقال القائد الألماني الجنرال فون خولتيتز وتقبل استسلامه أما باقي تلك الايام التاريخية الاربعة المثيرة ابتداء من صباح الاربعاء في ٢٣ آب (اغسطس) حتى السبت في ٢٦ منه فتتمثل في ذاكرتي عقداً حبيبانه صور صغيرة كل منها

واضح تمام الموضوع انما بغياب تناليها زمنياً. وفي سهرة طويلة بعد قرابة الخمسة عشر عاماً من انتهاء الحرب قضيناها أنا وبابا همينغواي نستعيد ذكرباتنا، أصر هو على روايته انه ورفاقه من المقاومة الفرنسية سبقوني أنا وزملائي من مكتب الخدمات الاستراتيجيية بدخول باريس. اما روايتي عن أحداث الأيام الأولى لتحربها فمدعومة بشهادات مسؤولي المكتب الذين راجعت معهم وقائعها وبشهادة أهم منها وهي شهادة فالتر غليم وهو الآن مصرفي متقاعد يقيم في جبال الالب النمساوية. ولكن فالتر أيد بابا في واحد من التفاصيل وهو قصة رواها أمام لاري كولينز الذي ضمنها كتابه «هل باريس تحترق؟»

يبدو انه في العشرين أو الحادي والعشرين من آب (اغسطس) – أي قبل يوم واحد من وصولنا انا ودان وفالتر إلى رامبوي – أمضى همينغواي. وبعد ظهر يوم وليته في فندق غراند فينور وبذلك يكون قد سبقنا بوضع ساعات وفي تلك الاثناء خرج من مخبأ في غابة السنديان الدهرية المجاورة عدد من الضباط والجنود الالمان وانتمسوا . جردهم بابا من سراويلهم وأرسلهم إلى المطبخ لتقشير البصل والبطاطا التي كانت من مكونات الطبق الرئيسي في وليمة العشاء التي وصفتها آنفاً.

لم يخبرني فالتر بذلك الحادث في حينه ولكنه اليوم وبعد أربعين سنة من وقوعه قال انه شعر بالارتباك آنذاك من رؤية رفاق له وقد تعروا من ملابسهم من الحقوين نزولاً وفرض عليهم القيام بأعمال يدوية من ذلك المستوى وارتداء ملابس سقاة الفندق المزينة، انما فقط من الحقوين وصاعداً، ليخدموا في غرفة الطعام. وأضاف فالتر انه كان يتوقع من همينغواي عندما دخل الغرفة بضجته وضجيجه ومعه رفاقه الفرنسيون، أن يخلق ذلك الوضع مثهداً، ولكنه لم يفعل. وباعتقادي ان بابا بنز عته إلى خلق المشاهد لم يكن يتوانى عن ذلك .

وذكرني تشارلي هاتش بأن ممرضة برتبة تقيب اسمها غريتا بلومي تابعة لمكتب الخدمات الاستراتيجيية رافقتنا في إلى رحلتنا باريس وكانت طيلة الرحلة ممسكة باعضائه التناسلية تشد عليها كلما سمعت طلقاً نارياً. أضاف تشارلي بأنها تزوجت من طبيب نفساني يعمل في وكالة الاستخبارات المركزية ثم وقعت بغرام احدي السكرتيرات فطردت من عملها عندما تشددت سلطات الأمن بمطاردة أصحاب التندونز الشيوعيين وانتقلت إلى باريس للاقامة مع السكرتيرة في مكان ما من الضفة الشمالية على طريقة جرتروود ستاين واليس توكلاس.

ولئن كانت حياتي في الفترة التي انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية بعيدة كل البعد عن الهدوء والرتابة، فلعلها لم تكن مهمة بالنسبة لهذه السيرة الذاتية؟ يرتابني التذك في ٨ ذلك عند استعادة احداثها في ذاكرتي، ولكن هاكم خلاصة لها مهما كانت قيمته .

أمنت للجنرال غوردن ثين وحادثيته من ج – ٢ اقامة مريحة في فندق جورج الخامس. وبعد أن تصادقت مع مدير فندق ريتز جان، پول واسونفيل فحملته على مطالبة صديقه وزميله مدير فندق جورج الخامس الاحتفاظ بطابق كامل من الفندق «للمبعوثين الخاصين من قبل البيت الأبيض» المتوقع وصولهم إلى باريس في ٢٦ آب (اغسطس) لحضور احتفالات وصول الجنرال تشارل ديغول.

في الثالث والعشرين من الشهر نفسه، وكان قد أمن لنفسه اقامة في فندق ريتز، دخل بابا همينغواي الفندق مع زمرة من رفاقة الطبيين وطلب تماماً كما سبق له ان قال لي: «آة كأساً مزدوجة من المارتيني». ثم دخلت باريس

قوات الجنرال ليكليرك وتلتها فرقة المشاة الأمريكية الرابعة وأخيراً، في ٢٧ منه أقيمت احتفالات دخول الجنرال ديغول المظفر عبر جادة شانزليزيه على أصوات هتاف الجماهير المبهجة وتصفيقها.

ولما كنت «أميركا صرفاً» (حسب ما رأى الفرنسيين بي) وأتقن التكلم بالفرنسية صرت أحد أفراد المجتمع الباريسي الراقي الذي كان يضم في ما ضم في تلك الأيام، أشخاصاً مثل دانيال داريو وفرنسوا روزاي وبيار فريتي وسائنا غيتري وموريس ثوفاليه.

انتهى بي المطاف إلى جناح مريح في الطابق الثاني من فندق صغير يقع عند المستديرة القائمة في منتصف جادة شانزليزيه بين ساحة النجمة وساحة الكونكورد، قبالة مكاتب صحيفة «لوفينغارو» وفوق المحل الذي صار يعرف باسم «لو دراغستور» حيث يهرول السياح الأميركيون لشراء اقراص الالكاسالزر والاسبيرين بعد تصريف نفودهم في مكتب «اميركان اكسبريس» القريب منا.

وفيما كنت أنني ما أسميته فترتي الباريسية» انسحبت من جهاز مكافحة التجسس للانضمام إلى مكتب الخدمات الاستراتيجية استعداداً إلى المهنة التي اعدتها لنفسى لعصر ما بعد الحرب. وبنبغي علي القول، خدمة للتاريخ، أن اهتماماتي في تلك الفترة انحصرت بالعلماء وبرجال المخابرات الالمان الذين قد تكون لهم بعد الحرب من فائدة لنا في مواجهة أي اعداء جدد قد يظهرون كنتيجة من نتائج الحرب.

وأما أصدقائي في فترة الحرب فقد أسعدهم أنتهاؤها ونسيانها باستثناء واحد أو اثنين منهم. وأما بشأن فترة ما بعد الحرب من حياتي فقد عاد إليها ثم خرج منها فرانك جايمس، وعاد إليها نات صمويلز بعد سنوات عديدة وقد صار في منصب مساعد وزير الخارجية في ادارة الرئيس نيكسون. أما الشخصان صاحبيا الفضل علي ومعبودي آلن كالفرت وهاورد ولسن «فقد عادا إلى جذورهما» حسبما كتب لي هاورد في إحدى رسائله بعد عدة سنوات من آخر لقاء لنا.

انقضت قرابة الاسبوع على الاستعراض المظفر الذي قاده الجنرال ديغول في جادة الشانزليزيه قبل بدء وصول الضباط الأميركيين الكبار إلى باريس نزل العقيد كالفرت هاينز في فندق جورج الخامس وتبعه الرائد روجر سكسن، وأصر العقيد هاورد ولدن على الإقامة مع رجال جهاز مكافحة الجاسوسية في فندق يخص شركة كوك السياحية كنافد أمناء لهم في جادة فيكتور هوغو حيث تركزت قيادة «إيتوزا» بعد أن أخلاه الألمان. وجاء برقفته مسؤول كبير وجديد في المجموعة العقيد أورفال راب مرافقاً على التقيد دوبل المشرف على دهان سيارات الجيب ومجموعته، وكلود غوزا وفرانك كيرنز وكامل فصيل باريس من جهاز مكافحة الجاسوسية المؤلف من زهاء ثلاثين عميلاً خاصاً وعميلاً عادياً إضافة إلى قرابة العشرة عملاء من العابرين إلى مراكز أخرى. لم يكن الفندق بفخامة الريتزل كان نظيفاً ومرحاً وتأمين فيه للثياب قاعة طعام خاصة بهم مجهزة تجهيزاً تاماً ولهم أيضاً طهائهم وسقائهم، أي أن الإقامة فيه أنيسة ومرحة. درجت على تناول بعض وجبات الطعام فيه كلما ابتغيت الابتعاد عن «الجو اللطيف» الذي فرضه علي وجود جايمس إيخبلرغر وهنري راغو في جناحهما القريب من جناحي في الفندق. ولا داعٍ للتأكيد هنا بأن أياً منهما لم تكن لديه الرغبة في أن يشاهده أحد في جادة فيكتور هوغو .

وما أن وصل هاورد ولدن إلى باريس حتى شرع بتوزيع المهام على المسؤولين معه، دون أن يسمح لنفسه بدقيقة واحدة للاستمتاع بالثعور بروح المرح السائدة ولا حتى لتفصيل ثغر قناة فرنسية واحدة. كان على فرانك كيرنز قيادة مجموعة للتحقيق في أي قضية تستوجب ذلك داخل مقر القيادة، وتألفت فرق ضم كل منها ثمانية إلى عشرة عملاء مهمتها اجراء مسح أمني لجميع الوحدات العاملة في باريس وجوارها. وكان علي وعلى جون باريش تمثيل جهاز مكافحة الجاسوسية ومكتب الخدمات الاستراتيجي في «التعاونية» (التي صارت تعرف في النهاية باسم «كوب») وهي عبارة عن مركز يحال إليه كل الذين يلقي القبض عليهم عملاء جهاز مكافحة التجسس ومكتب لخدمات الاستراتيجي ورجال الحكومة العسكرية، والمطلوبون من قبل واحدة أو أكثر من تلك الهيئات. و«التعاونية» هذه أقيمت في قصر خاص بآل روثيلد، وقد نهبت جميع محتوياته، قائم في جادة فوش بالقرب من ساحة النجمة (أنوال). وفيها تقرر توجيه الموقوفين كل إلى الجهة الصالحة للنظر في أمره.

عند وصولنا إلى «التعاونية» وجدنا الملازم ثاني دان هنتر برفقة رائد فرنسي اسمه لوبوتيليه يعملان في مجموعة من الأسرى جاء بهم رجال المقاومة السرية الفرنسية أو ألقدهم من بين برائن المقاومة رجال الشرطة العسكرية في الجيش الأميركي الخامس بقيادة الجنرال هودجس. أوضح لنا دان أن الثبوعيين في المقاومة يوجهون اتهامات التعاون مع الألمان إلى خصومهم خصوصاً إذا كان هؤلاء من الأثرياء الذين يملكون منازل أنيقة يطلو نهبها.

قضت الأوامر الصادرة إلى دان بالتحري عن الفرنسيين المؤيدين للنازية الذين قد يتعاونون مع مجموعات من المتصلين في ألمانيا. وعلى الرغم من عدم وضوح الأمر في ذاكرتي أعتقد بأن دان استطاع العثور على بعض

منهم. وكان قد س بين الأسرى أربعة أو خمسة من العملاء الخسيسين الذين ساعدوه في عمله الشاق هذا. ولكنه بذلك مجهوداً أكبر في تحري أوضاع بعض الفرنسيين والفرنسيات الذين اعتبر بانهم قد يفيدونه في عمله بعد الحرب. ففي تلك الحقبة وقبل أن يخطر بباله أن وكالة الاستخبارات المركزية ستبصر النور في يوم من الأيام، أخذ يخطط للاقامة في باريس ليكون على رأس أي منظمة للاستخبارات قد تقوم ممن بين رماد مكتب الخدمات الاستراتيجية. ومن أجل ذلك كان لا بد له من تنمية صداقات لها تأثيرها.

عثرنا بين سجنائنا الفرنسيين على تخصصيات مرموقة تعاون بعضهم مع الالمان فعلاً، على مستوى علاقات اجتماعية أو حتى على مستوى صفقات تجارية مربحة وكان أكثرهم من اليمينيين الأثرياء الذين أراد رجال المقاومة الفرنسية إما إذلالمهم أو نهب ييوتهم. ودأب دان على مراجعة سجلاته يومياً بغية العثور على سجناء يفيدونه بعد اطلاق سراحهم. وكلما اثنته بأحدهم نزل إلى ساحة المعتقل وتقدم من الشخص المعني وسأله أو سألها بلهجة المستهجن قائلاً: «أرجو المعذرة، ولكن ألسن البارونة فلانة؟» وعندما تجيبه بالايجاب تقول: «يا للعار! ساخرجك من هذا المكان فوراً!» وبخرجها فعلاً. وكان كل ما عليه فعله أن يذهب إلى الرائد لوبوتيه ويشهد بالموقوف شهادة طبية وينتهي الأمر.

على الرغم من أن «التعاونية» في عهدة دان يساعده فيها رائد وتقبيان بقي هو ملازماً ثانياً، طبعاً بسبب هفوة إدارية. فقبطته على العمل وإدراكه العميق لسبب تعيينه فيه ولتطابقه مع المهمات التي تكلف بها الآخرون عوامل تستأهل رتبة عقيد. ولجملة من الأسباب صارت «التعاونية» بالنسبة لأشخاص مثلي ومثل دان نقطة مراقبة ممتازة. أما السبب الأهم فكان دان بنفسه.

في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) وقبل اسبوعين من الهجوم الالمانى المعاكس في منطقة الاردن أرسلني العقيد كالفرت بمهمة خاصة في مركز التدريب للاستخبارات في معسكر ريتني، ولاية ماريلند حيث بقيت حتى قبيل عيد الميلاد. لما عدت إلى باريس كادت معسكرات اسرى الحرب التي أقيمت حول باريس مكتظة بالأسرى، وكان عدد من الضباط الالمان الذين يحاولون تحاشي احتجازهم في لمعسكرات ويعرفون بوجود «التعاونية» يتقدمون طوعاً من أبوابها. إلا أن دان أخذ يحول من منهم لا يتكلم إلا الالمانية إلى الشرطة العسكرية ويحتفظ بالذين يتكلمون الانكليزية أو الفرنسية ويرغبون بالادلاء بمعلومات، يحتفظ بهم «كمحتجزين من صنف خاص» ولا يدون اسماءهم في تقاريره اليومية، فيستقيهم المدة الكافية ليحصل منهم على كامل معلوماتهم عن المحور (المانيا – ايطاليا – اليابان).

جاءنا كل الضباط الالمان باللباس المدني وهذا بذاته يدل على انهم أدري من زملائهم الآخريين بطريقة تحاشي الوقوع في الأمر العادي أو ان لديهم أسباباً أخرى للتخفي، أو للسبيين معاً.

أخذ دان على عاتقه أمر استجوابهم فيما أخذت أنا دور المستمع. وكانت الفئة الأولى من المعلومات التي استقيناها منهم انهم يعرفون أكثر منا على أي نحو ستنتهي الحرب. لسنت متأكداً تماماً من أن الرائد في الاستخبارات الكندية ملتون ثولمان قد تحدث مع أي منهم ام لا، ولكن ما قالوه لنا ينطبق تماماً مع ما أورده ذلك الناقد السينمائي والمسرحي الحاذق البصر والبصيرة في كتابه «هزيمة في الغرب». لقد أجمع الضباط الالمان الذين راحوا يفرون

من ساحات الحرب بالعثرات – حتى بعد الهجوم على الاردن ورغم ما بعثه من أمل في نفوس بعضهم في أحلك أيامهم – على أن الجيش الأقوى والأحسن عدة الذي عرفه العالم كان محكوماً عليه بالهزيمة منذ البداية، وان لا سبيل له للاحاق الهزيمة بقوات عدتها وعديدها جيوش من المدنيين .

هل يقصر جيش مثله عن الظفر رغم انضباطه وتدريبه المثاليين وقد قال عنهما مارتن وس وغيره من خبراء غرفة اللعبة بأنهما سيجعلانه يتفوق على جيوشنا القليلة الخبرة ؟ أن تدريبهم وانضباطهم بالذات سبب تفصيرهم عن احراز الظفر. فالضباط الالمان الذين جاءوا «التعاونية» يمثلون أقلية ضئيلة من بين الذين أدركوا حقيقة الواقع ادراكاً صحيحاً. أما الآخرون فأطاعوا الأوامر طاعة عمياء دون طرح اي اسئلة «حتى ولو كان تجاهلها هو السبيل الوحيد للخلاص»، حسب ماجاء في كتاب ملتون ثولمان. إن مجرد التفكير بالمنجي الذي ربما اتخذته الحرب لو خاضوها من دون هتلر لأمر مرعب بحد ذاته، وذلك ما كان مستحيلاً حسب قول ضيوفنا في «التعاونية» .

إذاً، بماذا اختلف ضيوفنا عن غيرهم من الضباط الالمان؟ حسبنا في بداية المطاف بأنهم مناهضون للنازية وبأنه ليس بينهم من هم في فرق أس. أس. أو على الأقل أن من منهم فيها حاولوا اخفاء ذلك. فتيين لنا سريعاً خطأ حسابنا ذلك أن زهاء ثلثهم، حسبما أذكر، كانوا فعلاً من أعضاء أس. أس. ولم يترددوا عن الاعتراف بذلك بل تجاهلوا كلياً احتمال اعتبارنا لهم كمجرمي حرب بسبب انتمائهم إلى منظمة ارتكبت بعضاً من أشنع الجرائم في التاريخ ولأننا بالتالي قد نضعهم في فئة منفردة .

من نواحي الانضباط العسكري الالمانى استرعى اهتمامنا بشكل خاص – نحن رجال المخابرات – جهل كل ضابط تقريباً من الضباط الالمان الذين استجوبناهم لما يجري في قطاعات غيره من الضباط (وضعت باسم العقيد كالفرت تقريراً خاصاً بهذا الصدد رفعه هو إلى المراجع المختصة) . إن ما استقيناه من معلومات من زميلنا في جهاز مكافحة التجسس الملازم ثاني سامي وانراوب الذي يتقن الالمانية (أبسنه بدلة عريف وطلبنا إليه «التظاهر بمظهر البلاهة» – كمن يطلب إلى دانيال داريو «التظاهر بمظهر الدمامة») كاد ان يكون فير قابل للتصديق . فقد اخبرنا بأن ضيوفنا سهرؤا ساعات طويلة بغد إطفاء أنوار «التعاونية» يتبادلون بذهول المعلومات عما كان يجري في قطاعات بعضهم البعض .

لم يكن «موقوفونا الخاصون» مصدر معلوماتنا الوحيد. فهناك أيضاً الأسرى العاديون الذين قبض عليهم على عجل رجال جهاز مكافحة التجسس دون أن يتسنى لهم الوقت لمعرفة ما إذا كان لأمرهم أهمية عندنا بل لأنهم ثنرؤوا بأنهم قد يكونون مفيدين لنا بشكل ما. وكان هناك أيضاً أسرى أدركت وحدات المكافحة أهميتهم ولكنها احتفظت بهم لإبعادهم عن صائدي النازيين الذين باتوا يشكلون مشكلة حقيقية .ولما بدا النصر قريب المنال أصدرت القيادة العليا للقوات الحليفة في أوروبا أمراً باثشاء وحدة خاصة في جهاز مكافحة الجاسوسية مهمتها التدقيق في هويات جميع أسرى الحرب في سجلات القرى والمدن التي سقطت بأيدينا والبحث فيها عن أشخاص مثبته بأنهم مجرمو حرب. فكان أن أخذ العملاء يجمعون «مجرمي الحرب» كيفما اتفق،ذلك أن رجال جهاز مكافحة الجاسوسية، باستثناء القلة الضئيلة منهم مديون في قرارة نفوسهم مهمم الأكبر انهاء مهمتهم والعودة إلى الحياة المدنية. وهكذا كاد أن يكونوا بكليتهم تقريباً غير متعاطفين مع مخططات المسؤولين بعيدي النظر في قياداتنا

المختلفة ومطالبة هؤلاء لهم بتوجيه بعض الاهتمام بالأسرى الذين قد تكون لهم أهميتهم لدى منظمات المخابرات . وعلى الرغم من أنه ترتب عليهم طاعة الأوامر كغيرهم في القوات العسكرية، لم تكن عواطفهم منسجمة تماماً مع ما طلب إليهم القيام به .

اعتمدنا على بعض وحدات جهاز مكافحة الجاسوسية التي كان الضباط المسؤولون عنها قد قرروا، مثلي ومثل دان، احتراف العمل المخبراني. وما أن حل ربيع العام ١٩٤٥ حتى كنا قد نظمنا طريقتنا في استعمال تلك الوحدات بطريقة جعلتها جهازاً لمكافحة الجاسوسية ضمن جهاز المكافحة الأساسي، أي انها صارت «الذنب الذي يهز الكلب» باعتبار انها أخذت تقوم بالمهام المناطة به بينما تحول «الكلب» إلى مطاردة مجرمي الحرب. وقد كان ثمة ما يسوغ موقف رجال الجهاز الأساسي باعتبار أن جهاز مخابرات العدو قد انفرط عقده ولم يبق هناك، حسب التعريف الحرفي، جاسوسية يكافحونها .

وأثناء انتزاعنا الكثير من المعلومات من مختلف أصناف وأنواع الأسرى والضباط الذين أدونا بهم كان دان على صلة مستمرة، اجتماعياً ومهنيّاً، بكل من جوني اوكنس وبن ولزوفران هوكومب وغيرهم في مكتب الخدمات الاستراتيجية الذين جعلوا مكتبهم في جادة سوثيه مع الاستخبارات الفرنسية. ومن هؤلاء وكذلك من «الموالين» لجهاز مكافحة التجسس تبين لنا أن البحث الأهم بالنسبة إلينا يتضمن اربع فئات :

تضمنت الفئة الأولى افراد «الاوكترا السوداء» وهم الضباط الالمان الضالعون بطريقة أو بأخرى مع الأميرال كاناريس في نشاطاته المناهضة لهتلر وخصوصاً في محاولة اغتياله في ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٤٤. وكان آلن دالس المقيم في سويسرا آنذاك قد أقام ما أسماه «علاقة مبدئية» مع بقايا «منظمة مقاومة المانيا» انبثقت من جهاز الاستخبارات الالمانية. ولكننا كنا على علم مثل دالس بوجود زهاء مئة ضابط أو أكثر إما مختبئون أو أن أمرهم لم ينكشف بعد في معسكرات الأسرى .

وضمنت الفئة الثانية ضباط استخبارات، وأكثرهم من النازيين، المختصين بالثبوت السوفياتية. وكانت الاستخبارات البريطانية قد علمت بوجود «مخطط» تعاون الماني أميركي ضد السوفيات وضعه الجنرال راينهارد غيهلن، قائد «شعبة مخابرات شرقي أوروبا» وهي وحدة تحليل تقارير الاستخبارات التي تغطي الجبهة الشرقية. وقد اشدت رغبتنا في سبق الروس إلى القبض على الجنرال غيهلن وعلى الضباط المتصلين بالمخطط (هذا إذا كان هناك مخطط).

ثالثاً — كان هناك عدد من العلماء الالمان الذين كشفتهم اللجان التي حضرنا اجتماعاتها في لندن أنا وبوريس باش بصفتنا مسؤولين عن التفوقية العلمية والتقنية المفروض أن الالمان يتمتعون بها. وكان معنا ان نقبض عليهم قبل السوفيات وأظن بأن هؤلاء هم الذين وضعهم الجنرال غوردن ثدين نصب عينيهم .

رابعاً — وأخيراً كان هناك النازيون الضالون الذين سعينا للقبض عليهم ليس لكونهم مجرمي حرب بقدر كونهم يملكون القدرة على الهرب من الحرب والاقامة في اسبانيا أو في جمهورية ارلندا أو في أميركا الجنوبية أو الشرق الأوسط حيث يخلقون خلايا في البنى السياسية المحلية بغرض انشاء حركات نازية سرية لتقوم يوماً وتحاول

السيطرة على العالم. (حمل بعض زملائنا في دائرة ج - ٢ في القيادة العليا الحليفة على محمل الجد الاثاعة التي سرت بأن انتحار هنلر خبر كاذب وبأنه وسكرتير الحزب النازي مارتن بورمن قد فرا إلى الارجتينين).

إذا نحن نبحث عن راينهارد غيهلن، ذلك النازي النحيل القدر حائك المكائد والمؤامرات الذي قال فيه أن دالس إنه ليس ذلك الرجل الذي أقبل به في ناد أنتمى إليه». لم يسبق لنا أن سمعنا به إلا عندما جاء إلى «التعاونية» ضابط برتبة نقيب ينتمي إلى مجموعة الجيش الأميركي الثاني عشر طالباً «نشره معلومات شاملة» قد تؤدي إلى العثور على غيهلن. ويبدو أن غيهلن قد جمع كل المعلومات المخبرانية المتعلقة بالسوفييات، وأن رئيس النقيب المذكور، أي الجنرال سيبرت جاهد في السعي للعثور عليه. وكنا نحن على استعداد لبذل أي مجهود لتأمين ما يرغب الجنرال سيبرت في الحصول عليه .

كان الجنرال سيبرت تجسيداً للبطولة في أعين جميع الضباط الأميركيين للإمكانات التي يتيجها احتراف العمل في حقل المخابرات. اعتبر الجنرال على وجه العموم بأنه الأبعد نظراً بين رجال جميع وحدات ج - ٢، وحظى بعداء مرير من قبل اليساريين في واشنطن الذين استكروا أي إشارة إلى أننا سنحول اهتمامنا إلى السوفييات فور انتهائنا من الالمان. وعندما وصلت إلى واشنطن تقارير تقول بأن سوء الاستخبارات سبب الخسائر التي لحقت بالأميركيين في معركة الأردن قام اليساريون في الكونغرس وفي الإدارة يستحثون وزارة الحرية لإجراء تحقيق وإلقاء المسؤولية على سيبرت شخصياً. فانضوينا فوراً تحت لوائه وأما له تأييد مجموعات ج - ٢ في كل الفرق والألوية والجيش التي استطاعت أن تدين أن الاستخبارات أنارت بوضوح إلى الهجوم الالمانى المتوقع وان تقاريرها بقيت دون قراءة في مدلة البريد الوارد في مجموعة ج - ٣ .

كما تم تجاهل نشرات المعلومات الشاملة عن الجنرال غيهلن التي بعث بها الجنرال سيبرت. ولما استسلم الجنرال غيهلن إلى وحدة من وحداتنا التابعة لجهاز مكافحة الجاسوسية في موقع مينرباخ، استقبله أمر الوحدة استقبالاً بارداً هذا علماً بأن غيهلن كان على أحر من الجمر للاتصال بسيبرت بقدر ما كان سيبرت مهتماً بالعثور عليه. أما أمر الوحدة المذكورة النقيب ماريون بورتر فهو ضابط كفوء جداً إنما متمهل بتصرفاته ينتظر بفارغ الصبر انتهاء الحرب ولا يولي بالتالي أي اهتمام «للقيم الاستخباراتية» التي قد تكون مفيدة في حال قيام نزاع في المستقبل. ويبدو ان منظر غيهلن وتصرفاته لم ترق له. وعندما قدم غيهلن له نفسه على انه الضابط الالمانى الأعلى الذي نسق جميع عمليات الاستخبارات ضد الروس أجابه بورتر بقوله: «نشرفنا. سنرسلك إلى الروس لتقول لهم ما تعرفه عنهم» .

ولكن خطر ببال ماريون، وهو ليس بالغبي، بأن لا ضرر من تغطية نفسه فائصل بزميل سابق له في وحدة مكافحة الجاسوسية في باريس وسأله: «من هو هذا الرجل المدعو غيهلن، وماذا يريد؟» نقل ضابط جهاز مكافحة الجاسوسية في باريس فحوى المخابرة إلى العقيد ولسن الذي أرسل برقية مستعجلة بخصوصها إلى الجنرال سيبرت في كرونبرغ. وفي ساعة متأخرة من الليلة عينها وصل اثنان من جهاز مكافحة التجسس وأخرجوا الجنرال غيهلن من معسكر أسرى الحرب الذي احتجزه فيه النقيب ماريون بورتر حفاظاً على سلامته. وفي صباح اليوم لتالي كان الجنرال غيهلن وأحد مساعديه، وقد نسبت اسمه، يتناولان وجبة فطور دافئ ويحقق معهما الخبيران الوحيدان

بالتعاون السوفياتية في هيئة أركان الجنرال سيبرت. ولما أضفنا أسماءنا إلى قائمة تزداد طولاً بأسماء الذين ادعوا الفضل بالعثور على الجنرال غيهلن، كان في ذهننا ذلك التسلسل الخاطف للأحداث التي أدت إليه. وفيما بعد تحول الجنرال النازي المراوغ إلى المحور الأهم في نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية داخل الاتحاد السوفياتي .

تبعنا عن كتب، نحن الذين رأينا ان مستقبلنا هو في احتراف العمل المخبراني بعد الحرب تلك التطورات، لأن استراق سامي واينتراوب السمع والتنصت على مداوات ضيوفنا الالمان في الطابق الثالث من قصر آل روتشيلد بعد اطفاء الأنوار بين له أنهم تكلموا عنه كثيراً، فافتتح، وأفنعنا، بأن الجنرال غيهلن هو على الأرجح مصدر معلومات واسعة عن السوفيات. والأهم من ذلك ان أقوال ضيوفنا فيما بينهم دلت على ان الذين أدلوا بها رأوا في الجنرال غيهلن الشخصية التي يلتف حولها المان غيرهم ومثلهم يتوقعون قيام تعاون الماني أميركي في المستقبل .

لخص سامي واينتراوب كل ما استرق سمعه في تقرير لا يختلف عن كل تقاريره من حيث الوضوح والترتيب البديعين. طلب دان إلى النقيب الذي جاء بثمرة المعلومات الشاملة عن غيهلن أن يحمل التقرير وبوصله إلى الجنرال سيبرت. وبعد أيام قليلة توجه سامي إلى كرونبرغ للاشتراك في استجواب الجنرال غيهلن، ولم ألمح البتة إلا بعد مضي عدة أشهر عندما التقينا في احد ممرات المبنى ل في وكالة الاستخبارات المركزية في واشنطن وكان آنذاك في جولة لتلقي الارشادات اساعداً لمهمة جديدة في المانيا .

كانت الفئة الثالثة من الالمان الذين طلب إلى «الموالين» من رجال جهاز مكافحة الجاسوسية إلقاء القبض عليهم الفئة الأكثر حساسية. إنها فئة العلماء الذين اراد علماءنا الحصول منهم على المعلومات عن التطور التقني في المانيا، وخصوصاً بشأن الصواريخ، كما كان السوفيات أيضاً جادين في البحث عنهم. وفي تلك الأثناء أخذ المجهود الاستخباراتي الأميركي في أوروبا يتعرض لنييران النقد الحامية للاهتمام بأن مسؤوليه «يقدمون الوسيلة المصلحية على المبادئ». وشرعنا بالسنة النييران تقرب عندما دعي صديقي القديم موسى دكتور - وهو من ولاية ألاباما مثلي وأسود يتكلم عدة لغات ويحمل شهادة دكتوراه - إلى مكتب نائب قائد «ايتوزا» في فندق ماجستيك ليشرح الأسباب التي حملته على الاستعانة بالنازيين الذين كانوا يعملون لدى الجنرال فون خولتيتز لمساعدة الفريق الفرنسي الأميركي على تعجيل اعادة المناقح والخدمات العامة في باريس إلى العمل المنتظم .

وكان موسى قد اجتذب للعمل معه المدعو «بوبي» بندر (عميل في الاستخبارات الالمانية) وراول نوردلنغ (فصل السويد العام في باريس، تاجر في السوق السوداء استطاع انقاذ الكثيرين من رجال المقاومة الفرنسية من السجون الالمانية وتخليصهم من الموت على يد رجال الغستابو) وغيرهم من ذوي الصلة بالنازيين والواردة أسماؤهم في «لوائح التوقيف الفوري». وكلهم انتركوا بمساعدة موسى في العثور على العلماء الالمان الذين تعاونوا مع علماء فرنسيين في مختلف المختبرات والمصانع الاختبارية في ضواحي باريس. قضت الأوامر الصادرة إليه بالتعاون مع الديغوليين وهم مقاتلون لا مهندسين، من اجل اعادة المرافق البلدية في باريس إلى العمل بأقل اعتماد ممكن على رجال الغستابو والمخابرات والشرطة الالمان المندسين بينهم. أما ذنبه فكان التسامح الذي أبداه مع الفرنسيين من ذوي المواهب التي لم يتمكن من الاستغناء عنها كالكهربائيين والسباكين والنجارين الذين سبق لهم العمل مع الالمان. ولا شك في أنه نصح بعضهم بالفرار إلى سويسرا ومنهم بندر ونوردلينغ وأخوه لم

يتمكن نأب القائد من أذبات ذلك على موسى (ذلك ان قلبه لم يكن إلى جانب التحقيق) ولكن موسى لم ينكر الاتهام والا وهو أفر بصحته عندما وجهه إليه المحققون .

إن المعلومات التي حصلنا عليها عن العملية التي شملت المسرح الأوروبي بأكمله وعرفت باسم «عملية مثبك الورق» أو باسم «مؤامرة مثبك الورق»- والأمر هنا يتوقف على الجهة التي تنتمي إليها - جاءتنا تلك المعلومات من موسى وليس من زملائنا في جهاز مكافحة الجاسوسية. تتلخص عملية «المثبك» هذه بأن كل قيادة فيها مجموعة كبيرة من البطاقات الفهرسية سواء كانت قيادة جيش أو فرقة أو لواء، عين فيها رقيب أول أقسم يمين المحافظة على السرية وأيظ به مراجعة البطاقات الفهرسية ووضع مثبك للورق على كل واحدة تحمل اسم احد العلماء الالمان الذين قد يؤدي استجوابهم إلى إلقاء الضوء على تلك التوقية التنفيذية الالمانية التي طالما تغلت بالقيادتنا في لندن. وبعد يوم النصر على المسرح الحربي في أوروبا راحت فرق مكافحة الجاسوسية تنزل على معسكرات اسرى الحرب وتسدب منها العلماء المختارين بذلك الطريقة رغم اعتراض المسؤولين في بعض تلك المعسكرات الذين كانوا على بينة من أن معظم العلماء لمطلوبين هم نازيون. وتولت الفرق المذكورة نقل العلماء إلى أمكنة إقامة مريحة حيث عوملوا معاملة خليقة بالثخصيات المرموقة.

أيدت العملية تأييداً تاماً خصوصاً عندما أعطيت الأفضلية فيها «للموالين» من أفراد جهاز مكافحة الجاسوسية . وخامرني التذك في بادئ الأمر أن تكون العملية المهمة التي أعدها الجنرال ثينين لي عندما رتب لي الاتصال بفالتر غليم الذي لم يكن قد اتصل بي كما توقعت منه أن يفعل. ولكن ماذا كانت ردة الفعل على العملية؟ رفض جايمس إيلبرغر وجم غاردنر وغيرهما في وحدتنا في باريس، وكلهم متحلون بالعقيلة الجامعية الليبيرالية، رفضوا التعاطي معها. أما اليهود بيننا فانهمرت دموعهم عندما سمعوا بها. وبصفتي مسيحي مؤمن بالأنجيل ومصاب بداء «التشكيل المقلوب» - كما وصفني فرانك كيرنز في كل مرة غضب مني لاحتقاضي بروح الدعاية إبان الازمات - (دون ذكر تخلفي الفطري طبعاً) لم أتمكن من وضع أي هدف لنفسي غير كسب الحرب والعمل من أجل عدم قيام حرب عالمية ثالثة. لا أريد هنا الادعاء بالترفيع ولكني لم أر أي سبب بل لم أشعر بأي سبب للتأثر من الالمان مهما كانت بشاعة الجرائم التي اقترفوها.

ولكن ونزولاً عند إصرار صديقي الممثل المجنون ستيرلينغ هايدن ذهبت لأتخرج على معتقل بوخنفالدي النازي . تضمنت مجموعة زوار المعتقل التي فرضها علينا ستيرلينغ كلاً من سامي وإينتراوب وعميل خاص من جهاز مكافحة الجاسوسية اسمه إرفنغ أرونسن. لاريد في أن مشاهدة المعتقل هزنتي بما فيه الكفاية وكان تأثيرها في نفسي أقوى بعشر مرات من تأثيراتي من الأفلام التي شاهدناها عن المحارق على شاشات التلفزيون. ولكن تأثير مشاهدتها برفقة سامي وإرفنغ كان أقوى بمئة مرة. وافقت مع نات صمويلز وهو يهودي بمقدار سامي وإرفنغ ان ادلالنا المبرمج للالمان في أعقاب الحرب العالمية الأولى كان سبب قيام هتلر، ولكنني رفضت الاشتراك في عملية تثير نفور وغضب نسبة مئوية مرتفعة من اقرب اصدقائي .

بعد مرور خمسة وأربعين عاماً على العملية اعترف طوم بووار من هيئة الاذاعة البريطانية في كتابه «مؤامرة مثبك الأوراق» بأنه لربما لم تتمكن من الصعود إلى القمر لو أن «المؤامرة» فشلت، وأضاف بأنها كانت غير

اخلاقية وجاءت نتيجة «فرض سلطوي» من قبل المؤسستين العسكريتين البريطانيتين والأميركية. وإذا كان سخط بوار عليها الآن بهذا المقدار فهل نستطيع أن نتصور مدى السخط عليها لخمس وأربعين سنة خلت ليس فقط بين اليهود من أفراد جهاز مكافحة التجسس ومكتب الخدمات الاستراتيجيية بل كذلك بين كل الليبراليين منا؟

من الصعب جداً وصفي بانني ليبييرالي، لا اليوم ولا في أيام تدبابي ولكني أكاد أعتقد الرأي الذي ابداه اي .ام .فومستر عندما فر صديقنا المشترك كيم فيلبي إلى موسكو. قال: «إذا ما أجبرت يوماً على الخيار بين صديقي أو بلدي أرجو أن تكون لي شجاعة اختيار صديقي». ولكن إبان عملية «مثبك الورق» لم يكن الخيار المطروح على ذلك النحو، أو على الأقل لم أره على ذلك النحو، وعليه قلت لهاورد ولسن انه لو طلب مني الاثنتراك به على أي حال لرفضت .

ننتقل الآن إلى الفئة الرابعة أي إلى النازيين الضالين الذين يملكون القدرة والوسائل التي تمكنهم من الفرار إلى اسبانيا أو جمهورية ارلندا أو أميركا الجنوبية أو الشرق الأوسط. قلت في نفسي لعل هذه الفئة هي التي يفكر لي بها الجنرال غوردن ثين، ولكن لم أكن لأتأكد من ذلك بغياب فالتر غليم. وفي تلك الفترة بالذات ظهر فالتر من جديد! ففي اليوم التالي لاستسلام اليابان في ٢٥ آب (اغسطس) ١٩٤٥ سمعت طرقاتاً خفيفاً على باب جناحي في الفندق في باريس. وفي الباب وقف فالتر ببدلة زرقاء مفصلة له خصيصاً وقبعة هومبورغ وشمسية ملفوفة باتقان وكأنه من طبقة كبار الانكليز متوجه إلى عمله في شارع هوايتهول. ظن هنري لما فتح الباب بأنه احد ضباط المخابرات لعسكرة البريطانيين المملين وكاد يقول له إنني خارج الجناح. ولكن فالتر لم يعره أهمية وسار نحو كرسي جلس فيه بانتظار أن أنتهي مما كنت أعمل في الحمام .

دهشت لثقته بنفسه. هاكم ضابط الماني باللباس المدني أت في وضح النهار إلى ثنقة ضابط أميركي دون أي سرية أو تحفظ ظاهرين، فتلعثمت وخانتني الكلمات واختقت من ذهني كل الاسئلة التي اعدتها لأطرحها عليه منذ اليوم الأول لافتراقنا في سان كلود حتى الوقت الذي واجهت فيه وحدثنا في باريس قضية «مثبك الورق» وأمام ذهولي اتخذ هو المبادرة وبعد تبادل التحية بحرارة والسؤال عن سير أعمالي وممازحة هنري بأن الأوضاع في باريس أيام الالمان لم تكن بالسوء الذي يصورها به الفرنسيون سلمني ظرفاً وقال «أظن أنه يحتوي على مستقبلك» وانصرف دون ان نكون قد تبادلنا عشر كلمات .

أما هنري الذي أطل من الناظفة ليثاهد رجله فيما كنت أفتح الظرف فقال لي انه سعد في المقعد الخلفي من سيارة سبيتروين فخمة يقودها سواق، وقد انصرفت بهدوء كما لو كان راكبها دبلوماسي ترك بطاقات في وزارة الخارجية الفرنسية. وأضاف: «أصدقاؤك ممتازون» .

لا بد لي من الاعتراف بأن محتويات الظرف وهي عبارة عن اسماء دون اي ملاحظات لست وعشرين (٢٦) ضابطاً الماينا من رتبة ملازم ثان إلى رتبة عقيد ليسوا من ضباط القوات العسكرية العادية بل من الـ SS لم تكن لي ثيناً حتى قابلتها بعد ظهر ذلك السبت بالملفات المركزية في فندق ماجيستك. ولم أدرك، بعد مقابلة الأسماء بمختلف القوائم بأسماء المطلوبين إلى أي فئة انتموا وتأكدي من أن ايا من الأسماء التي اعطيت لي موجود عليها،

لم أدرك فوراً لماذا يأتي ضابط الماني قادر على التجول بحرية في باريس في سيارة يقودها سواق لزيارة ضابط أميركي في وضح النهار وبسلمني مثل تلك القائمة. أمضيت بعض الساعات من التفكير للحصول على دليل .
أما أنتم الذين رأيتم نوراً في ذلك فيحق لكم المفاخرى بذكائكم الحاد. وأما فيما يخصني فعندما أضاء النور طريقي لم يسعني إلا التلفظ بعبارة: «بالبلاهة». وكنت قد قررت العودة إلى التمرين على عزف البوق والانضمام إلى فرق موسيقى الجاز. ولكن الفضول، إضافة إلى مقدار من الشعور بحب المغامرة الذي صار هوساً، جعلاني أقرر الاستمرار في مهنة المخابرات لسنة على الأقل.

الفصل التاسع

مجددا في واشنطن

مسرح اللعبة وصناعة القرار

عندما استعرض مجمل مراحل حياتي يتبين لي انها بدأت تأخذ معناها الحقيقي في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٥ يوم التحقت بوحدة الخدمات الاستراتيجية وهي من بقايا مكتب الخدمات الاستراتيجية الذي أخذ آنذاك يتحول تدريجياً إلى وكالة الاستخبارات المركزية التي ذاع صيتها. وبعد قضاء شهر في حر ورطوبة جو ولاية ألاباما، ونوم هادئ وفطور دسم لذيذ في القطار السريع الذي أفلني إلى واشنطن، بلغت محطة يونيون حيث استقبلني نسيم الخريف العليل وسواق ببدلة رسمية قال لي إن الجنرال والسيدة لوتن، استاذي في مدرسة المغاوير في اسكتلندا يرغبان بأن أقيم معهما في مبنى واردمن بارك حتى عثوري على منزل أقيم فيه. فكانت رحلة بسيارة كاديلك حكومية أفلنتي من محطة يونيون عبر واشنطن عن طريق شارع كاي وعبر متنزه رول كرك حيث اوراق الشجر أخذت تتحول إلى الأحمر والأصفر والبني ثم إلى جادة كونيكتيكت .

وصلنا مبنى واردمن بارك. إنه أعلى نقطة في واشنطن، «بجعل المدينة بأكملها تحت يديك» حسب التعبير المحبب عند السيدة لوتن، وفيه يقدم الشاي بعد الظهر، كما في كونوت لندن، في البهو الكبير على أنغام رباعي وترى يعزف مقتطفات خفيفة من مختلف مقطوعات الأوبرا. في ذلك المبنى أقامت السيدة إيزنهاور أثناء وجود الجنرال في ساحات القتال. وأقام فيه أيضاً نائب الرئيس البن باركلي وكذلك رئيس المحكمة العليا إرل وارن (ولا تزال السيدة وارن تقيم فيه حتى اليوم) ثم جاء جورج بوش وسبيرواغنيو وبيزل ميبستا المضيئة الممتازة التي (حسبما يقال) «تغري الضيوف بتعليق قطعة لحم في الثديك». أما جناح آل لوتن في الطابق السادس فقد أقامت فيه السيدة إيزنهاور ثم آل لوتن فال بوش (جورج أولاً ثم زوجته باربرا وبعدها والدته) ثم نائب الرئيس اغنيو، وبعد ذلك بسنوات عديدة حلت فيها ثمانتي سنوات بهيجة. أما السيدة ميبستا فكانت في جناح مزدوج فوق جناحي تماماً حيث كانت تقيم حفلاتها الشهيرة – إلى أن صرت أنا بعد سنوات عديدة أحيي أنا حفلاتي الخاصة.

كان آل لوتن يعدون الأيام التي تفصلهم عن العودة إلى ولاية كارولينا الجنوبية و«إلى العقل السليم» حسب قول السيد لوتن. ومع ذلك توافر لهم متسع من الوقت للحياة الاجتماعية فكان عندهم ضيوف على العشاء ليدياً، طبعاً حينما لا يكونون فيها مدعويين هم لتناول طعام العشاء عند لاصدقاء. اما ضيوفهم فكلهم من أصحاب المراكز المرموقة ينتمون إلى الظاهرة الحديثة العهد في واشنطن ظاهرة «المؤسسة». والحفلات التي أقاموها يعود جزء

منها إلى شعورهم بالرضى عن مساعدتهم لصديق ثناب في وضع قدميه على السلم، فدعوا إليها تخطيات عسكرية ودبلوماسية لها صلة بالتخطيط لوضع أسرة المخابرات على سكة العمل في أيام السلم. ثنخل الجنرال وظيفة مستشار لدى دائرة الملحقيين العسكريين. ومع انه لم يحمل عمله هذا على محمل الجد الصارم (ذلك انها اقتصرت على اجراء المقابلات للضباط المرشحين من رتبة جنرال الذين «يعرفون أي ثنوكة يستعملون في الولايم الدبلوماسية»، حسب وصف السيدة لوتن فقد أنادت له مجال الاتصال بأسرة المخابرات ومكنته بالتالي من معرفة من بينهم له تأثير ومن منهم لا تأثير له .

مضى على وجودي في ضيافة آل لوتن اسبوعان فقط أدركت خلالهما أن عدداً قليلاً جداً من الأشخاص العاملين داخل أسرة المخابرات سيكون لهم أي تأثير يذكر في مستقبلها. وخطر لي انه إذا كان الضيوف مؤثراً عن سيكون له ذلك التأثير فسأواجه صعوبات كثيرة في عملي أولاً عمل معهم. لم أكن في المناسبات الرسمية التي جرت في واشنطن في تلك الأيام أكثر من ذبابة على الجدار فلا أفتح فمي إلا لطرح سؤالاً خجول بين أن وآخر. ولكنني كنت كلي أذانا صاغية. وفي الحفلات التي أقامها آل لوتن وفيما كان النقاش حاداً حول توزيع الوظائف في مختلف المنظمات الناشئة طرحت سؤالاً. قلت: «لنفرض بأننا سنتخلى كلياً عن دوائر الاستخبارات وأنا لن نتصارع مع أي منها مطلقاً. فماذا نخسر البلاد؟» لم أكن أنوي من وراء ذلك السؤال إلقاء ظلال الشك حول ضرورة وجود الاستخبارات بل قصدت فرض قيام تفكير جدي بأهداف المنظمة التي ستتظم دوائر الاستخبارات. هل نحن بحاجة إليها، وإذا كنا نحتاجها فلماذا؟ وبمعرفة الأجوبة الصحيحة فقط عن أسئلة كهذه يستطيع المنظمون التأكيد من أنهم يوفقون التوفيق الصحيح بين الأهداف وسبل التوصل إليها.

قوبل سؤالي هذا بأدب وتهذيب فقط من قبل معظم الضيوف، إل أن واحداً منهم فقط هو الجنرال جون مغرودر حمله على محمل الجد فحكي قصة اجتماع عقده الرئيس ترومن مع رئيس الاستخبارات الجديدة آنذاك الأميرال سيديني سوبرز. فعندما قال سوبرز بأن وحدة الاستخبارات المركزية الجديدة التي كان يذئنها مهمتها الحيلولة دون حصول «بيرل هاربر» جديدة اجابه ترومن: «لم تصالك بعد المعلومات السرية جداً، وإلا لكنت علمت أن فك رموز التشفرة قد أنبأنا مسبقاً بكل تفاصيل الهجوم على بيرل هاربور. إن الاستخبارات التي كان الرئيس روزفلت بحاجة إليها هي تلك التي تدبئه عما يجب ان يفعله بتلك المعلومات». الواقع ان الرئيس روزفلت كان على علم بمعلومات الاستخبارات وقرر السماح بحصول لهجوم على بيرل هاربور ليكون احدي وسائل اثاره الرأي العام الأميركي الذي كان لولاه غير مبال بالحرب. ومضى الجنرال مغرودر قائلاً: انه أمضرى الشهر السابق بطوله يتحدث عن الاستخبارات وتنظيمها في أعلى الدوائر وانه لم يسمع خلال محادثاته كلمة واحدة تشير إلى ان ما قاله ترومن قد بلغ مسامع أي من المخططين. ومن ناحية أخرى كان كبار المسؤولين في وزارات الخارجية والجيش والبحرية والطيران ناشطين في اختراع أخطار افتراضية تسوع لكل منهم المطالبة بزيادة مخصصات وزارته من الميزانية العامة، وانطوت اختراعاتهم على مجموعة كاملة من التعابير والكليثييمات يدعمون بها حججهم. واستدار نحوي مجيباً عن سؤالي فقال: «لا أحد مطلقاً يتساءل ما الذي يجب أن نخشاه، نحن الأميركيين، في عالم ما بعد الحرب».

بعد مغادرة الضيوف منزل آل لوتن أوضح لي الجنرال ان الجنرال مغرودر، وهو خريج كلية وست بوبنت العسكرية ومن أسرة قديمة محترمة من ولاية فرجينيا كان نائب الجنرال دونوثان في مكتب الخدمات الاستراتيجيية

وانه على وشك الصيرورة رئيس الوحدة التي انضمت إليها حديثاً. وقال إن ذلك كان سبب دعوتهم له إلى العشاء. وتبدأ الجنرال وقريته بأن مغرودر لن يبقى طويلاً في منصبه وبأنه من الأفضل أن أتناهد خروجه من منصبه لأنني سأتعلم منه شيئاً، وأضاف: «لن تتمكن من ادراك معنى الأحداث في واشنطن من دون معرفة كيف ينظر إليها أصحاب النفوذ من الرجال والنساء». ففي العاب واشنطن تأتي النتائج من تفسير الأحداث، سواء كانت صحيحة أم خاطئة، أكثر مما تأتي من الأحداث نفسها. وما كان الذين يتخذون القرارات الأكثر تأثيراً في حياتنا ليتبواوا مراكزهم لو لم يتعودوا في مراحل حياتهم الأولى على رؤية الأحداث إلا من المنظار الأكثر ملاءمة لمصالحهم. وإنه لمن المؤسف جداً أن الجنرال جون مغرودر رجل على مستوى من الاخلاص لوطنه أرفع من أن يسمح له بممارسة لعبة واشنطن. على كل حال قررت تلبية طلبه وزيارته في مكتبه قريباً وهي دعوة وجهها لي عند مغادرته بيت لوتن.

وفيما كنت أفصي الأمسيات انتف على أيدي صانعي القرار في واشنطن وبتركون في نفسي أعمق الأثر، جعلت أفصي الأيام في مختلف المباني المؤقتة التي أقيمت بالقرب من نصب لينكولن التذكاري والبحرة المرأة أمامة أقدم الامتحانات النفسانية التي أنشئت إليها سابقاً وأخضع لفحوص طبية وأتلقى دروساً في أصول الامن وأعالج قضايا شخصية مثل العثور على ثقة وشراء سيارة وأستغل مهارتي على أنني أحسن تدير أموري وأعرف المداخل والمخارج لتقادي العرافيل التي يضعها الجيش في طريقي لاستخدم زوجتي لورين وابني مايلز الثالث وكان في الشهر الثامن عشر من عمره، من بريطانيا. وقد وصلا في اليوم عينه الذي ودعت فيه آل لوتن وانتقلنا إلى ثقة لها حديقة في باركفيرفاكس في ولاية فيرجينيا المتاخمة لوطن.

تضمنت مهمتي الأولى العمل مع سيدة لطيفة في الثلاثينات من عمرها تتقن الانكليزية والالمانية مسؤولة عن القسم المختص بالثبوتون الالمانية في وحدة الخدمات الاستراتيجيية المناط بها قضايا مكافحة الجاسوسية. سأوفر على القراء تفاصيل تلك الحقبة القصية واختصر بالقول ان اختياري لتلك المهمة يعود إلى أن احداً من ذوي المراكز العليا قد رأى وهو يقبل أوراق ملفي انني طاردت التقنيين الالمان بنا على أوامر الجنرال ثين، وأن القائمة بأسماء النازيين الستة والعشرين التي حصلت عليها من فالتر غليم قد سمرتني إلى الدائرة الالمانية إلى حد كاد يستلزم اصدار قانون من قبل الكونغرس لانتفالي منها. وفي الواقع جاء ما يعادل القانودن إذ نقلت من عمل إلى آخر فيما كانت وحدة الخدمات الاستراتيجيية وكالة الاستخبارات المركزيية تحول اهتمامها عن مطاردة النازيين إلى مراقبة الثبوتيين.

لم أتوقف طيلة تلك الفترة عن التفكير بان التعليمات الصاردة إلى الوحدات العاملة على الأرض لا تحدد ما الذي يجب فعله بالنازيين الفارين بعد إلقاء القبض عليهم. فالذين استطاعوا الافلات منا منهمكون، لا ريب، بنشاطات ذات تأثير مثنووم على السياسات المحليية، وهذا بالطبع ما يفعله أيضاً عملاء الثبوتيين في الأحزاب الثبوتية المحليية. وعليه ألا يجوز التفكير بان يكون الالمان مفيدون لنا؟ لا شك في ان الفكرة تبعت على الحيرة، ولكن عندما طرحتها على الآخرين في القسم المختص بالثبوتون الالمانية دب الرعب في نفوسهم وأصرروا على أن مطاردة أعدائنا السابقين هي غاية بحد ذاتها وعلى أن السوفيات لم يتحولوا إلى «أعداء» حتى الآن.

على كل حال، ولأسباب لا علاقة لها باخلاقية القضية قررت مبدئياً الابتعاد عنها وطلبت نقلي من القسم الالمانى وفي السنة التي تلت ذلك تغلبت في عدة وظائف وأولها العمل في مكتب اسمه «وحدة اعادة التأهيل والاحالة» تديره كاثي ماركوفيتش وهي تشيكية حصلت على الجنسية الأميركية «تعطف عطفاً خاصاً». حسب قولها، على اولئك الذين انتغلوا «في براري التجسس الدولي الواسعة وهو أسوأ المجالات». تضمنت أعمالنا في المكتب المذكور باستقبال عملائنا الذين بعث بهم الجنرال دونوفان إلى أفاسي المعمورة والترجيح بهم وتكريمهم. والواقع ان البعض منهم لغة النسيان ولم نعثر عليهم إلا من مراجعة القيود والسجلات وكانوا في اماكن نائية بعيدة عن كل ضروب المدينة حتى أنهم لم يدروا بانتهاء الحرب إلا بعد مرور عدة أشهر على استسلام المانيا ثم اليابان. لم يكن عملنا هذا مثيراً بحد ذاته ولكنه في الوقت نفسه تشكل معيناً من الحكايات التي استعملتها أثناء ولائم العشاء والحفلات الأخرى.

انتقلت من مكتب كاثي ماركوفيتش إلى دائرة تدريب $2 \times$ حيث أئدت لي فرصة ممارسة المنهجية بالمعنى الحقيقي لتلك الكلمة لا البديل المتفلسف لكلمة «طريقة». وترتب علينا استنباط الوسائل الصحيحة للقيام بأعمال لم يسبق أن قام بها أحد في السابق – مثل تطويع عملاء للتجسس على السوفيات على افتراض ان التجسس هو الوسيلة الانسب للحصول على المعلومات التي نحتاج إليها. استرعى التقرير الذي وضعته بهذا الشأن اهتمام جم انغلتن الذي بات معروفاً على انه أmeer الخبراء بالوسائل التي يتبعها السوفيات في التجسس علينا. بعد ذلك عينت لمساعدة أحد أهم ضباط المخابرات ومن أفضل الرجال هو بيردي سيلفا الذي اسندت إليه مهمة وضع الرسوم البيانية لتنظيم القسم المختص بالمخابرات في $2 \times$ وكان آنذاك قيد التأسيس وسيصبح فيما بعد وكالة الاستخبارات المركزية. لم يكن عملي هذا بالغ الأهمية ولكنه دعم ادعائي بأنني أحد مؤسسي وكالة الاستخبارات المركزية. (صرت فيما بعد أحد المتني موظف الذي أدرجت أسماؤهم على لائحة الموظفين المحترفين عندما تحولت الوكالة إلى دائرة رسمية في تموز (يوليو) ١٩٤٧).

قضيت الشهر التالي بين يدي هاري روزتسكي الذي الذي نما وترعرع في بروكلين ونال من جامعة هارفرد دكتوراه في علم أصول اللغة الالمانية. لم يكن هاري محلاً وكاتباً ممتازاً فقط بل وكذلك خطيباً ساحراً، جلبت له موهبته هذه من الأسى بمقدار ما منحته من الشهرة. ففي احدى محاضراته في صف من الصفوف التي كنت فيها وكان الموضوع «المشكلة السوفياتية»، ادعى طيلة ساعتين موقف المدافع عن النظام السوفياتي مثيراً بذلك أسئلة متعددة وجهها إليه الحاضرون ومنها: «ما قولك بانعدام حرية الرأي والكلام في الاتحاد السوفياتي؟» ولكنه بيراعته الفائقة بين لنا ان اسئلتنا لم تعد كونها كليثيبيات حمقاء وان السوفيات أقل بلاهة بكثير مما ندسبهم. لقد تعمد في تلك المحاضرة أن يوضح لنا ما كان علينا ادراكه وهو انه ليس من الجائز اطلاقاً لأي انسان الاستهتار بخصمه. غير ان واحدا على الأقل من الحضور توجه فوراً إلى العقيد غالواي، الذين عين حديثاً لرئاسة وحدتي $2 \times$ والاستخبارات السرية لمندمجتين، متذمراً من أن دي سيلفا «يتكلم تماماً مثلما يتكلم الروس».

ولكن دي سيلفا بعمله هذا أيقظنا جميعاً. فقبل الخطاب الذي ألقاه الرئيس ترومن في ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧ المعروف باسم «شرعة ترومن» واتخذ فيه علناً موقفاً مناهضاً للتوسع السوفياتي لم يرد في التعليمات ولا في الخطط التي ترشدنا في مهماتنا أي ذكر للسوفيات. وبعد اسبوع واحد فقط على الخطاب أخذت تنهال علينا

التوجيهات المختلفة بالحصول على معلومات عن نوايا السوفييات ليس لجهة ما إذا كانوا سيتحركون بل وبماذا قد يتحركون. وفي نيسان (أبريل) ١٩٤٧ قالت تقديرات البنتاغون ان باستطاعة السوفييات، من الناحية العسكرية الصرف. بلوغ شواطئ بحر المانش (فرنسا) إذا أر ادوا ذلك. وقال الجنرال كلاي، كبير مندوبينا في برلين آنذاك، بأن حده ينبئ بأنهم على وتلك القيام بذلك. كانت ردة فعل البنتاغون التنبؤ بغزو سوفيائي لأوروبا الغربية كما أن البيت الأبيض رأى الحرب مع الاتحاد السوفيائي وثيقة الوقوع.

لقد أبقى الروس بعد يوم النصر في أوروبا على كامل جنودهم تحت السلاح فيما كنا نحن نعجل بتسريح رجالنا. ولكن تراءى لنا، نحن رجال المخابرات الحديثي العهد بمهنتنا ان موقف ستالين دفاعي كلياً. فالاحتمال المنطقي هو أن تهاجم الولايات المتحدة القوية الاتحاد السوفيائي المنهوك القوى. وعلى الافتراض بأن السوفييات قد يعتبرون أن الهجوم القوي هو أفضل سبيل الدفاع رددنا بالقول إن قوتهم العسكرية لا تعني ثديناً طالما شعروا بأنهم قضموا قضمة أكبر مما يقدر على هضمه. لم يكن بالنسبة إلينا سوى سيناريو مقبول واحد حتى لدى السوفييات الذين يعترضهم مرض الخوف والتشكيك هو ان ستالين سيعزز قبضته عسكرياً على الدول التي استولى عليها ويقف على أهبة الاستعداد. و عوضاً من الانشغال باحتمال وقوع هجوم عسكري، علينا الاهتمام بأن لدى القادة السوفييات اقتناعاً بقرب انهيار اقتصادنا وبأن الشيوعية ستتمكن، ببعض المساعدة السرية من الداخل، من اجتياح الغرب برمته.

سيناريو : «الذئب! الذئب!»

على كل الحالات، ومهما كانت مسوغات التأييد أو المعارضة، فإذا كان محلونا العسكريون يرغبون في تعداد الفرق العسكرية وفي تعليق الدبابيس على الخرائط فليكن لهم ما يريدون، لعل في ذلك ما يحول دون تسكهم في الطرقات. خلال تلك الفترة بالذات كان قد صدر قول عن كبير محلينا ثيرمان كذت أنسخ نصه هنا من الملاحظات التي دوتها آنذاك بخطي السبيء. قال: «التحليل هو القدرة على استخلاص الوقائع وما له صلة بالموضوع من كل الفرصي والتنشويش والكلام الرنان المثير للعواطف والباعث على التحيز». بالفعل ذلك ما كنا نحاول فعله فيما الذين من حولنا يتخلون عن عقلانيتهم بمن فيهم، حسب رأينا آنذاك، جورج كزن، السكرتير الاول في سفارتنا في موسكو، الذي خلت برقيته الشهيرة المؤلفة من ٦٠٠٠ كلمة عن النوايا السوفيائية (مقال «المستر ×» في مجلة فورين أفيرز)، في ظاهرها من برودة التكبير التي حسبنا انفسنا تتمتع بها. فخرجنا بتقديرات موجزها.

أولاً: لا مجال للتوفيق بيننا وبين القادة السوفييات على الوسائل الكفيلة بضمان الامن القومي لكل من الفريقين حسب تفسير كل منهما لذلك التعبير. فعند نهاية الحرب كان الزعماء السوفييات قد التزموا إلى حد اللارجوع بسياسة اعتمدت على تدمير تأثير الولايات المتحدة الرأسمالي في العالم اعتماداً لم يعد بمقدورهم التخلي معه عنها حتى ولو رغبوا بذلك. ونظراً للمناخ السياسي الذي مكنهم من بلوغ موقع السلطة ونظراً لقدرتهم على البقاء فيه فإن تخليهم عن تلك السياسة يعادل الانتحار الشخصي الفوري. وبالتالي لم تكن القضية ان السوفييات هم الاثرار واننا نحن الاخير، بل القضية تكمن في المنحى الذي اتخذه الخلاف: التزامات لا رجوع عنها لدى أحد الفريقين جعلت من نفسها قوة لا تقاوم، تقابلها لدى الفريق الآخر التزامات لا رجوع عنها تجعله لا يتزحزح من مكانه.

ثانياً: لم يكن السوفييات يتخذون اجراءات جديدة تمهيداً لثن حرب «ساخنة» علينا، تقليدية كانت أم ذرية – حتى ولو افترضنا انه إذا لم يكن لديهم قنبلة ذرية بعد، فهم على وثلك الحصول عليها وبما ان القادة السوفييات ليسوا فقط واقعيين بل مصابون بداء التشكيك والارتياب، فهم يدركون بأنهم لا يمتلكون من القوة إلا ما يكاد يسمح لهم بالحفاظ على الدول التي ضموها إلى فلكهم، وكذلك بأنهم، حتى ولو صار لديهم قنبلة ذرية، متخلفون عنا جداً بمعرفة استخدامها بفعالية كبيرة.

ثالثاً: في جميع الحالات كان محللو الاستخبارات الذين يدرسون الشؤون السوفياتية بهدوء وتعمق («أن تفهم أوضاع السوفييات أجدى لنا من أن نكرههم» حسب قول هاري روزتسكي» كانوا وحدهم مقتنعين بأن السوفييات يرون أن لا وسيلة لتقادي نوع من الصراع معنا حتى النهاية واننا وإياهم في صراع متصاعد سواء أردنا ذلك أم لا. لقد أدرك الينين تماماً وكذلك ستالين من بعده ومثلهما أي شخص سيحل محل ستالين ان لا النظام السوفياتي ولا الاتحاد السوفياتي نفسه ولا الكتل الشيوعية برمتها قادرة على البقاء في العالم نفسه الذي ينبض فيه النظام الرأسمالي. فإذا كان الغرب وافقاً على تفتير الانهيار، كما حسب ستالين وجب إذا الدفع به إلى الهاوية، وفي كل الحالات ينبغي على السوفييات «الفوز» علينا بطريقة ما .

رابعاً: إن كان السوفييات غير قادرين على الفوز في حرب «ساخنة» فبأي وسيلة يستطيعون الحاق الهزيمة بنا؟ بالطريقة الوحيدة التي درج الدعايون السوفييات بعد الحرب مبثورة على الترويج لها وكانت ما سموه «المنافسة اللاعدائية» (وهي ما صنف لها من جانبنا اولئك الذي قال فيهم لينين: «البلهاء المفيدون»).. ولكن هنا تكمن النقطة الهامة والخطر، حسبما رأيناها: ليس بمقدور النظام السوفياتي أن يناهض بنجاح نظامنا الرأسمالي ان هو لعب لعبة المنافسة المنصفة حسب أصولهم كما نفهم تلك الأصول. لقد أدرك القادة ذلك أدراكاً تاماً. ففي عهد لينين وكذلك في عهد ستالين من بعده ورد الاعتراف ضمناً من خلال الفلسفات السوفياتية حول موضوع بقائهم في عالم «رأسمالي – امبريالي».

خامساً: استناداً إلى ما سبق يجب أن تكون نظرة السوفييات إلى المنافسة مغايرة تماماً لنظرتنا. فهي لا تعني انتاج مصنوعات أفضل بأسعار أدنى في أسواق يسهل وصول المصنوعات إليها. إنها تعني الحيلولة دون قدرتنا على فعل ذلك. فالكتابات السوفياتية حول الخلاف بين الشرق والغرب تدضح كلها بالفرضية الضمنية بأن استراتيجيتهم تقوم بكيبتها تقريباً ليس على كسب الاصدقاء أو الاراضي أو المواد الأولية لأنفسهم بل على حرماننا منها.

سادساً: إضافة إلى كل ذلك ففي أي صراع قد يدخله السوفييات ضدنا ستقوم استراتيجيتهم على مواطن الضعف الأميركية لا على مواطن القوة السوفياتية، وعلى وجه العموم استبعدت استراتيجيتهم عن رقعة اللعبة الدولية، كما نفهم اللعبة نحن، النظر الجدي بحرب شاملة (علماً بأنها انكلت على التلويح بها تحقيقاً لكسب نفساني) ثم تحولت إلى التشديد على إحاطة العالم بحزام مجنون من الحروب الاقليمية مقرونة بخلق مختلف انواع المشاكل في أي مكان في العالم، ليس ذلك بغرض تحسين قدرة السوفييات التنافسية بل من أجل تخفيض قدراتنا المختلفة. لقد كان الحرمان بمثابة قلب الجوهر في أممية لينين: حرماننا، نحن «الرأسماليين الاستغلاليين»، من المواد الاولية وأسواق

التصريف وإبعادنا من ناحية ثانية عن القواعد العسكرية التي سنحتاج إليها إذا ما اضطررنا «للجوء إلى الخيار العسكري».

سابقاً: لقد ظن السوفييات (وكانوا على حق في ظنهم) بأن انتصارنا أو هزيمتنا في الحروب تحصل داخل الولايات المتحدة نفسها قبلها في ساحات القتال الفعلي. واستناداً إلى ذلك استشفينا ان استراتيجيتهم على رقعة اللعب الدولية ستكون متصلة صلة وثيقة ببرنامج لبث المعلومات المختلفة غايته «تخديرنا حيال أي تشكيك بنواياهم قد يخامر أذهاننا من جهة وتشويه سمعة أي منا ويجرؤ على التحذير من تلك النوايا من جهة أخرى.

ثامناً: لا يسعني وأنا أدون هذه الأسطر إلا استغلال ما في القاء نظرة على الماضي من أغراء بأن أعطي صفة التحليل لما كان خلال فترة ١٩٤٧ - ١٩٥٠، مجرد افتراض يفترق إلى البرهان. من هنا اعتبرنا ان المهمة الرئيسية لوكالة الاستخبارات الجديدة، ان لم تكن مهمتها الوحيدة، هي اختبارها. فعليه، وفيما كان رؤسائنا والمدراء يعدون الرسوم البيانية ويحضرون الأنظمة لمختلف مكونات الوكالة الجديدة اخذنا نحن، على المستوى التنفيذي نستشرف بوضوح المفهوم الذي سنعمل بوحى منه. ومن مراجعة الوثائق والتقارير التي أعدت في حينه يتبين ان الاعتراف بذلك المفهوم قد حصل ضمناً دون اعطائه الصفة الرسمية .

بأسف جديد، لم تتمكن وكالة الاستخبارات المركزية من الاستمرار في النهج الذي بدأت به. وبنظرة أخرى على الماضي رأينا ان بعض الأتباء قد تشوشت واعتراها الخلل:

أولاً: إن أي وكالة حكومية، كما سبق وقلت، تنتظر دائماً دون استثناء إلى أي مشكلة من خلال الوسائل المتوافرة لها لحل تلك المشكلة. من هنا رأيت الدوائر العسكرية في السوفييات مشكلة عسكرية. ولما كادت الوزارات والدوائر الحكومية ذات الموازنات الأضخم هي التي تتمتع بالقسط الأكبر من النفوذ، فما كادت ألتنا المخبرائية الشاملة تتطلق حتى تحول كل اهتمام الأجهزة، ومنها وكالة الاستخبارات المركزية، إلى احصاء الفرق العسكرية وتعداد الجنود وتعليق الدبابيس على الخرائط.

ثانياً: لم تكن وكالتنا أقوى حصانة من أي دائرة حكومية أخرى في مواجهة تلك النزعة، علماً بأن العدة التي تعتمدها للقيام بعملها هي عدة وكالة للاستخبارات السرية. وعلى الرغم من ان للبنتاغون ميزانية أضخم ونفوداً أوسع مما لدى وكالة الاستخبارات المركزية الحديثة العهد، فقد كان لمكتبنا الصغير نسبياً، مكتب العمليات الخاصة (أي ٢×) والاستخبارات السرية معاً) ميزانية أكبر وتأثير أوسع داخل وكالة الاستخبارات المركزية من كل فروعها الأخرى مجتمعة. وانطلاقاً من ذلك الواقع أولينا اهتماماً أكبر لاستعمال الطرق السرية في الحصول على المعلومات مما سوغته النتائج. وخلال سنوات قليلة تعلمنا ان الزبائن المهتمين بالحصول على المعلومات لم يتمكنوا من التحقق إلا من صحة جزء يسير من المعلومات التي وفرناها لهم، وبلغنا أيضاً أن خمسة بالمئة أو أقل من ذلك الجزء اليسير من معلوماتنا المستفاد من مصادرنا السرية تصل إلى البيت الأبيض.

وثالثاً والأهم أدركنا سريعاً بان أفضل معلوماتنا - بل أنها الأفضل من كل المعلومات التي تجمعها الأسرة المخبرائية بمجملها - لم تكن تحمل على محمل الجدبة إلا إذا كانت، حسب وصف ثرين كذت: «من النوع المثير للخوف والذعر»، وهذا يعني التقارير المنطوية على تحذيرات من اخطار صيغت صياغة مرعبة إلى درجة لا يجرؤ

البيت الأبيض على تجاهلها. فإذا كان لزبائن يريدون مرعات فعليها سيحصلون. غير أننا سرعان ما أكدنا من إطلاق صرخات «الذئب، الذئب» فتوقف البيت الأبيض عن الاهتمام بأي معلومات نرفعها إليه – إلا بالطبع إذا كان هو أول من دب فيه الرعب منها وفي ذلك الحال يطلب إلينا تقديم كل ما يمكننا تقديمه تسويغاً لذلك الرعب.

الفصل العاشر

وكالة الاستخبارات المركزية الجديدة والعالم

تحديد التعاون مع الموساد

لم تكن خطبة «شرعة ترومن» التي ألقاها الرئيس ترومن في ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧، قطعة أديبة بالمعنى الصحيح بل عبارة عن مقتطفات من آراء أعضاء إحدى اللجان. غير أنها تضمنت جملة واحدة دلت على أن في البيت الأبيض شخصاً ما، ربما كان ترومن بنفسه، أدرك وجهة نظرنا. جاء في تلك الجملة قوله: «أعتقد بأن سيادة الولايات المتحدة يجب أن تكون تأييد الشعوب الحرة التي تقاوم محاولات إخضاعها من قبل أقليات مسلحة أو صنوط خارجية». إذاً، أقليات مسلحة وضغوط خارجية عوضاً عن تدخل علني من قبل القوات العسكرية السوفياتية؟ ذلك هو الضبط ما كنا نخشاه إلى درجة ظننا معها بأن رئيسنا آنذاك الجنرال فندنبرغ، لا بد قد دس كلمة أو اثنتين في تلك الخطبة. من الثابت إذاً أن الجنرال فندنبرغ قد قرأ فعلاً ما حرزناه من آراء سيديدة وحكم بليغة ليس فقط تلك الواردة في مذكرات هاري روزنسكي بل وكذلك في مواد تدريبنا وكراريس التعليمات والارشادات. مر بذهننا خاطر مفرح: لعل الأتسهر العديدة التي قضيناها في إعادة توجيه منظمنا من العمليات ضد الحركة النازية المتلاشية إلى التركيز على الخطر السوفياني، لم تذهب سدى .

لم يتفرض ذلك التحول دون معاناة وعلى الأخص في قسم ثنؤون أوروبا الغربية حيث معظم أعضاء منظمنا هم من المهجرين اليهود الالمان أمثال هنري كينسجر. ففي واشنطن و عبر البحار كان هؤلاء مدركين تماماً معنى قسم التجسس الذي أدوه (بالتخلي مطلقاً و كلياً عن أي ولاء و إخلاص لأي أمير أو متنفذ أو دولة أو سيادة غريبة ...» كما كانوا أيضاً يستنكرون أي إيماء بأنهم «بصفتهم يهود» يحق لهم «بوطن قومي خاص بهم». فبالنسبة إليهم يعني هذا الكلام أن كونهم يهوداً أميركيين مرادف لا اعتبارهم ليسوا أميركيين حقيقيين، وأن أميركا ليست بلدهم الأوحدهم مثلما هي البلد الأوحدهم للأميركيين غير اليهود. لذلك الكلام رنة تشبه كثيراً تلك الرنة التي هربوا من سماعها قبل سنوات قليلة، أي أن اليهود الالمان ليسوا ألمانيا حقيقيين وانهم بالتالي محللين لأوباش النازيين.

إن تفيدهم بذلك القسم لم يخفف من حساسيتهم حيال قضية إقامة دولة عبرية في فلسطين خصوصاً كلما سمعوا مناهضي السامية من الأميركيين يؤيدون الصهيونيين بالمطالبة بإقامتها عليها تحول اللاجئين اليهود من أوروبا عن الهجرة إلى الولايات المتحدة. وكانوا أيضاً على إدراك حاد من النقاش حول الموضوع، خارج الأسرة المخابراتية، قد انحدر إلى أدنى المستويات ذلك أن السياسيين المناهضين للسامية في سرهم يتفوهون بما يظنونه يرضي الناخبين اليهود وبتهمون الدبلوماسيين المحترفين في وزارة الخارجية بانهم مناهضون للسامية ومؤيدون للحرب .

سمعت هذه المناقشات طيلة السنوات الأربعين الماضية. لم ترق لي في بدايتها ولا تروق لي الآن. غير أن باستطاعتي قول ما يلي: خلال الأربعين سنة هذه قابلت العديد من رجال الكونغرس المناهضين للسامية في سرهم

والمدعين بتأييدهم لاسرائيل في العن، غير اني ما زلت بانتظار ان أقابل دبلوماسياً أميركياً محترفاً واحداً مناهاضاً للسامية مناهاضة مهما كانت طفيفة أو مؤيداً للعرب، حتى من بين اولئك الذين يسمون «عروبيون»، (خبراء بالتشؤون العربية) من الذين قضوا في الشرق الاوسط معظم سني حياتهم المهنية. في العام ١٩٤٧ كان الموقف السائد بين الدبلوماسيين المحترفين الموجودين في مناصبهم لإدراكهم المهني بالتزامات الولايات المتحدة الأخلاقية وبحاجاتها الآنية، بأن علينا دعم قيام اسرائيل دون ان نخدع أنفسنا بالتفكير بأن في ذلك منافع لنا .

أما في البنتاغون فالحكاية تختلف، ذلك انه لما كان المخططون العسكريون والمحللون المخبرائيون يرون أن الخطر السوفيياتي انما هو في جوهره خطر عسكري، ولما كانوا يتوقعون نشوب حرب عالمية ثالثة تتفانل فيها الجيوش والأساطيل البحرية وأسلحة الطيران رأوا في قيام دولة عبرية انها قد تصبح «أعظم حليف متوقّع لنا في الشرق الأوسط» متنبئين – نبوءة جاءت صحيحة – بأن جيشها سيكون أفضل جيوش العالم، بل ربما أفضل من جيشنا.

أما الدبلوماسيون والمحللون المخبرائيون الذين رأوا ان حرب المستقبل ستكون حرباً غير مُعلنة ومزيجاً غير تقليدي من الحروب الاقليمية كحرب العصابات وغارات «المقاتلين من أجل الحرية» وأعمال الارهابية وما ثابته ذلك فرأوا أيضاً ان الدولة العبرية ستشكل عبئاً ثقيلاً حمله، ولكن ذلك لم يعن انهم عارضوا قيامها أو دعمنا لها. وقد انصب اهتمامهم الأوحد على اصرار ادارة ترومن على جهلها المستعصي للمشاكل وعلى نظرتها السطحية إلى الفكرة وأسفوا لرؤية مسؤولينا المنتخبين يصوتون إلى جانب سياسات يعرفون تماماً بأنها مضرّة بالمصالح الأميركية فقط لخوفهم من «اللوبي اليهودي القوي».

وأما رأيي الشخصي ؟ أقول بكل صراحة انه لم يكن لي في الحقيقة أي رأي في الموضوع. ولكنني في السنوات الأخيرة حبذت قيام تعاون وثيق ومفيد للطرفين مع الموساد وهو ثاني أفضل جهاز للمخابرات في العالم بعد الجهاز السوفيياتي ك ج ب، ومتفوق جداً على قسم العمليات الخاصة في وكالة الاستخبارات المركزية . ولكنني تحاشيت الانخراط في تلك الورطة في العام ١٩٤٧ وكادت وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية ضالعة فيها . لقد تعاطفت مع الفريقيين طالما شعرت بأن حججهما أصيلة ومخلصة . ولكنني كمعظم زملائي المحترفين رأيت ان واقع الخلاف كناية عن تسليحة خطيرة على رقعة اللعبة العالمية واستهزئت دخول السياسيين فيها منجذبين بالسوانح التي توفرها لهم عوضاً عن الاهتمام بما تنطوي عليه من حق أو باطل .

بكلام آخر، لم أوافق ولم أعارض مواقف أي من الجانبين لأنها لم ترق لي . برأيي، ثمة مجال للكذب وللسرقة وللأغتيالات ولكل أصناف المكر في الحروب غير المعلنة على رقعة اللعبة الدولية، تماماً كما للقتل والتدمير مكان في الحروب المعلنة كذلك التي مررنا بها أخيراً (الحرب العالمية الثانية) ولكن عندما يتعلق الأمر بالسياسات الداخلية في الولايات المتحدة أكاد أصبح اخلاقياً بعاطفتي .

أقول كل ذلك توضيحاً للسعي الحثيث المفاجئ الذي شرعت به في العام ١٩٤٧ في محاولة لنقلي إلى الخارج . ففي الدرجة الأولى أردت الابتعاد عن سوء التقاهم والخلافات التي أخذت تطفو على وجه الماء بين أصدقائي المقربين. ولكن وعلى الصعيد الاستغلالي الشخصي قصدت بأي ثمن الخروج من واشنطن حيث أخذت «السياسة

الخارجية في الداخل» تظني فجأة على الدوائر الحكومية المعنية «بسياستنا الخارجية في الخارج». فلم يقد جدل حاد وبعيد عن العقلانية حول موضوع فلسطين فقط، بل قام أيضاً جدل مماثل ولو أقل علانية منه، بشأن العلماء ورجال المخابرات الالمان، ومنهم نازيون كثر، الذين درجنا على تهريبهم إلى الولايات المتحدة وإقناذهم من قضاة التحقيق في محكمة نورنبرغ. لقد كذت، كما أوضحت سابقاً، مع تلك النشاطات قلباً وقالباً، ولكنني سئمت فيما بعد من سماع المناقشات المستعرة التي أثارها ذلك الموضوع.

وثمة شيء آخر: لم أحاول الهرب من الخلاف العربي اليهودي كما تصور وقال بعض زملائي من اليهود. فبصرف النظر عن الحسابية التي يثيرها هذا الموضوع في نفسي، لم أعتبره اقرب نقاط الالتهاب لانتعال نار الحرب العالمية الثالثة. لقد تبني محللو المخابرات في البنتاغون نظرية مفادها انه عندما يبدأ العرب والدولة العبرية الجديدة بالتقاتل سيهرع السوفييات لمساعدة العرب، وستبيري الولايات المتحدة لمساعدة اليهود ولا يلبث الخلاف في تصاعد حتى تشتعل نار حرب عالمية. أما أنا فلم أنظر إلى القضية من ذلك الزاوية ذلك ان تقديري لسياسة الاتحاد السوفيياتي الناتج عن قراءتي للمقاطع المترجمة إلى الانكليزية أو الفرنسية من «مجموعة أعمال لينين» المؤلفة من عشرين مجلداً، دلني على ان ستالين لن يحاول الاستيلاء على ماتبقى من أوروبا الحرة بالوسائل العسكرية بل سيسعى بمختلف الطرق لحرمانها من بلوغ المواد الأولية الافريقية فنتحول بالتالي إلى الاعتماد على البدائل من الاتحاد السوفيياتي .

أما مساعدة العرب إلى الحد الذي يجعلهم يخوضون حرباً عالمية ثلاثة فأمر رأيته مستبعداً كلياً عن نهج الاستراتيجية السوفيائية النائدة حديثاً. واعتبرت بأن السوفييات سيقدمون لبعض الدول العبرية المساعدات اللازمة لكي يخوضوا حربهم بأنفسهم – أو بالأحرى ما يكفي لخلق أقصى ما يمكن خلقه من المشاكل لكل ذوي العلاقة بالموضوع بما فيهم العرب أنفسهم – ولكنهم لم ولن يذهبوا إلى أبعد من ذلك في خدمة أي مصلحة عريية. والنهج عينه ينطبق على أي مساعدة، مهما كان نوعها، يقدمونها إلى مختلف المجموعات الثورية في افريقيا التي يهتم بها السوفييات أكثر بكثير من اهتمامهم بالعرب لأن أنظارهم موجهة إلى دول أوروبا الغربية .

لم يكن كل ذلك في حينه سوى مجرد نظريات هشة لم تجد من يعتمدها في مكتب العمليات الخاصة فاستحوذت على حاسة لاعب البوكر من تفكيري بحيث راهنت بمستقبلي المهني عليها.

وعليه ثدرعت أبحث عن منصب في الخارج بدءاً من افريقيا. ولما كنت أنكلم الفرنسية عرض علي الخيار بين ليوبولد فيل وكوناكري وأيدجان وكلها «مراكز مثقفة» لم يتقدم لها احد فرفضتها بسبب تفكيري بعائلتي. ثم جاءني عرضان استهوياتي: ريو دي جنييرو وستوكهولم، ولكن زوجتي لورين رفضتها بسبب اهتمامها بي، واعتبرت أن عملي في اي منهما هدر لمواهي حسب فهمها لها .

ثم جاء الفرغ: دعيت إلى مكتب ستيفن بنروز (ستيف) الخبير العتيق بشؤون الشرق الأوسط الذي حل محل جيمي مورفي في رئاسة مكتب الخدمات الخاصة قال ستيف ان خدماتي «الجيليلة في معالجة موضوع النازيين الهارين قد لقيت التقدير» (بعد طول انتظار). ولما كنت ضعيف الشخصية وبستهويني التقدير على أعمال لم أقم بها احمر وجهي تواضعاً – بدلاً من الاجابة بصدق – وقلت له: «طيب يا ريس» وواقفت على انني أتمتع بما يحتاج

إليه العمل المخابراتي الذي يخولني العمل في أوروبا وأضفت بأنتي أشعر أن واجبي الوطني يدعوني إلى القبول بالعمل فيها إذا ما دعيت إلى ذلك .

لم تكن أوروبا واردة. وفيما كان دمي يتجمد في عروقي أخبرني ستيف بأن التقارير الواردة حديثاً من صديقي القديم فالتر غليم بينت ان بقايا «الحركة النازية» يتجمعون في أميركا الجنوبية وفي الشرق الأوسط وان التحرك النازي باتجاه الشرق الأوسط يثير جملة مشاكل معقدة تستلزم اهتمام ضابط استخبارات قادر على العمل بتجرد كلي.

كنت حتى تلك الجلسة مصمماً على أن الشرق الأوسط هو آخر مكان أسعى للحصول على عمل فيه. ولكن ستيف أراني تقريراً أثار اهتمامي جداً. أعد التقرير الرائد نيكولاس اندونوفيتش مساعد الملحق العسكري المعين في القدس وقوامه مقابلة مع ناصر الدين النشائيبي وهو فلسطيني صار أحد أقرب أصدقائي. وردت في التقرير النقطة التالية: تواجه الحكومات من وقت إلى آخر معضلات لا حلول لها تماماً مثل محاولة العثور على الجذر التربيعي لـ ناقص واحد (1- v). وعندما تبين ان المعضلة هي من هذا النوع يجب أن يتبين كذلك بأنها تستعصي على كل الحلول وعلى المخططين عندئذٍ التخلي عن أي محاولة للعثور على حد لها وتحويل اهتمامهم إلى كيفية تقليل النتائج الضارة التي تنجم عن استحالة الحلول.

والخلاف حول فلسطين واحد من تلك المعضلات :

- (١) — الدولة العبرية ستقوم سواء قبل بذلك العرب أو البريطانيون أو أي كان ام لم يقبلوا به .
- (٢) — الحكومة الأميركية ستقدم لتلك الدولة أي مساعدة تحتاج إليها لجعلها قابلة للحياة اقتصادياً وقادرة على الحفاظ على أمنها عسكرياً.
- (٣) — لا سبيل إلى وقف تصعيد المعارضة العربية لقيام الدولة العبرية ولدعم الأميركيين لها. لذلك ينبغي على الدوائر الحكومية الأميركية تأجيل أي محاولة لإحلال السلام بين الفريقين والتركيز على تطوير الاحتياطات لمواجهة الأخطار التي ستعرض لها المصالح الأميركية بكل تأكيد.

أما (نصري) النشائيبي فله رأي خاص وهو أن العرب الذين سيقاوتونا، وعلى الأخص الفلسطينيين منهم، لن يكونوا قوماً أشراراً لا بمقاييسهم الأخلاقية ولا بمقاييسنا نحن. وعليه لا حق لنا نحن الأميركيين بلومهم على مقاومتهم لنا بأكثر مما نلام نحن على مقاتلتنا أي فريق يسعى لطردها من ديارنا. وهكذا فإن مقاتلتنا لهم لن يكون لها أرضية أخلاقية تقف عليها. علينا مواجهة الواقع بأن أكثر ما سنفعله للتعايش سيكون حكماً «لا أخلاقياً إن من حيث جوهره أو من حيث تفسيره» .

وأما ستيف بنروز وهو سليل أسرة تبشيرية تنتمي إلى الكنيسة الميثودية، فقد ترعرع في لبنان، فلم يفرح لهذه النقطة الأخيرة. وكم كان بودي لو أستطيع اتخاذ الموقف عينه. ولكنني اعتبرت الموضوع تحدياً خاصاً جداً للمنظمة التي انتميت إليها حديثاً. ولما كنت من مؤيدي القول بأن «بلدي يأتي أولاً، سواء كان على حق أم على ضلال»، لمعت في ذهني فكرة الاشتراك في بعض العمل المستتر الذي سوغته لي خدمة المصلحة الوطنية (الأميركية). أما كون العمل سيجري في الخفاء فبدالي واضحاً تماماً عندما رأيت البيت الأبيض ونظارة الخارجية

قد باتسرا بوضع مختلف أنواع المخططات للسلم التي لم يرَ فيها الدبلوماسيون المحترفون المعايثون للتشكل أي منطق. ولكن المحاولات الساذجة لحمل العرب على التوقف عن مقاومة انشاء دولة عبرية تشكل الغطاء الأمثل لأي من الوسائل الخفية التي لمعت في مخيلتي. وكانت حجج سديف مقننة فبدأت أقنع. وفي ذلك الأثناء جاء حدثان داخل مكتب الخدمات الاستراتيجيية نفسه فحدداً القرار .

الحدث الأول :إن الضابط الذي عين للعمل في دمشق وهو تقيب في المارينز عرف بشدة بأسه ونال الوسام تلو الوسام لشجاعته، قد سقط في امتحان (جهاز) كشف الكذب لجهة اللواط .وأصر التقيب على انه جرب اللواط مرة واحدة بالافتعال بطيار بريطاني ولم تعجبه التجربة فكانت مرة وحيدة لم تتكرر ومع ذلك حرم من العمل فتشعر مركز العمل المقرر في دمشق .

أما الحدث الثاني : فكان مقتل دان دنت رئيس مركز الخدمات الاستراتيجيية _ وحدة الخدمات الخاصة في بيروت في حادث سقوط طائرة في جبال أيديويا .ولما كانت الطائرة تحمل معدات اتصالات عسكرية حساسة تحتم إرسال فريق من ضباط أفواء البنية ويتمتعون بروح المغامرة لمواجهة أخطار القيام بحملة في أكثر مناطق العالم وعورة وتعرضاً لغارات العصابات، أو انهم أغيباء إلى حد لا يقدررون معه خطورة المهمة. ولما كنت أمتنع بالصفين معاً تشوقت إلى المشاركة في الحملة وتقدمت بطلب إلى نك مايكلسون، وهو أميركي من أصل لبناني في قسم الشرق الأدنى وإفريقييا. تأخرت يوماً واحداً عن الوصول إليه من أجل البحث في الطلب، فاغتنم مناسبة زيارتي ليقتراح علي العمل في دمشق. أجبته بأنني سأفكر في الأمر .

وهنا دخل المسرح ارثيبالد روزفلت، حفيد الرئيس الأسبق ثيودور روزفلت، احدى أكبر الشخصيات في نظري. كان آرثني على وتلك الدخول لاجراء مقابلة لوظيفة في بيروت يكون فيها فعلاً مدمق كل أعمال وأنشطة الاستخبارات في البلدان العربية من المغرب إلى العراق. وكان آرثني قد خرج لتوه من امتحان في وزارة الخارجية حيث سئل: «هل تتكلم لغات أجنبية؟» فأجاب فوراً العربية والفارسية والكردية والروسية والأرمنية والأردوية والتركية وبصفة لهجات تركمانية. وعندما سأل أحد أفراد اللجنة الفاحصة: «ألا تتكلم الفرنسية أو الاسبانية أو الالمانية؟» أجاب بجزع: «يا إلهي، هل تحسبون لها حساباً؟»

إن السلك الخارجي الذي لا تعتبر فيه تلك اللغات أمراً مفروغاً منه لم يكن خليفاً بآرثني، لذلك خرج من وزارة الخارجية وتوجه فوراً إلى مبنى مكتب الخدمات الاستراتيجيية حيث طلب عملاً قائلاً لهم: إن أهم مؤهلاته كونه عاد لتوه من منصب مساعد الملحق العسكري في العراق ثم في إيران حيث قضى قرابه الشهر في أندريجان يراقب السوفيات في محاولاتهم الرامية لإخضاع تلك المنطقة المستعصية، دون أن يذكر ان من مؤهلاته معرفته لغات الشرق الأوسط.

عينه ذلك على الفور ثم دعاني وجدد عرضه السابق. لم أقبل به على الفور بل وافقت على دعوة آرثني للعشاء عندنا للبحث في الاحتمالات .كان العشاء ناجحاً كلياً وتشعرنا خلاله وأثناء العهرة وكأننا أنا وآرثني نعرف بعضنا منذ سنوات عديدة كما أذهل آرثني لورين بمعرفته للغات وحضارات الشرق الأوسط وأدهشته لورين بدورها بمعرفتها بآثاره ومعالمه. والأهم من ذلك ان آرثني وافق على آرائي بشأن الاستراتيجيية السوفياتية وذهب إلى

القول بأنه فيما يعتقد السوفيات بأن ساحة القتال الخفي الفضلي لخدمة أغراضهم ستكون إفريقيا، يجب أن ندرك الساحة المثلى لخدمة أغراضنا هي آسيا الوسطى .

صباح اليوم التالي تكلمت مع نك مايكلسون هاتفياً وقبلت عرضه. وانتحيت زاوية هادئة في غرفة المطالعة في القسم أفصي فيها نهاري في قراءة كل المواد ذات الصلة بمهمتي المقبلة، فاكتشفت ان ثمة مفاجآت مذهلة بانتظاري. ها أنا في غرفة المطالعة في قسم الشرق الأدنى وإفريقيا أجمع المعلومات اللازمة لمهمة سأقوم بها في المنطقة التي قضيت سنوات عديدة أحاول تجنبها، وأعد نفسي للقيام بالعمل الذي كان آخر ما يساور رغباتي، وإذ بي خلال الساعة الأولى من القراءة اكتشف بأن دمشق مدينة جميلة مناخها معتدل وساحرة بكل معنى الكلمة. إنها واحة كبيرة تقع بين جبال لبنان وبين حافة الصحراء السورية. «طقسها ثدييه جداً بطقس مدينة فينكس بولاية أريزونا» ومنطقة المجاري فيها مبنية على مقربة من مجرى نهر بردي مما يجعل النظافة فيها «قريبة منها في مدينة متوسطة من مدنكم بولاية كولورادو». ومن خلال الصور المقطعة من مجلة «ناتنال جيوغرافك» تظهر على انها ثدييه جدا بمدينة متوسطة في ولاية كولورادو. أما صور المنازل التي يقيم فيها الدبلوماسيون فنظهرها ثدييه جداً بمنازل أنرياء جنوب كاليفورنيا .

وهكذا وفي صديحة يوم بديع طقسه من أيام أيلوم (سبتمبر) أخذت لورين إلى الألباما حيث يقيم قاض اتحادي عتيق صديق أسرتنا منذ سنوات عديدة ليساعدها في الحصول على الجنسية الأميركية في غضون أسابيع قليلة بدلاً من الانتظار سنتين وركبت الطائرة برققة أرثني إلى بيروت مروراً بنيو فاوند لاند وبريطانية ومالطا. قضينا كل وقتنا في الطائرة بالكلام وتجادب الأحاديث وشرعت بأنني بدأت أغوص في كذبة شخصية أرثني الذي بدا وكأنه سر غامض لدى اصدقائنا المشتركين في قسم الشرق الأدنى وإفريقيا. انه مزيج عجيب من التناقضات: ارستقراطي خال من كل تكلف، ومثقف لامع لا يطيق المفكرين، وعملائي بارع رأسه بين الغيوم وسناد ثنارد الذهن لا يفوته أي حيلة وطفل بريء يصفح عن كل الآثمين، وشخص أحب جميع الناس وأحبه الجميع دون استثناء – وهذه صفة لازالت ترافقه حتى اليوم، بعد أربعين عاماً على تعارفنا. وبدالي انه قدر مواهبي إلى حد جعله يؤكد بأنني سأتعلم العربية خلال بضعة أشهر فيما يقضي الدبلوماسيون العاديون سنوات يتعلمونها في مدرسة ثنارلي فرغسون الصغيرة في بيروت، هذا إن اتقنوها. تبين انه كان على حق في ظنه ذلك أنني بعد قضاء سنة واحدة في دمشق استطعت بمساعدة الرجل الثاني في وكالة الاستخبارات المركزية هناك تأليف أول معجم بالعربية الدارجة .

قضيت ليلة واحدة برققة أرثني في بيروت مع بعض موظفي المفوضية الاميركية فيها (قبل رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي إلى مستوى سفارة) ثم توجهت إلى دمشق في سيارة المفوضية. استقبلني مسؤولو المفوضية الاميركية في دمشق استقبالا حاراً سبق ان قيل لي بالأأ توقعه، وبمثله قابلني طاقم المفوضية البريطانية. وخلال أيام قليلة تعلمت درسين عن السلوكين الدبلوماسيين الأميركي والبريطاني، وهما درسان أقدمهما لمصلحة الثناب والثنابات الذين يفكرون باتخاذ السلك الدبلوماسي مهنة لهم .

الدرس الأول: إن حياة الدبلوماسيين وعيالهم والموظفين أكثر هناء بكثير في المناطق المسماة «مراكز الخدمة الصعبة» منها في مراكز مثل لندن أو واشنطن أو باريس حيث العمل الشاق لا ينقطع .

ففي دمشق أقامت أسرتي المؤلفة من أربعة أشخاص في منزل فخم _ لولا التمديدات المائية _ مؤلف من سبع غرف يضاهي منازل الأحياء الراقية في لندن أو في واشنطن. وكان عندنا أربعة خدام _ الطاهي والسائق وخدمة ومرية ترعى الأطفال _ وخلال صبحيات تناول القهوة تتجاذب زوجتي أطراف الحديث مع الكثيرات من زوجات الدبلوماسيين اللواتي لم يسبق لهن ان تهاذن في حياتهن خداماً في البيوت واللواتي عندما يكن داخل بلادهن يقضين وقتهن بغسل الأطباق وتنظيف ارض المنزل وغسل حفاظات الأطفال وغير ذلك. فالخدمة في «المركز الصعبة» تسكر وتدبر الرأس. ينزع الدبلوماسي الشاب إلى نسيان ان الامتيازات والاحترام التي يتمتع بها تعود في معظمها إلى كونه موظفاً في السلك الدبلوماسي الأميركي أو البريطاني أكثر مما تنبع من جاذبية شخصيته. وإن الكثيرين من الأثرياء والوجهاء المحليين وكذلك المراملين والزوار القادمين من بلدة قد لا يمنحونه دقيقة واحدة من وقتهم لو انه اتخذ لنفسه مهنة هو مؤهل لها .

أما الدرس الثاني: فهو أن نسبة عالية جداً من الذين ينضمون إلى السلك الدبلوماسي أملين بالحصول على وظيفة في لندن أو باريس أو روما أو استوكهولم أو ريو دي جنايروهم في غالب الأحيان من الأشخاص المتعجرفين تنقصهم الثقة بالنفس يتمكنون بالثكليات البروتوكولية، قلما تراهم في خط المجابهة. إن أكثر الدبلوماسيين الذين يعملون في كوناكري أو عدن أو دبي أو دمشق مثلاً هم غالباً من الشباب الذين يبشرون بالنجاح اختيارهم لمناصبهم مخطو التوظيف اختياراً دقيقاً أو أنهم هم الذين طلبوا تعيينهم في مراكز كهذه لاهتمامهم الشخصي في قضايا وتحديات رقعة اللعبة الدولية. على كل حال كان جميع زملائي في المفوضية ممتازين إن على الصعيد المهني أو على الصعيد الانساني، وعليه فقولتي بأنني أحببتهم جميعاً لا يفي حقهم. لم أنمالك التخلي عما تدربت عليه في وكالة الاستخبارات المركزية فجعلت لكل منهم ملفاً ولكن لست أخشى مغالطة أحد من رؤسائي في واشنطن إن قلت أنه لم يكن في أي من الملفات ما يعرض أياً منهم للارباك إذا ما دعت الحاجة «لتأمين التعاون» حسب قول ذلك. وهناك أيضاً قضية ثانوية كدت أنساها. فقد استطاع مخبر تعاملت معه وهو مع الشعبة الثانية في دمشق التقاط صورة للمسؤول عن التيفرة في مفوضيتنا يرقص والخذ على الخد مع مسؤول التيفرة في المفوضية البريطانية في أحد مراتب الليل. ولأسباب تتجاوز مجال هذا الكتاب لم أجعل منها قضية .

ينبغي ان أخبركم عن صديق خاص من بين موظفي المفوضية المحليين. إنه يوسف دبوس أو «القذر الدوار» حسب تسمية القائم بأعمال المفوضية. إنه قدر كيفما نظر المرء إليه. ولكن على الرغم من ادراكه لتقائصه، كان ينهش صدره الطموح لتحصيل المال. فأخذ يخطط لمستقبله مقارناً بين حسناته وسيئاته.

قامته أنبته بثمره الاجاص ووجهه يتلاءم معها. وسنه الأمامي الملعب ذهباً يطل عليك من ابتسامة فيقلب القصد منها رأساً على عقب. مكره ثيبه بمكر البهائم الغريزي لا يقاس بالفطنة اللازمة للتعامل التجاري في سوريا. انتهى يوسف إلى الاستنتاج بأنه لا يتمتع بما في طوفة تقديمه للأمينين. ولما أعياه الحساب قرر اللجوء إلى الشرف! لم يسبقه أحد إلى في مجال الأعمال حيث الغش والتلاعب معيار النجاح. وعليه اقترض مئة دولار من أحد المصارف وسددها في الوقت المحدد ثم اقترض ٥٠٠ دولار وبعدها ١٠٠٠ دولار وسددها أيضاً في موعد استحقاقها دون أن يفوته اعلام مدير المصرف بما تكبده من مثقفة من أجل التقيد بالمواعيد. وراح بعد ذلك يقطع وعوداً مستغربة لاصدقائه، والأغرب منها وفاؤه بها!

تصرفاته تلك باتت حديث دمثق وصار أصدقاؤه فيها يسمونه «يوسف الأمين»، والأميركيون والبريطانيون يدعونه «يوسف الشريف». وسرعان ما أخذت الشركات الأوروبية تتصل به في سعيها لتأمين مندوبين لمبيعاتها في سوريا، وهي وثيقة من ان ما لا يمكنه تحقيقه لها في مجال المبيعات يعوضه بتخفيض بدلات عمولة الوسطاء. (قال أحد الساخرين بيننا: «يظنون كلهم أن باستطاعتهم خداعه!») وراح رجال الأعمال يطلبون إليه قبول عضوية مجالس ادارة شركات جديدة يؤسسونها لعلمهم بأن ظهور اسمه على مطبوعاتها سيترك انطباعاً طيباً في نفوس المساهمين المرتفقين. كما حاولت المصارف اغراؤه بعرض القروض عليه بفوائد مخفضة. ودعته ادارة مدرسة الصبيان الأميركية التابعة للإرسالية الميثيقية للتحدث إلى طلابها في مواضيع مثل «النزاهة أفضل السبل» و«الله يتوقع منكم الحقيقة».

هكذا ودون مجهود كبير صعد يوسف دوسات سلم النجاح في علام الأعمال (قالي لي مرة: «لست أبلهاً بل مجرد غبي») وانتهى به المقام في مكان ما في جنوب فرنسا حيث يعيش في بحبوحة واسعة من مدخول المعلم الوحيد غير النزبه الذي ارتكبه في حياته، حسبما روى لي مرة عندما التقينا على متن يخت عدنان الخائسقي نحسي الثمباينا. فقد سحب كل رصيده من بنك انترا في بيروت واستدان ما أمكنه من المصرف المذكور ثم راح يروج الاثاعات التي أدت إلى افلاس المصرف (علمت لاحقاً من بول باركر، نائب رئيس بنك أوف اميركا، الذي دعاه انترا لمعالجة أوضاعه أن يوسف تقاضى مبلغاً ضخماً بدل ائجاب استشارية فقط للافصاح عن خفايا عملته).

الخطوة الأولى التي خطاها يوسف صعوداً كانت حصوله على وظيفة في المفوضية الأميركية لدى مكتب الضابط الاداري حيث راح يعرض نزاهته المعروفة نيابة عنا. فهو الذي ساعدنا في العثور على الأرض التي تقوم عليها السفارة الأميركية حالياً في دمثق وأمن ثراءها كما ساعد المفوضية في جميع المعاملات التجارية والقانونية مع التجار السوريين والحكومة السورية. فكان وجوده فقط مبعثاً للطمأنينة لى الفريقيين ولم يخيب آمالنا مرة واحدة، كما كان، حسبما يطلو له القول: «نافذة التقاهم» التي أمكن عبرها لموظفين اميركيين ثناب تقصم خبرة التقاهم مع أناس ينتمون إلى احدى أعرق حضارات العالم .

وجد زملائي في مفوضيتنا في دمثق في العام ١٩٤٧ ان تلك النافذة مغطاة بعض الشيء. فالحضارة السورية العريقة موضوع ثيق في كتب التاريخ في الجامعة. ولكنهم جاءوا إلى الشرق الأوسط مقتنعين بأن جميع الناس هم، في أعماق نفوسهم، ثيبهون بالأميركيين، يؤمنون في قرارة ضمائرهم بالأخلاقية البروتستنتية وان كانوا لا يعرفون ماهي. ولكن وكالة الاستخبارات المركزية علمتي أنباء أخرى، وان كان ساداتنا القديسون في واشنطن قد رأوا انه قبل ان تتمكن الحكومة الأميركية من رسم سياسة بناءة تتعامل بها مع الحكومة السورية ينبغي تعليم الشعب السوري أصول الديموقراطية حسب الأسلوب الأميركي. وهنا تبادرت إلى ذهني السوانح المتاحة في كوني المعلم خصوصاً إذا كان يوسف بجانبني يقدم لي المساعدة في المهمة. ولكن رأيت أن علي ان أتعرف إلى نوع الصورة التي رسمتها التخيلات والأوهام في واشنطن عن المزاج السوري.

تبين لي من مراجعتي ملفات المفوضية أن المراسلات الخاصة بالعلاقة السورية الأميركية تحصل مع وحدة في وزارة الخارجية مهمتها التأكد من أن شعوب أقاصي الكرة تتفهم وتدرك ما للحريات الأميركية من أفضليات على «الاستعباد الثبوعى». وبدا ان وزير الخارجية وكبار مساعديه اعتبروا ان الولايات المتحدة على خلاف يكاد يكون

كلياً مع الدول العربية وان المسؤولية في ذلك تقع كلها تقريباً على القيادات المضللة فيها – ليس عندنا بالطبع . وتمكنوا أيضاً بنظريتهم القائلة بان العرب سيكونون حلفاءنا الطبيعيين لو قيضت لهم قيادة أكثر فعالية وتتورأ ذلك انه ليس ما يخطونه منا بل لهم كل ما يخطونه من السوفيات، وبالتالي فإنه لمن المغاير لطبيعة الامور الا يرحبوا بعروضنا لحمايتهم. شركائنا النفطية ستجعلهم أثرياء وسيكونون أكبر المستفيدين من «حل ودي للقضية الفلسطينية» الذي لا يقوى عليه غيرنا أحد. وعليه اعتبر المخططون عندنا أن رفض القادة العرب لرؤية الأمور من خلال ذلك المنظار سبباً كافياً بحد ذاته يسوغ لنا الاطاحة بهم – او بالأحرى تمكين شعوبهم من الاطاحة بهم. لقد تملكنا منا نظرية بأنه إذا وجدت في أي مكان من الدنيا قيادات تستفيد من تدخلنا في شؤونها الداخلية فتلك القيادات هي القيادات العربية.

تشرحت ذلك كله ليوسف الذي أبدى اعجابه، وذهب في حلم بهيج عندما اخبرته بأن وزارة الخارجية، عبر وكالة المعلومات الأميركية قد أمرتنا بوضع «مشروع استرثادي» نخلق عبره وضعاً مناسباً في واحدة من الدول العربية بحيث إذا ما كتب له النجاح نحاول تطبيقه في غيرها. كان العراق أول الاغراءات، لأنه من جميع نواحيه دولة بوليسية ذا حكومة مكروهة. ولكنه من ناحية أخرى احدى الدول التي يستحيل على جهاز جيد التدريب على الحركات السياسية، ناهيك عن جهاز طري العود مثلنا، ان يتزحزح دون علم وموافقة البريطانيين. أما السعودية فليست مؤهلة للديمقراطية بعد وأما لبنان والأردن ومصر فقد استبعدت لأسباب أخرى.

بعد ذلك التشرح كله قلت له: «إذا ستكون سوريا مشروعنا». هز يوسف برأسه بوقار دون أن يتمكن من اخفاء فرحه. وأضفت قائلاً: «إن سوريا في وضع اقتصادي جيد وثعبها لم تروضه سنوات الاحتلالين العثماني والفرنسي وظروف إجراء انتخابات ديمقراطية ظروف مثالية. ومن المؤكد ان الزعماء الأذكياء والتعاونيين سيفوزون فيها». إذا ستكون «انتخابات حرة» – يرافقها بالطبع ترتيبات من قبل المفوضية تضمن بأنها لن تكون حرة فقط بل تضمن بأن نتائجها كما نريدها أن تكون. سأوفر على القراء عناء التفاصيل فأقول بأن الانتخابات من حيث كونها وسيلة لادخال وكالة الاستخبارات المركزية إلى سوريا كانت ممتازة. ولكن نتائجها لم تكن كما اشتتها واثنتن. ففي حمص كان الاقتراع مثلاً للهدوء إنما فقط لأن كبار الملاكين أو ضحوا للفلاحين بان عليهم عدم الاكتراث «بالكلام الفارغ عن الشيوعية والامبريالية» الوارد في الملصقات في ساحات المدينة والاقتراع حسب ارشاداتهم. وفي مختلف المناطق الأخرى كانت الانتخابات «الحرّة» مناسبة للسوريين الذين تربوا على اعتبار الحكومة عقبة فرضها الأجانب عليهم للحيلولة دون ممارستهم نزعهم للفوضى والرثوة. وشهدت الانتخابات أيضاً معارك بالأسلحة النارية وبقبضات الأيدي قتل وجرح خلالها العشرات. ورأى المقترح البسيط العادي في الانتخابات فرصة للحصول على مقابل تقدي مقابل إدلائه بصوته أو لدعم أحد أقربائه للوصول إلى وظيفة تدر عليه وعلى عائلته بعض المدخول.

على كل حال شهدت نشاطات المفوضية في سوريا في أواخر الخمسينات ولادة نوع التقارير الذي يرد من وكالة الاستخبارات المركزية ومهاراتها في «التدخل في الشؤون الداخلية لدول ذات سيادة». ولكن تلك النشاطات لم تصل مطلقاً إلى مهارة تلك الدول ذات السيادة التي تتدخل بشؤوننا نحن الداخلية. غير ان تقارير وكالة الاستخبارات

المركزية ما زالت متوافرة لأي رئيس قادر على التجرد عن «السياسة الخارجية في الداخل» وإيجاد الوقت الكافي له لقراءتها.

أما في يختص بمستقبل وكالة الاستخبارات المركزية في الحرب الباردة وما يسمى «المجابهة من النوع الثالث» فالرجاء متابعة القراءة.

الفصل الحادي عشر

تجربة في سوريا

١٩٤٧ - ١٩٥٠

خلال الأيام الثلاثة التي استغرقتها رحلتنا بالطائرة من واشنطن إلى بيروت رسم لي أرثني صورة كاملة عن ستيف ميد الذي كان له بين الفينة والفينة وعلى مدى أربعين عاماً أثر هام في حياتنا. كان أرثني قد التقى ستيف عندما كان الأول مساعداً للملحق العسكري في طهران والثاني يرتدي ملابس قبلي كردي ويقوم بمهمة فرار ومراوغة لمكتب الخدمات الاستراتيجية. وبعد ذلك وجد أرثني مع ستيف وبعض رجال قبيلة قنقاي يطاردون عبر صحراء دثني لوت فصيلاً من مغامري فرقة أس. أس. الالمان وبحوزتهم رهائن من أفراد إرسالية أميركية يحاولون الهرب بهم إلى بوثيرا. وكان ستيف قد عين مساعداً للملحق العسكرية في بيروت لأن الملحق العسكري فيها ضابط تقدمت به سنة وبات على عتبة الإحالة على التقاعد، وهو بالتالي بحاجة إلى مساعد قدير يعاونه على معالجة حالات صعبة يحتمل بروزها من وقت إلى آخر في مركز كيروت. ومن مراجعة ملف ستيف رقم ٢٠١ تبين انه المساعد التقدير الأمثل للرجل المهذب والأخرق من فرجينيا الذي اختاره الجنرال لوتن لذلك المنصب. قال أرثني ان نك قد زوده «بتعليمات صارمة» لإبعادي عن ستيف استناداً إلى رأي يقول إننا باجتماعنا نشكل وضماً حيث يؤلف واحد زائد واحد أكثر من اثنين. وأضاف أرثني بأن «نك يحمل ذلك على مجمل الجد. فعندما قال بأنه يريد منك التمهّل والتروي خلال الأشهر الستة الأولى كان يعني ذلك. إنك تعلم، دون ريب، انه ليس هناك ما يدعوك لإقامة الدنيا وإفعادها فوراً».

كانت لأرثني دواعيه الخاصة للاستئثار بستيف لأنه ينوي فتح أفنية على الاتحاد السوفياتي. من هنا اعتبر بأن ستيف له قيمته في العمل مع المهاجرين لأنه هو الآخر يتكلم معظم لغاتهم. أما أنا فاعتبرت، دون الافصاح عن رأيي آنذاك، بأن انجاهل نك وأرثني معاً. فإذا كان ستيف حقاً كما وصفه لي أرثني، فقد احتاج إليه في بعض الأعمال التي قررت القيام بها بنفسه غير اني وجدت عند وصولي دمشق بأن فيها الكثير من الأشخاص الجديرين باهتمامي. فهناك عميل الاستخبارات العسكرية البريطاني وهو محترف ذو خبرة واسعة استقبلني بمختلف انواع المشاريع (منها زرع أجهزة تنصت داخل مبنى السفارة السوفياتية الجديد) الجامعة بين المال الأميركي والدهاء البريطاني. وهناك أيضاً السفير السوفياتي دانيال سولود وله ماض في الاستخبارات السوفياتية (ك. ج. ب) ودبلوماسي من الطراز الأول يكاد يضاهي مهارة سفيرنا في بغداد جورج راندزورث وسفيرنا في القاهرة جفرسن كافري. جعل سولود اقامته في بيروت وكان يتردد على دمشق بانتظام. اما ضابط ال «ك. ج. ب» النظامي فكان رجلاً من جمهورية جورجيا وسيم الطلعة اسمه إيغور فيدورنكو، تفضل بزيارتي بعد يوم او اثنين من وصولي ليخبرني، بانسامة سلافية عريضة بأننا سنتسلى كثيراً شرط ألا أبلخ في جدية عملي ولا أهدر وقتي وتعبي في

محاولات سخيفة كزرع أجهزة تنصت داخل سفارته. (سبق لك أن نبهني إلى ذلك قائلاً «سيدرك قبل موظفي مفوضيتك أنك واحد من جماعتنا».)

وفيما أخذت اختلط علنا بالدبلوماسيين النظاميين وبمجتمع دمشق الراقى من جهة، رحلت من جهة ثانية أخالط الجواسيس والمحاريك السياسيين في محاولة لانجاز ما من أجله جئت إلى دمشق. حاولت جهدي في بادئ الأمر تجنب ستيف ميد كلما جاء لزيارة أصدقائه في الجيش السوري. إلا أنه في مجتمع دبلوماسي ومخابراتي ضيق كمجتمع بيروت – دمشق لا بد لأفراده أن يلتقوا من حين إلى آخر فصرت أتناهد ستيف في مناسبات مختلفة تثير فيها أي محاولة مقصودة من قبل أي منا لتجنب الآخر فضول المراقبين المحترفين. وبعد شهر أو اثنين من لعبة القط والغار هذه قال لي ستيف في إحدى حفلات المفوضية في بيروت: «دعنا نوقف هذه التمثيلية، فلدينا مواضيع عديدة نتحدث فيها. وما همنا مما يفكر به البيروقراطيون؟»

أخذ مناخ اللعبة يتغير بسرعة في الوقت نفسه. فالاستقلال المفاجئ الذي أحرزته دول رزحت تحت نير الاستعمار قروناً طويلة أخذ يخلق مصاعب لم يسبق أن شملت خبرة جهازنا الدبلوماسي. وتعقدت المشاكل التي واجهتنا في سوريا ولبنان بسبب اعتقاد حكوماتهما الصادق – أكان له ما يسوغه أم لا – بأن حكومتنا تدعم الصهيونيين ثم إسرائيل بعد قيامها. وفيما كان موظفونا الدبلوماسيون الممتازون يتعرضون يومياً للحجج والموافق العاطفية العريضة كذلك كان زملاؤهم في واشنطن يتعرضون لضغوط السياسات الأميركية الداخلية إلى درجة لم يكن ليتسنى لهم الوقت الكافي لاستيعاب ما نواجه من صعوبات في مراكز عملنا. فتوالت اعتراضاتنا فقط ليقول لنا أصدقاؤنا العاملون في واشنطن في الدوائر المختصة بثؤون المناطق التي نعمل فيها: «انتم تعملون هناك حسب مقتضيات مواقعكم. أما نحن هنا فعلياً ان نعمل حسب تعليمات واشنطن. وفي النهاية لو اثنان الثن الأخير». بالطبع لم يأتنا هذا الرد عبر المراسلات الرسمية بل بواسطة الرسائل الشخصية بالبريد العادي.

كان زملاؤنا على حق في قولهم، وفي النهاية أصبحت الدبلوماسية المحلية عبارة عن تسليم رسائل خطية أو شفوية لا يتجاوز محتواها أكثر بكثير من عبارات مثل: «حكومتنا مهتمة بالأمر» أو «بفلقها ذلك»، كتأكيدات نسبت إلى سفيرنا في القاهرة، جيفرسن كافري: «لست هنا لأناقش حسنات وسيئات السياسة الأميركية بل للتأكد من أنكم تدركون ما هي تلك السياسة». أما من حيث اللعبة الدبلوماسية كما أفهمها أنا فكانت أنشغالنا كثيرة. عاد الملحق الثقافي لممارسة ادارته لمكتبة مكتب المعلومات الأميركي، وتوقف البحث في انتخابات «حرة ونزيهة» التي، لو اجربت لأدت إلى إقبال المفوضية الأميركية وإلى اعتبارنا بمثابة أشخاص غير مرغوب فيهم في دمشق.

وصف القائم بأعمال المفوضية طريقتي الشخصية بالعمل بعبارة «الدبلوماسية الخفية» التي مارستها على نطاق عملي وانشصرت بتقديم مساعدات في الحملات الانتخابية للمرشحين الخلفيين بمساعدتنا وتثبته إلى حد ما المساعدات التي درج على تقديمها الفرنسيون والبريطانيون والسوفييات في سوريا ولبنان والعراق ومصر. والتزمنا موقف الانتظار والترقب لمعرفة ما الذي نفعله بالضبط. فكانت ممارستنا شبيهة بموقف لاعب البوكر الماهر الذي يدعى للعب مع لاعبين لا يعرفهم، فيشارك في فته أو اثنين بمراهنات صغيرة. ولكن ينتهي الأمر بأن ينفذ صبر أكثرنا خبرة فيندفع مسترسلاً في اللعبة. وهكذا انطلقنا في تنفيذ عملية في سوريا وصفقتها لاحقاً في كتابي لعبة الأمم» على انها «المثل الكلاسيكي عن كيف يجب التمسك بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية لدولة ذات

سيادة» علماً بأنني اعترفت بأنها «وفرت لنا استعراضاً لأخطاء بديهية يجب تلافي الوقوع فيها خلال عمليات مماثلة تقوم بها في المستقبل».

لا بد لي هنا أن أضيف في دفاعي عن «دبلوماسية الخفية» ان كبار المسؤولين في وزارة خارجيتنا اعتقدوا في حينه بأن الفراغ الذي خلفه البريطانيون، اضافة إلى موقفنا المؤيد للصهيونية الذي لم يكن منه مهرب، جعلنا نجاح مهمتنا مستحيلاً، وبالتالي فإن كل ما نستطيع أن نأمل به «تخفيض وطأة الفشل». لذلك صارت التعليمات الصادرة من واشنطن إلى مختلف البعثات الدبلوماسية واضحة وضوح نبؤات دلفي، وراح رؤساء تلك البعثات يفسرونها حسب اختيارهم فيتحملون المسؤولية في حال الخطأ ويقطف المحاسيب السياسيون المعينون في الوزارة في واشنطن ثمار أي نجاح جاء صدفة. في مثل تلك الحال كان لاستقامة ولسعة حيلة المسؤولين في البعثات ولشجاعتهم أهمية قصوى.

تمتع بوب ممينغر، القائم بالأعمال في مفوضيتنا في دمشق بقسط وافر من الاستقامة وسعة الحيلة والشجاعة اللازمة لمهمة عادية. ولكن عندما صارت دولة اسرائيل الجديدة حقيقة واقعة اعتبرت وزارة الخارجية في واشنطن اننا بحاجة إلى شخص يتمتع بمقدار أكبر من تلك المزايا، وسرعان ما بعثوا به إلينا. إنه جيمس هيو كيللي، دبلوماسي محترف نقل من أئينا حيث شغل منصب نائب رئيس البعثة، هادئ الأعصاب في الأزمات، قادر على تحمل المسؤوليات وتوزيعها وعلى اتخاذ القرارات دون العودة إلى واشنطن بشأن أصغر التفاصيل.

في اليوم الأول لجلوسه وراء مكتبه برهن أن الوزارة اختارت الشخص المناسب. ذلك ان مظاهرات معادية لأميركا عمت دمشق باكملها ومثى فيها ألوف الطلاب نحو المفوضية مسلحين بما يشبه المعاول. وقبل أن يتبين لكيللي انها نسخ كرتونية عن أسلحة قديمة خرج إلى قمة السلم المؤدي إلى مدخل المفوضية وأعلن انه إذا كانوا يبغون ثيبناً منا فعليهم ان يأتوا في مجموعات لا يزيد عدد أفراد الوة واحدة منها عن ثلاثة أشخاص في أوقات الدوام الرسمي، أي بين الساعة الثامنة والنصف صباحاً والواحدة والنصف ظهراً وبين الساعة الثالثة عصراً والساعة السادسة مساءً أيام الاسبوع العادية. وقبل الظهر في أيام السبت. قال ذلك بحزم أرفقه بابتسامة. وبدا ان ثيبناً ما في اسلوبه ومظهره أفنعمهم بأن من الأنسب أن يعملوا باقتراحه.

أدرك وزيرنا المفوض الجديد بسرعة ان الوضع في سوريا يحتاج إلى ما هو أكثر من الدبلوماسية التقليدية، وساهمت وكالة الاستخبارات المركزية المؤلفة حديثاً بأفناعه، عبر وزارة الخارجية، بأنني الشخص المناسب للعمل المطلوب – أو بالأحرى بأنني الشخص الذي سيساعده هو على القيام به. ومن خلال مقابلتنا الأولى أفنعه. تواضعي الطبيعي واستحيائي من الاطراء الذي ثنقه فوق رأسي رؤسائي في وكالة الاستخبارات المركزية، بأنني صاحب الدبلوماسية الخفية الذي يحتاج إليه. واقتنع أيضاً باقتراحي عن ضرورة نقل ستيف ميد من بيروت ليكون عنصراً في «فريق عملنا». واكتشف، دون معاونة أحد، إنه في حال اجتمعنا أنا وستيف ميد سيلزمنا أحد من أجل التوازن فاختر الضابط السياسي في المفوضية دين هيتتون الذي برهن رغم مظهره الفتى وتصرفاته المتناغمة مع مظهره على انه من المحافظين الناضجين .

تجدد الاشارة هنا إلى أنني كنت قد جمعت حولي بعض العلماء المحليين مستعملاً لذلك الأساليب التي استتبطنها أثناء تدريبي في وحدة الخدمات الخاصة. فقد تمكنت من الحصول على قائمة بأسماء موظفي وزارة الدفاع بأن جعلت

سائق سيارتي يسرق دليل الهاتف في الوزارة وتصادقت مع أحد المرابين ليزودني بأسماء موظفين في وزارة الدفاع يحتاجون إلى شيء مما استطيع توفيره لهم – كالدراهم عادة وكذلك في بعض الحالات سمة لزيارة الولايات المتحدة أو منحة دراسية لشباب من الأقرباء في الجامعات الأميركية أو وكالة لسلعة أميركية ما. وخلال فترة وجيزة تمكن المرابي من التعرف إلى سكرتيرين يعمل كل منهما في مكتب مسؤول كبير في الوزارة فاستخدمهما لسرقة الوثائق الهامة كل من خزنة رئيسه. وخلال فترة أخرى تمكنت من جمع ما يكفي من المعلومات من السكرتيرين لتجنيد المسؤولين الكبارين بنفسيهما، ولكننا اضطررنا للتخلي عن احدهما لأنه رفع أسعاره إلى حد فاحش.

وقد استطعت ذلك بأن رتبت أموره بحيث جعلته يبدو عميلاً عند صديقي إيجور في الك . ج . ب . أما الآخر فقد استمر بإسداء خدمات هامة لنا وما زال حتى الآن من أقرب أصدقائي. بعد مرور سنوات عديدة على لقائنا الأول في دمشق سألته لماذا وافق شخص نزيه مثله على تقديم معلومات سرية إلى حكومة معروفة بانها تساعد عدوه الاسرائيلي اللدود، فأجابني: أولاً: بأن المعلومات لم تكن بتلك السرية، وثانياً: «إننا نحن السوريين تعلمنا من خبرة طويلة مع الأتراك والفرنسيين والبريطانيين فصل القضايا العملية وابعادها عن القضايا السياسية».

رأى كيلي الذي تأثر ليس فقط بتقرير كتبته بل وكذلك بتقرير مماثل وضعه دين هينتون، ان ثمة سيناريون لسوريا وكلاهما غير مستحب. أما الأول فقيام السياسيين الاستغلاليين بمساعدة سوفياتية بثورة دموية ضد الرئيس شكري القوتلي. وأما الثاني فإمكانية استيلاء الجيش السوري على الحكم بدعم من «قبلنا» (بشكل خفي بالطبع) والحفاظ على الأمن والنظام ريثما يمكن تحقيق ثورة سلمية. استكره كيلي السياريو الثاني بمقدار ما استكره الأول تقريباً، ولكنه رأى فيه انه يخفف من احتمالات سفك الدماء ويفسح المجال أمام عناصر جديدة من المجتمع تشعُر بالمسؤولية وتقف بوجه العناصر التي لا مصدر للقوة لديها إلا طاقتها على استعمال العنف.

وهكذا تمخضت دراسات كيلي المتأنية عن انقلاب حسني الزعيم في ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٦. سمح بموجب تعليمات جديدة لرؤساء دوائر وكالة الاستخبارات المركزية في الخارج بحرية العمل تحت رقابة بعيدة من قبل القيادة وشرط ان يبقوا مختلف رؤسائهم الدبلوماسيين بمعزل عما يفعلون بحيث يستطيع هؤلاء اللجوء إلى حيلة «النكران القابل للتصديق». أعطيت الضوء الأخضر ولكن كيلي لم يقبل بفكرة النكران تلك. إنه يؤمن بمبدأ تقويض الصلاحية – بالاحرى بمبدأ ان المسؤول يستطيع تفويض السلطة إلى غيره دون تحميله المسؤولية أي انه وان فوضني بالسلطة اللازمة لا يتهرب من المسؤولية التي قد تترتب على ممارستي لها. وفي الحالات التي تصرف فيها دون علمه وقف بيني وبين القيادة متحملاً مسؤولية قتلي ومثيلاً بي عند نجاحي. هذا هو جيم كيلي. مررت، قبل ولوجي العمل الحر، بأكثر من عشرة رؤساء وباستطاعتي القول دون أي اعتراض من قبل أي من زملائي السابقين أن كيلي أوحى لدى مرؤوسية ولاء أكثر من أي رئيس آخر اشتغلت معه أو عرفته أو سمعت به.

اعتمدت كثيراً على معاونة ستيف ميد الذي انتقل إلى دمشق بعد يوم أو اثنين من طلب كيلي بنقله إليها. بدأ ستيف بالعمل فور وصوله مدركاً أن طريقتي تختلف كلياً عن طريقة كيلي وهي كما قلت انه يتحمل مسؤولية فشلي وبعطيني حقي عند نجاحي.

قلت لستيف :«عليك ان تنظر إلى الوضع من منظار انه يمكن الاستغناء عنك ولا يمكن الاستغناء عني.كما اننا كلانا نعمل في ظل نظامين مختلفين من حيث الثواب والعقاب».

أجابني بنبرة من أدرك المغزى وبنظرة فيها اعجاب :«إنك على الأقل صادق وانا اقدر الصدق في الرجال».

كانت مهمة ستيف بسيطة فكل ما عليه فعله استعمال سحر شخصيته لا ستمالة قائد اللواء الثالث العقيد حسني الزعيم وهو كردي ضخم البنية عرف بإرادته الحديدية وبذهن لا يقل عنها صلابة. وكان على ستيف أيضاً ان يتلمس طريقه بحذر لوجود احتمال انقلاب عمله عليه فيطرد من البلاد لا يعتبره عنصراً مثيراً للشغب. إضافة إلى ذلك لم تكن مهمته الايحاء لحسني الزعيم بالقيام بنشاطاته بل معرفة نواياه وطموحاته.

في تلك الاثناء وعبر العميلين الرفيعي المستوى في وزارة الدفاع جعلت جميع الأوامر والمراسلات وتقارير المخابرات تصور حسني الزعيم على انه عسكري موال مئة بالمئة لمؤيديه السياسيين من جهة وتتقصه من جهة اخرى سعة المخيلة اللازمة للكينونة خلافاً. أما المعلومات المستعملة في تلك العملية فتركت أمر اختيارها للعميلين المذكورين لأن ذلك يحتاج إلى تفهم وثفاقية لا يدركهما من نما وترعرع في حضارة أجنبية. جاء عملها ممتازاً - على كل حال وفي بالغرض المطلوب. فقد عين حسني الزعيم مديراً عاماً للشرطة في دمشق ثم أسند إليه منصب القائد الأعلى للجيش.

وهكذا، فإلى انقلاب حسني الزعيم.ولما كنا نزود قيادتنا بالمعلومات عن تطور الأوضاع أولاً بأول طيلة فترة التخطيط تصور المسؤولون فيها بأن ستيف وأنا نضع جميع الخطط المتعلقة بالعملية - وهو تصور لم توجد أي ضرورة لتصحيحه طالما انه يبعث البهجة في قلوب المعجيين بنا في واشنطن وطالما لا اعتراض لنا على زيادة بعض النقاط الحسنة في ملف كل منا.أما الآن وبعد مرور أربعين سنة أستطيع الاعتراف بأن الاسهام المهم الوحيد الذي قدمناه في العملية كلها تأكيدنا لحسني [الزعيم] وكان قد أصبح القائد الأعلى بان حكومتنا ستعترف به عمليات فور ثبات السلطة له على أن يأتي الاعتراف الرسمي بعد أيام قليلة.لقد قام ستيف بمرافقة حسني في عدة جولات حول المدينة بسيارة حسني الفخمة ودله على المباني والمؤسسات الواجب السيطرة عليها (محطة الاذاعة ومولدات الطاقة الكهربائية الرئيسية ومركز الهاتف الرئيسي ومختلف السياسيين الذين قد يشكلون مقاومة ما) وتظاهر حسني بأدب بأن تلك الآراء لم تخطر بباله.أما أنا فزودته بلائحة بما يجب فعله وما يجب تحاشيه من باب الاحتراز.وبفضل عميلنا «أ» داخل وزارة الدفاع، استطعت تأمين بعض المعلومات التي لم يكن باستطاعته الحصول عليها من الوزارة دون إثارة التذكوك.غير أن كل ذلك لم يكن بالغ الضرورة لانجاح مخططه. وباستثناء عنصر واحد هو أديب التيشكلي (سنعود إليه لاحقاً) كان حسني الزعيم بطل التمثيلية الأوحد.

قدم حسني الزعيم اسهامين لهما نكهة أميركية في التمهيد للعملية: الأول، حملة تضليل إعلامي بدائية غايتها ابراز سوء حالة المحافظة على أمن وسلامة الدبلوماسيين الأجانب في البلاد؛ والثاني، الوسائل التي استعملها للحيلولة دون تسرب أي معلومات عن مخططه قبل بلوغه مرحلة من التقدم يعجز أي كان عن احباطه.

هل قلت إن «للمخطط نكهة اميركية؟» أجل كانت له تلك النكهة بكل تأكيد لأنه حيك حول مهاجمتي شخصياً.ذلك انه سبق وتناهى إلينا عن طريق موظف محلي في المفوضية أئبط به استراق المعلومات لحساب جهاز للتجسس خاص بالرئيس تنكري القوتلي، الرئيس الجهاز هذا وهو رجل عذب الكلام ورقيق الشعور معروف بشذوذه اسمه

فخري البارودي، يظن بأنني أفود عمليات وكالة الاستخبارات المركزية في المنطقه ويحاول الحصول على البراهين كي يرفعها للرئيس القوتلي. ولا اعتقادنا بأن فضوله قد يدفع به للقيام بعمل تجاهي أو تجاه المفوضية من شأنه أن يكون مربكاً أو مميتاً قررنا أنا وكيلى وسنتيف ان نفضح أمره. توجه سنتيف إلى حسني وأخبره بقرارنا فكان سروره به عظيماً وقال: «على العميل داخل المفوضية أن ينبئ فخري البارودي بأن من عادة كوبلاند الاحتفاظ في منزله لا في مكتبه في المفوضية بكل الوثائق التي قد تثبت عليه أي اتهام، لعل في ذلك ما يشوق فخري للإغارة على المنزل. وسنضع بالقرب من المنزل بعض رجال الشرطة العسكرية لتوقيف المهاجمين. وبذلك نستعمل الحادث دليلاً إضافياً على ان الحال الأمنية لا تضمن سلامة الدبلوماسيين الأجانب. وأما الباقي فأتروا أمره لي».

أخذت برقفة سنتيف أخطط لمعركة بالسلاح الناري الحي، تماماً كما في الأفلام السينمائية! وهنا جاءنا كيلى بدعم جديد إذ تمكن من نقل الملحق الجوي الاقليمي من بيروت إلى دمشق. وبذلك توفر لنا ليس فقط طائرة النقل سي - ٤٧ المعدلة لتكون من الفخامة بما يليق بالملحق الاقليمي، بل أيضاً المقدم في سلاح الجو جيم جيانتي لقيادتها وتقيب ثاب اسمه ذلك رول مساعداً له. وقضينا الاسبوعين التاليين بما يشبه المرح الدائم إذا خصصنا الدوام الصباحي لرسم خططنا المفصلة، ودوام بعد الظهر في التمارين على استعمال الاسلحة النارية في البداية القريبة من دمشق.

لا بد لي من الاعتراف هنا بأننا شعرنا بغبطة صيبانية من إنارتنا للفضول داخل المفوضية. فلأسباب خارجة عن نطاق خبرتي كان جيم جيانتي يحتفظ بشبه جبخانة في مكتبه. وكنا أنا وسنتيف وجيم ودك نركب على مرأى موظفي المفوضية وبألبنستنا العسكرية سيارات الستايشن المحملة بالمسدسات والبنادق الحربية وبنادق الصيد والرثيئثات وبمدفع هاون أو اثنين وتوجه إلى ما هو بداهة أكثر من رحلة صيد عادية .

استمر أحمد، عميل المخابرات السورية في المفوضية نيمد فخري البارودي بالمعلومات المضللة لاجتذابه إلى فخنا من ناحية، وبمدنا أنا وسنتيف بالمعلومات عن مدى قبول فخري بصحة ما يزوده به من أخبار. وأخيراً جاء اليوم العظيم: فقط طلب فخري من أحمد أن ينبئه عن المرة التالية التي سأكون فيها خارج البيت فأجابه أحمد بانه على علم بذلك لأنه سمع سكرتيرتي تعد الترتيبات لي ولزوجتي ولولدينا لقضاء عطلة لاسبوع الطويلة في بيروت. أجاب فخري بأنه سيرسل فريقه إلى منزلي يوم السبت وأردف قائلاً: «يا احمد ستكون أنت في عداد الفريق».

انقبضت نفس أحمد فراح يفكر بوسائل التهرب من المهمة فأسمعه سنتيف كلاماً مشجعاً تضمن وعداً بالمكافأة السخية إذا ما تابع في المخطط حسب التعليمات وبعقاب شديد ان هو تمنع. ومساء الخميس انتقلنا نحن الأربعة إلى منزلي. وصباح الجمعة وعلى مرأى من جميع جيراننا ركبت لورين وولداي السيارة المملوءة بحاجيات توحى بغياب أكثر من ليلة وانطلقوا فيها (نسيت كيف أوجينا للناس بأنني سبقت أسرتي إلى بيروت).

مر بنا يوم الجمعة ونهار السبت ونحن ندور في أرجاء البيت دون أشعال الأنوار ليلاً ومع الابتعاد عن النوافذ ليلاً ونهاراً. وامتنعنا عن إجابة الهاتف الذي كان يرن بين الحين والآخر. وقرابة ظهر يوم الجمعة شاهدت شخصاً يراقب البيت من أرض خالية مقابلة وشخصاً آخر في فناء الحديقة الخلفية. ومساء السبت تقدم شخص من باب المدخل ودق الجرس ثم أضاء بمصباح كهربائي من النافذة زولما لم يشاهد أحداً قفل راجعاً. ومساء السبت وفي وقت كان لا يزال المارة في الشوارع بحيث يستطيع المهاجمون الفرار والاختلاط بهم، حانت لحظة الحسم .

فانتني الإشارة إلى أننا أعدنا المنزل اعداداً ملائماً إذ وضعنا مصاييح خاصة بالمصورين تضيء القاعة الرئيسية في الوقت المناسب وأفخاخاً من الغاز المسيل للدموع تنفجر في وجه من يحاول فتح الدرج الأعلى من مكتبي. كنا منبطين أَرْضاً ومسلحين بمختلف أنواع الأسلحة علماً بأن حسني الزعيم قد أكد لنا بان المهاجمين سيكونون ثلاثة رجلا عزل من أي سلاح. وهكذا وحوالي الساعة التاسعة مساءً رن جرس الباب، وللمرة الثانية شاهدنا شعاع مصباح كهربائي ينبعث من إحدى نوافذ واجهة المدخل، وظننا بأن أمامنا مهمة سهلة.

وفي الواقع لم تكن مهمتنا بتلك السهولة. وفيما كنا منبطين على الأرض الباردة في ذلك المنزل الغارق في الظلام وسلاحنا في متناول الأيدي سمعنا تحطم باب المدخل وشاهدنا أطياف أربعة رجال، لا ثلاثة، يزحفون إلى الداخل ينيرون طريقهم بالمصاييح الكهربائية. تجاوزوا خط بصرنا دون أي ضجة ودون مشاهدتنا او سماع صوت تنفسنا ثم دخلوا مكتبي المنزلي. وما أن بدأوا يتيقنون من مواقعهم حتى قرر ستيف القبض عليهم قبل انفجار قنبلة الغاز المسيل للدموع. فصرخ: «أشعلوا الانوار!» ثم صاح بالعربية «أخرجوا بهدوء وأيديكم فوق رؤوسكم». عندئذ ظهرت يد ممسكة بمسدس لا تعلق أكثر من ١٥ سنتيمتراً عن الأرض وبدأت باطلاق النار فرد عليها ستيف بالنار فتقبها (كما علمنا لاحقاً) ثم أخذت تظهر أيد أخرى وكلها تطلق نيران مسدساتها بعضها على المصاييح وأكثرها علينا.

باختصار بدا لنا أن أبواب الجحيم انفتحت على مصاريحها. كم منكم سمع صوت مسدس عيار ٤٥ في حقل رماية عادي؟ إنه يصم الى الاذان، أليس كذلك؟ إذا تصوروا أصوات ثمانية مسدسات من هذا العيار تطلق نيرانها معاً داخل منزل أرضه رخامية وسقفه مرتفع يقع في شارع قليل الضجيج. ومما راد في الطين بلة ارتطام الرصاص بالجدران وارتداده بمختلف الاتجاهات يشهد على ذلك سجادة بخاري عندنا لا يزال فيها عشرون أو ثلاثون ثقباً أحدثها الرصاص المرتد. وازداد الطين بلة على بلة بوجود أربعة شرطيين على الأقل خارج المنزل يطلقون الرصاص على البابين الخلفيين ليمنعونا من الخروج.

وهنا أود أن أسجل جبن النقيب في سلاح الطيران الأميركي رتشرد أي رول. فقد أعطيته أمراً مبائراً بالخروج من الباب الخلفي والتعامل بالنار مع الشرطيين. فهل تعلمون ما قاله لي؟ «إخرس واذهب إليهم أنت يا راعي البقر، فلست على استعداد لأن يثقب الرصاص قفاي لأساعد رجال وكالتك المختئين». هكذا قال لي بالحرف.

وتعبرنا بنوع من الراحة المضحكة عندما رن جرس الهاتف وكان المتكلم ارك درايك من شركة النفط الايرانية البريطانية (لاحقاً السيرارك درايك رئيس شركة «بريتش بتروليوم»). رد جيم جياتني على المخابرة وسمعه يقول: «إننا منشغلون قليلاً الآن». ثم شرع باقتضاب ما يجري وقال: «إنهم يطلقون النار علينا الآن والرصاص يتطاير في كل الاتجاهات. أشكر لك مخابرتك ولكن من الأفضل ان افعل الخط لأنهم يطلقون النار علي مبائراً».

وهكذا في الواقع أرت رصاصاً فوق رأس جيم وحطمت قنديلاً سقط حطامه أرضاً. وتوقف اطلاق النار داخل المنزل بينما استمر بجزارة خارجه حيث كان دك رول (ذلك الجبان الذي عصا أوامري المبائراً) يتعامل مع المتسللين اما الصوت في الداخل فكان من يراننا نحن ومن متسلل واحد يغطي فرار رفاقه من نافذة مكتبي ليساعده في ذلك الشرطيون في الخارج!

استمر اطلاق النار اثنتين وعشرين دقيقة حسب توقيت ستيف ولكن تلك الفترة من اطلاق الرصاص الحي واجدي بدت بطول اثنتين وعشرين ساعة.

انتهت المعركة وفر المهاجمون (بسيارة الشرطة دون ريب) فيما سجل حسني ما أراده. تركني ستيف استقبل أصدقاءنا في المفوضية وتوجه بالسيارة لمقابلة حسني الذي وجده يفيض فرحاً وحبوراً. كان يقفه جذلاً ولكن عندما بادره ستيف بالقول: «أنا على يقين من انك دهشت لرويتي» أدرك مغزى الكلام فوراً وبدت عليه إمارات الندم.

أجاب حسني: «كلا يا ستيف، فما زلت بحاجة لك، العالم كله بحاجة لك! فما قد بدأ عملنا الآن». وتمتم بشيء عن كيف ان حادثاً صغيراً قد تكون له نتائج مقبولة وان حادثاً أكبر تكون له نتائج أفضل. وعليه خرج ستيف دون التلغظ بكلمة واحدة.

مرت الأسابيع بعد ذلك بسرعة وترتب علي بالطبع تفسير أنباء عديدة ولكن متاعبي جاءت نسبية نظراً لا بقائي رؤسائي على بيئة يومياً تقريباً من نشاطاتنا. ولم يتوان ستيف كي لي عن تحمل اللوم فقد بلغ وزارة الخارجية بأنه كان على علم بكامل العملية منذ بدايتها وبأنه ما زال موافقاً عليها وبأنه إذا كان لوزارة الخارجية رأي مغاير لتناقضه فيه، وليس لاي فرد من أفراد طاقمي.

لحسن الحظ جاءت تقارير الصحف في طول البلاد وعرضها متضاربة ومشوشة إلى حد أن وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية صارتا على استعداد للقبول بأي رواية من قبلنا. تضمنت برقية نك الأولى فقط: «نرجو أن يكون كل منكم انت ومعاونوك بخير». وبعد اسبوع اتبعت ببرقية أخرى أكثر جدية ورد فيها: «اننا نتوقع ان تعد تقريراً مفصلاً عن تأثير الهجوم على منزلك وما سيبعث ذلك في مواقف كل من حكومتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في سوريا وباقي بلدان الشرق الأوسط».

في تلك الأثناء كان حسني يستغل الوضع إلى أقصى الحدود. فقد صور الهجوم على منزلي في وسائل الاعلام على أنه اشارة واضحة إلى ما يمكن أن يحدث لجميع الدبلوماسيين الأجانب إذا لم يحصل تشدد في ضبط الأمن في دمشق. ودعم تحذيره هذا «بتقرير سري» استقاه من «مصدر موثوق بصحة معلوماته» (ليس من ستيف ولا مني) أدرجت فيه أسماء اثنتي عشرة شخصية مدعياً تارة بانها «مستهدفة» من قبل الثيو عيين وطوراً من قبل الاخوان المسلمين. ثم استدعى قادة الألوية للبحث في الوضع الأمني العام وفي ثنتي وسائل دعم حكومة الرئيس القوتلي؟ وبالتالي تقادي الحاجة إلى التخلص منها كلياً». وأخيراً «كثفت النقاب» عن عدة فضائح داخل الحكومة علم بها أثناء توليه منصب قيادة لشرطة وأصر على وصول تفاصيلها إلى مختلف أفراد الجيش السوري من أجل زيادة التندم منها في صفوفه. أما المعلومات الوحيدة التي حصل عليها مني أو من ستيف لمساعدته في هذا الشق من استعداداته فكانت تقريراً صحيحاً من مركز وكالة الاستخبارات المركزية في سويسرا جاء فيه أن وزير الدفاع أحمد الثراباتي يكس الملايين من صفقات أسلحة مضخمة الاسعار.

كنا على اقتناع مقبول بأن حسني لم يفصح عن أي نية انقلابية أمام أحد من قادة الالوية مع العلم بأن خطته شملتهم دون علمهم. ولكن أسر لي مرة صديقي أديب التيشكلي بأن حسني ألمح من بعيد إلى احتمال كهذا. ومن أجل مصلحة ومعلومات المؤرخين في المستقبل أرى من واجبي القول بأن القادة الأربعة كانوا أديب التيشكلي

(جركن) ومحمد ناصر (علوي) وبهيج كلاس (مسيحي أزرق العينين وأنتقر الثعبر) وثوكت شقير (لبناني درزي) وأحد اقرباء زوجة أرثني السفيرة سلوى ثقير روزفلت) ولم يكن أي منهم عربياً تماماً، حسب تعبير أرثني، والأهم من ذلك ان احداً منهم لم يكن منحمساً لقتال الجيش الاسرائيلي المرعب رغم حداثة تكوينه.

لا بد هنا من كلمة عن أديب الثيثنكلي. كان حسني الزعيم صديق ستيف. أما صديقي أنا فكان أديب الثيثنكلي وهو مختال محبوب في سجله نقطة واحدة لصالحه: حسب علمي اليقين انه لم يطأطأ الرأس مرة أمام صنم منحوت. أما من الموبقات فقد أرتكب التجديف والكفر والاغتيال والزنا والسرقه ولم يتوان عن توجيه الاتهامات الكاذبة (دائماً في خدمة قضية انسانية). أما القول بأنه لم «يشنته» مقتنيات جيرانه المختلفة «فشخ في استعمال الحقيقة» حسب قول شاهد في احدى محاكم استراليا. وإضافة إلى خطابه العادية هذه تعاطى الحثيشة بين أن وآخر وتناول من المسكرات مقادير فاقت ما يتناسب مع وصفات الأطباء. وخلال زيارته المتقاربة للسجون «استطاع مراودة بعض رفاقه عن انفسهم» كما جاء في احد تقاريري إلى القيادة العامة. ولما كان نك ما يكلسون هناك يتتبع باهتمام كبير صداقتي مع تلك الشخصية الغدة في «الثورة السورية المقبلة، تندد على تلك النقطة في التقرير وأثار في برقية لي بأنه «إذا ما كان عندي البرهان الأكيد عنها» لا بد من تسجيلها من أجل احتمال استعمالها للابتزاز عندما تدعو الحاجة.

وأما من حيث ايجابياته فينتحتم علي القول بأنني عرفت به رجلاً كريماً حتى الجنون ووفياً في صداقته (معي ومع ستيف مثلما مع الآخرين) كما أنه لم يكن دينياً أمام مغربات المال. في الساعات الأولى من صباح يوم الأحد في ٢٧ شباط ١٩٤٩، وقيل ان يبصر ابني الثاني نور ذلك النهار سقطت زوجتي عن فرائها. ولما تأخر وصول سيارة الاسعاف لنقلها إلى المستشفى اتصلت بأديب هاتفياً وما هي إلى دقائق حتى رأيتة أمامي وقدتعمه السكر في ليلة ثبه بيضاء. فنقلنا زوجتي إلى المقعد الخلفي في سيارته الكبيرة وتوجهنا إلى المستشفى. جلس معي أديب وأخذت الصحوة تدب فيه محل السكر حتى جاء إبني إلى هذا العالم وزال الخطر عن زوجتي. وجاء في سجل الولادات في دمشق اسم أديب أسماً ثانياً لا بني إيان كوبلاند المدير المسرحي الشهير في نيويورك حالياً والأوحد بين أولادي الذي لا يزال يتكلم العربية والمعروف باسم أديب بين أصدقائه الكثر في بيروت.

دأب أديب، قبل بضعة أشهر من مولد إيان وحتى قيام انقلاب الزعيم، يبنيني بشكوكه من ان لدى حسني الزعيم «صديق ستيف» شيء أكبر من مجرد عصيان في الجيش. أما ستيف الذي سبق له أن أجرى عدة مقابلات مع اديب حثاً فيها الأوضاع في العمق (أحاديثي مع أديب كانت في معظمها استرخائية واجتماعية الطابع) فسرعان ما أدرك أن اديباً، وان كان ينقصه حضور واطلالة حسني وعلى الرغم من انه ليس الرجل الذي سيقبل به الشعب بديلاً عن ثكري القوتلي، فهو أدكى من حسني بعشر مرات وسيتحكم بكل حركاته وسكناته فور اعلان الحكومة الجديدة. كان ستيف على حق فما ان استلم حسني الزعيم زمام الحكم حتى تحولت مقاليد تدريجاً لمصلحة أديب إلى ان ترأس هو، وان ببعض التردد (كما ساوضح لاحقاً) انقلاباً قام به في تشرين الثاين (نوفمبر) عام ١٩٥١.

استمر اديب الثيثنكلي في الحكم ثلاث سنوات وعندما انهار حكمه فر إلى بيروت ومنها إلى المملكة العربية السعودية ثم إلى باريس في طريقه إلى البرازيل. يعود إصراري على انه لم يكن «دينياً أمام مغربات المال» إلى

ما بات ثابتاً الآن انه لم يحصل من السعودية على أكثر من بضعة الوف من الدولارات بعد لجوئه إليها. وإلى انه حين زرتة في باريس كان يقيم في غرفة في فندق يقع على الضفة اليسرى يقدم لنزلائه وجبة الفطور فقط، ورفض قبول أي مساعدة مالية مني ولكنني دون علمه حاسبت الفندق لمدة شهر فجاءت الفاتورة أكثر من ٥٠٠ دولار بقليل.

جاء في احدى الفقرات السابقة، قبل أن يسبح ي الخيال في بحر ذكرياتي الحلوة عن أديب التيشكلي، قلت إن حسني الزعيم قدم اسهامين بالغى الأهمية في استعداده لانتقاله: الأول حملة اعلامية تشهيرية برربها الانقلاب، والثاني الطريقة التي حال بها دون تسرب أي معلومات عن مخططه قبل بلوغه مرحلة من التقدم يعجز معها أي كان عن احباطه.

وإيكم الطريقة التي اتبعها. في ساعة متأخرة من ليلة الانقلاب أخذ اثنين من السكرتارية الذكور في وزارة الدفاع (أحدهما عميلي فيها!) وصعد بهما إلى الطابق الأخير وجعلهما يكتبان على الآلة الكاتبة أوامر تنص على ما معناه:

إيها الجنود والمواطنون، لقد دقت الساعة العظيمة في تاريخ أمتنا الأبية! ما قد بدأ عهد جديد الآن! انتهينا من الفساد. سقطت دمي الاستعمار والتبوية (عبارة التبوية أضيفت إرضاء لستيف بدون معرفته). وللمرة الأولى منذ قرون طويلة صرنا نحن السوريين شعباً حراً!

...ومضى البيان ينسج على ذلك المنوال. لم يكن قطعة ادبية رائعة ولكنه وفي بالغرض المنشود، خصوصاً وان اذاعة دمشق أضافت عليه التعابير البليغة التي أعلن بها حسني انقلابه مضيئاً بأن الحكومة لعسكرية انما هي مؤقتة وستزول لدى امكان اجراء «انتخابات حرة حقاً». واستطرد البيان باصدار الأوامر المحددة: على الوحدة الفلانية أن تفعل كذا وعلى الوحدة الأخرى ان تنفذ كذا، الخ. وضعت الأوامر في مظاريف لتسلم إلى قادة الألوية الأربعة على أن تقض بحلول منتصف الليل وليس قبلة على الاطلاق. طبع السكرتيران الرسائل حسب أوامر حسني الذي استلمها وختم المظاريف بنفسه ثم قاد الرقيبين إلى خزانة أعدت مسبقاً في الطابق نفسه وزج بهما فيها لما تبقى من تلك الليلة وبرحا فها منسبين حتى تمكن عميلي من تحطيم بابها بعد ظهر اليوم التالي والخروج منها ليرى الوزارة مهجورة وبسمع الأهازيج في الشارع ويتصل بي هاتفياً ليُعرف ما فاتته من أحداث ويعتذر عن عدم موافاتي بالتنظرات في حينها.

قبيل منتصف الليل استلم قادة الألوية الأوامر في المظاريف المختومة ولما لم يكن لديهم أي فكرة عن محتواها، وكان الوقت قد تأخر ليقدروا ان يفعلوا أي شيء إذا كان المحتوى لا يروق لهم، أخذوا ينتظرون بدرجات متفاوتة حلول الوقت المحدد لفتحها. ولما فتحوها رأوا ما تضمنته من تعليمات واضحة وملحة بحيث تعذر عليهم الاتصال ببعض البعض للتناور فيها فهرع كل واحد منهم لتنفيذ ما أمر به. كان على البعض إلقاء القبض على رئيس الجمهورية وعلى غيرهم القاء القبض على رئيس مجلس الوزراء وعلى فريق آخر احتلال محطة الاذاعة ومحطات توليد الكهرباء وغير ذلك من الاهداف المقررة .

* * *

على مدى عقدين من الزمن اعتمدت وكالة الاستخبارات المركزية تدرّيس خطة حسني التي نفذت بدقة كدقة الساعة. وهكذا أفاق دمتشق صباح اليوم التالي على انغام النيشد الوطني السوري المنبعثة من دار الاذاعة تلاه تسجيل بصوت حسني الزعيم أعلن فيه انه تولى السلطة وسيستمر في الحكم حتى إمكان اجراء «انتخابات حرة ونزيهة»، الخ... وهكذا انتهى الموضوع من حيث برقيائنا إلى واننظن.

قضيت الأتسهر القليلة المتبقية لي من مهمتي في سوريا منكباً على دراسة العبر البدائية إلى حد ما التي توصلت إليها من عملية حسني الزعيم ومن مجمل موضوع «التدخل في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة». وخلال فترة انتظاري للمهمة اليت سأسأولها في واننظن كتبت عدداً من التقارير عن الموضوع وجهت منها واحداً إلى وزارة الخارجية دون توجيه نسخة منه إلى وكالة الاستخبارات المركزية، عالجت فيه تقطيتين. الأولى انه ليس في طوقنا، بصفتنا أجانب، فعل شيء لمساعدة دولة مثل سوريا للصيرورة والديمومة عضواً صالحاً في ما درجنا على تسميته العالم الغربي إلا إذا كان ما فعله قائماً على تفهم عميق لعدم الاستقرار السياسي المزمّن الذي يترتب مواجهته على حسني الزعيم أوة على أي زعيم آخر في البلد، عسكرياً كان أم رئيساً منتخباً. ووضعت في تقريري تاريخ اللامبالاة الشعبية الطويل في سوريا وبروز التحالف بين ضباط الجيش الشباب وبين أفراد المجموعة المثقفة النائفة بين صفوف الطبقة الوسطى من الشعب» التي دأب الضباط السياسيون في مفوضيتنا على تنميتها وتشجيعها وأوضحت أن الاحباطات الشخصية والأحقاد القديمة والتبانيات الاجتماعية الأخرى ستؤدي بالتأكيد إلى نفس أي محاولة باتجاه قيام حكم مستقر بغيات بدائل قابلة للحياة. إن أي حكم يواجه مثل تلك الضغوطات سيرى ان عليه اسداء وعود يعلم تماماً بانه غير قادر على الوفاء بها وعندئذ تكرر السبحة على غرار انقلاب حسني الزعيم فيأتي قائد نلو قائد حتى يجيء واحد بارع في الكلام والديماغوجية فيعلق الشعب آمالة عليه، ولكن ينتهي به الأمر إلى إلقاء تبة فثله في عدم تحقيق الوعود على عائق فريق آخر مؤهل لتحمله تلك الاتهامات مثل «الرأسمالية والاستعمار» والولايات المتحدة المؤيدة لاسرائيل.

أما النقطة الثانية والتي برزت على انها الاهم في التقرير المذكور فكانت اننا بحاجة إلى تفهم أفضل – بل بالأحرى إلى مجرد تفهم – لم يحتمل أن يفعله الشعب السوري أو شعوب مجمل «العالم غير الغربي» باحباطاتهم وبأسباب تواتر انهم. وإذا كانت تلك الشعوب بخلفياتها الحضارية وأنماط دوافعها النابعة من تلك الخلفيات ستلومنا يوماً على ما هي فيه من اشكالات وصعوبات فسيتمخض موقفها المعادي للاميركية شكلاً مختلفاً من شكّل العداة الأوروبي للاميركية، إذا جازت المقارنة. ولو كانت تصرفات تلك الشعوب على غرار تصرفات الأوروبيين لهان نسبياً التكهّن بها – بل وحتى التأثير فيها» (ابقى كيلى على هذه العبارة في التقرير رغم اعتراض ضابط المفوضية السياسي عليها). وقلت في التقرير أيضاً لو «استطعنا نقل كل السويسر بين إلى سوريا وحمل كل السوريين إلى سويسرا لكان بين ايدينا مجموعة مختلفة تمام الاختلاف من مشاكل العلاقات الدولية». بالطبع سيبقى الخلاف بشأن اسرائيل قائماً ولكن سيكون بمقدورنا حلة بطريقة عقلانية ما، عوضاً عن العمل المضني في جو مشحون بالعاطفية الذاتية التدمير.

التقرير الاسبوعي («ويكا = Weeka») * * *

تبين لنا في أكثر من نادرة حصلت داخل مفوضيتنا ان تقاليد وطقوس وسلم القيم والربط بين الافعال والنوايا لدى السوريين تختلف اختلافاً جذرياً عنها عندنا. وجاء البرهان الحسي على ذلك أثر فكرة بسيطة طلع بها المطلق الثقافي بوب اوغدن اذ اقترح تبادل الصور الموقعة بين الرئيسين ترومن وحسني الزعيم. إنها لفكرة عظيمة قابلها حسني بحماس عندما طرحها ستييف عليه فتناول فوراً صورته باللباس العسكري تزين صدره خمسة عشر أو عشرون وساماً وسلمها لستييف بعد أن وقعها بالعربية إلى جانب آية قرآنية كريمة كتبت بخط بديع. بالمقابل رحبت وائنتنن بالاقتراح وأرسل ضابط العلاقات العامة في البيت الأبيض لبوب اوغدن صورة للرئيس ترومن مثمراً عن ذراعيه يعاون زوجته، بس، بنتثيف الأطباق في مطبخ منزلها العائلي في مسقط رأسه اندييندس في ولاية ميزوري.

تعذر عينا العثور على سبب مقبول نذرع به لعدم إرسال صورة حسني تلك إلى وائنتنن (لم يكن لدى ستييف ما يكفي من الشجاعة ليشرح لحسني الأسباب التي حملتنا على التقدير بانها ليست من النوع المناسب إرساله إلى وائنتنن) ففبرع ستييف بتقديم صورة ترومن من المعلقة على الجدار خلف مكتبه. نزعاها عن الجدار وبمعاونة سكرتيرتي روز والسكرتيرة المسؤولة عن الاختام والتواقيع في وكالة الاستخبارات المركزية في دمشق محونا تحيات ترومن الشخصية لستييف واستعضنا بآية مناسبة من الكتاب المقدس ترجمها يوسف دبوس إلى العربية بأسلوب أبيق. سرور حسني بالصورة وامتنانه لها لم يقابلا بالمثل لدى زعمائنا المنتخبين في وائنتنن. ألقوا عليها نظرة واحدة واستنتجوا بأن أسوأ تقدير انهم قد تحققت: لقد جئنا إلى سدة الحكم فس سوريا بعسكري فائسي. من ناحية أخرى لم نرد بالقول باننا لو قدمنا لحسني صورة رئيسنا المرسله إلينا من قبل البيت الأبيض لقال حسني وضباطه إن فلاحاً أبله يحكم الولايات المتحدة.

وكان هناك أيضاً الاستاذ داوود، استاذ اللغة العربية في المفوضية، وأجوبته عن أسئلة فضولية طرحتها عليه في أحد دروسنا. ينتمي الاستاذ داوود إلى طبقة نوي الياقات البيضاء (عمل غير يدوي) القليلي العدد في سورية الذين يجرون على التحدث بالمواضيع السياسية. أخبرنا الاستاذ داوود مرة بأنه ينتمي إلى حرب البعث الذي أسسه ميشال عفلق. والاستاذ داوود أكثر إماماً بما يجري في العام من خريج جامعة أميركية عادي. سألتة عن رأيه بالمصاعب التي تواجه حكم حسني الزعيم وعن رأيه في معالجة الحكم لها. جاءت أجوبته تتم عن حسن الاطلاع وعن سلامة في التفكير وعن نقد ذكي. وعندما سألتة عما كان ليفعله هو حيال تلك المشاكل لو انه في موقع مستشار عند حسني الزعيم، أغرقني في فيض من الاجابة الخيالية والسيناريوهات المستوحاة مباشرة من حكايات السندباد.

منذ مجيء حسني الزعيم إلى الحكم وحتى انتهاء فترة خدمتي في دمشق في أواسط العام ١٩٥٠ كنا عاطلين عن العمل كلياً لولا ما أسماه ثرممن كنت «الاستخباراتية الخلافة». يقال ان رأس البطل معمل الشيطان. صحيح، لقد فكرنا أن قليلاً من «الاستراتيجية الخلافة» المفيدة قد تنمخض عنها عقولنا العاطلة عن العمل نسبياً تُشرط ألا ينتج عنها أي ضرر جانبي. في الواقع عندما أخذت أفق التعاريف نيابة عن مختلف الملحقين بالمفوضية لم أكن أقصد سوى التسلية البسيطة وإنباع رغبتني بالكتابة الأدبية بسخرية لاذعة. وبمرور الوقت تحول هذا النشاط البريء إلى

وسيلة مثالية أسمع بها حكومتنا يجب ان تسمعه لا بعادها عن ارتكاب بلاهة ما فيما ضمن تقاريري الموجهة إلى وكالة الاستخبارات المركزية ما يقارب حقيقة الواقع.

توفرت لي فرص القيام بذلك إثر فرض البنتاغون علينا إرسال تقرير اسبوعين صار يعرف باسم «وبكا» وهو عبارة عن مختصر للأحداث تعده لجنة تلتئم صباح كل يوم جمعة وتتألف (في مفوضيتنا) من الملحق العسكري وملحق السلاح الجوي وضباط الشؤون السياسية في المفوضية ورئيس الفرع المحلي لوكالة الاستخبارات المركزية والوزير المفوض جيم كيللي. بالطبع احتفظت بمعلوماتي الهامة حقاً للنفوس التي أرسل بها وإليها تقاريري الجدية. ولكنني استعملت ظوبكاز وسيلة للتعبير عن العرفان بجميل صديقنا ملحق سلاح الجو جيم جيناتي لسماحه لنا باستعمال طائرته الفخمة. يحمل جيم شهادة دكتوراه بالفيزياء النووية وله عقل معقد يتناسب معها كما أن ثقافته الرائع للغة الانكليزية يأتي في المرتبة الأولى اكااديمياً ولكنه لا يتناسب مع ضوابط اللغة المستعملة في البرقيات الحكومية. لذلك كانت تقاريره بأمس الحاجة إلى مساعدة لجهة التحرير فكنت بمنتهى السعادة أبادر للقيام بمهمة تدبجها عنه نظراً لأنني رأيت ان تحرير التقارير التي ترسل إلى قيادته وليس إلى قيادتي يتيح لي فرصة فريدة لا طلاق العنان لمخيلتي في السعي لايجاد وسيلة لردم تلك الهوة الحضارية.

لفت بعض التقارير الباهرة فنالت حقها من تقدير جيم وكانت النتيجة انني حصلت على رحلات بطائرته أكثر مما حصل عليه كيللي بنفسه، وصار موظفو المفوضية المؤيدون لي ولجيم يشاركوننا في رحلات آخر الاسبوع إلى طهران أو كينيا أو فيينا أو أي مكان تقرر زيارته فجأة دون سابق تخطيط له. ولهذه الرحلات تفسير: فلكي يحصل جيم على دراهم «بدل طيران» كان عليه ان يطير عدداً معيناً من الساعات في الشهر فرأى ان من الأفضل له ولسلاح الطيران الذي يمثل اكتساب مودة أفراد المفوضية عوضاً عن الدوران ساعات طويلة فوق دمشق. وصار يأتي كل يوم خميس تقريباً يقف بباب مكنتي مبتسماً كطالب ينتظر عطلة نهاية الاسبوع ويسألني: «هل من اقتراحات جديدة؟»

لم يخل الأمر بين أن وآخر ان استعملنا الطائرة صيبانياً إلى حد ما ومنها مرة انزلنا فيها الاستاذ داوود بالمظلة في منتصف الليل وفي قلب الصحراء حيث سيعثر على معلومات هامة يعود بها إلى الملحق العسكري الذي أخذ يستخدمه «عميلاً» له. (عندما جاءنا مفتش من سلاح الطيران من واشنطن واعترض على العملية لأنها «غير مجازة» اضافة إلى ان جيم قاد الطائرة وهو تحت تأثير المسكرات، أجابه جيم: «اسمع يا بني، لقد قضيت من ساعات الطيران وأنا سكران أكثر مما قضيتك أنت وأنت صاح»). وفي مجمل الحالات أثبت التعاون بني مكنت ملحق سلاح الجو ومكنت وكالة الاستخبارات المركزية انه أفاد الفريقين. فعند عودتي إلى واشنطن علمت بان التقرير التي أعدتها نيابة عن جيم وباسمه اعتبرت أفضل بكثير من تلك التي أعدها بكل صدق واخلاص أفراد لجنة «وبكا» الآخرون كما حصلت على تنويه من رؤسائه.

فتح استخدام الملحق العسكري لداوود «عميلاً» له مجالات جديدة متعددة. فبعد ان انزلناه بالمظلة في الصحراء قضى المسكين اسبوعاً كاملاً حتى اهتدى إلى طريق العودة إلى دمشق واكتشف خلاله ان خدمة سيديين معاً، وأنا أحدهما، هفوة فادحة. صباح يوم الاثنين، وبعد عودته من زهته الصحراوية، دخل الاستاذ داوود مكنتي باكياً ليقص علي الحكاية كاملة كيف ان «العقيد مايسون» (حتلى لا أذكر اسمه الحقيقي) هدهه بأنه سيقفد وظيفته التعليمية إن

هو لم يقدم الخدمات الاضافية المطلوبة دون زيادة في الراتب. وقال وهو يجيش بالبكاء: «يريدني أن انجس له»، وأضاف بأنه لا يتمتع بالأهلية اللازمة للعبة لتجسس فضلاً عن انه يفقر إلى المصار اللازمة الاستقاء ما يطلبه العقيد مائيسون من معلومات. والأسوأ من هذا انه خشي من انه إذا ازداد فضوله بين معارفه من ضباط الجيش ستتفض عليه المخبرات المعروف ان أفرادها يتعاطون بقسوة مع أمثال داوود ويخاطبونهم على النحو التالي: «انت تجمع معلومات عسكرية لذلك العقيد الأبله في مفوضيتكم؟» هكذا يصرخون بوجهه ثم يقولون: «كلام فارغ. لا شك في انك تتجسس لذلك الخواجا في وكالة الاستخبارات المركزية وتزوده بالمعلومات ليرسلها بدوره إلى أصدقائه في اسرائيل».

كان قبول داوود بما عرضناه عليه من معلومات مزعومة سيحصل عليها في الصحراء عائداً إلى شعوره بالبأس. أما الآن وقد اكتوى بما حصل له في الاسبوع الأسبق صار يحسب أنني بما لي نفوذ خفي استطيع انقاذه من ورطته وكذلك ابقاءه في وظيفته.

ولكن خطرت لي فكرة أفضل. قلت للاستاذ داوود: «إذهب إلى العقيد مائيسون وقل له بأنك لا تستطيع القيام بعمل جاسوسي احترافي لحسابه إلا إذا كان لديك مخبرون دالخ الحكومة نفسها، و امثل هؤلاء المخبرين يكلفون مبالغ طائلة. لذلك لا بد لك من حساب للاتفاق». عند ذكر حساب الاتفاق هذا لمعت عينا داوود. ولما أفصحت له عن افكاره — بأنه ليس بحاجة إلى مخبرين وان بإمكانه الاحتفاظ لنفسه بأموال حساب الاتفاق تحول بريق عينيه إلى ثنوة. وقلت له ان باستطاعتي تزويده بكفايته من «الجواسيس» لتسريب معلومات أفضل لذلك التيس العجوز وأكثر مما توقعه منها. ابتسم داوود جذلاً وخرج متمتماً يندب افتقاره إلى التعمق الكافي في اللغة لتمكينه من انجاز تأليف الكتاب الدراسي المطلوب منه لتعليم الدبلوماسيين الأميركيين اللغة العربية .

اكتشفت ان سعة المعلومات قد تحمل صابحها عيناً ثقيلاً. وسرعان ما أبلغت المفوضية كلها بالمشروع فصارت «وبكا» أشبه بالمزحة. وعندما حاصرني إيغور فيدرنكو في احدى الحفلات الدبلوماسية ليسألني: «ما هي تلك الوبكا عندك؟» كدت وبكل جدية أن اقبضه بها مقابل التقرير الاسبوعي المثابه الذي بلغني أن السفارة السوفياتية ترسله إلى المعنيين في موسكو. على كل حال وطيلة الفترة التي بقيت لي لمغادرة دمشق كانت «وبكا» التعليق الوحيدة لنا جميعاً، بما فينا جيم كيلى، نحول بها أفكارنا عن القضايا الجديدة التي ترسل عنها مختلف فروع المفوضية، باستثناء الملحق العسكري، تقاربها كل عبر قنواته الصحيحة.

أما سكرتيرتي روز فهي على مهارة فائقة في استنباط حالات تجسسية خيالية حتى انني ارتبت في انها تكتب روايات جاسوسية وبوليسية، مهمتها تليق اجراءات بتعيين أو طرد أو «تحييد» مصادر للمعلومات بغية تبرير رصد المال لحساب داوود وجعله يبدو على انه يقدم الخدمات التجسسية الجليلة. وكانت التقارير تكتب بلغة انكليزية بليغة ثم تترجم إلى انكليزية داوود الركيكة وتشارك جميعاً بوضعها باستثناء دين هينتون الذي كانت له أسبابه الغربية لعدم مشاطرتنا التسلية. فهو الوحيد بيننا الذي لم يفتر ثغره عن ابتسامه في كل مرة قاطح العقيد مائيسون النقاش الدائر في جلسة لجنة «وبكا» ليقول: «إن لدى مصادرني (لاحظوا استعمال صيغة الجمع) قراءة مختلفة للموضوع». لا داع للقول بأن التناقضات بين التقارير النظامية الصادرة عن المفوضية وبين «مصادر» العقيد كلها

ملفقةً. فقد اعتبر كيلبي ان بعض التناقضات في النص تضيي على «وبكا» مسحة من الوجودية الفكرية يستسيغها انصاف الأميين من القراء في البنتاغون.

كان كيلبي على حق وكذلك باقي أفراد المفوضية بما فيهم العقيد مائيسون، إنما رغباً عنه . وعلى الرغم من الومق المتكبر الذي يتخذه رؤساء المكاتب في وزارة الخارجية تجاه أي شيء يصدر عن العسكريين فقد لقيت تقارير «وبكا» ترحيباً حاراً في الخارجية ثنائها في البنتاغون كما ان وكالة الاستخبارات المركزية نفسها استخرجت منها من المفنطفات التي ضمننها تقاريرها إلى البيت الأبيض أكثر مما استخرجت من تقاريري الأكثر جدية . كانت «وبكا» مختصرة وتعالج الموضوع مباشرة وهي مع ذلك مثبحة بتعايير يتعنتها أنصاف الأميين في مختلف الفروع : «الوسائلية» عوضاً عن «الوسيلة» و «المجمعي» بدلاً عن «اجتماعي» و «استنظار» محل «توفح» و «الأطر» عوضاً عن «الحدود» هذا إضافة إلى فيض من العبارات المركبة مثل «عكسية الانتاج» و «الأطر المرجعية» و «القفزات الكمية» و «إضافة بعد جديد» وما يكفي من التركيبات الكلامية لإرضاء أكثر البيروقراطيين تزمناً . وإذا ما كان أحدكم أيها القراء يعد رسالة للدكتوراه عن سوريا ما بعد الحرب فعليكم استعمال حقكم في حرية المعلومات من أجل مراجعة تقارير «وبكا» التي وردت من دمشق بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٠ . ففيها تجدون تأريخاً تفيدون منه . انه متناسق مع الحكمة التقليدية في هذه الأيام ومع ما أسماه لينين «اسطورة الشعب» كما يحتاج إلى انتروبولوجي حضاري لتفسير الرسائل والبرقيات التي تعبر عن تقويمنا كاختصاصيين للمناطق التي نعمل فيها .

لم ير ستيف ميد ما يضحك في تنكيتنا على العقيد مائيسون وعندما ارتفع الضحك في المفوضية إلى أعلى ما يستسيغه ذوقه طلب اعادته إلى بيروت حيث فضل العمل مساعداً لمحق عسكري غبي وجنتمن على العمل مع غبي لا صفة أخرى له . وأوضح قائلاً: الذوق هو قضية ذوق فقط .» غير أن السبب الحقيقي لقراره هذا هو احتمال عودته إلى العمل مع أرثني روزفلت الذي كان في أواخر العام ١٩٤٩ قد قطع ثنوطاً ل بأس به في استقطاب أشخاص من الأرمن والأكراد والجراكسة وغيرهم من أفراد الأقليات وتهريبهم إلى داخل الاتحاد السوفياتي عن طريق غرب تركيا . وثمة نبذة أخرى لا بد من ذكرها وهي قبول ستيف بتأدية دور «الرائد لينكولن» بطريقة أنقذت للحكومة الأميركية أحد أهم عناصرها الاستخباراتية، أي شخصي الكريم .

وفيما أخذنا الصحيح والملف من الحكايات يتكاثر في مختلف أنحاء الشرق الأوسط عن صعود وهبوط حسني الزعيم وكان وليم دوغلاس، القاضي الظريف في المحكمة العليا الأميركية يقوم باحدى جولاته المعتادة على نقاط المغامرات في الشرق الأوسط وأواسط آسيا. بعد وليمة عشاء أقيمت في السفارة الأميركية في طهران لاحظ القاضي ان ثمة من يسترق السمع للحديث السري بينه وبين السفير . كان المتتصت هو الصحفي الشهير درو بيرسون صاحب عمود «أرجوحة واثنطن الدوارة» المتعاقد لنشره مع صحف عديدة في ظاهر الامر بدا بيرسون في نقاش حاد مع الضابط السياسي في السفارة، ولكن القاضي والسفير يعلمان تماماً بقدرته على الاثتراك في نقاش في احدى زوايا الغرفة واستراق سمع كل كلمة يهمس بها في الزاوية الأخرى .

هنا حبك القاضي أحد مقالته وراح يهمس في أذن السفير قصة مفادها انه في رحلته الأخيرة إلى المنطقة الكردية في شمال إيران كان يشوي اللحم فوق نار المخيم فطلع عليه من بطن الليل الدامس رجل يرتدي البسة محلية وعرف عن نفسه باسم «الرائد لينكولن» وأعطاه رسالة شفوية لينقلها إلى السفير ثم عاد واختم في عتمة الليل

وتظاهر القاضي بأنه يهمل الرسالة في أذن السفير وراح هذا الأخير يهز رأسه استيعاباً. في الاسبوع التالي ظهرت حكاية «الرائد لينكولن» على صفحات بضع مئات من الصحف الأميركية وبضع عشرات الصحف في الشرق الأوسط مملمة حول نفسها تفاصيل جديدة كلما انتقلت من بلد إلى آخر .

ولما كانت السفارة الفرنسية في الشرق الاوسط على علم من سجلات دوائر استخباراتها بأنني استعملت اسم «الرائد لينكولن» المستعار في الحرب العالمية الثانية، تبادر لها فوراً بأنني ذلك الرجل الذي شاهده القاضي دوغلاس في ثياب مستغربة الشكل والألوان في شمال إيران. وعليه راحت تلك السفارات تستعلم عني لدى الاستخبارات الايرانية والعراقية وغيرها مثيرة اهتمام مختلف دوائر الاستخبارات والتجسس في الشرق الاوسط طولاً وعرضاً. وسخر صديقي. النشائيبي من وقته وهو يحاور جلالة الملك عبد الله عاهل الاردن لكتابه مقال طويل في امتداحي على انني أفضل هدية قدمتها أميركا للدبلوماسية في الشرق الاوسط، نشرها في الصحيفة التي عمل فيها سابقاً. وقال لي في اليوم عينه: «عندما تصل أنباء المقال إلى واشنطن عليهم أن يعينوك سفيراً .

من ناحية أخرى اعتمدت اربع أو خمس هيئات أمنية أخرى في الشرق الاوسط مواقف مختلفة حيال الموضوع . فأظهر أديب التيشكلي اهتماماً واضحاً وأرسل ستة من الرجال الأتداء باللباس المدني لحمايتي على مدار الساعة . وحذر الأمير فريد نهاب، مدير عام الأمن العام اللبناني، أرثني من أن بعض السفاحين العرقيين مروا لتوهم ببيروت في طريقهم إلى دمشق لاغتيالني . غير أنني بمساعدة نصري الذي تشعر بالندم شيعت معلومات تفيد بأن «الرائد لينكولن» المتهبوه انما هو في الحقيقة الرائد ستيف ميد وليس أنا، وألمحت إلى انه إذا كان القنلة يريدون حقاً أن تحفر اسمائهم في التاريخ عليهم اغتياله هو لا انا. واعتبرونا أنا وجيم كيللي ان من الأفضل عدم ابلاغ ستيف بالتضحية الجليلة التي قد يقدمها خدمة لبلاده. وكنا على اتم اليقين ان باستطاعتنا الاعتماد إلى آخر المطاف على اخلاصه للوطن وعلى شجاعته. على كل الاحوال كان ستيف على وثلك ان ينقل إلى مركز آخر، كما كان كيللي قد اتخذ كل الاجراءات مع نظيره في بيروت لوضع ستيف وعائلته على أول سفينة من سفن شركة «اميركان اكسبورت لاينز» تغادر بيروت علم ستيف بالاسهام الذي قدمه لخدمة المصلحة القومية من ضابط في الاستخبارات الفرنسية متوجه على السفينة عينها لقضاء عطلة في فرنسا. وأخذ الحكاية بروحه الرياضية كما كنا متأكدين . وبعد وصوله إلى الولايات المتحدة بعث برسالة عاطفية لي ولجيم كيللي يشكرنا فيها على توفيرنا له الفرصة تلو الفرصة لخدمة بلده .

(على فكرة، بعد بضعة شهور على الحكاية اخبرني القاضي دوغلاس ان اسمي المستعار «الرائد لينكولن» قفز فجأة من عقله الباطن، ولعل ذلك عائد إلى انني اخبرته حكايات مثيرة متعددة عن «الرائد لينكولن» خلال لقاءاتنا على العشاء عند الجنرال لوتن وإلى ان الاسم قد اعجبه) .

بغياب ستيف وباستغناء أديب التيشكلي عن نصائحنا في برمجته للاتقلابات المتعاقبة التي سترفعه إلى سدة الحكم صارت حياتنا نحن التنفيذيين سواء في دمشق أو في بيروت تشبه حياة الطالب الداخلي في الجامعة إبان عطلة الصيف عندما يكون الطلاب الآخرون قد ذهبوا إلى بيوتهم. وانتهى بي الأمر إلى الملل من تليفق تقارير «وبكا» صباح كل يوم جمعة. ولما علمت باسم بديلي حولت مواهبي إلى نصب الافخاخ في طريقه. لم تدرج وكالة الاستخبارات المركزية في بداية عهدنا على جميع الخبرات السابقة والافادة منها بل كانت المحطة تبدأ من الصفر

كلما عين لها مدير جديد. وبرى المدير هذا ان مهمته جلاء الفوضى التي خلفها سلفه واعداد مسرح جديد لنفسه يؤدي عليه دور البطل الرئيسي. أما المدير المنقول من المحطة فيرى الامور من زاوية مختلفة. ففي سعيه لجعل رؤسائه في واشنطن يتحسرون على «الأيام الحلوة الماضية» يترك لخلفه ما يكفي من المشاكل والعقد ليتنخل في حلها كل دقيقة من وقته فلا يبقى له هنيهة يعيد فيها كتابة التاريخ. من هذا المنطلق حرصت على ان يجد بديلي، واسمه المستعار والتر سندرسون، مايلز من القضايا الوهمية ليتنخله عن محاولة التقليل من أهمية ما قمت به من أعمال متواضعة.

وجدت في بديلي بعد لقائنا رجلاً طيباً جداً أمينته الوحيدة «الاستمرار في تادية العمل الممتاز الذي قمت به وأهمننا، نحن المستجدين في خدمة وكالة الاستخبارات المركزية لمتابعة مسيرتك»، كما جاء في عباراته المدروسة بعناية فائقة لبدء تعارفنا. ظننت لبعض اللحظات انه ربما يعني حرفية ما قاله ولكن سرعان ما أضاف بأن نك كان قد حذره مما يخبئ الدهر له ان هو يظهر ما يليق بي من احترام ومن انني سأكون الضابط المسؤول عنه عند عودتي إلى واشنطن ومن ان كل ما سيبعث به من رسائل إلى واشنطن سيمر بي قبل بلوغه أي شخص آخر في الوكالة. قلت له: «إن بقاءك إلى جانبي لن يحسرك ثيبناً». وأدركت بأنه استوعب كل معاني ما قلت له عندما رأته خلال الاسبوع الأول من استلامه عمله يعد مسروراً بل جذلاً المواد اللازمة لداوود لتحويلها إلى العقيد ماثيسون استعداداً لتقرير «وبكا» التالي. فتنفست الصعداء.

الفصل الثاني عشر

واشنطن والحيل القدرة

استلمنا وانا وأرتني روزفلت مراكزنا في دمشق وبيروت في التاريخ ذاته وكذلك حان تقلنا إلى مراكز أخرى في موعد واحد. ولكن وقبل شهر تماماً من اليوم المحدد لسفرنا إلى الولايات المتحدة انحرفت صحتنا فأصيب أرتني باضطرابات في القلب يبدو انها وراثية في اسرته ونزل بي داء اليرقان المعدي الذي ينتاب كل الذين يقضون فترة خدمة طويلة في الشرق الاوسط. وحلت بنا طائفة من التوعكات الأطف وقعاً كالاتهابات المعوية أتر زهات متعددة قادتنا إلى قلب الصحراء في سوريا والأردن والعراق، لا يتسع مجال هذا الكتاب لذكرها. فدخلنا مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت في الوقت نفسه وكذلك غادرناه معاً.

ولما ودعنا المستشفى واجه أرتني المسكين أوضاعاً صعبة في آخر أيام خدمته في بيروت. فقد هربت زوجته مع طبيبها النفساني، وبعث السفير بنكرتون بتقرير من بيروت إلى واشنطن مفاده أن تصرفات أرتني «مغمغرية» وهي كلمة وافق عليها نك مايكلسون في واشنطن بعد أن أعياه التفتيش في معجمه عن معناها ودون موافقته في هامش تقرير السفير وضمه إلى ملف أرتني الشخصي في الوكالة.

وهكذا تواجدنا في العام ١٩٥٠ انا وأرتني في الولايات المتحدة، أنا في واشنطن أعاون نك مايكلسون في فصل الخيال عن الواقع في التقارير التي بعثنا بها خلال ثلاث سنوات، وأرتني في نيويورك يراقب برامج صوت أميركا الموجهة إلى الشرق الأوسط وإفريقيا. أحببت نك ولكن أرتني مقته. وكان قربه كرمته (أو كيم) روزفلت قد تبوأ مركزاً هاماً في وكالة الاستخبارات المركزية خلق لنا توترات أترت فينا جميعاً وفي أرتني أكثر منا. إضافة إلى كل ذلك استاء جداً من الملامات التي وجهت إليه وكانت آخر كلماته لي أثناء صعوده سلم الباخرة «اكسكالبير» التي

أقلته إلى نيويورك انه لن يقو على مقابلة محامي زوجته يطالبه بالطلاق في الأسبوع الاول لوصوله ثم قابلة نك مايكلسون في الاسبوع التالي. لذلك قبل بالوظيفة التي عرضت عليه في اذاعة صوت اميركا. وهكذا افترقنا وراح كل منا في طريقه ولكن بقي فكري معه. وبعد أن تركزت في واشنطن حددت لنفسي مهمة في الأمم المتحدة تدوم اسبوعين لكي اتمكن خلالها من الاطمئنان إليه في عمله الجديد. وفي أحد الأيام طلبني على الهاتف وأنا أحاول التخلص من سكرة الليلة السابقة وقال: «لن نصدق ذلك، ولكني التقيت بفتاة، صبية، جمالها يسيل دمع عينك».

قلت: «أنت وفتاة، هل حان ذلك لك والحبر لم يجف بعد عن أوراق طلاقك؟»

قال: «لا، أنا جاد في كلامي. هذه المرة انتهى لامر واود أن تتعرف إليها هذا المساء».

سألته: ظكيف شكلها وكيف هي؟ هل تنتمي إلى مجتمع بوسطن؟ أم انها من طبقة المفكرين في نيويورك؟ أو لعلها نجيمة صاعدة في أفلاك هوليوود؟

قال: «كفالك تذاكياً يا حمار. كم من سامي حقيقي قابلت في حياتك؟ اليهود؟ كلهم صقالبة. السوريون والبنانيون؟ كلهم خثيون. ولكن هذه الفتان صافية، أعني سامية قح. إنها درزية. حتى أن رأسها قصير!»

صحت في نفسي: «أخذته موجة الغرام!» ثم قلت له: «حسناً سنتناول العشاء معاً هذا المساء».

وهكذا تعرفت بسلوى ثقبير. هل قال أرتشي انها جميلة؟ ما زالت سلوى قرة عين أرتشي وصارت أيضاً السفيرة روزفلت رئيسة دائرة المراسم في ادارة ريغن، وهي وان ناهزت الخمسين من العمر ما زالت تستلفت الأنظار. فكيف إذا بانسة تخرجت لتوها من كلية فاسار للبنات وهي في العشرين؟

بعد فترة قصيرة من الزمن عاد أرتشي والتحق بوكالة الاستعلامات المركزية وسلوى إلى جانبه على انها أمينة سره الخاصة وغير الرسمية. كان قريبة كيم في تلك الأثناء قد أحدث انقلاباً داخل الوكالة فأطاح بنك مايكلسون وركنه في وظيفة وضيفة في دائرة التسجيل، وجعل نفسه المثرف ليس فقط على عمليات جمع المعلومات في الشرق الأوسط وجنوب شرقي آسيا وأفريقيا بل وعلى عملنا الجديد في تلك المناطق المتضمن العمل السياسي والحرب النفسية والحرب الاقتصادية وكذلك الأعمال شبه العسكرية. عينت نائباً لكيم لشؤون الاستعلامات واعطيت مجالاً واسعاً للاطلاع على نشاط نائبه الآخر ند لوكارد المسؤول عن عمليات القسم السرية غير المتصلة بجمع المعلومات. وعملنا جميعاً بقيادة فرائك وإيسنر رئيس المنظمة الجديدة البيت انشئت أثناء غيابنا، وسميت: «مكتب تنسيق السياسات»، أي انها تحولت إلى الذنب الذي يحرك الكلب كله. ولما كان آل روزفلت وآل دالس أصدقاء قداماء ولما كنت على علاقة حميمة بالاسرتين صارت الزمرة المؤلفة منا نحن الثلاثة تشكل فريقاً مستقلاً. من ناحية اخرى درج فرائك وإيسنر على دعوة كيم إلى مكتبه (مظهِراً له الكثير من الاهتمام به) للوقوف منه على معلومات ليس هو في الواقع بحاجة إليها، أو على دعوتي ودعوة أرتشي للغرض نفسه (متخذاً معنا موقف القائد الصارم) فقط لتذكيرنا بأنه رئيسنا.

تعرفت إلى كيم في أواخر العام ١٩٤٧ عندما قمنا أنا وأرتشي برفقته بجولة على القلاع الصليبية وأمكنة غير مطروقة كثيراً في سوريا ولبنان. مر على صداقتنا أربعون سنة كان كيم في عثر منها رئيسي والمدافع عني (بحميني من مختلف الذين عملت بأمرتهم، وخصوصاً من دك هلمز، الذي لم ينفكوا عن محاولة سلخ جلد رأسي

لأسباب ما زلت أجهلها). كما كان خلال خمس عشرة سنة أخرى زميلاً في العمل ثم في الخمس عشرة سنة الأخيرة صديقاً للعائلة تتقلب صداقته صعوداً وهبوطاً بشكل متعاكس مع أوضاعي الخاصة. (كيم صديق عند الضيق. عندما أربح مليون دولار تسمعه يقول لا صدقائنا المشتركين: «انني قلق على مايلز». عندما أخسر ما يقف بجانبني وهو على أتم استعداد لا عطائي كل ما يملك بما في ذلك القميص الذي على ظهره. وقد أثار علي ابنه جونان ممرة بأن أذهب إلى أبيه ببدلة رثة وأدعي الإفلاس واستدين منه عشرة آلاف دولار فتعود عندئذ علاقتنا إلى سابق عهدها ويرجع كيم فيدخل حياتي من جديد صديقاً ومحسناً).

إبان غيابنا عن واشنطن، أنا في دمشق وأرتشي في بيروت، حدثت أنباء كثيرة كان البعض منها على مستويات رفيعة داخل الحكومة حيث اتشد التنافس على السلطة والنفوذ في أعقاب إصدار مجلس الامن القومي القرار رقم م. أ. ق. ٤ الذي حدد لوكالة الاستخبارات المركزية صفتها الرمية، وقرارات أخرى لاحقة مبنية على ادراك الحكومة المفاجئ بأنه وإذا كان علينا أن نجابه «النشاطات السرية التثريبة التي يقوم بها الاتحاد السوفياتي لتثوبه غايات ونشاطات الولايات المتحدة» فمن الأخرى بنا القيام بنشاطات تثريبة غايتها مصلحتنا. ولكن لما كان هذا الكتاب سيرة ذاتية لا كتاباً عن وكالة الاستخبارات المركزية (يوجد ما يكفي منها في الأسواق) فلن أرهق القراء بسرد التجاذبات الادارية التي حصلت نتيجة تلك القرارات، بل سأركز على التطورات التي طاولتني شخصياً وأعطت العمليات السرية منحها وصرت فيها من الاختصاصيين مع بعض التسامح.

لدى عودتي من سوريا عام ١٩٥٠ استرعى انتباهي بشكل خاص ذلك التباين الواضح بين نوعية موظفي مكتب تنسيق السياسات ونوعية أولئك العاملين في مكتب العمليات الخاصة. فمعظم موظفي مكتب العمليات الخاصة هم مثلي من موظفي الاستخبارات المحرطين القدامى في مكتب العمليات الخاصة انضم إليهم بعض الموظفين السابقين في مكتب التحقيق الاتحادي الذين التحقوا بنا بعد الحرب اثر استلام وكالة الاستخبارات المركزية أعمال القسم المختص بشؤون أميركا الوسطى والجنوبية في مكتب التحقيق الاتحادي، كان معظم أفراد مكتب تنسيق السياسات من أصدقاء فرانك وإيسنر أو آلن دالس الذين عادوا بعد الحرب إلى ممارسة المحاماة أو إلى جامعاتهم، علماً بأن بعضاً من الاختصاصيين بشؤون مناطق معينة هم أصلاً من أساتذة الجامعات. كان معظم موظفي مكتب العمليات الخاصة يعتاشون من رواتبهم ويقومون في منازل متواضعة في فرجينيا القريبة. وبالمقابل بدالي ان أكثر أفراد مكتب تنسيق السياسات هم من الأثرياء أصلاً وأعضاء في النوادي الفخمة يقيمون في منازل أنيقة في ضاحية جورجيتاون أو في مرتفعات وسلي .

أسوق على ذلك مثلاً فأقول بأن منزل نك مايكلسون ومنزلي يقعان في مشروع سكني وكلانا يذهب إلى عمله يومياً بالباص. أما فرانك وإيسنر ووس فينجرالد وجوني بروس وغيرهم من كبار مكتب تنسيق السياسات فيقيمون في ضاحية جورجيتاون ويملك كيم روزفلت منزلاً فخماً وواسعاً في مرتفعات وسلي قريب من منزل المحسن الآخر إلي السناتور جون سباركمن وقبالة منزل الجنرال والتر ب سميث . على الصعيد الاجتماعي يتخالط أفراد مكتب تنسيق السياسات فيما بينهم وكذلك مع شخصيات مجتمع واشنطن وتظهر أسماؤهم في أعمدة النشاط الاجتماعي في الصحف الهامة كالواشنطن بوست والايفينغ ستار. أما موظفو مكتب العمليات الخاصة فعلى علاقات ودية بين

بعضهم البعض وخلال وجبات غداء العمل، كما قامت علاقات صداقة حميمة بين البعض منهم أثناء فترات تزاملمهم خارج الولايات المتحدة.

تنافس العملاء داخل الوكالة

جئت على أذكر ذلك لصلته المباشرة بوضعي الخاص باعتبار انني اخذت ابتعد عن مجال جمع المعلومات التجسسية واتوجه نحو العمل الخفي نظراً لمواهي التي شرعت بتنميتها في دمشق وكذلك بفضل كيم روزفلت الذي قدرها حق قدرها. صباح أحد أيام العلم دخل مكنتي مليونير ثياب يشغل وظيفة متواضعة في قسمنا المتصل بمكتب تنسيق السياسات وقال لي: «إن فرانك ليس مغتبطاً للطريقة التي عالجت بها قصة الباكستان».

سألته: «فرانك؟ أي فرانك؟»

أجاب: «فرانك وايسنر». تساءلت في نفسي عما كان ذلك الفتى يفعله من وراء ظهري بالتحدث إلى رئيسي؟ ولما إلى رأى دهشتي قال: «تحدثنا قليلاً في الموضوع أثناء العشاء مساء أمس في بيت آل».

لم يسبق لي أن دعيت لتناول العشاء سواء في بيت فرانك أو في بيت آل، الذي كان في ذلك الوقت «المستر دالس» بالنسبة لي، إلا كمدعو ثانوي عند أحدهما في حفل استقبال مسؤول مخابراتي كبير في دولة اجنبيّة. وعليه فإذا كان موظف صغير في مكتب تنسيق السياسات متمرن عندي يستطيع الترتبة معهم أثناء العشاء بشأن أمور عظمي تهم الدولة بينما أفف أنا في الصف بانتظار مقابلة أحدهما في ساعات الدوام فذلك يعني بأنني أفف في الجهة المغلوطة من الدار مزوداً بالدعم المغلوط كذلك.

بعد ذلك بيومين قامت يبني وبين فرانك وايسنر مثادة كلامية حادة نسبت تفاصيلها ولكني ما زلت أذكر اني قلت له: «اسمع يا فرانك اننا نتناقش في موضوع أفهمه تماماً بينما أنت لا تعرف عنه شيئاً على الاطلاق. فلماذا إذا لا تكنتي بما أفوله لك عنه؟» أحمر وجهه ثم انفجر في وجهي فانفجرت بدوري وأخبرته صراحة برأيي في أفكاره وخرجت فمن مكتبه غاضباً.

وبعد ثوان قليلة وفما كنت أنعثر بطريقي إلى مكنتي ويدي على صدغي تساءلت: ماذا فعلت؟ «أنتي أحب فرانك واعلم انه يحبني، ولكن لا أحد يكلمه بمثل ما قلته له. لم يكن ثمة عذر لي. ثم قلت لنفسي بأنه سيطردني! وإذا لم يكن فعلاً قد طردني فيجب أن يفعل. فلو حدث معي شيء كهذا لطردت من كلمني على ذلك النحو. وفكرت بأنني لن أتمكن في الشهر المقبل من دفع بدر اجار البيت ولا شراء المواد الغذائية ولا تسديد أفساط ثمن سيارتي. ولن أتمكن من الحصول على وظيفة أخرى إلا بعد أن أغرق في الديون وتصبح شيكائي مرفوضة لأنها دون مؤونة.

استدرت على عقبي وعدت إلى مكتب فرانكواعتذرت. أعتذرت؟ قلت: «لست أدري ماذا دهاني يا فرانك وليس بمقدوري التعبير عن مدى أسفي، انك تعرف الموضوع أكثر مني بكثير. وأعدك بأنني لم ولن أكلملك هكذا ثانية...و» لا أذكر تماماً ماذا حدث بعد ذلك ولكن يخيل إلي أنني أرتيمت أرضاً ورحت أفضم زاوية السجادة ندماً وأصبح باكياً: لا تضربيني أرجوك لا تضربيني.

«لا عليك لا تفكر في الموضوع وانني أسف أيضاً لأنني صرخت بوجهك». أجاب فرانك .

قضي الأمر، ولكن أمضيت ما تبقى من بعد الظهر وكذلك المساء والليل بطوله أندب حالي. تصور أنك تتكل على وظيفة، أي وظيفة إلى حد لا يمكنك معه البوح بما تعتقد انه صحيح أو التمسك بموقف تعرف بانه الأفضل ليس فقط لبلدك بل وكذلك لمنظمتك ولرئيسك الذي يعارضك دون أن يقلقه احتمال نزول كارثة به. أدركت أنني في ذلك الوضع تماماً. وصباح اليوم التالي دخلت مكتب فرائك وذكرت بالاعتذار الذي قدمته بالأمس ثم قلت له بأنني لا أعني أي كلمة منه!

قلت له: «اعتقد بأنني أتكلم مالياً على وظيفتي إلى درجة لا استطيع معها القيام بأعبائها على الوجه الأفضل إن تجاه نفسي أو تجاهك وعليه لا بد لي من الاستقالة قبل ان اطرد، لم أقرر بعدما الذي سأفعله. لكنني أعتقد انه من الأسهل علي العثور على شيء ما عندما لا أكون تحت ضغط الحاجة من العثور عليه أنا واقع تحت ضغطها». دهش فرائك لذلك الكلام، ولا بد انه استغرب كيف يكون المرء بحاجة إلى وظيفة. ففي العالم الذي ينتمي إليه عندما يحصل «خلاف في الرأي» بينه وبين رئيسه يستقيل فوراً لأن ذلك هو المسلك المثرف الوحيد. ثم يعود إلى ممارسة الحقوق أو إلى التدريس في الجامعة أو إلى مزرعته في ماريلند وبقى فيها حتى يستدعيه رئيس الجمهورية الجديد أو وزير الخارجية الجديد فيعود إلى الخدمة. أما الفكرة بأن أي انسان في مركز مثل مركزي عليه اتخاذ قراراته وفي رأس أفكاره انعكاسات تلك القرارات على استمرار بقائه في وظيفته أو عدمه، فإنها فكرة يصعب على العقل القبول بها.

استفسر عن أوضاعي المالية ليس من باب التطفل على شؤوني الخاصة بل للوقوف على معلومات اضافية عن دوافع أحد مرؤوسيه لم يكن قد وقف عليها بعد، ثم قال: «اسمع إذا كنت تواجه صعوبات في تسديد فواتيرك فسأدع كيم يحصل لك ترقية جديدة، وإذا ما شعرت ثانية بأنك ما زلت بحاجة سنجد لك شيئاً ما. لا تقلق. لم يسبق لي حتى ذلك اليوم أن رأيت فرائك مبسماً، ولما خرجت من باب مكتبه استدرت فرأيتته يهز راسه ويضحك.

ولما لم يكن ثمة ما يغربني آنذاك لترك وكالة الاستخبارات المركزية، قدرت تطمينات فرائك خصوصاً وانها مقرونة بايماء إلى انني إذا ما بقيت فيها ساندت للقيام بالعمل الذي طالما حلمت به. اخبرت كيم بما جرى بيني وبين فرائك فقط لاجد انه مثل فرائك لم يكن يخطر بباله ان بعضاً من مرؤوسيه بحاجة إلى وظائفهم. ولكنه، خلافاً لفرائك ضمن تطميناته أنباء مسة إذ قال بي: «ابق معنا وسأسهر على ان تسند إليك مهمة توصلك إلى مكان ما خارج الوكالة أو داخلها. ولكن عليك البدء بالتفكير للأمد البعيد وليس بكل قضية على حدة كما هي عادتلك». كرر إشارته هذه أكثر من مرة منذ أن اجتمعنا للمرة الأولى: أي أن «التفكير للأمد البعيد» يجب أن يكون بمعظمه في مجال الأعمال الخفية لا بمجرد مراقبة عمليات جمع المعلومات السرية التي يقوم بها فرعنا.

انتهبت إلى تلك الاشارة منذ المرة الأولى. وبذلك أخذت أفضي أوقات فراغي كلها في مطالعة جميع التقارير والمحاضر والوثائق التي ترشدني إلى أسباب انشاء مكتب تنسيق السياسات ودمجه لا حقاً بمكتب العمليات الاستراتيجية ثم استحداث المنصب المسمى نائب المدير لشؤون التخطيط، وتحولت بعد ذلك إلى دراسة التوجيهات والأوامر التي قادتنا إلى بداية المشاكل مع الجناح اليساري في البلاد. وبعد عدة سنوات برزت حركة تنادي بأن العمل الخفي بحد ذاته منكر لا يحتمل في مجتمع ديمقراطي قوي كمجتمعنا يستطيع تحمل أي خسارة قد يسببها الامتناع عن اللجوء إليه. وهكذا درجت عادة إلقاء اللوم علينا وتحميلنا مسؤولية كل مشاكل العالم، والادعاء أن

بمقدورنا عدم الاهتمام بالعالم كله، بل وعلى العكس أن على العالم أجمع أن يتأثر بموافقنا ويقلق منها. وهنا تجدر الإشارة إلى ان تفكيرنا لم يأخذ ذلك المنحى في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات . فقد منعنا هتلر من السيطرة على أوروبا وأطلقنا خطة مارشال بقصد رفع مستوى معيشة الأوروبيين، بمن فيهم أصدقاؤنا وأعداؤنا السابقون على السواء، فارتفع إلى ما لم يبلغه من قبل، وتحولنا إلى الوقوف بوجه عدو جديد، عدو للاروبيين ولنا، لا تقل مطامحه سوءاً عن مطامح العدو الذي قضينا عليه .إننا لا نشعر بحاجة إلى الاعتذار من أحد وبأن لا أحد سوى الهبل يستطيع منازعتنا في حاجتنا إلى الأعمال السرية حسب تفسيرنا لها خصوصاً وان الأهداف التي ترمي إليها يقرها الشعب الأميركي بغالبته الواسعة .

لاحظت أيضاً مفارقة ثانية. فقد كان من الواضح تماماً أن التوجيهات والتعليمات ومثلها الأسباب الموجبة انطوت ضمناً على ان من مهام وكالة الاستخبارات المركزية «ممارسة الحيل القذرة». ولكن بدلي ان أفراد الوكالة الذين أنيطت بهم مهمة البحث عن وسائل التطبيق أغفلوا التوجيهات وما أنطوت عليه ضمناً. وكان من الواضح اننا فيما أخذنا نطلق العنان لمخيلاتنا في تصور الحيل القذرة لم نعر الغرض منها والغاية التي نستعمل من أجلها اهتماماً يذكر. فقانون الأمن القومي الصادر عام ١٩٤٧ نص فقط على ان وكالة الاستخبارات المركزية التي خلقت بموجبه مهمتها : «القيام بأعمال وواجبات أخرى متصلة بالاستخبارات وذات علاقة بالأمن القومي حسبما يصدره مجلس الأمن القومي من توجيهات بين أن وآخر». كما أن التعليمات الايضاحية اللاحقة والمتعلقة صراحة بمكتب تنسيق السياسات حددت مهمتها على انها مجابهة محاولات الاتحاد السوفياتي والدول الدائرة في فلكة «الرامية إلى تشوية غايات ونشاطات الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى». صحيح أن كلمتي «سري» و«خفي» لم تردا في النصوص، ولكن مطالبتنا بالاشتراك في أعمال تكتنفها السرية والغموض تضمنتها بوضوح الشروط الواردة في القانون المذكور لجهة وجوب تخطيطها وتنفيذها بشكل لا يتضح منه لأي شخص غير مأذون له بذلك ان الحكومة الأميركية على علم بتلك العمليات أو مسؤولية عنها، وأيضاً بشكل يسمح للحكومة التتصل منها ومن أي نتيجة تترتب عنها تنصلاً مقبولاً قابلاً للتصديق».

في حينه تبين لي من موقعي بأن ما كان يطبخ ويمر تحت أنف فرانك وإيسنر وكيم روزفلت ليس مسيئاً بل يبعد كل البعد عما حاول خصوم الوكالة الصافه بها من اتهامات. فلم تكن مطلقاً مجموعة من عباقرة السوء تتآمر السوء على غسل ادمغة العالم والسيطرة عليه بحيل الخرافات العلمية التي تعرض على الثنائيات الصغيرة. بل كنا على العكس من ذلك تماماً، مجموعة أطفال يلهون بألعاب جديدة رخص لهم بالسرقة.

لقد تمكنت تارة بأوامر مبانرة من كيم أو من فرانك وطوراً بفضولي الشخصي ورغبتني السليبية بالتلصص («إذا كان المرء لا يستطيع التجسس على قيادته فكيف سيتمكن من التجسس على قيادته أعدائه؟» هذه احدى فلسفاتي)، تمكنت من رؤية كل المقترحات التي مرت بمكتيبيهما، باستثناء القليل القليل منها. لذلك استطيع التأكيد الموثوق إلى حد ما انه لم يمر من تحت أنفيهما أي اقتراح تشتم منه رائحة أساليب الغستاو أو «بنطوي على» انتهاك للحريات المدنية» أو يعتبر انحرافاً عن مبادئ الديمقراطية. لا شك ان بعض الخطط الخيالية عرضت ولكنني استطيع التأكيد بأن أسوأ ما يستطيع أي كان قوله فيها، رغم الاجواء السائدة حالياً من حيث التمسك بالأخلاقيات، هو كونها بعيدة عن مجابهة «النشاطات السرية الشريرة التي يقوم بها الاتحاد السوفياتي».

روح الاستتباط الشيطانية

دعوني هنا أسوق مثلاً — ليس هو بالأمثل ولا هو بالأسوأ أو بالنموذجي، بل الأفضل من حيث تناغمه مع سطحية هذه السيرة الذاتية. وهو مثل لا يحتاج إلا للقليل من التجميل والاضافات ليصبح حلقة تلفزيونية ناجحة وحديث الناس. إنه المخطط الذي تدرعت به لقضاء اسبوع أو اثنين في نيويورك كي أطمئن عن حال صديقي أرثني روزفلت بين زواجه.

تدير السيدة كمورتى «مدرسة السيدة كمورتى للفتاة والأناقة» والمدرسة هذه من بنات أفكار ضابط من جورجيا اسمه المستعار «ادريان لوندكويست». والسيدة كمورتى من سيدات مجتمع واشنطن الراقى عينها كيم للإشراف على وحدة صغيرة اسمها وحدة الملابس ومستحضرات التجميل غايتها دعم عمليات الهرب والمراوغة التي كان يقوم بها ستيف ميد في آسيا الوسطى. في اجتماع أول الاسبوع الذي يعقد صباح كل يوم اثنين، وكان ذلك صبيحة يوم ممطر في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٠ قال لنا لوندكويست انه أمضى عطلة الاسبوع في نيويورك مشغلاً بنشاطات اجتماعية أفنعته بأن الأسرار الهامة المتصلة بالازمات الدولية إنما هي في أذهان الدبلوماسيين الأفريقيين والآسيويين والجنوب اميركيين وبأن استخلاصها منهم ممكن بواسطة نساء جميلات مدربات تدريباً خاصاً بذلك.

وجه لوندكويست نظرة نحوي لها مغزاها وقال: «كم نعلم جميعاً نحن أهل الجنوب ان الرجال سواء من اللون الأسود أو الأسمر أو الأصفر يفقدون كل شعور بواجب كتمان الأسرار لدى احتكاكهم بنساء بيض البشرة لهن صدور وأفنية عارمة». ومضى قائلاً: بأن وكالة الاستخبارات المركزية، وقد جمعت معظم موظفاتها من كليات شهيرة للبنات مثل سميث وراكليف وفاسار وبرابن مورلديها إذا معين من النساء اللواتي يمتلكن تلك المؤهلات ويستطعن بالتالي خدمة بلا دهن بالعمل في نيويورك يستخلصن الأسرار من موظفي الأمم المتحدة، خدمة أفضل من جمع تنف من المعلومات من الصحف والاذاعات في واشنطن.

في يوم الاثنين هذا تأخر فرانك وكيم بالعودة إلى مكنتيهما من عطلة نهاية الاسبوع، فترأس الاجتماع ضابط اخرق، كانت آخر مهامه الميدانية «ترتيب» الانتخابات اللبنانية عام ١٩٤٧، اسمه المستعار «ورثغتن السبوري» يشغل حالياً منصباً اسمه الرنان «مدير الادارة الاحتياطية» مهمته تنظيم جردة متقنة بمواد وأدوات التخريب الالمانية التي جمعت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية والتي لم يكن قد تم حتى ذلك التاريخ العثور على وسيلة مقبولة إدارياً للتصرف بها.

في الجو الذي ساد الاجتماع وبغيات الأيدي الرادعة تحول ادريان لوندكويست من مذكرة ادارية بسيطة لى عرض رسمي لمشروع، إلى أمر يجيز لوندكويست بالشرع «بالعمليات الاستقصائية». وعليه وزعت مذكرة خدمه على جميع النساء العاملات من رتبة سكرتيرة عامة درجة تاسعة وما فوق ورد فيها احتمال انفتاح مجالات للعمل في مجالات تمييز بالتحدي والسوانح» للنساء العاملات في الوكالة اللواتي يتمنن «بالذكاء والتربية والرغبة» ويستطعن اغراء الرجال المنتمين «إلى خلفيات حضارية بعيدة جداً عن خلفيتنا» اغراء صاعقاً. ولم تغفل المذكرة التلميح إلى ان مكان العمل يقع في نيويورك.

وعلى الرغم من عدم تحديد المهمات فلا يخفى على أي قتي نبيه في العائنة من العمر انها تتضمن مناسبات اجتماعية برفقة في النوادي والمطاعم الفخمة ومجالات للتحدث قليلاً بالفرنسية أو الاسبانية وبعض النشاط الجنسي والغراميات التي تنهم سيدات الوكالة انهن مقبلات عليها فور تقديم طلباتهن. ورأى لوندكوبست أن الاغراء الأخير من ثأته استقطاب فتيات كليات سميث وراكليف وفاسار وبرلين مور لانهن مثل نظرائهن خريجي جامعات هارفرد وبيبل وبرنستون الذي انسجموا في الحرب العالمية الثانية مع الكذب والاعتقال وتدمير الخزانات خدمة للأغراض الوطنية سيكون سعيدات للمبيت مع أي كان كل ليلة إذا ما استطعن افناع أنفسهن بان في ذلك خدمة للعم سام.

تبين من اقبال المرثحات على تلبية الدعوة بالحضور إلى قاعة التمارين الرياضية في مبنى الوكالة ان تقديرات لوندكوبست لم تخطئ كثيراً كما جاء الاستعراض، وهو أنسب كلمة لوصف ما جرى، أكبر مهزلة في تاريخ وكالة الاستخبارات المركزية. فقد لبي الدعوة أربع وثلاثون ثبابة راوحت ملابسهن بين أروع ابتكارات كريستيان ديور وبين تصاميم انيسيتال ثورغود، رئيسة فرع الألبسة في الكلا. دخلت المرثحات واحدة تلو الأخرى إلى «سيناريو كوكبيل» من اعداد قسم التدريب وقمن بأدوار مدعوات يسعين للاختلاط بجمهور المدعوين بهدوء ومع مراعات كامل اللياقات الدبلوماسية. وكان على كل مرثحة التوصل إلى التعرف على الشخص «الهدف» المحدد لها بأي وسيلة تتبكرها (قام بدور الشخص - الهدف احد أفراد المديرين الذي تدرب بدوره على التصرف كأحد دبلوماسي العالم الثالث) وتدخل معه في حوار وتجعله بتصرفاتها يشعر ملزماً بتدبير لقاء آخر في ظروف تسمح ببعض التصرفات الطائفة.

أما الحضور، وقد جلسوا في شرفة معتمة، فترأسهم كيم روزفلت الذي سمع بالمشروع بعد أن بلغ من التقدم نقطة اللارجوع وأصر على الحضور لانه اعتبر نفسه المرجح الوحيد في الوكالة وصاحب الخبرة العملية بالأساليب التي ستعرض. فخلال الحرب العالمية الثانية قبض عليه الالمان فيما كان في احدى مهامه وراء خطوطهم وتحمل ببطولة العذاب الأليم الذي أنزله به عملاء الغستابو دون أن يحصلوا منه على أكثر بكثير من اسمه ورتبته ورقمه التسلسلي أدلى بها إلى عميله في الغستابو أنفقت عليه وهي تستمع بانتباه إلى ثرحه أن عزرا باوند هو المؤلف الحقيقي لكتاب «الأرض الخراب» رسخت ذكرى ذلك الاختبار في ذهنه فأصر، وهو مدير جميع العمليات السرية في الشرق الأوسط وافريقيا على الاشراف شخصياً على كل الموظفين التي تتضمن مهامهم مجرد التعرف البسيط على أي شخص من المناطق الواقعة ضمن نطاق مسؤوليته.

أما باقي أفراد الحضور فكانوا روجين أنكنز (اسم مستعار) وهو أغنى موظف في الوكالة (تقدر ثروته بمئة مليون دولار) وانيسيتال ثورغود مدير دائرة الملابس والليدي وندر مير (اسم مستعار) اختصاصية التجميل وسنتيف ميد وهو بطريقة إلى أسيا الوسطى بمهمة الهرب والمراوغة، هذا طبعاً بالإضافة لي. يعود ادعاء أنكنز بمعرفة إغراء النساء إلى تاريخ زيجاته (له أربع زوجات سابقات يتقاضين منه نفقة تفوق المليون دولار سنوياً). ولعل سبب وجود ثورغود وويندمير بين حضور الاستعراض كونهما اللواطين الوحيدين الذين منحتهما الوكالة براءة أمنية بكامل معرفتهما لواقعهما. أما وجود سنتيف بين الحضور فيسبب بعض أعماله الخارقة التي حملت إبان فليمغ على تأليف حلقة في أفلام جايمس بوند على أساسها. ولأسباب لن أبعث الضجر في نفوس القراء بسردها

كنت أنا الخبير الوحيد في ذلك الموضوع. على كل حال وبصرف النظر عن مهارتنا أو عدمها كلجنة محكمين كان علينا اختيار المرشحات العشر أو الأثنتي عشرة اللواتي رأينا فيهن أفضل صفات الاغراء ونرسل بهن إلى السيدة كممورتي ليتدربن تدريباً خاصاً مركزاً .

جرى العرض تسيبها بتمثيلية سخيفة قام بأدوارها فريق من الهواة القرويين . كانت المرشحات كلهن مقبولات من حيث الاغراء في ظروف العمل العادية في مكاتب الوكالة. ولكنهن بألبستهن المبهجة وحركاتهن المدروسة كن حتماً ليقفزن نفس أكثر الرجال حرماناً. إلا ان العرض تضمن درساً كان علينا نحن الرجال الذين نعرف العالم ان ندركه قبلاً: أي ان المغريات التي ستعرضها النساء في مطاردتهن الرجال هي تماماً الأسباب عينها التي تحمل أي رجل على التهرب منهن – هذا إذا كان رجلاً محترماً وعلى أدنى درجة من درجات الحضارة، لا مجرد فرد همه الوحيد الفوز بأنثى سهلة المنال. أن القردة الذين يبحثون عن انثى سهلة المنال (كما يحدث لنا جميعاً بين أن وآخر) لا يتناسون السرية بالسهولة التي أثار إليها أدريان لوندكويست. ولو أن أي امرأة من الوكالة تصرفت على الطبيعة كتصرفها في مهرجان لوندكويست لما استطاعت الحصول على أكثر من دليل للهاتف ..إنما مقابل التضحية بالكثير من التسيب .

لا بأس فقد تعلمنا درساً أو اثنين عما يجب ألا تفعله في استخدام الجاسوسات المستقبليات، علماً بأن مكتب العمليات الخاصة وفق ببعضهن وبأنه من الواجب سرد القصة التالية لأنها تصور العفوية البريئة التي انصفت بها الأيام الأولى من أعمال مكتب تنسيق السياسات، عفوية بريئة حاول خصوم الوكالة استغلالها على انها روح الاستنباط الثببطنانية السائدة في الوكالة. بالطبع لم يتمتع جميع المسؤولين فيها بذلك المستوى الرفيع من روح الابتكار، ولكن كان على زملائنا في مكتب تنسيق السياسات لو انهم حملوا البحث عن وسائل الاغراء الفعالة على محمل الجدية، كان عليهم استشارة الخبراء في الموضوع اطلاق العنان للحربة المفاجئة التي هبطت عليهم فراحوا يقومون بتجارب عشوائية. كان عليهم استشارة الخبراء وهل أفضل من ستيف ومنى خبرة ؟

وخدمة للمؤرخين من الأجيال القادمة لا بد لي من اختتام هذه الوصلة بالقولة ان السيدة كممورتي وهي من سيدات مجتمع واشنطن الراقى (احدى زوجات رويبن انكنز السابقات، وذات ماض حافل – تزوجت ثلاث أو أربع مرات «وكلها زيجات ناجحة وسعيدة» حسب اصرارها ومفاخرتها) وانها استلمت ادرارة «مدرسة المفائن» عندما كان الغرض منها اعطاء دروس في البروتوكول لزوجات مندوبي الوكالة الذين يعينون في مناصب دبلوماسية في الخارج. ولكن السيدة كممورتي جعلت من نفسها اسطورة في الوكالة بأن دفعت بمدرستها خطوة كبيرة إلى الامام . إذا راحت توصي بعض المتدربات المختارات بعناية فائقة بعدم اطلاق أحد على الاطلاق بما في ذلك أزواجهن على الدروس المتقدمة في فن التجسس ثم تحولهن إلى رئيس شعبة العمليات المخفية ريتشارد هيلمز الذي يسند إليهن مهمات خاصة لا علم لأزواجهن بها مطلقاً. في الكثير من الحالات لم يدر الأزواج بمركز زوجاتهن المهني (ولا بحساباتهن المتنامية في المصاريف السويسرية)، علماً بأنه حدث في احدى الحالات فضيحة استرعت انتباه ورضا آلن دالس. فقد زود موظف جديد أرسل إلى بيروت بتعليمات تقول إن صلة الوصل بينه وبين فريق أنثى معين موظف لم تحدد التعليمات ما إذا كان ذكراً أم أنثى، يعرف باسم مستعار «واندرلست» ويعتبر من أفضل العملاء. ولما وصل الموظف الجديد إلى بيروت اكتشف بأن «واندرلست» ليست سوى زوجته التي طالما حسبها

بلهاء، فهدد بالطلاق منها وبالاستقالة من وكالة الاستخبارات المركزية. ولكنه لم يستطع إلى أي من التهديدين سبيلاً ذلك لأن المهمة الموكلة إليه ليس فيها سوى مخرج واحد وان «واندرلست»، حسب تعليمات القيادة الصارمة والواضحة، حزم لا يتجزأ من مهمته لا من المخرج.

من حيث حاجة التاريخ والمؤرخين يكفي ما أوردته من تلك الحكاية وفيها أيضاً تقطعتان هامتان جيدرتان بالانتباه. أولاً : إن ما أوردته كان مجرد اختبار أي حمافة أخرى من تلك التي ارتكبت خلال المرحلة الأولى من قيام وكالة الاستخبارات المركزية. وهي تجربة لم تستمر فضلاً عن انها لم تشغل من اهتمام فرانك وإيسنر أو كيم روزفلت سوى أعشار الثانية، ولا حازت على اهتمام آلن دالس الذي لعله لم يسمع بها إلا بعد أن صارت واحدة من اساطير الوكالة. هذا مع العلم بأن في الموضوع مواداً وافرة تمكن اصحاب المقالب من نسج حكايات كثيرة تصلح للتندر بها في لقاءات قدامى موظفي الوكالة جيلاً بعد جيل. وما من ريب انها من قبيل انطوائها على مواد للتكتيت ستدوم أكثر من أي اختبار آخر حملته الوكالة على محمل الجدية. أما النقطة الثانية فهي ان تلك الحمافة خارجة تماماً عن مسؤوليات ومهام مكتب تنسيق السياسات ولما كان الغرض منها ابتكار وسائل جديدة لجمع المعلومات وجب حصر المسؤولية عنها بمكتب العمليات الخاصة الذي، كما سبقت، حدد الغاية ووسائل بلوغها .

إن ما أوردته أعلاه ينطبق على مختلف الاختبارات الأخرى التي أجرتها الوكالة خلال إيامها الأولى. ولما بدأ تفعيل مكتب تنسيق السياسات كان جميع أركان الوكالة على ادراك تام بالحاجة إلى ما عليهم انجازه وبالحدود المرسومة له للعمل ضمنها. غير أن بعض عناصر دوائر الوكالة الذين لا علاقة لهم مطلقاً «بمكافحة النشاطات التثريرة الخفية التي تقوم بها السوفييات» استغلوا بعض الغموض في تعليمات وتوجيهات مجلس الأمن القومي فأخذوا يلجون مجالات ما كانوا ليحلموا بأكثر من التفكير بها. فمشاريع هؤلاء، لا مشاريع مكتب تنسيق السياسات، هي التي تحولت إلى قرائن استغلها أعداء وكالة الاستخبارات المركزية .

صحيح أن أحد قتياننا س في شاي الرئيس الاندونيزي سوكارنو مادة مهلوسة قبيل القائه خطبة كانت عبارة عن مطالعة عقلانية جداً مؤبدة «للحياد الايجابي» ولو ترك على سجيته وطبيعته لجاءت الخطبة حفنة من الكلام الفارغ. وجرينا الاتصال بين شخصين بواسطة «الادراك الخارج عن الحس» بين السيدة براون في رتشموند بولاية فرجينيا وبين زوجها السيد براون في استنبول، فاستطاعت السيدة براون بالتخاطر (توارد الأفكار) نقل رسائل إلى زوجها وصلته بدقة لا بأس بها وقبل أن تصله الرسائل المثيلة التي نقلت إليه بواسطة قنوات الاتصال التي تستعملها وكالة الاستخبارات المركزية .

أحد عملائنا، وقد تلمذ على أيدي كاتب قصص الخرافات العلمية رون هوبارد نفسه أدخلناه جماعة من المؤمنين بالسر والتنجيم ثم أخذنا نحصل على ما نطلبه له من النفقات العملائية (على غرار ما فعلناه من أجل الاستاذ داوود الذي عمل بخدمة العقيد مائيسون) فحولها في النهاية هي ومدخرات عمره لحساب تلك الجماعة وقضيتها . ولكن مشاريعنا «المثبومة والبديعة» وان كانت كلها مسلية جداً لم تكلف أي مال أو ان كلفت فالتقليل منه، كما لم تخلف أي ضرر دائم هذا فضلاً انها، تستأهل كل درهم انفق عليها لقاء ما اكسبتنا من وقاحة مهنية. وعلى الرغم من رهبتها لم تتمكن لجنة مجلس التثيوخ المميزة المختصة بشؤون الاستخبارات من العثور على حالة واحدة وقع فيها فرانك وإيسنر أو كيم روزفلت على عملية لغسل دماغ أو تحويل تفكير أو تبديل شخصية أو اغتيال أحد،

أميركياً كان ام اجنبياً. وقد حصل بعض اللغظ عن خطط أعدناها لس مادة في سيغار كاسترو يؤدي تدخينه له لأن يسقط شعر ذقنه. وجاءني أحد المحققين من اللجنة المذكورة التي يرأسها الشيخ فرانك تشيرش ليستجوبني وبسجل إقادتني بشأن المادة التي دسها أحد قتياني في ثراب سوكارنو. هذا كل ما في الأمر. فهل يستأهل كاسترو وسوكار نو هذا الاهتمام كله؟

لقد اجريت جميع المشاريع التي استرعت انتباه لجنة تشيرش خارج وكالة الاستخبارات لمركزية وقام بها علماء أو علماء مزيفون تستخدمهم جامعات وشركات لصنع الأدوية والعقاقير بموجب عقود مع الوكالة من أجل غايات اعتبرناها محض اختبارية كما اعتبرنا ان ليس ثمة أي ضرر من أن يعلم المرء بالأثبياء التي يمكن تحقيقها. واستناداً إلى ذلك المفهوم قام اولئك «العلماء»، أو سمهم ما ثننت، بصنع مواد تجعل «التنخص المستهدف» يقول الحقيقة أو يهلوس أو يتصرف بطريقة تؤدي إلى هلاكه أو يسقط ميتاً دون امكانية العثور على سبب الوفاة. كان كل ذلك مسلياً للغاية مما جعلني أكتب مقالاً فيه لمجلة ذي نيوبوركر. وقد تضمن المقال اختباراً أجري في احدى الجامعات وشمل رئيس فريق الباحثين الذي عاد إلى بيته تفوح منه رائحة كريهة إلى حد لم يطق معها أفراد عائلته البقاء معه تلك الليلة. وأوردت فيه أيضاً كيف قام واعظ معمداني بالفاء عظة الأحد حثها بمايسر له من بذاءات عوضاً عن الوقار الذي انسمت به كل عظاته السابقة .

تملكتنا الدهشة كما تملكتم الرأي العام عندما ذاعت قصة ذلك المسكين الذي تناول على يد أحد الباحثين حبة إل. اس. دي المهلوسة فقفزة من الطابق العاشر صائحاً: «انطري يا أماه انني استطيع الطيران». ولكن السناتور تشيرش الذي أخذت الوكالة تعلقه لم يقدر الناحية الفكاهية من الحادث حق قدرها. ولما أخذ المحققون في لجنته يتوغلون أكثر فأكثر من زوايا وخبايا الوكالة عثروا على اختبارات تجرى في مجال الحرب الجرثومية وفي تحويل الشخصية وفي محو الذاكرة وفي أصول الاغتيال والله أعلم بما اكتشفوه أيضاً. في أواخر العام ١٩٥٠ كلفني كيم بالبحث عن مشاريع أخرى من المشاريع «المشؤومة والبديعة» التي يمكن اكتشافها من قبل لجان تحقيق أخرى قد تأتينا منطفلة، فعثرت على بعض منها تنتشر لها الصدور وتبتهج بها العقول. ولكن وجود تلك المشاريع لم يدل على الشر بمقدار ما دل مرة أخرى على ما يمكن أن يحصل في أفية ودهاليز مصنع للأحلام مثل وكالة الاستخبارات المركزية بمجرد غفله من عين كبار المسؤولين عنها.

إلا انني استطيع الجزم والتأكيد، خدمة للحق والحقيقة، بأنني لم اعثر في تحرياتي في أواخر العام ١٩٥٠ ولا في تلك التي أجريتها في أيار (مايو) ١٩٥٣ على حالة واحدة استعملت فيها منتجات عباقرة الباحثين إلا على أشخاص تطوعوا للقيام بدور جردان اختبارات آدميين. كما استطيع القول استناداً إلى سلطات موثوقة بأن المناسبات الوحيدة التي خطر فيها للوكالة خاطر استعمال عقاقير الافصاح بالحقيقة أو تحويل الآراء أو السموم جاءت بمبادرات من سلطات أعلى مقاماً من وكالة الاستخبارات المركزية، ومن البيت الأبيض على وجه التخصص. وتضمنت تلك المبادرات مؤامرات لاغتيال باتريس لومبومبا في الكونغو وفيدل كاسترو في كوبا — علماً بأنها كانت مجرد خطط وليس محاولات فعلية.

لنعد الآن إلى قضايانا. كيف قضينا أوقاتنا بني ١٩٥٠ و ١٩٥٣ في مكتب تنسيق السياسات؟ فكما قلت سابقاً لم أكن قد انضمت رسمياً بعد إلى المكتب المذكور، بل كانت مهمتي في مكتب شؤون الشرق الأدنى وأفريقيا برئاسة

كيم روزفلت. كما انني لم اجرؤ على غزو مكتب نائبه تد لوكارد إلا بأمر صريح من كيم. ومتى كان يأتيني الأمر الصريح هذا؟ ما كان مثل ذلك الأمر يأتيني إلا عندما يتهم محقق من الكونغرس أو صحافي فضولي مكتب التنسيق بالقيام بأعمال امره بها مكتب العمليات الخاصة أو دوائر الأمن أو مكتب الاستعلامات السرية أو دوائر أخرى في الوكالة استجابة لتوجيه صادر عن مجلس الأمن القومي برقم م. ١. ق ٥٠ / ٢ يحدد بصراحة وجوب قيام مكتب التنسيق دون سواه بالتحقيق. غير أن ذلك لم يشغل من وقتي إلا عشره أو أقل .

ولكن، إذا كان «فرع الحيل القدرة» في وكالة الاستخبارات المركزية، حسب تسميته من قبل الرئيس ترومن بالذات، لا يقوم بحيل قدرة فماداً عساه يعمل إذا؟ انني أصف هنا تلك الفترات التي كنت أفضيها في واشنطن بين المهمة والأخرى اللتين أكلف بهما في الخارج. وأعود لأكرر: مهما بدت مرعبة لنقاد الوكالة اليوم نشاطاتنا في تلك الحقبة وما نسب إلينا من نشاطات فيها فقد كانت جميعها متناغمة مع ما أراده الشعب الأميركي آنذاك. ففي نظر الرأي العام الذي ابتهج بمشاهدة فيلم «مكتب التحقيق الاتحادي في السلم والحرب» وبقراءة روايات جايمس بوند وصفق لمحاولات السناتور جوزف رايموند مكارثي المسعورة للايقاع بالناس على أنهم ثيوييون، في نظر الرأي العام هذا كانت وكالة الاستخبارات المركزية تجر أقدامها جراً، أو تكاد. وفي أعين مكتب التحقيق الاتحادي ذي الشعبية المتصاعدة بدا حماس الوكالة «لمكافحة الشيوعية» أدنى بكثير مما توقعه المواطنون. ولا ريب في أن نقاد الوكالة في أيامنا هذه سيصابون بالذهول لمعرفةهم بأن ظنون مكتب التحقيقات كانت في محلها. فحقيقة الواقع اننا في الوكالة فعلنا كل ما في وسعنا للبقاء بمعزل عن المكارثية ولتتصل منها. من موقفنا هذا استنتج أهل مكتب التحقيقات بأن الوكالة ليست، في أفضل حالاتها، «سوى ناد بضم مجموعة من المختئين».

بالطبع لم نكن كذلك، وكلننا كنا قد تحولنا إلى مجموعة من البيروقراطيين. فمئذ اليوم لقيام مكتب تنسيق السياسات انهمك جميع كبار المسؤولين في الوكالة باعداد مشاريع الموازنات وهرمية التنظيم والمسؤوليات فلم يبق لهم الوقت للاهتمام بما يقع على عاتقنا من واجبات. وانخرطنا نحن على المستوى التنفيذي في تلك النشاطات فصارت تأخذ حيزاً لا بأس به من وقتنا الثمين. ولن أنسى ما اعترانا من قلق في محاولتنا تقرير ما ينبغي ان نطلبه كموازنة لقسمنا، قسم الشرق الأدنى وإفريقيا. فهل نحن بحاجة إلى مليون أو إلى خمسين مليون دولار نخصصها لمصر؟ وكيف لنا أن نعلم ماذا يلزمنا؟ وجاء الفرج. دخل مكنتي الموظف المسؤول عن مكتب سوريا وقال ان حساباته تشير إلى ان مكنته يحتاج إلى ٢, ١ مليون دولار. فإذا مكتب سوريا يحتاج هذا المبلغ لا بد ان مكتب العراق يحتاج إلى ضعفه لأن العراق أهم من سوريا بمرتين وسنحتاج إلى ٨, ٤ مليون لمصر لأنها أربع مرات أهم من سوريا، وهكذا دواليك. وبلغ المجموع مبلغاً ضئيلاً، زهاء ٢٠ مليون دولار (بل ربما ٢٣٣, ٤٦٧, ٢١ دولار و٥٦ سنناً على وجه التحديد) هذا علماً بأن أحداً منا لم يكن يعلم كيف وعلى ماذا ستنتف تلك المبالغ .

ثم أخذنا الأرقام ورحنا بها إلى مكتب كيم فدعرونا وقال: «إن قسمنا أهم قسم في الوكالة. فإذا طلبنا مبلغاً زهيداً كعشرين مليون دولار سنصبح مضحكة الجميع» وعليه طلبنا مئة مليون أي خمسة أضعاف عدنا وعدلناها فصارت ٣٣٩, ٥٦٨, ١١٢ دولاراً و ٢٠ سنناً وحصلنا عليها! وبنفس الطريقة كاتفنا للحصول على عدد أكبر من الموظفين. بدأ مكتب تنسيق السياسات بقرابة ٣٠٠ أو ٤٠٠ موظف يشكلون قوة طوارئ صغيرة تستخدم للقيام

بعمليات في مناطق حساسة قُتل فيها الدبلوماسيون والتهديدات باستعمال القوة العسكرية. وفي العام ١٩٥٣، عندما رجعت إلى الولايات المتحدة لدى انتهاء مهمة لي في الخارج كان عددهم قد فاق الخمسة آلاف .

ما هي البيروقراطية حلت. فالبيروقراطيات، مهما كانت مهمتها، تكبر وتتمو أما بتوسيعها نطاق المهمات المسندة إليها أو بتعظيم أهمية تلك المهمات. و «قوة الطوارئ الصغيرة» التي بدأنا بها كانت ستتمو إلى منظمة عالمية ولو في أيام السلم والهدوء ولكن جاءت حرب كوريا تغذيها مثلما تغذي المخصبات الكيميائية النباتات الاستوائية. وعندما ظهرت «القوة الصغيرة» على رقعة اللعبة الدولية في أواسط العام ١٩٥٠ أخذت لنفسها قوة اندفاع خاصة بها كأي وكالة حكومية مستقلة وادعت بأكثر من نصف ميزانية وكالة الاستخبارات المركزية .

اندلعت حرب كوريا فيما كنت استعد للعودة من المهمة التي انتدبت لها في دمشق. وعندما دخلت مقر الوكالة في واشنطن في ايلول (سبتمبر) ١٩٥٠ كان سبب النقد الأول الذي واجهني تفصير الوكالة عن التنبؤ بحجم وبموعد هجوم الكوريين الشماليين على كوريا الجنوبية، وعن امتلاك الوكالة ما يلزم لتقدير وتصور الوضع على حقيقته . ضاع توازن مدير الاستخبارات المركزية آنذاك الاميرال هلنكوتر في محاولاته إرضاء رغبات وزير الخارجية من جهة ووزير الدفاع من جهة أخرى وكانا على خلاف مزمن فيما بينهما فأمضى الشهر الأخير من خدمته في مضیعة للوقت. وعندما جاء مدير جديد مقدم هو الجنرال «بينتل» سميت واستلم زمام الأمور في تشرين الأول (اكتوبر) وجد الفراغ الذي يتناسب مع رغبته. فأظهر ميلاً نحو ملئه بأكثر من مجرد نشاطات الاستخبارات التقليدية.

جعل الجنرال سميت وزارتي الخارجية والدفاع تطلبان منه قيام وكالة الاستخبارات المركزية بعمليات تشبه عسكرية في كوريا الشمالية وكذلك في الصين إضافة إلى عمليات أخرى عسكرية في جوهرها. وهكذا بين ليلة وضحاها صار لمكتب تنسيق السياسات منظمة أكبر من مكتب العمليات الخاصة بمجمله بأكثر من مرتين، كما كانت رتب موظفيه المدنيين ارفع من رتب موظفي مكتب العمليات الخاصة بدرجة أو بأنتئين. في بادئ الأمر تحول أكثر من نصف الموظفين المدنيين الجدد، فضلاً عن عدد من العسكريين، إلى قسم الشرق الأقصى بحيث صار ذلك القسم أكبر من باقي الأقسام مجتمعة. ولما كان هؤلاء جميعاً مرتبطين بمكتب كوريا التابع لقسم الشرق الأقصى ارتفع عدد افراد مكتب كوريا ليصبح أكثر بعدة أضعاف من عدد الموظفين المسؤولين عن مجمل بلدان الشرق الأقصى الأخرى مجتمعة .

لا يجوز حدوث أمر كهذا في أي بيروقراطية، فقد كان بالامكان ضم جميع العمليات المتصلة بالحرب الكورية في فريق واحد مستقل كلياً عن الفرق الإقليمية الأخرى. ولكن أي رئيس فريق يتمتع بالذكاء وبمعرفة الأصول البيروقراطية يستطيع الحيلولة دون تطبيق ذلك. وعليه وبعد الكثير من الاخذ والرد حصلت زيادة عامة في عدد موظفي قسم الشرق الأقصى، وعين في المكاتب الأخرى من الموظفين ما يفوق حاجتها بثلاثة أو أربعة أضعاف، ووافق ذلك طبع «عمليات تعزيزية» لتسويخ تلك الزيادات في اعداد الموظفين. وغني عن القول بأن الاقسام الأخرى، ومنها قسم الشرق الأدنى وافريقيا الذي أنرأسه، وجدت أو اخترعت ما يكفي من الأزمات كل في منطقته عمله تبريراً لزيادة عدد موظفيها للبقاء على قدم المساواة مع فريق الشرق الأقصى. إن هذا التصرف كثيراً ما يكون له مفعول كرة الثلج .

يقول بعض أصدقائي القدامى ممن خدموا في قسم الشرق الأقصى آنذاك بأنني أبالغ. ولكن مراجعة نمو مكتب تنسيق السياسات بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٣ تظهر بوضوح ان لاسيبل لتفسيره باي طريقة أخرى حتى ولو أخذنا بالاعتبار ان المكتب سينمو ويتوسع، حسب سنة البيروقراطية. لقد مر على ذلك كله ثلاثون عاماً ونيّف، وارانسي كلما استعدته في مخيلتي عاجزاً عن ادراك ما كان يجول في اذهان ساداتنا آنذاك يوم فكروا بأن قوة ضاربة صغيرة تابعة على اهبة الاستعداد في واشنطن بمقدورها فور صدور الأمر إليها التقفز إلى الأورغواي أو إلى مصر او لاوس أو البانيا لمعاجة مثكل تعذر حله بالوسائل الدبلوماسية أو العسكرية العادية. هل تصوروا بأننا مثل الاطفائيين نلعب البوكر في المركز مشمرين عن سواعنا وجاهزين للانطلاق لحظة سماعنا جرس الانذار؟ ألم يفتنوا ولو لبرهة قصيرة إلى حتمية سعيينا للبحث عن حرائق نطفئها حتى ولو اضطررنا لاشعالها بأنفسنا؟

في الواقع لم نشعر بالافتقار إلى الحرائق. ففور عودتي من دمشق كلغني نك بمهمتي الأولى وكان منهمكاً بشؤون الشرق الأدنى وافريقيا داخل مكتب العمليات الخاصة (بكلام آخر تفصي المعلومات عن التطورات الجارية في الشرق الأوسط فقط) إلى درجة فاته معها إدراك التطورات التنظيمية الجارية حوله. أما المهمة فكانت انشاء «شبكة داخلية» في الشرق الأوسط استعداداً للحرب العالمية الثالثة التي اخذت بعض الأصوات داخل الحكومة وخارجها تنادي بها وتتنبأ بقرب وقوعها. فلم يمض شهر واحد على وجودي في واشنطن حتى كنت في طريقي إلى قبرص فالقاهرة ثم بيروت وبعدها عمان ومنها إلى بغداد فالبصرة وبعدها الرياض فالظهران ومنها إلى طهران اجتمع فيها برؤساء فرقنا هناك تباحثاً لهم برنامج «الشبكة الداخلية» وأعد العدة لهم لاستلام الاجهزة اللاسلكية ومعدات «الصمود والبقاء» التي ستصلهم على متن طائرات النقل التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية.

كانت مهمتي هذه عبارة عن مهزلة. ذلك ان كل ما ترتب علي هو ارتداد رئيس كل فريق إلى كيفية ذهابه إلى صحراء قريبة وحفر عدد من الثقوب يدفن فيها كميات من المعدات المتقادم عهدها (كانت تعتبر قديمة عام ١٩٥٠، إذ بإمكانهم التصور ما ستكون عليه عند اشتعال نار حرب عالمية ثالثة) ثم العثور على صخور كبيرة أو أجسام أخرى تتناسب مع طبيعة المكان لتكون معالم يستدل بها على مواقع الثقوب. ولكن، بناء على تعليمات سرية زودني بها كيم روزفلت طرحت على رئيس كل فرقة قابلته، بحضور السفير في البلد المعني ومرات بغيابه، أسئلة مثل : هل يجري في البلد الذي تعمل فيه ما يشكل حالياً أو ما قد يشكل في المستقبل خطراً على المصالح الأميركية؟ وإذا كان جوابك إيجابياً فهل من سبب يحول دون التعاطي مع ذلك الأمر بالسبل الدبلوماسية؟ وما رأيك بمساعدات مالية أو تقنية — بكلام آخر، هل نستطيع شراء تلك الدولة إما عبر حكومتها القائمة أو بواسطة حكومة نستطيع تصويبها بتقديم بعض العون الخفي؟ بمختصر الكلام كان علي التعرف إلى ما في منطقة الشرق الأدنى وافريقيا من مشاكل لا يمكن حلها إلا بذلك النوع من العمليات التي أجاز استعمالها شرعاً لمكتب تنسيق السياسات الحديث العهد.

عدت إلى واشنطن وفي جعبتي جواب أساسي واحد («لن نواجه أي مشاكل إذا امتنعنا عن تأييد اسرائيل») إضافة إلى عشرات المشاكل الاخرى المتوسطة والصغيرة التي يستطيع رجالنا التنفيذيون حلها بالوسائل السياسية، حسب فهمنا لتلك الوسائل آنذاك. باختصار، عدت ومعني حجة أخرى تعسغ زيادة تضخم مكتب تنسيق السياسات. فخلافاً للمرسل الصحفي الذي يؤدي مهمته بنجاح في الارجتنتين هذا الاسبوع ثم ينجح في برلين الشرقية في الاسبوع التالي لا يمكن للموظف التنفيذي ان يكون فعالاً إلا في منطقة واحدة ذلك أن ليس بإمكانه ادراك طبيعة

المشاكل في تلك المنطقة ناهيك عن إيجاد الحلول لها إلا إذا كان متعمقاً في فهم أهلها ودوافعهم وسلم القيم لديهم. وهذا يعني انه بدلاً من ان يكون لمكتب تنسيق السياسات زمرة صغيرة من رجال الأطفاء متأهين للتفرض من مركزهم في واشنطن إلى حينما تتفاهم أزمة ما ينبغي تجهيز المكتب بأعداد كبيرة من الموظفين الدائمين وبينهم أختصاصيون بعلم الحضارات الانسانية وتوزيعهم في مختلف أنحاء العالم حيث يمكن ان تدعو الحاجة إليهم. حاز التقرير الذي وضعته على اعجاب كيم فحملة وأخذني معه إلى مكتب آلن دالس الذي كان على اعجاب الصيرورة نائباً للمدير لتثؤون التخطيط ورئيساً لمنظمتي مكتب العمليات الخاصة ومكتب تنسيق السياسات المندمجين.

كيم عرف بي على أنني عضو وكالة الاستخبارات المركزية الوحيد الذي نفذ، حتى ذلك التاريخ عملية سياسية مستترة – حسب تعريفنا آنذاك للعملية السرية، دون ذكر العمليات الفعلية أو نصف العلنية التي حظيت بتغطية اعلامية واسعة. أجاب دالس بأنه سمع بي من خلال ما قمت به من أعمال في جهاز مكافحة الجاسوسية وفي مكتب الخدمات الاستراتيجية إبان الحرب. وكان ما تبقى مما قاله بمثابة اعتراف صريح بأنه اعتبرني الأول حقاً في مجال اختصاصي .

على الرغم من ذلك أخذ دالس وقته ليشرح لي ان الحكومة الأميركية نجحت بالقيام بعمليات سياسية صريحة وعلنية، منها مثلاً انها رأت ان التثيوعيين كانوا على قاب قوسين من الفوز بالانتخابات في إيطاليا عام ١٩٤٨. فاستدعت وزارة الخارجية رئيس وزراء إيطاليا السيد دي غاسيري لزيارة واشنطن وبلغته بأن مبالغ المساعدات الضخمة التي تحتاجها إيطاليا لاعادة الاعمار لن تأتي إلا اذا تخلص من التثيوعيين في حكومته. ثم أخذ مكتب المعلومات الأميركي يشجع الأميركيين من أصل إيطالي على كتابة الرسائل والبرقيات إلى الألوفا من أقرانهم في إيطاليا ينبئونهم فيها بأن ثيبكات المساعدات التي يتلقونها منهم ستتوقف إذا لم ينضموا إلى الحركة المناوئة للتثيوعية. وراحت الشخصيات الأميركية المرموقة التي تتكلم الإيطالية بطلافة تتحدث إلى الإيطاليين عبر الاذاعات على الموجة القصيرة عن البؤس الذي سيحل ببلادهم إذا ما سيطر عليها التثيوعيون. ومن جهة أخرى أقيمت المعارض الفوتوغرافية وبعثات النوايا الحسنة وزيارات الفرق الموسيقية واستعملت جميع الوسائل لاظهار أفضلية حسن العلاقات الإيطالية الأميركية بالمقارنة مع نوع العلاقات الخطرة التي كان الإيطاليون على وشك الوقوع فيها مع الاتحاد السوفياتي. أما إسهام وكالة الاستخبارات المركزية في العملية كلها فكان تقديم مليون دولار، أو أكثر بقليل، لحزب واحد مناهض للتثيوعية إضافة إلى بعض النصائح عرضتها على حكومة دي غاسيري عما يستطيع الإيطاليون أنفسهم فعله لابعاد ذلك الخطر عنهم .

قال دالس ان على الوكالة ان تشجع إلى أقصى حد ممكن النشاطات العلنية والا تدعمها بالنشاطات المستترة إلا عند الحاجة. وأعرب عن أمله ان نعثر في الشرق الاوسط على أشخاص ومجموعات محلية تقوم بعمل ما يلزم من تلقاء نفسها مع بعض المساعدة المالية والارثناد من قبلنا. وأضاف بأن وزارة الخارجية لن تكون بحاجة لخدماتنا في معظم الحالات ولكنها قد تضطر للاستعانة بنا عندما يصر متلقو مساعداتنا وارشاداتنا على بقائها سرية، وبأن تلك السرية هي لصالحهم وليست لمصلحتنا .

وفي طريق عودتنا إلى مقر الوكالة قال لي كيم بالأحمر ما سمعته على محمل الجدية لأن الآن داليس يتصور نفسه شخصية من شخصيات روايات جون يوكان ولا يستطيع ضبط نفسه ولا ضبطنا إذا ما لاحت لنا في الأفق فرصة القيام بالدور المعد لنا. وأضاف كيم قائلاً: «أن الآن على استعداد للتضحية ب... لنقل بسبابة يده اليسرى مقابل الذهاب إلى مسرح العمليات والقيام بنفسه بهندسة انقلاب».

الفصل الثالث عشر

وكالة الاستخبارات المركزية :

منظمة أم بيروقراطية ؟

حدد لمكتب تنسيق السياسات خمسة أنواع من العمليات هي: الدعاية والاتحادات العمالية واللاجئون والأعمال ثبته العسكرية والنشاطات السياسية. وكان علينا أن نوجه اهتمامنا نحو أوروبا الغربية أولاً ثم الشرق الأوسط وتليهما أفريقيا. أمر أوروبا لا يهمني لأنني أشعر وأنا برفقة الموظفين الذين يتفنون لغتين أو ثلاثاً كأني أحد الأقرباء القرويين، حسبما تبين لي خلال خدمتي القصيرة في مكتب المانيا، فضلاً عن أن قسم أوروبا الغربية تعزز كثيراً أثناء غيابي في سوريا .

من ناحية أخرى لم يكن ثمة مجال يذكر للنشاط في حقل الاتحادات العمالية لعدم وجود اتحادات تستحق اسمها في الشرق الأوسط. أما العمليات ثبته العسكرية فهي ذلك النوع من النشاط الذي كنا نحتاج فيه إلى شهادة بالعجز حتى مجيء «واحد من أصحاب الأفكار الخلابة» واستتب لنا دوراً في الصراع العربي الإسرائيلي فاق كثيراً ما كنا نفكر به. العمل السياسي؟ انه دون ريب طفلي المدلل، خصوصاً وان المجهود الذي بذلناه للدفع بحسني الزعيم إلى سدة الحكم في سوريا صار درساً يعطي في صفوف التدريب إلا أن كيم روزفلت رأى من الأفضل التريث فترة نراقب فيها زملائنا في وزارة الخارجية ونستمع إليهم يبشرون بأن «حكومات منتخبة ديمقراطياً» في الدول العربية سينتج عنها مواقف أكثر اعتدالاً تجاه دولة إسرائيل التي قامت حديثاً.

وفيما كنت أصفي أعماله مع كيم رحمت أستعد لاستلام مركز خلق حديثاً، أي رئيس اركان التخطيط والمعلومات للشرق الأدنى وأفريقيا، ورافقه ترقية في الرتبة وعدني بها فرانك وايسنر. وكالة الاستخبارات المركزية تعرف كلمة «استخبارات» على انها المعلومات التي نستقيها عن الآخرين، وكلمة «معلومات» بالمعلومات التي ننشرها عن أنفسنا بكلام آخر، ما نريد الغير ان يظن بأنه يعرفه عنا. أشار كيم إلى أن التقارير التي كنت أبعث بها من دمشق فيها من المعلومات أكثر مما فيها من الاستخبارات وبالتالي يجب ان أرتاح كثيراً لعمله الجديد . وافقت على ذلك، وكانت مهمتي الجديدة عبارة عن توضيب المعلومات بشكل ملفت يضمن لها حظاً كبيراً في أن تتلفها الصحف وتتطوي ضمناً على ما يدعم المصالح الأميركية وبلحق الضرر بالمصالح السوفياتية، وهو العمل الذي يروق لي تماماً .

وهنا خطر ببالي جيم إيلبرغر وقد انقطع الاتصال بيننا منذ اقترافنا عند نهاية الحرب. فقد بقي في باريس وأقام في منزل على الضفة اليسرى وراح يكتب مقالات غريبة لمجلة «نيويوركر». وعلمت لاحقاً بأنه انتقل إلى نيكاجو وتوظف في أكبر شركة للعلاقات العامة في العالم حيث يكتب المقالات باسم السياسيين وبحضر لهم نصوص خطبهم. وما ان كلمته بالهاتف حتى كان بطريقة إلى واشنطن .

ليس هذا بإخبرغر الذي عرفته .ها هو ببدلة أئيفة وقميص ثمين وباقفة عنق مناسبة يخبرني برصانة انه مرتاح جداً لعمله في حقل العلاقات العامة وعلى الأخص من حيث الراتب وحساب النفقات. وأضاف انه استطاع بعد بضعة أشهر من التمرين ان يتدنى بمستوى كتابته إلى مستوى أفضل موظفي الشركة. وانسجم جيم وكيم انسجام أديبين، وبعد اجراء تحريات سريعة عنه ارضاءً لمتطلبات أنظمة الأمن والسلامة، أفسم اليمين القانونية كموظف في الوكالة بمرتبة ومرتب سمح له باستئجار منزل في ضاحية جورجيتاون. وفي ثنقتين محاذيتين لثنتة كتب كيم أقمنا أنا وجيم مكتبيننا ومعنا سكرتيرتان، وبدأنا العمل بعد اسبوع من التحضيرات الادارية. قضينا زهاء شهرين في وقت ممتع نتحدث مساء بالمواضيع الأدبية والفكرية بعد نهار من العمل في اعداد مواضيع الدعاية. وهكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل حياتي العملية .

ما زلت أذكر حصول جيم على موافقة كيم بعد تردد على مخطط يرمي إلى اثاره حفيظة زعماء متهورين وغير محبوبين في الشرق الأوسط بارسال رسائل إليهم تحملهم على الرد رداً عقلائياً نستطيع إبرازه بشكل يثير التساؤل حول سلامة عقولهم. وكانت التجربة الوحيدة التي أجريناها سلسلة من الرسائل وجهناها إلى البارودي المندوب السعودي لدى الأمم المتحدة. كانت لهجة الرسائل مزيجاً من التقوى والاهانة كما لو انها كتبت يد مسلمين انقياء وعرب متعصبين لقضيتهم القومية، تنهمه بالتفاسع عن الدفاع عن الموقف العربي في الخلاف مع اسرائيل ربما لأنه متأثر بوجهة النظر الغريبة. وقع البارودي في الفخ وألقى عدة خطب طغى عليها هذيان يفوق ما اعتاد عليه .

سر جيم إخبارغر بتلك المحاولة فوصفها على انها «أفضل نتيجة من حبوب آل .إس .دي المهلوسة» .أما كيم فلم يعجب بها ذلك انه أولاً: على علاقة طيبة بالسعيد البارودي ويتفق بالرأي معه في الكثير مما يقوله هذياناً أو غير هذيان. وثانياً: لأنه لا يرى أي خطأ في موقف السعوديين من الصراع العربي الاسرائيلي كما يعتبر أن من الأفضل لمصلحة الولايات المتحدة أن يتمكنا من ابداء موقفهم بوضوح وبشكل مقنع .وكان أكثر ما أزعجه رؤية ثلاثة من كبار «خبراء» مكتب تنسيق السياسات بما لديهم من إمكانات الحكومة الأميركية يكرسون مواهبهم لاطهار صديق حسن النوايا بمظهر رجل مخبول سجل كيم ما أراد تسجيله وغرقنا نحن في الخجل . ولكن كان لدى كيم نقاط أخرى .فقد كان علينا،نحن قبل كل الآخرين ادراك معنى المعرفة وادراك الفرق بين المعرفة والعقيدة. كما كان علينا بصفتنا رجال دعابة أن نفهم ان «المعلومات» يجب تفصيلها لتلائم العقيدة لا المعرفة. هذا الفرق ادركه موسوليني (قال :«لا اريد شعبي أن يعرف بل أريده أن يؤمن بعقيدة») وعلينا أيضاً إدراك ذلك الفرق. ولكن المهم هنا هو معتقدات من نستهدفهم لا معتقداتنا نحن .

في تلك الحقبة بالذات لم يكن ثمة مجال يذكر للعمل الدعائي في الشرق الأدنى وافريقيا .وكانت عملية انقلاب حسني الزعيم التحرك السياسي الوحيد الذي قامت به وكالة الاستخبارات المركزية دون مساعدة أي وكالة أخرى من وكالات الحكومة الأميركية .أخذت في دفع ذلك الانجاز اعتبر نفسي أنمن الموجودات في مبنى القيادة للقيام بعمليات فعلية. أما من حيث التخطيط فتشعرت بأني انتمي إلى المرتبة الثانية خصوصاً بعدما شاهدت من أن إلى آخر عمليات التخطيط في قسم أوروبا الغربية. فقد كان لدى قسم أوروبا الغربية داخل مكتب تنسيق السياسات أكثر من مئة مشروع قيد التخطيط في أن معاً :منها التأثير في الانتخابات والتسلل إلى الاتحادات

العملية والسيطرة عليها وانشاء ائحدات جديدة وتمويل الصحف واعداد كوادر سياسية داخل معسكرات اللاجئين كما كان ثلاثون أو أربعون من تلك المشاريع قد بدأ العمل بها فعلاً. أما الوضوح في تقديم المشاريع وعرضها فجعل موظفي مكتب الخدمات الاستراتيجية بكليشيهاتهم التقليدية يبدوون أميين بالمقارنة. وعلى الرغم من أن النظر الأكبر من عملي قد تحول في أوسط العام ١٩٥٢ إلى قسم التخطيط في مكتب تنسيق السياسات، كنت لا أزال مدرجاً على أنني ضابط في مكتب الخدمات الاستراتيجية. من هنا إيلام المقارنة .

وهنا جاء حدثان يعجلان من اقتراب المرحلة الجديدة من مهنتي المخبرانية. أو لهما: جولة كبرى في افريقيا فعندما توحد مكتب تنسيق السياسات ومكتب العمليات الخاصة وعين آلن دالس نائباً لمدير التخطيط ورئيساً للمكتبين المندمجين صار كيم روزفلت رسمياً رئيس قسم الشرق الأدنى وافريقيا الذي توسع ليضم أيضاً افغانستان وباكستان والهند وسيلان. وبذلك أصبحت المنطقة المخصصة لنا تفوق من حيث المساحة كل المناطق الأخرى مجتمعة وعليه رأينا من واجبا زيارتها والتعرف إليها عن كثب.

لا ريب في ان منطقة بهذا الاتساع عبء ثقيل يفوق طاقة رجل واحد. لذلك قرر كيم القيام بجولة في الشرق الأوسط وثبه القارة الآسيوية تاركاً لي بصفتي المسؤول تالئين القيام بزيارة افريقيا، فانخذ المبادرة وعاد بعد قرابة الشهر إلى واشنطن. عقد خلال رحلته هذه محادثات طويلة ليس فقط مع كل شخصية ذات شأن في غرب آسيا بل ومع الزعماء المحليين الذي جند البعض منهم عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية – ليس عملاً تماماً إنما «زبائن» على استعداد «للتعاون» مع الحكومة الأميركية في كل الشؤون الدولية ذات المصلحة المشتركة للفريقين – لقاء القليل من المساعدات المالية وبعض الدعم التقني.

عاد كيم إلى واشنطن في يوم خميس وقضينا مع زوجتي عطلة نهاية الاسبوع نستمع إلى حكايات رحلته وتفرج على ما التقطه من صور خلالها. ويوم الاثنين ركب الطائرة متوجهاً إلى القارة السوداء. لم يقدم لي أحد فيها امارته ولكنني قمت ببعض الاتصالات المفيدة في السودان وأثيوبيا وكينيا وجنوب افريقيا ونيجيريا وتوغو وليبيريا. أما في غانا ونشاطي العاج والسنغال فكان لي أكثر من مجرد اتصالات. فقد كان في غانا مثلاً رجل أميركي من أكثر الرجال حكمة اسمه بوب فليمنغ يزن قرابة ١٥٠ كيلو غراماً وهو بمثابة لورنس افريقيا يؤدي دور المستشار لقوامي نكروما. وبالطبع كان هناك نكروما نفسه الذي تناولت معه، بفضل فليمنغ، طعام الغداء وقضينا ثلاث ساعات من الحديث وجدته خلالها من أكثر الشخصيات سحراً، ذلك أنه لم يكن قد مضى على توليه الزعامة الوقت الكافي لظهور اعراض داء العظمة فيه* كان نكروما ودوداً يتمتع بروح النكتة ويتكلم الانكليزية بلهجة أفراد الفرق الموسيقية في نيو اورلينز. وكان هناك أيضاً رئيس جمهورية نشاطي العاج فيليكس هوفوبه بنغي الذي يتكلم الفرنسية بلهجة وطلاقة الباريسيين وقد ترك في نفسي انطباعاً بأنه رجل مثقف وسياسي محنك. وكان هناك بالطبع رئيس السنغال ليوبولد سنغور الأديب والشاعر الكبير. والواقع ان هذا الثلاثي وحده كان كافياً لا اعتبار رحلتي ناجحة جدا لجهتي مركزي في الوكالة ومستقبلي بعد الوكالة.

جاءت أهم نتائج رحلتي الافريقية من خلال احاديثي ومشاوري مع بوب فليمنغ. انه يشاطرنى عطفى الطبيعي على الأفارقة السود ولكن إسرافه في الكلام عن نكروما أدى إلى طرده من البلاد. وعلى الرغم من ابعاده إلى نيجيريا استمر بتقديم المعلومات لتتوبر الحكومة الاميركية وزيادة تفهمها لأوضاع الأفارقة السود بحيث اخذ

الموظفون في وكالة المساعدة الدولية المحلية يدركون ضرورة تلطيف عطفهم هذا بإضافة بعض «الحقائق الحضارية» عليه (حسب تسميته لها) رغم معارضة رؤسائهم في واشنطن.

من محادثاتي مع بوب انضح لي نقطتان على صلة وثيقة بأفكار كانت قد بدأت تجول في خاطري.الأولى ان النوع الوحيد من المجتمعات الذي يرتاح إليه الأفارقة السود هو المجتمع القبلي وجوهره «السلطة القبلية» (حسب تفسيره لها). والثانية انه لا يمكن قيام زعامة افريقية شاملة بقيادة شخص واحد أو مجموعة صغيرة من الأتخاص، ليس فقط لتعارض ذلك مع «السلطة القبلية» (حسب تفسيره لها) بل لعدم وجود لغة مشتركة في افريقيا. فنصف الافارقة يستعملون الفرنسية لسائاً مشتركاً للتخاطب فيما بينهم والنصف الآخر يلجأ إلى الانكليزية. ولهم جميعاً أكثر من متني لغة في كل منها عشرات اللهجات المحلية.

من عوامل التفرقة الأخرى بين الافارقة السود تخوفهم من بعضهم البعض وتحاسدهم، فضلاً عن ان المتنورين منهم بما فيه الكفاية لرسم تطلعات مستقبلية مختلفون فيما بينهم حول ما يجب ان تصبو إليه تلك التطلعات وحول سبل بلوغها. عاثر بوب مختلف أصناف الافارقة وتحدث إليهم ورأى ان ما يعتبرونه «تطلعات» لا يعدو كونه تبعوذات بالنسبة إلينا نحن الغربيين، ولكنها بالنسبة إليهم حقائق واقعة تستحق قيام حرب قبلية من أجلها. ولم تكن الاجتماعات للبحث في داء الفم والحافر الذي فلك بالمائنية في طول افريقيا وعرضها أكثر من مناقشات حول العلاجات بالسحر والتعوذة والتعاويد، علماً بان أطباء تخرجوا من جامعة اكسفورد ائتركوا فيها بالحماس عينه الذي أبداه أبناء عمومته الأميون.

وعبر ماركسية بدائية مناسبة اخذ السوفييات بعض التقدم على مجمل المسرح الافريقي لاعتماد اسلوب معاداة ثيء ما جزء منه حقيقي والجزء الآخر وهمي. إن أقل شخص يعمل في حقل الدعاية يدرك ان الوسيلة الفضلي لتوحيد مجتمعات متباينة هي إرثادها إلى ثيء تلتقي على كرهه ومعاداته بينما تؤدي محاولة اعطائهم ما يريدونه إلى تبيان انهم يريدون ائبياء متعددة وانهم لا يستطيعون الاتفاق على الاولويات. ولكنهم في الواقع ذاته قادرون على الاتفاق فقط على من أو ما يقف بينهم وبين تعدد رغباتهم وبالتالي الانحاء باللوم عليه على انه سبب حرمانهم.

قبل بحث الموضوع مع بوب فليمينغ راودتني أفكار عن ابراز نكروما كنوع من المخلص الافريقي وتراءى لي انه إذا كان قد استطاع بلوغ مرتبة الزعامة في نيجيريا رغم ضعة أصله القبلي فقد يتمكن من بلوغها على نطاق افريقيا السوداء الشامل. والواقع انه استغل صفة أصله القبلي ذلك انه باعلانه الحياد في الصراعات القبلية ارتفع فوقهم منادياً بشعارات مستحبة لديهم جميعاً. هكذا بدا الوضع لي ولكن بوب رأى بأنني على خطأ فادح ومخطر، فالائبياء ليست على مظاهرها. فقد بدأ نكروما بدعي بأنه «أعظم من موسى» وعلى استعداد «لقيادة جميع شعوب افريقيا عبر ذلك البحر الأحمر من البؤس الاستعماري». ولكني رأيت بالأأ أوخذ بأولى أعراض داء العظمة هذا، فيما كان بوب يتمنى ألا تكون خبرتي الجديدة هذه انعكاساً لما يفكر به رؤساؤنا في واشنطن. ومما قاله لي ان مجرد التلميح إلى نكروما عند أي زعيم افريقي آخر سيجعل مني شخصاً غير مرغوب فيه لديهم ويؤدي إلى الاستهزاء بي والسخر مني واخراجي من افريقيا. ولكنه وافق على أن «سياسياً ساحر الشخصية»

حتى ولو كان أبيض قد يتمكن من بلوغ زعامة عامة في أفريقيا — «إذا ما كان ذلك ثميناً مستحباً»، حسب قول بوب.

وعلى الرغم من عدم ظهور زعماء يذكرون، كان في أفريقيا فراغ قيادي واضح يأمل السوفييات بملائه وجمع بعض الاتباع حول زعيم ينادي بشعارات مناهضة للاستعمار لم يبرز بعد. لقد كانت أفريقيا محفوفة بما أسماه مخططونا في واشنطن «ظروف ما قبل الثورة» وفي الوقت نفسه كان رؤساؤنا في واشنطن على خطأ في ظنهم ان البريطانيين والفرنسيين يسيطرون على الأوضاع هناك. ولعل باستطاعة أي مراقب محايد أن يشاهد بوضوح وضع الافارقة السود من مرض وسوء تغذية لولا وجود الاستعمار الفرنسي والبريطاني في أفريقيا وان يدرك في الوقت نفسه ان اميركا هي المصدر الوحيد القادر على توفير العون الاقتصادي والتقني اللازمين لاتقاذهم من المرض وسوء التغذية. ومع ذلك كان خبراء الدعاية السوفييات واتباعهم المحليون المستجدون يحاولون اقناع اصحاب النشاط السياسي الافارقة بأن عليهم التخلي عن خصوماتهم القبلية من أجل طرد «الاستعمار والرأسمالية».

إذا يمكن توحيد الافارقة، وأخذ السوفييات يحاولون أن يبرهنوا ذلك. ولكن لا أستطيع القبول بتأكيد قدرتهم على الاتحاد فقط بوجه عدو مقبوت. كان اليوم الذي قضيته في ادغال نشاطي العاج مع عالم الانسان الالمانى الدكتور هانس غروبر كافياً لا قناعي بأن الافارقة ضعفاء أمام القيادة «الساحرة» من صنف الدعاة الاصوليين الذين يشدهون مستمعهم في قلب الجنوب عندنا. فقد قضى البروفسور غروبر قرابة العشرين سنة يراقب بهدوء تصرفات أهل قرى أكان مثلما جاءت جاين غودال بعده بثلاثين سنة تراقب تصرفات قردة الشمبنزي. فقد لاحظ بتدقيق كيف يبرز زعيم في أوقات الشدة وبسير رجال القبيلة خلفه بهدوء دون أن يكون قد ألقى خطاباً ورفع شعارات نارياً، وهذا أمر شاهده بنفسي. فقيما كنا أنا والبروفسور نقرب من احدى القرى سائرين وراء رئيس القبيلة ببضع خطوات رأينا القرويين يتبادلون الصياح بشأن قضية قبلية. وما أن شاهدوا رئيسهم حتى توقف صراخهم وانصتوا بهدوء إلى ما أمرهم به.

سألت البروفسور غروبر عما يتمتع به رئيس القبيلة دون أفراد قبيلته فأجاب بأنه يتمتع بسحر الشخصية. وما هو ذلك السحر؟ وهل يستطيع احد افراد القبيلة العاديين تنميته وانتزاع القيادة؟ أجاب بالنفي لأن القائد يأتي أولاً ثم يأتيه السحر. أي ان القائد ليس قائداً لأن شخصيته ساحرة بل أن شخصيته ساحرة لأنه القائد، هكذا بكل بساطة. أضاف ان الأمر في واقعة ليس بتلك البساطة ذلك انه يشبه حال من جاء أولاً البيضة أم الدجاجة. فمن المعقول إذا ان يتمكن المرء من تنمية السحر في شخصيته أو ان ينمى السحر فيها عن طريق العلاقات العامة بابراره للرأي العام. ولكن لا يمكن حصول ذلك تحت أنوف الاتباع وعليه يجب أن يؤتى من الخارج بالزعيم ذي الشخصية الساحرة المطور تطوراً مصطنعاً.

غادرت أفريقيا وجعبتني مليئة بمواد وأفكار جديدة بعضها غير كامل النضوج محورها اعتقاد راسخ اننا بحاجة إلى زعيم واحد في أفريقيا، أسود كان أم اسمر أم أبيض، قادر على توحيد جميع الافارقة السود حول قضية إيجابية وبناءة، وان علينا أن نؤمن لهم ذلك القائد. نظمت توصياتي في برقية أرسلتها إلى واشنطن يفوق طولها طول البرقية التي بعث بها جورج كنان من موسكو قبل بضع سنوات .

لم يعد بوسعي ان أذكر الآن بعد مرور خمس وثلاثين سنة من الخبرة والنضوج على الآراء الباهرة التي خرجت بها عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢، لحل ما كان يجول في ذهني آنذاك . هل ما زلت أذكره ان مجموعة الافكار التي عدت بها إلى واشنطن شغلت ثمانية أو عشرة موظفين شهراً ونيحاً لتنظيمها في الأطر المعينة، وانها، قبل ان ينسفها كيم روزفلت تضخمت مثل كرة الثلج فصارت ماثروعاً اُدرج في السجلات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية بعنوان «البحث عن يبلي غراهام مسلم» . وبفعل مذكرة صدرت إلى جميع الفروع في الخارج جند رئيس مركز بغداد «داعية تقياً» من العراق وأرسله في جولة تبشيرية أدت إلى اعتقاله ومحاكمته فأعدامه على يد حكومة نوري باثنا السعيد الذي اعترض «من حيث المبدأ» على القضية برمتها . جاء اعتراضه هذا في كتاب اعتذار وجهه إلى كيم روزفلت لدى معرفته بأن «الداعية» المسكين كان فعلاً عميلاً لوكالة الاستخبارات المركزية ولم تكن اعترافاته بذلك عبارة عن تبجح أمام مستجوبيه .

كانت رسالة نوري باثنا أول ما سمعه كيم عن المشروع فنارت ثائرتة واعتبرني جننت . وعلى الرغم من علمه بأن موظفي مكتب تنسيق السياسات مجانيين فقد كان يتوقع مني ما هو أفضل مما صدر عني . ومما قاله لي : «انك تعجب بأفكارك من أجل ذاتها وهذه هي مشكلتك . ولكن عليك ان تكتسب عادة التمعن جيداً بأفكارك النيرة وبما تنتهي إليه» . ولما كان كيم من آل روزفلت، الأسرة ذات التقليد القديم في نوع خاص من الزعامة، فقد فكر بالموضوع الذي لم أكن على دراية به حتى ذلك . وألقى علي محاضرة عن ان الزعماء، رغم ما قد يتمتعون به من سحر، يمكن أن يكونوا عملاء لدى اتباعهم وكيف يمكن ان ينتج عن مزيج اعتباطي بين الزعماء والاتباع انفجار مغاير لما كان متشوداً .

على كل حال رأي كيم ان في الفكرة بعض الحسنات وأدرك أيضاً انها اكتسبت قوة اندفاع خاصة بها وقال : «سنضعها الآن على نار خفيفة لبعض الوقت، ولكن لدي في الوقت نفسه رحلة أخرى لك . فعليك مرافقة كيركباترك وجونستن في جولة على مراكزنا في الخارج . وستكون يدك مليئتين بالعمل بلملمة الركام الذي سيخلفانه . وعليك أيضاً الاستمرار بالبحث بجميع الوسائل عن ذلك «الساحر» العظيم مع الأخذ في الاعتبار ملاءمتهم للظروف المحلية في الاماكن التي ستزورونها . على كل حال سنبحث في الموضوع بعد عودتك» .

كان ليمن كيركباترك رئيس مكتب العمليات الخاصة، والعقيد كيلبورن جونستن رئيس مكتب تنسيق السياسات خلفاً لفرانك وايسنر الذي حل محل آلن دالس نائباً لمدير التخطيط . إذا أصبح كلاهما من «الاركان» ولم يعودا من «الخط» (يعني ذلك بلغة الهندسة الادارية انه لم تعد لأي منهما سلطة الأمر والنهي بل أصبح عملهما اعداد الأوراق السياسية ليسترشد بها رئيسهما آلن دالس) . ومع العلم بأن انتقالهما إلى «الأركان» اتخذ الصفة الرسمية فلم يكونا قد اعتادا عليها فكانا ضابطي أركان صلفين .

عجزت آنذاك وما زالت عاجزاً عن تحليل شخصية كيركباترك . فمنذ انضمامي إلى وكالة الاستخبارات المركزية أخذت أبذل جهداً خاصاً في انشاء ملفات عن أي شخص فيها قد يكون له أي تأثير في وضعي الحالي أو المستقبلي، وهو شعور اندفاعي نما عندي أيام تنغفي بلعب البوكر فاحفظ بدقة تصرفات اللاعبين الآخرين وتحركات أيديهم وقسمات وجوههم التي تدلني عما إذا كانت أوراقهم رابحة أم انهم يخدعون . ولكن جمع المعلومات هذه عن كيرك أعياني ول أفو على تركيبها بما يسمح باستطلاع طبيعته واستباق تصرفاته . ففي أيام

الفتوة عندما كان الغتيان والغتيات يسرقون سيارات ذويهم ويغازلون الغتيات (أو الغتيان) ويجربون التدخين كان كيرك يجمع ما تيسر له من ثارات الاستحقاق بغية الصيرورة أصغر ثناب تولى قيادة فريق الكشاف في روتشستر بولاية نيويورك. وبعد بلوغه مرحلة الرجولة استمر على ما كان عليه من أهلية بالثقة ومن ولاء ورغبة بتقديم العون، والود والتهذيب والاقتصاد والنجاعة والنظافة والتقوى وإلى حد ما اللطف والطاعة. فأى موظف يقع في ورطة مع قيادته يستطيع الاعتماد على تأييد كيرك في السراء والضراء، ورغم ذلك تراه يطرد موظفاً تقيساً لمجرد الظن بأنه ابدى ما قد يدل على عدم الانصياع للأوامر أو التبرم بها. ثمّة مدرسة فكرية تقول بأن كيرك تحول إلى العالج الذي هو عليه بعد جولتنا فصار «طموحاً دون ثنفة» (حسب قول أحد الثقات) بعد إصابته بداء ثلال الاطفال أثناء وجودنا في بانكوك، كي يعوض عن العجز الذي حل به ويبرهن بأنه مازال نداً لمنافسة ريتشارد هلمز. والحق يقال إنه كان في طريقه إلى ذلك قبل رحلتنا المشؤومة .

اعتمد كيرك معي أسلوب التعسف المتشدد متعمداً إرباكي أمام موظفي مكتب لخدمات الخاصة في كل مركز زرناه فقط ليظهر لهم مدى بأسه وسلطانه. ولكنه في الواقع كان غافلاً عما يفعله بي حتى أبديت له اعتراضاتي فانقلب صلفه إلى اعتذارات صادقة. أما العقيد جونستن وقد احتفظت بملاحظات عنه تكفي لملء كتاب فلم يكن أقل قسوة ولكن قسوته لم تتخذ صفة التعمد الشخصي. إنه مدمن سابق على الكحول أصيب بنوبة قلبية واحدة على الأقل واعتمد مظهر المشاكس المتسلط الذي ساعده كثيراً في مركزه كرئيس لمنظمة مليئة (حسب رأيه) بالمخنثين. وكان، رغم محاولته إخفاء ذلك، حاد الذكاء يعود صلفه وقسوته إلى تفوقه العقلي .

«بات» جونستن هو ابن هيو جونسن المجدد والمنظم الهام جداً في إدارة الرئيس فرانك روزفلت (أضاف حرف على جونسون لأخفاء القربى). تعلم البيروقراطية وهو بعد في حضن ابيه ثم التحق بكلية وست يونيت الحربية حيث أنفق أصول التنظيم العسكري، فأضحى خلال الحرب العالمية الثانية أحد أهم شخصيات برامج التنظيم والادارة في الجيش الأميركي وألف عدة كتيبات إرشادية بلغة ثرية واضحة خالية من الكليشيهات العسكرية. وكان قبل قيامنا برحلتنا قد قرأ كل الكتب الهامة عن التنظيم والادارة وحفظها فصار قادراً على تقيوء محتواها بشكل مفيد ومثير .

هل قلت «بشكل مثير؟» فقد كانت محاضراته الطويلة حول الموضوع التي ألفها امام جمهوره المؤلف مني بمفردتي ساحرة حتى لجعلت كتاب برنارد «مهمات المدير التنفيذي» الممل والتقديم المحتوى مقبولاً ومثوقاً. وتقديراً لاهتمامي بمحاضراته تلك أسبغ علي قائمة بأسماء مجموعة من الكتب استتير بها بعد عودتنا إلى واشنطن وقال لي بالمناسبة: «أنت متهور مهووس، ولكنك ذكي» .

علي أن الفت انتباه القراء إلى أنه لا حكم بات جونستن ولا قائمة الكتب التي نصحتني بقراءتها كانت أول ما سمعت به عن موضوع الادارة. فقد سبق لي ان ساعدت بير دي سيلفا في وضع الرسوم البيانية أثناء دمج مصلحة مكافحة الجاسوسية بمصلحة لاستخبارات السرية وقبل ظهور كيرك وبات على الساحة. ولكن تبقى البيروقراطية طبقي المفضل على كل ما عداها من تنظيم وادارة و«التنظيم والادارة» بالمعنى الخاص الذي أسبغه عليه في تلك الايام مؤلهو مفهوم الكفاية. فقد سبق لي أن قرأت أعمال ماركس ولينين وماكس فيبر ولودفك فون ميزه وفريدريك فون هايك إضافة إلى فرانتز نويمن وروبرت مايكلز بشكل خاص. ففي كتابه

«بهموت» (كيان ضخم قوي) بين نوبمن كيف أفسحت البيروقراطية «كدولة ضمن الدولة» المجال أمام هتلر بلوغ السلطة. وكذلك أظهرت نظية مايكلز القائلة «بحدودية سنة حكم القلة» أفكاراً متعددة لم أدرك معناها ساعة قرأتها، وما ان معناها ينجلي في ذهني بعد مقابلاتي لزعماء أفاقرة بدأوا يرون البيروقراطية دونم تنمو وتخرج من قبضتهم.

من مطالعائي فهمت البيروقراطية على انها أكثر من نعت استهزائي يصف الادارة بأنها أنشئت من أجل الادارة ومن أجل المعاملات الورقية ومن أجل موظفين يبتزون أموال الملكفين. إنها، حسب تعييري الخاص، عبارة عن منظمة (ليست كل منظمة بيروقراطية) لها صفاتها الخاصة: (١) توزيع المهمات حسب مهارات محددة، (٢) وهيكلية لها الصفة الرسمية، (٣) و «تحديد ووصف طبيعة العمل» لكل من أفرادها، (٤) وأنظمة محددة بوضوح تنظم العلاقات بين أفرادها وضمن فرق العمل وداخل الأقسام. فإثناء بيروقراطية، حسب تعريفي لها (استناداً إلى ماكس فيبر وغيره) لا تزيد كثيراً عن وضع قائمة بكل شيء يجب عمله من أجل تمكين المنظمة من بلوغ غاياتها ثم ادخال تلك العناصر الأربعة بأقل تعقيد ممكن. يبقى ان أهم مميزاتها ان السلطة تترافق مع اللقب ومع وصف الوظيفة، لا مع الشخص، بحيث ان ولاء المرؤوس لرئيسه ليس مرتباً باحترامه له كشخص بل بانه يشغل منصباً معيناً.

ما أسهل التغلب على هذا النظام! ففي أي مجموعة كبيرة من الناس يعملون معاً تنشأ حكماً شبكة من العلاقات الشخصية المتداخلة الخيوط سواء رحبت الادارة بذلك أم لم ترحب. وقد تستطيع المنظمة البيروقراطية القيام باعمالها بانتظام عندما لا تتعدى تلك الأعمال الرتابة الروتينية. أما في الأزمات فتتل العلاقات الشخصية محل رتابة النظام المعمول به. وعليه وتحت اشراف بات اخترعت عبارة «خلق الأزمات» ادراكاً مني بأن التقهيم العميق لحركية المنظمات أمر أساسي في تخطيط عمل سياسي احتراقي طالما حلمت بإتقانه. فسعيت للتوصل إلى طريقة أرقى من مجرد العثور على عقيد مغفل أرثده خطوة بعد خطوة لتنفيذ انقلاب على الدولة. وخطر لي وانا أطبق تعليمات بات على مشاهداني في افريقيا ان البيروقراطية المتصلبة لا بد أن تكون في احد مستوباتها من رأسها حتى أسفلها عرضة لانطباق مخططي عليها شرط توفر مجال يسمح بالتحرك من أجل «خلق الأزمات» أو «الامساك بزمام الازمات».

باستطاعة الشخص الجالس على قمة منظّمته والواقف على قنوات حركة المعلومات فيها ان يفعل شبكة العلاقات الشخصية غير الرسمية ساعة يرى في ذلك تلاؤماً مع غاياته — أو بتعبير أوضح وأدق عندما تتوافق فيه مهارات اللعب بالمنظمة حسب رغباته يستطيع استخدام تشابك ما هو رسمي مع ما هو غير رسمي في بنية المنظمة لتحقيق تلك الغايات مهما كان نوعها. ولا ريب في انه سيعتمد على العلاقات الشخصية إذا كانت الأزمة المفتعلة مدروسة باتقان واحكام. كما يستطيع الافادة من الولاء على صعيد شخصي لا على صعيد وظيفي — شرط أن يكون قد ملأ المراكز في المنظمة بحيث يشغل مؤيدوه الشخصيون المراكز الحساسة. وإذا ما قمت أنا بتدريب الموظفين في المراكز الأدنى رتبة ونفوذاً فسيتمددون إلى أدنى لخلق المشاكل وإلى أعلى ليبدأ الشعور بوجودهم فتكون العلاقة بينهم كعلاقة الجذور بالنبته وهي علاقة معرضة جداً «للتأثيرات الخارجية» — أي اختلاق أزمات خفية لا تطلها المراقبة.

سبق لبات أن لفت انتباهي إلى ن بعضاً مما أوردته أعلاه قد حدث فعلاً لنسل جديد من المهنيين يطلق عليهم اسم مهندسين اداريين. ففي كل بلد زرتة في اقرينيا كان الزعيم قد استلم السلطة إثر قطعه وعوداً لم يستطع الايفاء بها واستمر في مركزه بإلقائه اللوم على قوى الخارجية حالت دون تحقيقه تلك الوعود، وبزج المثنكين به في السجون. إن لاسلوب «اللوم والارهاب» جدواه، لا ينجح إلا بتطبيق ما أسماه مايكلز وغيره «السيطرة البيروقراطية». وقد حاولت في بعض الصفحات السابقة الايضاح بأن انعدام تلك السيطرة أدى إلى سقوط حسني الزعيم.

خلفاً لمدير الاستخبارات المركزية الجنرال بيدل سميث، لم يكن كير كباتريك (حسب اصرار بات) «رجل التنظيم الأمثل» بل كان «رجل البيروقراطية الأمثل». أشرق علي هذا الادراك بكامل قوته بعد ان عكرنا المياه على رؤساء فرقنا العاملة في نيودلهي وكلكتا وكارانشي وبغدا وبيروت ووصلنا إلى استنبول حيث كان فريقنا بعهدة أرثشي.

خلال الاجتماع الأول افرغ كيرك وبات جعبتيهما عن اندماج مكتب العمليات الخاصة بمكتب تنسيق السياسات في منظمة واحدة بإدارة نائب مدير التخطيط وانهما انتقلا إلى «الأركان» من «الصف». ثم اخرجنا مخططاتهما التنظيمية وفسرا له كيف يجب عليه ادارة شؤون فريقه. وهنا لمع في ذهني انهما لم يظهرأ أي فضول أصيل عن سبب وجود فرق في تلك الأمكنة بالذات أو بشأن الأوضاع المحلية ومدى تأثيرها في عمليات تكد الفرق، هذا إذا كان ثمة عمليات وامكانات اجرائها. ويبدو انهما لم يعتبرا ان لمثل تلك الاتيياء علاقة بمهمتهما.

والأدهى من ذلك انهما اقتنحا عرضهما لآرثشي بمفرده، ولكنهما قبل البحث فيه مسبقاً معه على انفراد دعيا كل الموظفين باستثناء السكرتيرات وعرضا التنظيمات التي قرراها أمام الجميع. وتضمنت تنظيماتهما وجود رئيس فريق (آرثشي) ونائب عن مدير مكتب العمليات الخاصة، ونائب عن مدير مكتب تنسيق السياسات ورؤساء لأقسام الاستخبارات ومكافحة الجاسوسية والعمل السياسي والشؤون العمالية والعمليات شبه العسكرية، هذا علماً بأن لدى آرثشي سلطة دمج أو رفع أو تخفيض أو حتى الغاء تلك الاختصاصات كلها حسبما تقتضيه الأوضاع المحلية. أما آرثشي وهو ذلك الرجل الذي يفترض دوماً وجود حسن البيئة حتى يثبت العكس فسمح بالتمادي في ذلك الاسراف إلى نقطة اللارجوع. وقبل أن يدرك آرثشي بأن بيانهما قد انتهى لتنبه بضع أسئلة مهذبة، كان كيرك قد استدار نحوي وسأل: «هل ذلك واضح بالنسبة إليك يا مستر كويلند؟»

إجبتة: «أجل، انه واضح بما فيه الكفاية بالنسبة لي، هذا علماً بأن ما ساكبتة عنكما إيها السيد ان يصلح مقالاً لمجلة نيوبوركر أكثر منه تقريراً سأبعث به إلى كم، ثم اسألا آرثشي عما إذا كان واضحاً بالنسبة إليه».

جلس آرثشي وقد اعتراه الدهول. ثم فعل ثيبناً لم يسبق لي أن شاهدته يصدر عنه. وانفجر غضباً! تاه عن بالي ما قاله لهم وكل ما أذكره انه خاطبهما بكلمات وعبارات امتازت بحسن الاختيار، عندها نهض ضابط برتبة عقيد المفروض فيه الاشراف على العمليات شبه العسكرية وقذف نحو الحائط بالكيسي الذي كان يجلس عليه، فتحطم.

يا له من مشهد! همدت فوراً لهجة بات وتحولت إلى التماس المصالحة. فقد أدرك انه بإشارته للتمييز بين «الأركان» و«الخط» ارتكب هفوة كبيرة. أما كيرك فشعر بأن سلطته تعرضت للتحدي وانه بات مجرد ناظر مهمته السهر على الانضباط حسب أوامر تأييه من فوق. وحافظ على رباطة جأثته، وبدا عليه الغضب بوضوح

جعله إما يتجاهل بات أو لا يسمعه وهو يبدي اعتذاره بعض التراجع فقال بأنهما لم تعد لهما أية «سلطة» بالمعنى المتعارف عليه للكلمة وبأنه يأمل أن يدرك آرثني ما تنطوي عليه «توصياتهما» من «وزن سلطوي» عندما يقرر «ما إذا كان سيقبل بتلك التوصيات أو يرفضها».

ظننت بأن آرثني الذي لم يكن لعي معرفة بلهجة التقرير الذي سأرفعه إلى كيم، قد شعر بأنني تخليت عنه بانزواني صامتاً فيما كان كيرك يدلي ببلاهاته. على كل حال كان من شأن تحطم الكرسي على الجدار ان خفف التوتر قليلاً وحول اهتمام كيرك نحو محاولة تهدئة العقيد الذي حطم الكرسي ليقول له بأنه سينقله إلى مركز آخر حيث يقدرن مواهبه. ثم تناولنا طعام الغداء والصمت يخيم علينا نظراً لأننا كلنا على درجات مختلفة من الصدمة، كما لم يعدوا ما تبادلناه من كلام على بعض ما تكلفناه من أدب مع محاولة تطليعه ببعض النكات والضحك المصطنع.

والغريب اننا بعد مغادرتنا استنبول جرت الأمور على خير بيننا فقد شعر من كل كيرك وبات بالراحة وبالسعادة لانتهاء المهمة وكانا يضحكان فعلاً أثناء رحلتنا بسيارة السفارة من مطار لندن إلى فندق كلاردج حيث جلسا بعدان برقية لمدير الاستخبارات السرية يتضمن اننا جميعاً متعبون جداً من الرحلة وباجة إلى العودة بحراً. جاء الجواب إيجاباً فوفرت لنا الباخرة الفخمة «كوبن ماري» راحة كنا بأمس الحاجة إليها وكنت في أحسن استمتاعي بها عندما سمعت ثاباً من وكالة الاستخبارات المركزية انتقل الباخرة من مرفأ ساوث هامبتون، يسأل بات صحة الانشاعة عن حتمية تعيين كيرك مديراً للاستخبارات المركزية. أجاب بات بأن لا مفر من ذلك لأن كيرك مزيج مثالي من القدرة الادارية والعقلانية والصرامة وبأنه لدى بلوغه غايته هذه سيكون أقل «خرايئة مما هو عليها».

تجمد الدم في عروقي. فحتمية ارتقاء كيرك إلى التروؤس عينا جميعاً كانت صدمة قوية لي. فهو سيصبح يوماً مديرنا وسيكون مديراً جيداً لأن فهمه لجوهر الأمور محدود جداً. من هنا سيتمكن من ادارة وكالة الاستخبارات المركزية على انها منظمة لا مجرد اسطبل يضم مجموعة من راقصات البالية – مثلما يتعامل رئيس مستثنفي والترريد العسكري مع الاطباء المستقلي الرأي فيه. أما منافسة الرئيسي ذلك هلمز فليديه بعض المعلومات عن الاستخبارات – بما يكفي لجعله رجلاً مخطراً – ولكن كيم يعتبر «مستر نظيف» وهو وان كان يعلم ان الخط المستقيم ليس بالضرورة أفصر مسافة بين تفطين فهو اسلمها حتى يثبت العكس. إذا انه «رجل البيروقراطية» الأمثل!

غير انه يوجد في الاسطبل راقصة لن يتمكن من قيادتها وهي أنا. عندما انضحت في ذهني سخافة عملي في وكالة استخبارات مركزية يديرها ليمن كيركبائريك صرت أفكر بأن «المنظمات خلقت للحرقة بها لا لأن اكون فرداً فيها». وحسب ما أوحته لي محاضرات بات سأصبح، أنا، مهندس ادارة! ولما وصلنا واشنطن قضيت اسبوعاً في اعداد تقرير لي لكيم عن الرحلة (وجعلت ما حدث في استنبول نموذجاً عنها)، وأمضيت جلسة أخرى قابعاً بصمت في احدى الزوايا استمع إلى كيم يسرد على بات وكيرك رأيه فيهما، اعددت ورقة أخرى أوردت فيها أفكار لي عن كيفية البحث عن «أب أبيض كبير» هذا إذا كان بحث كهذا سيجري على الاطلاق، والنظر إليه كقضية تنظيمية (عنيبت في الواقع «بيروقراطية» حسب تعريف ماركس وفبير ومايكلز، لكنني قلت «تنظيمية»

مراعاة لبات وغيره من القراء المحتملين والملمين، بأحدث ما يصدر عن مكتب التنظيم والادارة في الجيش الأميركي).

قوبلت أفكارى التي ضمنتها تقريري الواقع في ثلاثين صفحة بالاستحسان وعلى الأخص فكرة استغاثتي لا ستلام عمل جديد مع شركة بوز - آل اند هملتون وهي أهم شركة في العالم للاستشارات الادارية. وقد تأمن لي عملي هذا أثناء لقاء طويل على الغداء بيني وبين رئيس الشركة بواسطة مكتب رالف سميلي في واشنطن وكتاب توصية يشع اطراء بي وقعه فرانك وايسنر. أعجب رالف بأفكارى حول القيادة والبيروقراطية (مستغاة من «القانون الحديدي» لمايكلز المعدل للتلاؤم مع الظروف في افريقيا والشرق الأوسط حسب فهمي لها) وقال بأن أفكارى تلك قد تساعده إذا ما نجحت مخططاته لإقامة قسم دولي لشركة بوز - آل اند هملتون . وهكذا وصلنا إلى مرحلة اخرى من مراحل عملي المتقاطعة، مرحلة تصور المقولة القديمة انه بإمكانك إخراج الثناب من وكالة الاستخبارات المركزية ولكن ليس بإمكانك اخراج وكالة الاستخبارات من الثناب .

الفصل الرابع عشر

مهمة استطلاعية في مصر؟

رواية كوبلاند من الزاوية الأميركية*

استقلت مرتين من عملي في وكالة الاستخبارات المركزية بسبب حاجتي إلى المال ولم ألق ترحيباً لدى عودتي إلا مرة واحدة وكنت قد جمعت من المال ما سمح لي بالعودة إلى ترف العمل في ذلك المكان المدهش. اعتاد أحد زملائي - وكان يعتمد على أيه الثري لتغطية الفرق بين راتبه ونفقائه - القول باذنه يشعر وكأنه لا يزال طالباً في الجامعة إذا يكتب لأبيه قائلاً: «أبي الحبيب، أرجو أن ترسل لي المزيد من الدراهم كي أبقي في وكالة الاستخبارات المركزية سنة أشهر اخرى». ولما لم ينكن لي والد ثري، اضطررت في لعام ١٩٥٢ إلى مغادرة الوكالة السنتين لأجمع ما كفاني من المال لشراء منزل جميل في ولاية فرجينيا وسيارة ثانية وسترات رياضية من المخازن الأنيقة. بلغ راتبي في شركة بوز - آل اند هملتن ضعفي ما كنت انقاضاه في وكالة الاستخبارات المركزية، ولم يحسدني على ذلك زملائي الأكثر فقراً مني فيها بل حاولوا اقتناء أثري. وعندما أخذت عطلة من الشركة في العام ١٩٥٥ للانضمام إلى الوكالة من جديد اغتبط الجميع لعودتي.

وعندما تركت الوكالة ثانية عام ١٩٥٧ ارتفع دخلي بعد فترة وجيزة مما حمل مجلات الأعمال الكبرى على ادراج اسمي بين العشرة مستشارين الأعلى راتباً في العالم. وبعدها أصبحت ثرياً بحيث استطيع استتجار جناح في برج واردمن وتوظيف بعض الخدم فيه لم يعد أحد من زملائي السابقين يتكلم معي. ولما غرقت الوكالة في المشاكل بعد عملية «خليج الخنازير» الفاشلة عرضت خدماتي على ريتشارد بيسل الذي حل محل فرانك وايسنر

*ملاحظة: جرى استبدال العنوان الأصلي من «بيلي غراهام المسلم» إلى العبارة الواردة اعلاه، ومن ناذل القول ان مايلز كوبلاند ينظر إلى الموضوع من زاوية المخابرات المركزية الأميركية وخطتها الرامية إلى التدخل في شؤون مصر. نافذنى ذنبيه القارئ لئلا يأخذ الأمور على علائها.

في منصب نائب مدير التخطيط ليقال لي بأن نار الثورة ستشتعل فوراً في مباني القيادة بمجرد التكبير باعاداتي إلى الوكالة. ثم تقدمت بعرض من نوع التعاقد للعمل مقابل دولار واحد في السنة، فرفض هو الآخر. ومنذ تلك الأيام وحتى الآن وأنا، حسب تسمية فرانك وإيسنر، «الخريج الأمين» أقوم بمهام يجب القيام بها ولا تجرؤ الوكالة على ذلك (هل لا حظتم الفرق)، تارة أحصل على بدل أتعاب ضئيل، وأخرى على مجرد ما دفعته من جيبتي، وفي أكثر المرات أقدم أتعابي دون مقابل. والواقع أن ولدي الاثني عشر أخذاً في السنوات الأخيرة يمولان نشاطاتي غير الرسمية (وغير الموافق عليها بشكل صريح) بواقع بضعة آلاف من الدولارات في السنة وهي مبالغ غير خاضعة للحسم من ضريبة الدخل. وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من أنني ما زلت أتعلم بصداقة وثقة بعض الأصدقاء الباقين في الوكالة، أبقى مضطراً لسماع ثرثرة الباقين الذين استساغوا أفكارني واستنكروا وسائلتي.

سأطلع كل قارئ يتعهد بالكتمان على السر الكامن في سيرة حياتي، أو لنقل وراء دوافع تصرفاتي الكيفية. لقد قضيت السنوات الثلاثين الماضية في تتبع وتحسين نظرية نشأت في ذهني من خلال جولاتي الأفريقية ومن أحاديثي مع بات جونستن ومن ومرافقتي لذلك البيروقراطي الأمثل ليس من كيركباترك. ادعى الرياضي الإغريقي أرخميسس بأنه إذا ما تيسر له نقطة أو مكان ليقف فيه والرافعة المرتبة ترتيباً مناسباً لاستطاع رفع الكرة الأرضية من مكانها. أما نظيرتي فقامت في بدايتها على اختيار زعماء من «البيروقراطيات الرئيسية في العالم الحر» وتهيئة «سحر الشخصية» لهم فيكونوا رافعات صالحة تستطيع السياسة الخارجية الأميركية المتتورة الاستعانة بها لرفع مستوى العالم. وقد قلت في مذكري الوداعية قبل جولتي على الزملاء أن من شأن تطبيق نظيرتي بحكمة تمكين وكالة الاستخبارات المركزية، إذا ما أحسب الاستفادة منها، من تحقيق ما وعد به الرئيس وودرو ويلسون «بجعل هذا العالم مكاناً أسلم للديمقراطية» من جهة، وبإزالة ما يجري هنا وهناك من مربكات لاسلوب العيش الأميركي، من جهة أخرى. وعلى الرغم من التحسينات التي أدخلت عليها، لم تحقق نظيرتي على مر السنين تقدماً يذكر ولكنها قادتني إلى بعض المآزق وكذلك إلى تحصيل بعض المال. إنما الأهم من ذلك كله أنها علمتني الكثير عما لا يمكن الاعتماد عليه من أجل رفع مستوى العالم أو من أجل تخفيف وطأة مشاكله المتنوعة.

الديمقراطية، مثلاً، واحدة من تلك المشاكل. فقد تأني الديمقراطية الأصيلة – بالمقارنة مع الديمقراطية الزائفة التي يدعيها الاشتراكيون – نقمة لا نعمة إلا إذا انبنت نوعاً معيناً من القيادة، عنيقة في نظيرتي واستطاع هذا النوع الثبات بوجه تقلبات الظروف والضغوط. وما قد صار من لمقولات الثنائة أن بلوغ السلطة يحتاج إلى مجموعة من الصفات، وأن استعمال تلك السلطة لخير الذين منحوها يستلزم مجموعة أخرى. وقد انضح لي حتى في وقت مبكر كالعالم ١٩٥٣ أن الديمقراطية كغاية بحد ذاتها أفادت الغوغائيين الديموغوجيين فاستغلوها لإغراض تناقض غاياتها. يشهد التاريخ الحديث على أن بعضاً من أسوأ طواغيت العالم شنفوا طريقهم إلى السلطة عبر انتخابات ديمقراطية. ففي العام ١٩٨٠ مثلاً تبجح روبرت موغابي رئيس زيمبابوي المنتخب ديمقراطياً بأنه يحبذ الديمقراطية لأنها «نظام يسهل اختراقه والتغلب عليه. وتوصل أيضاً أشخاصاً من أقل الناس أهلية وكفاءة وأكثرهم ثرثرة في التاريخ إلى مراكز رفيعة بفوزهم من انتخابات ديمقراطية لم تكن في

واقعا أكثر من مباراة في الشعبية، وما لبثوا ان خربوا مصالح بلدانهم لانهم لم يتمكنوا غلا من السير وراء جمهورهم على غرار ما كتبه ادموند بورك عن احد قادة الثورة الفرنسية الذي نسب إليه قوله: «إن الرعاع يملأ ون الطرقات وعلي ان اعرف وجهتهم لأنني قائدهم».

والمهم ان الغاية من ملاحظاتي هذه ليست إلقاء درس في أصول القيادة السياسية. فهذا الكتاب سرد ذاتي لسيرة حياتي أعبر فيه فيما أعبر عما كان يجول في خاطري عندما تخليت عن العمل في وكالة الاستخبارات المركزية عام ١٩٥٣، ومن بينها الاشارة إلى مواقع في بعض البيروقراطيات في العالم حيث تتخذ أكثر المقررات تأثيراً في مصالح الولايات المتحدة. فقد ملأ ضميري آنذاك الأمل بأن أتمكن من التخطيط لأعمال سياسية تدفع ببعض من اختار من الطامحين إلى الاثتراك فيها والاستمرار عليها ثم السير في طرق تؤدي بهم وبنا إلى الازدهار والاستقرار. والواقع انه بصرف النظر عن بعض التسليات العنيفة تركزت كل نشاطاتي خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية بشكل ما على الأمل في التعرف إلى أشخاص يبشرون بطاقة قيادية من اجل توجيههم نحو بلوغ مستقبلهم الأمثل بالوسائل الديمقراطية، إذا ما توافرت، أو بأي وسيلة اخرى ودون تردد عند عدم توافرها.

وقع اختياري الأول من الناحية الإقليمية على مصر. فقد أبدى رؤسائي المقبولون شركة بوز - آلن أند هملتن ورئيسي آنذاك كيم روزفلت اهتماماً واضحاً ومكثوفاً بها، وكل فريق لأسباب لا صلة لها البتة بأسباب الفريق الآخر ولكن اسبابهم جاءت متضافرة تماماً من وجهة نظري أنا. فقد كانت الشركة تقاوض المصرف الوطني المصري بشأن اجراء مسح اداري شامل لادارته ولمختلف ممتلكاته، فيما كان كيم، دون علمه بنشاط الشركة، متشغلاً بالفوضى السياسية في ذلك البلد الذي أصبح مفضلاً عنده من خلال خبراته إبان الحرب العالمية الثانية . ودون علمه باهتمام الشركة ورغم توسلي بأن يترك لي أمر الافكار الخارقة، دخل كيم مكتبه صبيحة أحد الأيام ودعا المسؤولين لاجتماع طارئ أعلن فيه أنه قضى ليلته يتقلب في فرائسه ويقلب في عقله بعض الافكار التي راودته بشأن انقاذ الملك فاروق الذي لايزال يحظى بعطف الغرب .فكان علينا اقناع «الزير السمين» حسبما لقبه بعض موظفي دائرة التخطيط في قسم الشرق الأدنى وافريقيا، اثناء غياب كيم طبعاً، بأنه إذا امتنع عن اجراء تطهيرات بين موظفيه الفاسدين وفي نظام حكمه البالي وعن جعله أقرب إلى مجتمع المساواة، فإن شخصاً آخر سيقوم بذلك .

دونت أفكار كيم هذه بشكل مشورع (أطلقنا عليه رمز ز س .أي «الزير السمين») أخذ طريقه الروتينية لموافقة السلطات الأمنية عليه. وسرعان ما سبقنا أحداث القاهرة في يوم بات يعرف باسم «سبت مصر الأسود». ففي أواخر العام ١٩٥١ قررت حكومة ونستون تشرشل التي عادت إلى الحكم بعد أن أضعفت الحكومة العمالية بريطانيا دولياً وداخلياً، قررت معاقبة مصر على نقضها المعاهدتين اللتين سوغتا الوجود البريطاني في منطقة قناة السويس وعلى دعم نقضها هذا بمحاصرة المنطقة بحرب العصابات. ففي كانون الأول (ديسمبر) دمر الجيش البريطاني قرية كان ينطلق منها المقاومون المصريون .وفي أوائل كانون الثاني (يناير) هاجموا مركزين مصريين بالقرب من الاسماعيلية وقتلوا أو أصابوا معظم الذين كانوا فيهما توترت الأجواء وأحرقت ودمرت الجماهير الهائجة المؤلفة من مسلمين متطرفين كل مباني المدينة ذات الصلة «بالإمبريالية البريطانية» — منها فندق ثبررد وتورف كلوب وكل مطعم أو بار أو دار للسينما عرفت بملازمة الجاليات الأجنبية لها .

كل هذا في مصر الصبورة فبات صبرها هذا موضوع انتقادات في معظم العالم العربي . أما الحكومة البريطانية التي استشاط غضبها وقلت حيلتها فأقسمت على اتخاذ اجراءات اضافية بحق المصريين . وأما وزارة الخارجية الأميركية وقد كدرها تقصير البريطانيين عن الادراك بأن «عهد الاستعمار قد ولى»، فأرسلت احتجاجات موزونة للحكومتين البريطانية والمصرية . ورأت وكالة الاستخبارات المركزية فرصتها فقطعنا صلاتنا الرسمية مع الاستخبارات السرية البريطانية، وأخذ مشورع كيم (روزفلت) لاتخاذ الملك فاروق «بالثورة السلمية» طريقه إلى التنفيذ فنال موافقة آلن دالس أثناء تناوله الشاي في بيته في ضاحية جورجتاون بعد ظهر يوم الأحد الذي تلا السبت الأسود وأعلن كيم ذلك في اجتماع المسؤولين في قسمه صباح اليوم التالي .

هل كان متوقفاً ان يرسلني كيم إلى القاهرة للقيام بتلك المهمة ؟ لا . لامجال مطلقاً ؛ بل انه سيقوم بها بنفسه . أما أنا فيؤتى بي للبقاء على قوة اندفاع المشروع بعد نجاحه - شرط ان أتخلى، حسب قول كيم عن «اصراري بعناد» على مغادرة وكالة الاستخبارات المركزية سعيًا وراء كسب أكبر . أجبت بأنني سأفكر في الأمر، ولم يكن كيم على علم بالطبع بأنني سأذهب إلى مصر سواء قبل بذلك أم لم يقبل - باعتباري الموظف الذي يتكلم العربية في شركة بوز - آلن أند هملتن .

أثبتت لي اعادة قراءة ملف كيم بأنه على كامل الحق في أصراره على انه وحدة القادر على تحقيق المشروع . ففي الحرب العالمية الثانية قامت علاقة ودية بينه وبين الملك فاروق أثر فترة من التوتر بين الملك والبريطانيين فرض عليه هؤلاء فيها وتحت التهديد بالسلاح ابعاد العناصر الموالية للالمان في حكومته واستبدالهم بعناصر من اختيارهم . وفيما الملك يرغي ويزبد في قصره كان كيم يزوره يومياً تقريباً لتطبيب خاطره بالايحاء إليه بقيام حقبة جديدة بعد الحرب تنعم مصر فيها بسيادة حقيقية ويكون هو فيها «أول حاكم لأول مصر حرة منذ ألفي سنة» . وكما ذكرنا كيم في اجتماع الموظفين في مكتبه صباح ذلك الاثنين، فقد ارتاح الملك فاروق لأحدثه وبالتالي هناك مجال واسع للاعتقاد بأن زيارة له من قبل كيم لاعادة الصلة قد تجعله يقبل بتلك الافكار التي توصل إليها كيم في تلك الليلة البيضاء . وهكذا وخلال أقل من اسبوع كان كيم في طريقه إلى القاهرة .

صحيح أن الملك استقبله بحرارة، وان بشكل ملفت أكثر مما هو مطلوب . لزيارة «تكتسي طابع السرية القصوى» حسب ما ورد في برقية بعث بها كيم بالثيفرة عبر قنوات اتفق عليها مسبقا . تقدم موظف مصري مهذب إلى الطائرة ورافق كيم عبر دوائر الأمن والجمارك بسرعة قبل السماح لباقي ركاب الطائرة بمغادرتها . وراحت السيارة التي أفلتتها وعليها الثعنارات الملكية الواضحة تخترق الثنوارع بسرعة وعجلاتها تزعق في الطرقات فتنبعث أمامها السيارات والعربات وبفر من أمامها المارة والأولاد الذين اتخذوا الطريق ملعبهم . وقد روعيت واحدة من تعليمات السرية التي طلبها كيم وكانت تغطية نوافذ السيارة بستائر بحيث انه لم يستطع معرفة وجهة رحلته إلا عندما توقفت السيارة في حديقة استراحته الجيزة المطلة على الأهرام .

بوصوله إلى الاستراحة استعاد كيم من خبايا ذاكرته انطباعات تكون في ذهنه في الأيام التي قضاها في القاهرة إبان الحرب، بأن الملك فاروق ليس من ذوي الأوزان العقلية الثقيلة . وجاءت لقاءاته به على مدى الاسبوعين التاليين تؤكد صحة انطباعه . فقد كان الملك يبدي إدراكاً جلياً للأحداث الجارية في البلاد وتأثيراتها المحتملة في مستقبله ومستقبل عرشه فيوافق بحماس على اقتراحات كيم العلاجية، ويختفي في اليوم التالي عن الأبصار وقد

أهمل اصدار أمر كان بالأمر قد وافق على انه حيوي للخطة التي عرضها كيم. ثم يعود بعد اسبوع، وفي نزوة أنية من نزواته، فيصدر أمراً آخر يؤدي إلى انهيار الخطة من أساسها .

استغرقت زيارة كيم للقاهرة قرابة الشهر عاف على أثرها «مشرع زيس .» حسبما كان عليه في الأصل، وعاد إلى واشنطن مقتنعاً بأن لا مجال للعمل العقلاني في مصر طالما بقي فاروق متربعا على العرش، ومصمماً أكثر من أي وقت مضى على «انقاذ مصر من نفسها»، حسب تعبيره . وفي تعلقه بحبال الهواء نفض كيم أكداً عن الغبار عن فكرتي بالبحث عن «بيلي غراهام المسلم» وقرر ارسالي إلى مصر في مهمة استكشاف . أمرني بزيارة القاهرة لإجراء مسح شامل للوضع العام، وباستقصاء مدى أي اضرار تكون قد نجمت عن تصرفات الملك الصيانية، وبالعودة بمخطط جديد. كانت أوامره بمثابة القول «اسبح ما تئنت دون أن تبتل» .

ما ان وصلت القاهرة حتى خالفت احدى وصايا الوكالة المقدسة آنذاك إذ قررت القيام بزيارة للسفير الأميركي واطلاعه على حافية ما أتوي عمله والوقوف على رأيه. أم ذريعتي، عندما بلغ واشنطن خبر تمردني هذا، فهي ان السفير جفرسون كاييري أكبر موظفي الخارجية سناً وأندهم حكمة وأعلم من أي مستشرق بالثبوتون المصرية، كما كان يعاونه في السفارة موظفان لهما اتصالات مع المصريين أوسع بكثير مما لمسؤولي الوكالة كما في القاهرة. فقد قام مساعد الملحق العسكري المقدم دايفيد إيفانز والضابط السياسي (لا ينتمي إلى الوكالة) بيل لايلاند بأعمال تفخر بها الوكالة كما لو انها هي التي قامت بها، من حيث المراقبة الذكية للغليان المستتر الذي اقلق كيم روزفلت والمحليين السياسيين في طاقمه في واشنطن . هذا فضلاً عن انهما قدما لي العون الذكي علماً بأن من حفيهما الامتعاض من فضولي وتدخلاتي .

وعندما شرعت بالعمل الجدي بحثاً عن زعيم أو قائد، بدأت خارج السفارة مستعيناً بصديقي ناصر الدين النشائيبي (أو نصري). تعود صداقتنا إلى أيام عملي في دمشق، وهو من الجيل الحادي والثلاثين من سلالة الأمير أحمد ناصر الدين النشائيبي حارس مساجد القدس والخليل في عهد المماليك . تعرفت إليه في الاردن وهو في العشرينات من العمر، ياور لدى الملك عبد الله واستمر في ذلك المنصب حتى اغتيال الملك في تموز (يوليو) ١٩٥١ .

أما الآن وقد أصبح من تخصصيات المجتمع السياسي الرفيع في القاهرة فرجوته ان يفسر لي كيف يمكن لأي قائد يبرز من «الثورة السلمية» التي يتصورها كيم روزفلت تحويل الآمال إلى توقعات، أو أي شيء آخر، رغم ما سيكون عليه من اثئغال بكل المكائد التي حاكها كيم مع الملك فاروق .

أوضحت لنصري، ونحن نتناول كأساً من الشراب، رغبتني في ان يكون آخر عمل أقوم به قبل التخلي عن وظيفتي في الحكومة، العثور على متقد وتدريبه لينطلق من مصر وينشر كلمته بين الأفارقة وربما في العالم الثالث كله. وقلت له: إن المطلوب من الرجل الذي نخنارة ألا يكون فقط قادراً على ائارة الآمال بل على تحويلها أيضاً إلى توقعات سليمة وعلى قيادة شعوب العالم المحرومة نحو حياة أفضل ونحو الأمن ونحو «الحرية»، هذا إضافة إلى تحصينهم في وجه أي انبياء زائفين .

في بداية الحديث أعرب نصري بالثكل المألوف عن امتعاضه عن تأييد أميركا لاسرائيل ثم وافق على ان قائداً ذا شخصية ساحرة ربما هو المطلوب لتحويل موجة الكراهية المتنامية لأميركا ليس فقط في العالم العربي بل

وفي مجمل غرب آسيا وتوجيهاً نحو مستهدف آخر. من هنا فإن تخصصاً له صفة دينية ما وقادراً على سحر الجماهير سيكون ذلك الشخص المثالي. ولكن يبقى السؤال هل من الضروري ان تكون حركة دينية موجهة منذ بدايتها ضد شيء ما؟ إذاً، علينا ان نخلق «شيئاً» أئد من هولاً وتهديداً من دولة عبرية، علماً بصعوبة التوصل إلى ذلك في حقبة كانت خلالها عبرية اسرائيل اهم مزاياها اطلاقاً .

إذا قادني البحث عن عدو مقبول بديلاً عن الولايات المتحدة واسرائيل للقيام بجولة بدأتها بزيارة «جحر ميلو» مسجد في المدينة القديمة المشرف على مسجد السلطان حسن بكل جماله ورهبته .وميلو هذا الواطي يوغسلافي، تقي متعبد سلس الحديث، ائنتغل مخبراً في الحرب العالمية الثانية لدى اجهزة تجسس متعددة، وضعت المخابرات المصرية في قصر بناه أحد أمناء بيت المال أيام المماليك في القرن الخامس عشر .حولت المخابرات غرف القصر السرية وممراته وأروقته المخفية إلى دار شرقية للتسلية تتلاءم مع كامل نشاطاتها الأخرى الأكثر غرابة ابتداءً بالتهريب وصولاً إلى تخدير وخطف الدبلوماسيين الأجانب .أما الغرف التقليدية فسمحت لميلو بتحويلها إلى ما أسماه «المربع الليلي لكافة المذاهب» حيث يمارس المشعوذون وأصحاب المذاهب العجيبة طقوسهم امام السواح الأجانب، هذا إلى جانب مذاهب أخرى «موقنة» يخترعها ميلو بنفسه لتتويع برامج تسلية زبائنه .

وليلة اصطحبت نصري إلى «جحر ميلو» كانت فرقة من الدراويش تقدم الوصلة الرئيسية حول مصطبة ائسبه بحلبة المصارعة الواسعة يئيرها ضوء بدر يكتمل جلس حول طاولاتها المرتبة على غرار المراح الليلية سواح يرثفون التسمانيا المصرية .على إقاع طبله يئفرها درويش ضرير راح افراد الفرقة يدورون في حلقة من حلقات الذكر مرددين عبارة :«اذكروا الله» بغية إثارة نوبة من الشعور الديني علق نصري على المشهد بالقول :إذا قصرت تلك التصرفات عن تحويل الاهتمام من «الظلم المتمثل بأقامة اسرائيل» فلن يقدر شيء آخر عليه .

أدركت من خلال تئرح قصير همسه نصري في أذني بين وصلتين ان أفراد هذا المذهب يحاولون الانتقال إلى «عالم غير مرئي» بالرقصات التي نراها، وبحررون انفسهم من الخلافات الدينوية المعشئنة في مصر .أستفسرت من نصري عن آرائهم بالتأييد الأميركي لاسرائيل فقال :«لا رأي لديهم، أنهم مجانيين» .

لم يكن منطلق تكويري «ظاهرة يئلي غراهام المسلم» نزوة للتسلية .فقد خطر لي وأنا ابن الاباما التي شاهدت فيها وعرفت بعض المبشرين والدعاة المعمدانيين وحواة التعاين،خطر لي أن ربما، وربما فقط، كان لدي هؤلاء الناس ما هو قابل لأن يحمل على محمل الجدبة .فمن المسلم به انه يجب ان يكون للانسان عقل قبل ان يفقده، وكذلك يجب ان يشعر المرء بانتمائه إلى العالم قبل الشعور بالرغبة في الهرب منه .قد استطيع الموافقة على ان هؤلاء الراقصين مجانيين حقاً أو لعلمهم حمقى .إنما لا بد من وجود فكر متقدم في اصول تلك الحركة جدير بالاهتمام . أكد لي نصري ذلك قائلاً :إن المذهب من الصوفية وكان لاتباعه مجتمعهم ومعابدهم وموقعهم في أواسط العالم الاسلامي . أما الآن فلم يبق لهم صلة بأصولهم القديمة إلا بمقدار ما لحضارة الـ إنكا من صلة بأهل البيرو المعاصرين .

وهل من ضير في ذلك؟ ولئن لغت نصري انتباهي إلى ان الصراع العربي الاسرائيلي قد حرك الطاقات السياسية الواعية في مجتمع متفكك، كنت في الواقع على بينه، قياساً على مايجري في أميركا، من ان العقلانية والمنطق ليسا من الضروريات لاجتذاب الاتباع لدعوات دينية هذا في زمن سبق استعمال التلفزيون وسيلة له

فكان لييلي غراهم أمثال وانداد لا يجتذبون البهلاء والمتخلفين عقلياً فقط بل يعدون بين اتباعهم أيضاً محامين وأطباء واساتذة جامعات يرغبون بان «يولدوا من جديد». قلت لنصري: «لا بد ان يكون بين هؤلاء الدراويش من يستعمل عقله».

أجابني: «أجل، انهم موجودون وهم يستغلون الجهلة من الناس» .

فعلاً كان بينهم من يستعملون عقولهم ولم يطل بي الأمر حتى اجتمعت بأحدهم. رفض نصري الذهاب إلى ما وراء الكواليس حيث كان الممثلون يعودون إلى رتدهم، وتقدم مني أحدهم (الواقع انني لم أذكر انني تناهدته بين الرافضين) وسألني بتهذيب وبانكليزية ركيكة إذا كنت أبحث عن المراحيض . كنت على وشك اجابته عندما تقدم مني ثاب يرتدي مثل ثيابهم، ولكنه أميركي، وقال لي انني شخص غير مرغوب بوجوده في ذلك المكان وان علي، أن أبول في مكان آخر» وانصرف بسرعة .

ولما عدت وانضمت إلى نصري ثانية أبدى استغرابه لما اخبرته عن الثاب الأميركي وقال: «ظننت انه لا بد من وجود مدير أعمال مسرحي من نيويورك في هذا المكان». انضم ميلو إلينا وقضينا ما تبقى من السهرة نشرب العرق ونأكل كباباً مقبولاً وحمصاً بطحينة. (كانت تلك السهرة بداية لصداقة طويلة مع ميلو استمرت حتى وفاته في أوائل السبعينات وقد قضى السنوات الأخيرة من حياته في الاسكندرية يتقاضى بدل تقاعد شهرياً من وكالة الاستخبارات المركزية).

اصطحبني نصري في الليلة التالية إلى قاعة للمحاضرات بالقرب من جامعة الأزهر حيث استمعنا إلى خطبة نارية القاها رجل اسمه حسن الهضيبي سمي فيها الأتنياء بأسمائها . وكان السيد حسن الهضيبي قد عين حديثاً لرئاسة جمعية الاخوان المسلمين، فامتلات خطبته بالتهجم على تأثير أميركا المفسد في العالم. سبق لي أن استقيت بعض المعلومات عن الاخوان المسلمين أثناء الأسابيع القليلة التي قضيتها في مكتب شؤون المانيا في مقر قيادة الوكالة في واشنطن. أسس الجمعية الشيخ حسن البنا في أواخر العشرينات لتطهير الاسلام من «المؤثرات الأجنبية». وتسيست الجمعية السرية هذه أثناء الحرب العالمية الثانية بدافع من بعض الامكانيات العملية التي قدمها الالمان والايطاليون وعلى الأخص طرد البريطانيين من مصر . حل الشيخ حسن الهضيبي محل الشيخ حسن البنا، وكان خطيباً مفوهماً يتكلم بوتيرة واحدة سرعان ما يسيطر بها على جمهور مستمعيه ليصبحوا آلة طيعة بين يديه. همست في أذن نصري بأنني أود التعرف إليه فظنني أمازحه وقال: «أليس هو من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية؟» وما أن انتهى الاجتماع حتى سحبني نصري من مقعدي في مؤخرة القاعة قبل أن يرانا أحد وفي أقل من دقيقة كنا في سيارته المرسيديس في طريقنا إلى قلب القاهرة.

وفيما نحن خارجان من القاعة لمحت الأميركي الذي تناهدته الليلة السابقة عند ميلو، مرتدياً هذه المرة كنزة وفوقها سترة من المخمل المضلع. كان على مسافة العشرين قدماً مني تقريباً، ينظر إلي بإمعان. رفض نصري ونحن في السيارة إيضاح ما قاله لي عن ان حسن الهضيبي عميل للوكالة. أوصلني إلى فندق سميراميس ومضى في طريقه دون ان يتمنى لي أن أصبح على خير. وعندما وصلت إلى جناحي في الطابق الأخير وجدت أن الثاب الأميركي قد سبقني إليه وجلس أرضاً في وضع يوغا بالقرب من كرسي. أدركت هويته فوراً ولم يتأخر هو بتأكيدهما.

بادرني بالسؤال: ألم يقل لك «فوكوايز» ان تتركني وثأني؟ فوكوايز هو الاسم المستعار لكيم روزفلت داخل الوكالة. من البديهي ان هذا الثناب واحد من عملاء كيم الخاصين وكنت قد علمت صدفة بوجوده من سكرتيرة كيم.

سألته بحق ظاهر: «قل لي بحق جهنم، ماذا تفعل هنا؟» كان حثي موجهاً بالطبع إلى كيم وليس إلى الثناب المسكين الذي أدركت من حداثة سنة انه لا يشغل مركزاً رفيعاً في الوكالة وان يكن قد توصل بشكل ما إلى مشارف هدف هام، حسبما تبين لي من حديثي معه. لقد عرف الثناب الذي سأسميه روبرت في هذا الكتاب، من أنا لأنه شاهدني أكثر من مرة في مبنى القيادة. ولكنه لم يكن على علم بمهمتي الحالية. كما أبدى تقيداً صارماً بالسرية منعه من الاستفسار، ولكنني اخبرته بذلك.

أخذته الدهشة! ثم افرغ جعبته. ففيما كنت في مهمة استطلاعية كان كيم يعد العدة لانقلاب ما على الملك فاروق على ألا يكون لي فيه دور. واتضح لكل منا نحن الاثنين، روبرت وأنا، ان امامنا وضعاً من تلك الأوضاع حيث حصيلة واحد زائد واحد تأتي أكثر من اثنين، وبالتالي سيكون من المعيد لكل منا تبادل المعلومات سراً. غير ان روبرت تحفظ في التعاون معي حتى سألته عن رتبته.

قال انه في الرتبة السابعة أي انه واحد من الأميركيين القلائل العاملين فعلاً كعملاء (خلفاً للاعتقاد السائد بأن أجهزة التجسس قلما تستخدم مواطنيها عملاء لها) فهو بالتالي أدنى رتبة في هرمية وكالة الاستخبارات المركزية من عاملة على الآلة الكاتبة. فهو إذا يقوم بمهام من يجب أن يكون في الرتبة ١٣ على الأقل. لا بد ان كيم استغل وضع هذا الثناب الجامعي الذي اعتاد على الراتب المنخفض واستخدمه في ادنى رتبة قبل بها. وبالتالي ما كان علي إلا القول له بأنه مستغل لاكتسابه إلى جانبي.

مرة أخرى اضطررت إلى رفع قبعتي تقديراً لمهارة كيم وحنكته بعد الذي اخبرني به روبرت. ذلك ان كيم بمفرده وعلى الرغم من مراقبة فاروق الدائمة له استطاع – وتحت أنف فاروق – ان يعلم بأنه وان كان من المفروض انهما يتعاونان في وضع مخططات «الثورة السلمية» فقد راح الملك فاروق يعمل سراً مع زعماء الاخوان لا حداث انقلاب تسيطر عليه حركة «العودة إلى الله» التي يقودها أصوليون مسلمون، ظن فاروق، وهو على بعض الحق في ذلك، بأن التشكيك بكونه مسلماً يتقي الله لن يخفف من استعداد الاصوليين القبول بمساعدة مالية ملكية. وظن كيم بدوره، وهو أيضاً على بعض الحق في ما ذهب إليه، ان ذلك التشكيك سيخفف من استعدادهم هذا بما يكفي لانجاح ما أخذ يتبلور في ذهنه من مخطط لمناهضة فاروق بعد قضائه اسبوعاً او اثنين في محاولات ترمي إلى التعاون مع الزير السمين. افتح كيم الملك فاروق «بشراء» الاخوان بتقديم مبالغ كبيرة من المال إلى حسن الهضيبي. ولم يكن فاروق على علم بأن أموال الرثوة هذه تستخدم لسد نفقات جانبية تستلزمها محاولة اجتذاب الجيش المصري إلى مخطط الاخوان الانقلابي، وبأن تلك الأموال بحد ذاتها أدلة اضافية على مدى فسادة وإحاده. ذلك انه يحاول رثوة من اختاره الله! ترى إلى أي مدى يصل الفساد؟ لذلك لن يكون لفاروق مكان في النظام الجديد.

باكتمال جميع المعلومات المتوافرة عن الاخوان بت علي يقين مما يجول في خاطري: ان الانقلاب الوحيد الذي يمكن ان يكون فعالاً، سواء بالسيطرة على الحكومة او بتثبيت القبضة على الحكم بعد السيطرة عليه لا يتحقق إلا

بتضافر الجهود بين الجيش والايخوان المسلمين. ومع العلم بأنني لم أعط روبرت أكثر من فكرة سطحية عما يجول في خاطري، فقد كان ذلك كافياً للحصول على مساعدته في معرفة الضباط من الرتب المتوسطة والعليا المنخرطين في حركة الاخوان أو المتعاطفين معها. وفي لاوقت نفسه طلبت من نصري ان يدلني على كبار الضباط في الجيش المصري الذي لهم أفضل الحظوظ في الحصول على التأييد الشعبي إذا ما قرر الجيش الاستيلاء على الحكم.

لم يبد نصري ارتياحه لطلبي إلا انه اعترف بوجود تملل واستياء واسع النطاق في طول البلاد وعرضها وان في نادي الضباط في ضاحية هيليوپوليس القاهرة همساً عن أن رجلاً طيباً وثنعياً على صورة «الأب الصالح» مثل الجنرال محمد نجيب سيلقى الترحيب إذا ما صار الرجل الاول في البلاد بوجود الملك أو بدونه. لم يثنأ نصري الافصاح عن أكثر من ذلك وأجابني بأنه لا يعرف ضباطاً كباراً ينتمون إلى حركة الاخوان المسلمين، موضحاً عدم رغبته بالمزيد من الحديث في هذا الموضوع.

لم يكن روبرت في تلك الأثناء عاطلاً عن العمل. فبعد يوم او اثنين من حديثي مع نصري رافقتني في ساعة متأخرة من الليل من إلى اجتماع سري جداً عقد في بيت بالقرب من الاهرام وصلناه بعد المرور بالزواريب والأزقة والطرق المتعرجة بحيث يستحيل علي العودة إليه بمفردي في وضح النهار. كان هذا الاجتماع الذي انعقد في آذار (مارس) ١٩٥٢ هو عينه الذي أورده مؤلفون مصريون وأوروبيون وأميركيون بروايات مختلفة تحدثت كلها عن ان كيم روزفلت أطلق خلاله الشرارة التي أدت بعده بأربعة أشهر إلى حصول الانقلاب العسكري. وتصحيحاً لمعلومات محمد حسنين هيكل الذي ينكر علي كل ما أقوله، أوكد جازماً ان كيم لم يحضر ذلك الاجتماع ولم يسمع به إلى ان رفعت له تقريراً عنه بعد عودتي إلى واشنطن وأؤكد كذلك ان كلمة انقلاب لم ترد خلال ذلك الاجتماع. كل ما قلته للضباط الثلاثة، ولم أكن اعرف أسماءهم، هو ان حكومتي قلقة من تزايد النعمة في مصر البلد الصديق وانها ترغب بالوقوف على «آراء ضباط يمثلون الجيش المصري بأمانة» حول ما يمكننا عمله، هذا إذا امكنا عمل أي شيء للمساعدة على الحيولة دون المزيد من تدهور الأوضاع.

إن الملاحظات الهامة الوحيدة التي أثارها كلامي هي تلك المتعلقة بالبلاد بمجملها – أكرر القول بأنها لم تكن على صلة بالجيش وحده بل بالبلاد كلها – انها الاستياء الشامل حيال «استمرار الاحتلال البريطاني» والطريقة الصحيحة التي تعالج بها تلك القضية. وأؤكد بأنه لم يرد ذكر اسرائيل إلا في سياق النقد العنيف والاستياء العام اللذين عبر عنهما أحد الضباط حيال الفساد المستشري في الحكومة مما أدى إلى تكييل الجيش والحيولة دون ادائه اداء أفضل في الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨. وصحيح أيضاً ما جاء من اخبار ان التقرير الذي ورد إلى واشنطن عن ذلك الاجتماع (تقريرى انا لا تقرير كيم – وهو تقرير رفعته إلى كيم وليس صادراً عنه) انطوى على اشارة إلى الضباط الصاغ عبدالمنعم رؤوف الذي لم يكن فقط عضواً في الاخوان المسلمين بل أيضاً عضواً في مجموعة الضباط الاحرار، أي حلقة عبد الناصر الداخلية. هذا الكلام صحيح، ولكنني لم أعلم إلا لاحقاً ان الصاغ عبد المنعم رؤوف قال لي بعبارات لا مجال لسوء تفسيرها أو لعدم وضوحها بأنني أقدم خدمة جليلة لبلدنا ان أنا أفنعت الحكومة الاميركية بالاقلاع عن التدخل بالثؤون المصرية. ولم أعلم إلا في

اليوم التالي وبواسطة ضابط مصري شاب جاءني إلى الفندق بأن «مندوبين» عن مجموعة الضباط الأحرار السرية يسرها الاجتماع إلى السيد روزفلت (رئيسكم) تشرط الاتفاق مسبقاً على مكان اللقاء خارج مصر. في أواخر آذار ١٩٥٢، بعد اسبوع من عودتي إلى واشنطن وقبل أربعة أشهر من الانقلاب الذي أطاح بالملك فاروق، بدأ كيم روزفلت وجمال عبد الناصر بعقد سلسلة من الاجتماعات اعتبرت فيما بع نماذج لتلك التي تسبق العمليات السياسية من صنف الانقلابات ٥ عقد كيم الاجتماع الأول مع لجنة من الضباط البعيدين بما فيه الكفاية عن لولب حركة الضباط الأحرار بحيث يمكن الاستغناء عنهم إذا دعت الحاجة، علماً أنه بالإمكان الاعتما عليهم للدلاء به دون الإفصاح عن الأسرار الرئيسية. ثم حصل اجتماعان آخران حضر ثانيهما جمال عبد الناصر بنفسه (يمكن لمحمد حسنين هيكل ان ينكر ذلك ما شاء. ولكن الاجتماع مدعوم بالوثائق والصور). أما انا فلم أحضر أيضاً منها وكنت مع روبرت ننتظر في الفندق فيما الاجتماع الثالث منعقد. أوردت مجال الاتفاق الواسع الذي تم التوصل إليه بين كيم وعبد الناصر في تقرير وضعته استناداً إلى ما قاله لي كيم منه شفاهة فصار نصاً يدرس عن التفاهم المتبادل الذي ينبغي ان تقوم عليه أي عملية سياسية تقرر الحكومة الأميركية دعمها.

توصل عبد الناصر وكيم إلى الاتفاق سريعاً حول ثلاثة مواضيع عامة. الأول، هو عدم احتمال قيام الجماهير بثورة بسبب الظروف الاقتصادية المرعبة. لقد أوضح كيم هذه النقطة مرات عديدة في وزارة الخارجية مكرراً انه لم تقم في التاريخ أي ثورة هامة لأسباب اقتصادية وان حكومتنا لا تستطيع ارغام أي زعيم على التصرف حسب اهوائنا بمجرد تهديده بقطع المساعدات الاقتصادية. أدرك عبد الناصر ذلك خلال الاجتماع المذكور وجاءت خبرته الشخصية تؤكد لاحقاً: فكلما ستحاول الحكومة الأميركية معاقبته بحس صنف هام من المساعدات عنه (القمح مثلاً) سينتهي به الأمر إلى ازدياد مركزه قوة بحيث ينمو شعور الشعب بأن اللوم يقع على الأميركيين وليس عليه لما يعانونه من بؤس.

الموضوع الثاني الذي اتفقا عليه هو ان الاحتمال ضئيل في ان تقوم الجماهير المصرية بأي ثورة وقد تصورت حركتان ثوريتان آنذاك هما: الاخوان المسلمون والثيوزيون، ان الشعب المصري – ومنهم الفلاحون والعمال والموظفون العاملون في المدن اضافة إلى طبقة المهنيين – أخذ أخيراً يقترب من نقطة الغليان وان إيصاله إليها ممكن باستعمال النداءات المناسبة. لم تنل تلك الفرضية موافقة عبد الناصر الذي قال «تكمن مشكلتنا في ان الشعب لا يريد ما يكفي، وأضاف بأن معظم المصريين عاشوا ألوف السنين على شفير الجوع وباستطاعتهم الاستمرار على ذلك النحو لألف سنة أخرى وهكذا لا مجال لقيام ثورة «شعبية» أو «ديمقراطية». وتم التفاهم منذ البداية على استلام الجيش المصري لمقاليد الحكم في البلاد على ان يترك له امر اختيار الموعد الظروف المناسبة التي تضمن له التأييد الشعبي الواعي سياسياً في المدن، وان الريف سيفتقي الأثر لاحقاً.

ثالثاً وأخيراً تم الاتفاق على انه في العلاقات المقبلة بين حكومتي البلدين علينا (الأميركيين) تجنب استعمال عبارات مثل «اعادة تثبيت الاجراءات الديمقراطية» و «حكومة تمثيلية حقاً». وفي حال استعمال مثل تلك العبارات يجب ان يأتي ذلك في سياق مراسلات يمكن الإفصاح عنها إلى الرأي العام. وتم التفاهم بيننا سراً ان الظروف التي تسبق قيام حكومة ديمقراطية ليست موجودة ولن تتوافر في سنين عديدة. على ان مهمة الحكومة الجديدة ستكون تأمين تلك الظروف.

أدرك عبد الناصر بسرعة توضيح كيم كيف أن الرأي العام الأميركي ورجال الكونغرس وبعض الصحفيين وحتى بعض المسؤولين في وزارة الخارجية وفي بعض الحالات الوزير بنفسه سيبدأون بتريد الثعرات القديمة. وفي الوقت نفسه قبل كيم برأي عبد الناصر القائل بأن أي محاولة سابقة لأوانها باتجاه الديمقراطية ستعيد البلاد إلى الفوضى التي كانت تنخبط فيها: أي الخيار بين مرشحين منهم من تدعمهم الولايات المتحدة ومنهم من يدعمهم البريطانيون يتنافسون مع مرشحين يدعمهم السوفييات، وثعب ريفي (يقترح إذا ما اقترح) حسب الأوامر التي يصدرها إليه كبار ملاكي الأراضي. وأهل المدن الخائبة آمالهم الذين لم يبق لهم أي ملاند سوى الثغب وسيلة للضغط فينضمون إما إلى الاخوان أو إلى الحزب الشيوعي على ان أيا من الفريقين سيفيد من نشاطهم .

بالمقابل هناك بعض المواضيع التي كان الاتفاق الصريح عليها أكثر صعوبة ولكنها في الوقت نفسه شكلت تقاهماً متبادلاً حول الدواع الكامنة وراء الانقلاب القادم، وقد أدى البحث فيها إلى ما يمكن اعتباره المبادئ الأساسية لأي مساومة حول العمل السياسي :

ان الاتفاق النهائي يتضمن حكماً اتفاقاً شاملاً على بعض النقاط و«اتفاقاً على الاختلاف» حول نقاط أخرى ويجب أن يكون هناك تقاهم متبادل على تحديد المواضيع التي تقع في الخانة الأولى وأيها يقع في الثانية بحيث يؤدي أي خلاف يتفق الفريقان على انه معد للاستهلاك الشعبي إلى الحاق أدنى نسبة ممكنة من الضرر بالاتفاق الأساسي.

خلال محادثات كيم مع عبد الناصر قبل الانقلاب كان هناك «اتفاق على الاختلاف» انطوى على اتفاق شامل أكثر منه على اي أثر للخلاف: اتفاق على موقف عبد الناصر من اسرائيل. فالسياسيون والمؤلفون والمواطنون العاديون في اي بلد عربي – إضافة إلى معظم الدبلوماسيين الأجانب – يقولون لدبلوماسييننا ان «التصميم على استعادة فلسطين» يشكل الأولوية الأولى لدى مصر. كما ان أكثر مراسلينا الصحفيين تدقيقاً اصروا طيلة تلك السنوات على ان هزيمة مصر على أيدي اسرائيل عام ١٩٤٨ كانت «اختباراً قاسياً» وان «كراهية اسرائيل» تحولت إلى عنصر هام في تفكير مخططي الثورة المصرية .

كانت قضية الاحتلال البريطاني لمنطقة قناة السويس قضية بالغة الدقة. والواقع ان الشيء الحسي الرئيسي الذي تمخضت عنه محادثات عبد الناصر وكيم روزفلت هو احالة الشعور في الجيش المصري بالانتمزاز من وضع البريطانيين في مصر ومن جميع المصريين القابلين به . أما بشأن البريطانيين كأفراد فكان لدى المصريين منهم موقف مزدوج تغلب فيه الاعجاب . فقد أحب المصريون الأميركيين واستساغوا مزجنا بين الرفقة والرغبة في المساعدة ولكنهم في الوقت نفسه قدروا البريطانيين واحترموهم . لهذا السبب الحقت معاملة البريطانيين لهم على انهم من طبقة أدنى ذلك الضرر الفادح في العلاقات بين الفريقين .

لدى عودته إلى واشنطن عشية الانقلاب رفع كيم تقريراً إلى وزير الخارجية دين اثنيسون ضمنه النقاط التالية :
ان «الثورة الشعبية» التي تنبأت بها الخارجية وتمناها الشيوعيون والاخوان المسلمون ليست واردة .

(١) ان لا مجال مطلقاً «لإبقاء الجيش بمعزل عنها» الذي توخاه المخططون في الخارجية الأميركية الذين انزعجوا من تصرفات العسكريين في سوريا، وان الجيش المصري بات على عتبة القيام بانقلاب، ثننا أم ايننا .

ان للضباط الذين يحتمل قيامهم بالانقلاب دوافع «عادية» تختلف كلياً عن تلك الدوافع «المنيعية على التصور» التي عزاها اليهم معظم المراقبين الدبلوماسيين. وان من ثننا دوافعهم هذه زيادة احتمالات نجاحهم إضافة إلى انها ستجعل منهم مفاوضين أكثر مرونة وعقلانية بعد وصولهم إلى الحكم .

(٢) ان على الحكومة الأميركية القبول بتنجية الملك فاروق وربما القبول أيضاً بالاستغناء عن النظام الملكي، علماً بأنه لا مانع من ابداء اعتراض موزون ارضاء لبسطاء القلوب، إضافة إلى انه من المناسب ان يبدي السفير الأميركي جفرسون كافييري بعض الاهتمام بسلامة الملك فاروق الشخصية .

ان على حكومتنا، بعد الانقلاب، الامتناع عن بذل أي محاولات إلا المحاولات الكلامية الرمزية لاقناع زمرة الضباط باجراء انتخابات وباقامة حكومة دستورية وكل مايتبع ذلك. وان عليها التعاطي مع الحكومة الجديدة (في مصر) من منطلق الادراك بأن المؤسسات الديمقراطية ستبنى من مداميكها الأولى .

(٣) انه على الرغم من كل تلك الاجتماعات التأميرية التي سبقت الانقلاب لا يجوز لأي مسؤول في حكومتنا التفكير بأن الانقلاب هو لمصلحتنا أو من صنعنا. بل يجب اعتباره بصرامة على انه قضية محض داخلية بعيدة عن أي تأثير لنا فيها وان المساعدة الوحيدة التي يمكن ان تقدمها له تكمن في عدم معارضته. أما بشأن ضرورة وجود عدو يستهيب، فيجب ألا يكون الاسرائيليون ذلك العدو بل طبقات المجتمع المصري العليا – إضافة إلى البريطانيين، ثننا ذلك أم ايننا .

منذ أواسط أيار (مايو) وحتى ٢٣ تموز (يوليو) ت يوم الانقلاب – تحملت عبء الأعمال في واشنطن بمفردي. ذلك ان كيم رئيس الفريق المناط به جميع الأحداث ابتداء من كايب تاون (جنوب افريقيا) حتى نيودلهي، وبالتالي فهو منهمك بمواضيع أخرى. لذلك خصصت كل وقتي للحيلولة دون تأثر وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة خارجية تأثراً عميقاً بالتقارير المتشائمة الواردة تبعاً من القاهرة. فقد كان روبرت، بطلاقة لسانه بالعربية وبطريقته في البقاء بعيداً عن الاضواء، على اتصال بالضباط الذين التقيناهم في المنزل القريب من الأهرام وبدا من تقاريره إلى مركز الوكالة في القاهرة ان كل شيء يسير حسب الخطة المرسومة. أما رئيس المركز الذي حصر علاقاته بالثخصيات الكبيرة في الحكومة وبين السياسيين، فكان يبعث بتقارير روبرت إلى واشنطن مرفقة بمذكرات تتم عن انطباعاته الشخصية. وفي الواقع ما انفك يؤمن حتى يوم الانقلاب بالذات بأن الملك فاروق لديه اطلاع دائم على نشاطات الضباط الأحرار السرية وبأن الملك سيسلط عليهم سيف تقمته الفاطح في اللحظة المناسبة وبأن كل ما ورد في تقارير روبرت انما يؤيد وجهة نظره.

وردنا في ١٦ تموز (يوليو) تقرير من القاهرة انطوي على انتصار تشاؤمي باهر مؤداه ان الملك فاروق عزل أفراد لجنة نادي الضباط الادارية من وظائفهم وهم في أكثر يتهم أعضاء في هيئة الضباط الأحرار. وجاء في نهاية التقرير عبارة «القاء القبض يتبع قريباً». وبعد يوم أو اثنين تلقى كيم رسالة «شخصية» من روبرت بواسطة احدي القنوات التي لم يفصح لي كيم عنها حتى يومنا هذا مألها ان رئيس مركز الوكالة في القاهرة ليس

أذكى من حمار وان تصرفات فاروق إزاء البالونات التي يطلقها عبد الناصر تدل بوضوح على ان الملك لم يكن على دراية اطلاقاً بنوايا الضباط الأحرار. غير ان الملك قام بعدة خطوات يستدل منها انه شعر بأن الجنرال محمد نجيب يبيت ثبثاً. هذا كل ما أدركه فاروق بشأن الجنرال محمد نجيب، الشخصية المحببة التي اختارها عبد الناصر واجهة لرئاسة الدولة بعد الانقلاب.

وهكذا وفي ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ حصل الانقلاب دون أي عراقيل على الاطلاق وكان الجنرال محمد نجيب على رأسه، اسماً بالطبع. وخلال الأتھر السنة الأولى من الانقلاب انحصرت جميع العلاقات بجمال عبد الناصر وبمجلس قيادة الثورة وبكبار المسؤولين المدنيين في الحكومة الجديدة بالموظفين الرسميين في السفارة بمن فيهم السفير كافييري بنفسه.

بعد عيد الميلاد عام ١٩٥٢ سألت رالف سمايلي، المسؤول في شركة بوز آلن اند هملتن عما إذا كان عرض الشركة ما زال قائماً. وما ان علمت انه كذلك حتى سطرت كتاباً من نوع «هذه أصعب رسالة حكمت علي الظروف ان أسطرها»، وضعتها على مكتب فرانك وايسنر أثناء غيابه عنه. وما أن وصلت إلى غرفة كيم لأخبره بما فعلت حتى أخبرني بأنه تلقى مكالمة من فرانك طلب فيها منا الاثنين موافاته فوراً في مكتبه. وفي الطريق (الممر طويل بين مكتب كيم وقاعة الاجتماعات في مكتب فرانك) علمني كيم كيف انعطى مع فرانك بقوله: «قل له بأن عقلك وقلبك دائماً مع الوكالة وانك وان استقلت لتحصل المزيد من المال ستبقى» ذلك الخريج المخلص لها».

أحرز الدرس النجاح! إذ قال فرانك: «حسناً، يمكن ان تكون خريجاً مخلصاً. ولكن حسب معلوماتي الموثوقة عن الشركة ستحاول ان تحصل من عمالك معها أكثر مما تدفعه لك. وبالتالي لن تسمح لك باستعمال وظيفتك ستاراً. غير انك تستطيع اللقاء مع روبن (الاسم المستعار الذي اطلقته على رئيس مركز الوكالة في القاهرة) في المناسبات الاجتماعية وان تخبره بأي شيء هام أو مثير تصادفه في وظيفتك». ضم كيم صوته إلى صوت فرانك مقترحاً بأن عملي أثناء الفترة المنبئية لي في الوكالة يمكن تحديده بشكل يتوافق مع مصلحة الحكومة الأميركية ومصلحة رؤسائي الجدد. أظن بأن القراء سيغفرون لي أصراري على التشديد على هذه النقطة، ذلك انني اود التأكيد على ان شركة بوز آلن اند هملتن لم تكن على الاطلاق ستاراً لثناطي، وعلى انني كنت موظفاً بعض الأحيان متطلبات وظيفتي فيعود سببها إلى حماسي للعمل وكذلك إلى حماس كيم، بالطبع. إن هذا الأمر مهم بالنسبة لي ذلك لأن معظم ما كتب حديثاً من دراسات وتقارير ومقالات عن عهد عبد الناصر أنار إلى على انني «عميل في وكالة الاستخبارات المركزية» مما سبب حرجاً شديداً للشركة التي استوظفتني عن حسن وسلامة نية.

بعد انقضاء قرابة السنة تماماً على عودتي من مهمتي الاستطلاعية، رجعت إلى القاهرة في آذار (مارس) ١٩٥٢ في مهمة مشتركة بين وكالة الاستخبارات المركزية وشركة بوز - آلن اند هملتن ليس فيها أي تضارب بين مصالح الفريقين. فمهمتي من حيث الوكالة كانت متابعة المحادثات التي اجراها الملحق العسكري دابف إيفانز مع زكريا محيي الدين الرئيس الجديد للمخابرات المصرية والأمين الخاص لجمال عبد الناصر حول إمكانية قيام وكالة الاستخبارات المركزية بتدريب المخابرات المصرية على أساليب جمع المعلومات ومكافحة الجاسوسية. أما من حيث عملي مع الشركة فكان متابعة ما إذا كان بنك مصر، أي الهرم المركزي، ينوي جدياً تكليفها باجراء مسح عام لجميع نشاطاته ابتداءً من مصنع النسيج الذي يملكه في المحلة الكبرى وانتهاءً بنشاطه المصرفي، والواقع أنني نجحت في المهمتين. فقد قال لي زكريا محيي الدين بأنه يرغب في الحصول على مساعدة مدربين من وكالة الاستخبارات المركزية لاعادة تنظيم المخابرات المصرية، أما أحمد رشدي، رئيس بنك مصر، فأكد لي انه يود بالتأكيد ان تؤدي الشركة المهمة التي بحثها سفير مصر في واشنطن مع رالف سميثلي بشأن البنك - أضاف وأنا على وتلك الخروج من مكتبه ان على وكالة الانماء الدولية تسديد الفواتير .

إن أي دجل قد حصل مرده إلى رغبتني السليقية في الدمج بين المهمتين. حسبت انه لو استطعت حمل وكالة الاستخبارات المركزية على اقناع كبار مسؤولي وكالة الانماء الدولية (وكان ذلك أمراً غير مستصعب بسبب وجود آلن دالس آنذاك على رأس وكالة الاستخبارات المركزية وجون فوستر دالس وزيراً للخارجية) تكون مخططات مهمتي قد رسمت في فردوس ضابط الاستخبارات. في ما يخصن تخصيصاً تؤلف وكالة الاستخبارات غطائي للمهمة المكلف بها من قبل الشركة، وتكون الشركة غطائي للمهمة التي أقوم بها لوكالة الاستخبارات المركزية كأحد خريجها الأمناء .ولن تكون أحدهما مسؤولة عن الأخرى طالما استطعت تأمين لكل منهما حاجتها. في بادئ الأمر لم يكن أحد على علم بمهمتي المزدوجه إلا زكريا محيي الدين. لم يطل الأمر برالف سميثلي رئيس مكتب الشركة في واشنطن حتى أدرك حقيقة واقعي ذلك انه لم ير أي سبب أخر لقدرة موظف ثانوي في مكتبه في مصر على الاتصال سرياً بكبار المسؤولين في الحكومة المصرية. لم ير سميثلي أي داع للاعتراض على ذلك باعتبار انه لما كان واضحاً أنني شخص مرضي عنه جداً في الدوائر العليا في الحكومة المصرية فقد كنت في وضع مناسب للحصول على عقود مثبوتة للشركة .

سرد لي سكرتير زكريا محيي الدين ونحن في المقعد الخلفي في السيارة الفخمة التي أفلتتا للاجتماع به، كيف مثل زكريا ما يتوقعه من تصرف الملك فاروق ان هو علم مسبقاً بالانقلاب وكيف تصرف فعلاً تماماً كما توقع زكريا. عندها أدركت ان زكريا محيي الدين سيكون، أيأ كانت وظيفته الشخصية الأهم في فريق عبد الناصر والأكثر فائدة للفريقين في اي مباحثات تجري بينهما .

تسنى لي خلال الاسبوعين اللذين قضيتهما في القاهرة في مهمتي هذه عقد عدة اجتماعات طويلة مع زكريا محيي الدين تبين لي منها انه من حيث النزاهة والذكاء أرفع من كثيرين غيره .وبنهاية اجتماعنا الأخير أعددتنا

برنامج للقاءات تعارف غير رسمية ولندوات تضم مصريين وأميركيين من «كبار البيروقراطيين، ودروس تدريب لأعضاء مجلس قيادة الثورة حول المتطلبات والمفوضيات الأميركية التي ينبغي أخذها في الاعتبار لجهة ما يمكنهم ان يتوقعوه منا .

من المفروض طبعاً ان يوافق كيم روزفلت وجمال عبدالناصر على كل تلك المواضيع في اجتماعهما المقرر عقده في غضون شهر تقريباً. وثناء الفترة الفاصلة بين اجتماعي بزكريا والاجتماع المقرر بين كيم وعبد الناصر طراً عنصر جديد وهام على ترتيباتنا تمثل بشخص النقيب حسن التهامي .ذلك ان زكريا كان قد وافق على ارسال واحد من الضباط الأحرار يتكلم الانكليزية إلى واشنطن لالقاء نظرة علينا في بلادنا.

وصل التهامي إلى واشنطن في ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٥٣ وتبين بعد وصوله انه أغرب ظاهرة بشرية صادقتها في عملي الطويل من التعاطي مع الظاهرات البشرية الغربية الأطوار. انضح لي بعد قضاء يوم واحد معه لماذا اختاره زكريا – أو عبد الناصر – لتلك المهمة. فهو قبل كل شيء وطني متعصب، ومتدين ورع، لا ثنائية على نزاهته، إضافة إلى صفات أخرى اعطته المناعة في مواجهة كل المغريات التي كنا على استعداد لتقديمها له . المسكرات ؟ لم يسبق له ان مسها في حياته . النساء ؟ في الليلة الثانية التي قضاها في واشنطن دعاه مرافقه إلى مربع ليبي اسمه بلو اينجل (الملاك الأزرق) فما كان منه إلا ان صب كأس الكوكا كولا فوق رأس «مضيفه» جاءت تجلس في حضنه .الدرهم ؟ في احدى مراحل اقامته في واشنطن سأله الضابط المسؤول المناوب ليلاً :«هل باستطاعتنا إقراضك بضع مئات من الدولارات لتتمكن من التعلية على طريقك الخاصة؟» فما كان منه إلا ان سحب مسدساً من وسطه وصوبه نحو رأس الضابط قائلاً :«بما لي من حصانة دبلوماسية استطيع نثر دماغك على ذلك الجدار البعيد دون ان اجازي بما يعادل ضبط مخالفة وقوف». وعلى الرغم من انه من النوع الذي كنا نسميه آنذاك «نمرة» فإنني أقول بفخر اننا أصبحنا بسرعة صديقين حميمين وما زلنا كذلك حتى ومنا هذا رغم الفروقات الحضارية الواسعة بيننا ورغم التباين في نظرتنا إلى الأمور ومع انه كثيراً ما باعدت بيننا السبل .

استغرقت زيارة التهامي لوأشطنن اسبوعين قضاهاما يقترح على مختلف مجالات المساعدة الفنية والخدمات التي يمكن ان تقدمها مختلف أجهزة الشرطة في المدن إلى الحكومة المصرية الجديدة: وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الاتحادي ومختلف أجهزة الشرطة الأخرى في المدن .وخلال زيارته تلك قضيت معظم أوقاتي برفقته .وبعد مغادرة الولايات المتحدة رفعت استقالتني رسمياً من الوكالة وقمت بجولة وداعية على الجميع اغرقتنا جميعاً بالدمع، كما سافر كيم إلى القاهرة لاضفاء الصفة الرسمية على الترتيبات مع عبد الناصر الذي كان آنذاك، على صعيد الرسميات نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للداخلية .أما أن ققضيت ربيع العام ١٩٥٣ في نيويورك أفوم بمهمات اختارتها لي شركة بوز – آن هملتن لكي أعرف بواسطتها على أساليبها في العمل . عدت بعد ذلك إلى واشنطن لبضعة أيام، بوصفي الخريج الأمين، لابداء تعليقاتي وملاحظاتني على التقرير الذي وضعه كيم عن اجتماعه بعبد الناصر وللتزود ببعض الارشادات والتعليمات، ولحزم امتعتي والسفر إلى القاهرة برفقة زوجتي ولدينا .

حاولت خلال الاسبوع الذي قضيته في واشنطن قبل سفري إلى القاهرة معرفة كيف يمكن توظيف «نجاحنا» في مصر، إذا كان ذلك هكذا، في خدمة أهداف الولايات المتحدة. فقامت بزيارة الأصدقاء في وزارة الخارجية ، وتناولت طعام الغداء في غرفة الطعام في مجلس الشيوخ برفقة صديقي القديم وصاحب الفضل علي السناتور جون سباركمن السناتور وليم فولبرايت وغيرهما، وقضيت عدة ساعات مع نائب الرئيس ريتشارد نيكسون – وجدته أوسع تفهماً لمصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط من جميع كبار شخصيات وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية، باستثناء كيم روزفلت، ولكن بمن فيهم الاخوين دالس. غير انني لم استطع العثور على اي شخص في اي مكان يقدر على اعطائي جواباً بسيطاً على السؤال التالي: ماذا يترتب علينا فعله بهذا الاتصال الذي تحقق لنا مع الحكومة المصرية الجديدة؟ نفرض ان بمقدورنا تنويم عبد الناصر مغنطيسياً، فماذا نطلب منه فعله عندما ينام؟

بالطبع جاءتني أجوبة ولكنها لم تتجاسر مطلقاً مع ما نعلمه عن تطورات دينامية السياسة في الشرق الأوسط آنذاك ومع ما عندنا عنها في تفاربنا إلى البيت الأبيض وغيره من دوائر الدولة ووكالاتها. بيل بوردت الضابط المسؤول عن مكتب مصر في وزارة الخارجية قال ان هدفنا يجب ان يكون إقناع الحكومة المصرية الجديدة «بالتوصل إلى ترتيب توافقي مع اسرائيل» وباستعمال نفوذها لإقناع حكومات عربية أخرى باقتفاء أثرها. أما مساعد وزير الخارجية لثيودور الشرق الأدنى بيل راوتري فقال إن علي اقناع عبد الناصر «بالتناغم» مع مخططات حلف شمال الأطلسي الدفاعية – وعلى وجه التحديد الاثنراك في مخطط إقليمي دفاعي كان يجري إعداده آنذاك من قبل الاستراتيجيين في وزارتي الخارجية والدفاع. وعندما سألت أعضاء مجلس الشيوخ عما يمكن ان نطلبه منطقياً من حكومة مصرية مستعدة للتعاون أجنبي السناتور وليم فولبرايت ان أي شيء قد يطلبه السفير كافييري من عبدالناصر نيابة عن الحكومة الأميركية سيكون في الواقع الطلب إليه أن يقدم على الانتحار.

دعاني كيم لتناول طعام الغداء في آخر يوم في واشنطن وزودني بالمعلومات عن محصلة رحلة العشرة أيام التي قام بها قبل شهر وزير الخارجية جون فوستر دالس في الشرق الأوسط. ومما قاله لي ان ما سيخبرني به: «سري جدا بالطبع ولكن إذا كان «لا بد لك ان تعرف» شيئاً يا فتى فمن الضروري ان تعلم ما استفاه وزير خارجيتنا – من معلومات» باختصار: لا شيء. فلما كان الوزير على علم مسبق بكل شيء فمن الصعب جداً على أي انسان ان يدخل في ذهنه ولو بالمطرقة والازميل ان لعبد الناصر مشاكله أيضاً. وهكذا أصبح وزيرنا، مثله مثل البراكين وجبال الثلج، ما نسميه: «عامل لا بد من العيش معه». على كل لأحوال بدا ان الجميع يتوقعون مني انجازات عظيمة ليس فقط لكوني خريجاً أميناً بل باعتباري أيضاً أول من حرك مشروع وكالة الاستخبارات المركزية في مصر. من دواعي السرور ان بعض التقدم كان قد تحقق في المجال الشخصي. فقد رتب كيم الأمور بحيث ينتقل جيم إيلبرغر إلى وزارة الخارجية ثم ينتقل إلى القاهرة بصفة ملحق اقتصادي. كما حصل صديقنا القديم فرانك كيرنز على عمل كمراسل متجول لشبكة سي . بي . أس وطلب الآخر تعيينه في القاهرة لاكتمال حلقة التسليحة. ولكنه رفض قبول اي مركز رسمي في وكالة الاستخبارات المركزية معرباً عن استعداده في الوقت نفسه للتعاون معي ومع إيلبرغر في تقديم بعض الارشادات المجانية لعبدالناصر في مجال العلاقات العامة («حاولوا حمله على الابتسام أكثر بقليل: «هكذا نصحن كيم) مقابل التقليل من الایماء عن احداث ممكنة الحصول وقد تكون

صالحة للتصوير التلفزيوني. وصلنا القاهرة نحن الثلاثة مع عائلتنا في أوقات متقاربة وأخذنا نقوم باتصالاتنا الاجتماعية بشكل يومي إلى محمد حسنين هيكل وغيره بأننا جميعاً «عملاء في وكالة الاستخبارات المركزية» نستعمل ثقة فرائك الفخمة في الزمالك (حساب نفقاته أكبر من حساباتنا) مقراً لعملائنا.

بدأ عملي بداية حسنة في القاهرة حيث دبر لي صديقي حسن التهامي دارة جميلة لأقامتي تقع في حي المعادي الفخم كانت سابقاً دارة الجنرال ولسون قائد القوات البريطانية في مصر، يقوم خلفها بيت الضيوف أقام فيه هو ويقع إلى جانبها بيت آخر أعده لضابط وكالة الاستخبارات المركزية الذي سيقوم بالارتباط الرسمي بينه (أي التهامي) وبين فريق الوكالة الآتي إلى مصر. لدارتي حديقة خلفية وحديقة أمامية فيها حوض واسع للسباحة على أحد جنباته سقيفة للاستظل لتصلح لتناول طعام الفطور صباحاً والثاي بعد الظهر. أما فريق شركة بوز آلن اند هملتن المؤلف من خمسة رجال فانتقلوا إلى مبنى جديد في غاردن سيتي حيث بدأوا العمل بجد ونشاط يحاولون ما استطاعوا تفهم تشابك شركات بنك مصر بعضها ببعض. وأما جيم إيلبرغر فكان على أحسن ما يرام من التفاهم مع السفير كافري والضابط السياسي في السفارة الأميركية بيل لايلكلند (دايف إيفانز نقل إلى البنتاغون) هذا واستطاع فرائك كيرنز إذاعة بعض اخباره على الهواء مباشرة فيما أصبحت زوجته غون من أفضل المضيفات في مجتمع الزمالك .

في أول اجتماع لي معه في القاهرة اخبرني إيلبرغر ان الأسئلة التي طرحها قبل مغادرتي وانشطن بأسبوع قد أنارت اهتمام أشخاص متعددين وجعلتهم يدركون لأول مرة بأنه من الصعب عليهم الحكم حكماً مقبولاً على عملية ما إلا إذا كانوا هم والمسؤولون المشرفون عليها قد أدركوا ما هي الغاية المنشودة منها. وأثناء وجودي في مكتبه عرض علي إيلبرغر وثيقة تحمل عنواناً يشبه «رهان اميركا في الشرق الأوسط» وطلب إلي ان اقراها منى وثلاثاً حتى تترسخ في ذهني ثم مساعدته في اعادة صياغتها إذا ما تسنى لي الوقت في عملي في الشركة. وقال إنه سينقلها إلى العربية على يد أحد الطلاب الاختصاصيين في وكالة الاستخبارات المركزية، ثم أقوم أنا بنقلها إلى زكريا محيي الدين واطلب إليه ابداء تعليقاته عليها. بدت ل الوثيقة عادية إلى حد ما علماً بأنها تحمل خاتم «سري جداً». وقال إيلبرغر بان انقلها إلى زكريا ليس بوصفي ممثلاً لوكالة الاستخبارات المركزية بل كخدمة شخصية للسفير كافيري باعتبار انني انصل بزكريا محيي الدين بحكم عملي في الشركة (كان من واجبي الاشارة قبل الآن ان عبدالناصر عين زكريا ضابط ارتباط مع الشركة ليس لأن له أي علاقة رسمية بينك مصر بل لأنه كمدير المخابرات المسؤول الأمثل لمراقبة فريق من الأجانب سيتعاطون بأحد أهم حقول الدولة حساسية، أي مالىتها). على كل حال رفضت الطلب فقال إيلبرغر: «ان كنت غير مستعد للقيام بخدمات بسيطة كهذه من وقت إلى آخر سيترتب علينا ابتقاؤك خارج لعبتنا كلياً. فعل ذلك الكلام فعله في نفسي وسأنته رغبتني في «الاسهام» التي تتغلب في النهاية. انصلت بحسن التهامي وتوجهنا نحن الاثنين إلى هليوبوليس (مصر الجديد) وكان زكريا محيي الدين على وشك مغادرة مكتبه بعد ظهر الخميس لقضاء عطلة الاسبوع. الفى محيي الدين نظرة على الورقة، النسخة الانكليزية والنسخة العربية وقال انه سيعرضها على الرئيس، أي عبدالناصر، أثناء السهرة. وانتهى الأمر.

كانت تلك نهاية القضية بثقتها المختص بي. ولكن إيخبرغر أخبرني صباح الاثنين التالي ان السفير «كافري» قد استعرضها باختصار مع وزير الخارجية محمود فوزي. فقد وصلت الورقة إلى محمود فوزي عبر قنوات «غير رسمية» وغير دبلوماسية بحيث ان كافري أعرب عن دهشته وعن عدم علمه بها وتتصل من أي علاقة له بها ومسؤولية عنها وقال للوزير محمود فوزي انه إذا كانت تلك هي السياسة التي تبنتها الحكومة الأميركية فقد حدث ذلك دون علمه بها وكذلك دون موافقته.

في الاسبوع التالي، وفيما كنت ألقى احدى محاضراتي أمام كبار مدراء شركات بنك مصر لاحظت ان في فناء القاعة رجلاً بلباس ضابط مصري طويل القامة وقوي البنية لا تتم تقاسيم وجهه عن أي ابتسامة يتابع بنهم ما أنثره من درر وحكم في الأصول الادارية. إنه عبدالناصر بنفسه! ولما صار وحده يشكل جمهور المستمعين اتخذت موقف الجدية المهنية وتغاضيت عن بعض النكات التي أعدتها لايقاظ النائمين من المستمعين وحصرت كلامي بالمنائفة «للعمل كفريق». تضمن كلامي أيضاً نقداً لاذعاً لأنظمة الهرمية في التثرق المبنية لخدمة بل ولتشجيع الخصومة بين أقسام المنظمة الواحدة تسهياً لمهمة «الادارة بالتجسس». فكان لأقوالي أثرها في نفس نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية جمال عبد الناصر.

بعد انتهاء المحاضرة تقدمت منه وعرفته بنفسني فأعرب عن تقديره لما سمعه مني وسألني ما إذا كنت مرتبطاً بموعد لوجبة الغداء. اجبته بالنفي فاصطحبني إلى سيارته البوبك القديمة وقال للسائق ان يتوجه بنا إلى مكتبه في وزارة الداخلية حيث تناولنا غداء مؤلفاً من الثوربلاء والسندويشات على طاولة عمله. ومنذ ذلك اليوم وحتى تخلصه من محمد نجيب بعد عدة أشهر كنت أتناول طعام الغداء مع عبد الناصر مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع إما في وزارة الداخلية أو في غرفة الطعام في مقر مجلس قيادة الثورة في الزمالك يراقبنا في معظم الأحيان حسن التهامي، وفي بعضها زكريا محيي الدين أو بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة. وأندد هنا على ان محمد حسنين هيكل لم يكن معنا مرة واحدة.

قضت اسرة كوپلاند في القاهرة سنتين سعيدتين هانئتين تخلتھما بين والحين فترات من النشاط التامري المحموم والفضوى الدبلوماسية، كانت كلها مهنية في طابعها. وحتى اجتماعي الأول بعبدالناصر كنت منھمكاً بشهادة زملائي في الشركة، بأعمال الادارة العامة الأكثر تحدياً وإثارة من أي أعمال في الهندسة الادارية سبق لي ان قمت بها في أي وقت مضى. فقد كنا في الحقيقة كمن يعمل في أرض بكر نخرق ادغال الفوضى والتقاليد المتحجرة.

أثناء دراستنا اعادة تنظيم دوائر الجمرك مثلاً، والوسائل الآيلة إلى جعل خمسمئة موظف ينجزون العمل الذي كان يقوم به الفا موظف، قال لنا زكريا محيي الدين بأننا تجاهلنا «ضرورة اجتماعية» موضحاً بأن مدراء الجمارك البريطانيين الذين نظموا دوائر الجمرك قد أبعدوا عن التثراع ألقى مثاغب محتمل فيما نحن نحاول اعادة ألف وخمسمئة منهم إلى الطرقات. وأضاف أن الخبراء البريطانيين استطاعوا تعقيد، بل في الواقع تأخير معاملات تخليص البضائع المستوردة، طبعاً ارضاء لجميع من يھمهم الأمر باستثناء المستوردين والموردين الأجانب وهما دون ريب أقل عناصر العملية أھمية.

نصحننا زكريا بأن «علينا تنظيم أولوياتنا» وبأن الهيئتين الأكثر جدارة بتحسين كفاية الاداء فيھما من بين كل الهيئات الحكومية هما المخابرات ووزارة الداخلية، وهما الهيئتان اللتان تشرقان على من وما يدخل البلاد

ويخرج منها وتضبطان ما يجري في داخلها. لم يكن من مجال للتشكيك بأولوياته فعندما تشكلت لجنة من مجلس قيادة الثورة لدراسة تحسين كفاية الدوائر الحكومية تبينت لها جدية البطالة الموروثة من العهد الملكي فأصرت على عدم تسريح مئات الموظفين الفائضين عن الحاجة في وزارة الداخلية. فما كان منه إلا أن جمع هؤلاء لموظفين في مبنى مستقل وأمرهم بنسخ القرآن الكريم نسخة نسخة. نعم، هكذا فعل عندما حل محل عبدالناصر وزيراً للداخلية في أعقاب اعتلاء عبد الناصر إلى مرتبة الرئاسة. في زيارتي الأولى لوزارة الداخلية كان عبدالناصر ممسكاً بناصيتها يعتبرها الأولوية الأولى القادرة في حكومته الجديد على تأمين «قاعدة وقائية مستنيرة نوعاً ما غايتها وقاية عهد جديد من الاضطرابات العامة التي تنصف بها فترات ما بعد الثورة في أي مكان.

أدى تكليفي بتقديم الاستشارات لتنظيم وزارة الداخلية إلى ضم قوى شركة بوز - آل اند هملتن إلى قوى وكالة الاستخبارات المركزية فكان عليهما القيام بمشروع لا يخص الوكالة بل حكومة الولايات المتحدة، بإشراف وكالة الانماء الدولية. أما مشاركة الوكالة فيه فليس سببها رغبة الحكومة الأميركية بأسبغ صفة السرية عليه بل رغبة الحكومة المصرية. ولعل هذه المرحلة من الكتاب هي المناسبة الملائمة لبدء الملاحظة التالية التي تنطبق على معظم الحالات: وهي أن الحكومة التي تتلقى مساعدة من الولايات المتحدة تتعرض للارباك السياسي التشنج ان هي أفنت ان علاقتها بالحكومة الأميركية حميمة كعلاقة المريض بطيبه.

إذ، كانت وزارة الداخلية من نصيبي فيما عالج خيران القضايا الثانوية كبطاقات الهوية وتسجيل السيارات والآليات وغيرها من الشؤون المثابمة كتصميم خدمات دائرة الهجرة والخدمات الجمركية دون تسريح اي موظف. أما مجال اختصاصي فكان بالطبع دوائر الشرطة. ونظراً لمحدودية خبرتي في هذا الحقل اضطرت للاستعانة برب عملي الأول، أي وكالة الاستخبارات المركزية. خلال قرابة الشهر بعد اجتماعي بعبد الناصر فصلت كلية الشرطة الخاصة التي أنشأتها قبل استقالي من الوكالة الملازم بات كيلى وهو ضابط لطيف متقدم في السن أجيل حديثاً على التقاعد من كلية الشرطة التابعة لدائرة شرطة نيويورك حيث خدم عدة سنوات رئيساً لقسم حماية الشخصيات الكبيرة أثناء زيارتها لمنهاتن.

انبطت بي مهمتان: الأولى وضع لوحات بيانية تنظيمية بهرمية المسؤوليات واعداد الدروس في المدرسة الجديدة. أما الثانية فينبغي تنفيذها بالتعاون مع فرانك ديوان وفرانك هوفر عميلي مكتب التحقيق الاتحادي اللذين جاء بهما صديقي القديم أورفال يارغر لادارة مدرسة الشرطة التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية.

جاءت المهمة العملائية الوحيدة التي قمت بها للشرطة بمساعدة بات كيلى عندما صار السير انطوني إيدن بعد بضع سنوات مهووساً بالرئيس المصري جمال عبد الناصر بحيث أصبح وزير خارجيتنا يتوقع ان يواجه في أي يوم اصراراً بريطانياً على وضع مؤامرة اغتيال. تلقى رئيس مركز القاهرة في تلك الفترة رسالة من آلن دالس بالذات أرسلها بناء على اصرار ثنيفة طلب فيها منا البحث عن وسائل اغتيال عبد الناصر إذا ما دعت الحاجة. انطوت الرسالة على لهجة مبطنة تبنى بأن الأخوين دالس يرحبان بجوات عليها مفاده استحالة الوصول إلى عبدالناصر مع عدم التوضيح بالطبع باننا نحن وسيلة الحيلولة دون وصول أيدي الاغتيال إليه باعتبار اننا صممنا ترتيبات الحفاظ على سلامته.

لقد حان الوقت أخيراً لاعترافي بصحة نبذة واحدة من كل الدعاية المعادية لي التي نشرها الشيوعيون في السنوات القليلة الماضية وأخذها عنهم بعض السخفاء من الأميركيين. نعم، لقد تناقشت في ذلك الموضوع بالذات مع الرئيس عبد الناصر بنفسه، كما كان التقرير الممتاز الذي حاز على مكافأة في واشنطن يتضمن الكثير من اقتراحات عبد الناصر .

سألته في سياق تلك المناقشة: «ما قولك بالسم؟ لنفرض انني غافلتك ودست حبة سم في فنجان قهوتك».

قال: «حسن وافف هناك. فإذا غافلتني سيراك هو».

قلت: «ربما استطعنا رشوة خادم ليدس لك السم في القهوة قبل الدخول بها عليك؟»

اجاب: «يبدو ان شرطيكم النيويوركي قد فكر بذلك . القهوة لا تقتل إلا ذاتها . عندما يسقط الذائق ميناً. أفلن برثدنا ذلك إلى موامراتكم».

وهكذا كانت الأسئلة والأجوبة. تبين بالفعل ان بات قد فكر بكل الاحتمالات. ولكن وضع عبد الناصر على محك تمثيل عملية اغتياله جعله (أي بات) يدرك أهمية القضية بمجملها.

وكما قلت سابقاً كل ذلك جرى في وقت لاحق، أما في العام ١٩٥٣ عندما كنا جاهدين للحفاظ على حياته، كان خوفنا الأكبر عليه من قيام ثورة معاكسة على يد الفريق الذي أوصلنا إلى الجيش: الاخوان المسلمون. عبد الناصر يتمتع بالقوة اللازمة لختقها، ولكن ثمة عائقين في الطريق. الأول انه حمل على محمل الصدق المعلومات المغلوطة التي أوصلنا لها قبل الانقلاب ووصوله إلى السلطة عن ان الاخوان المسلمين قد يكونوا حلفاء ذوي ثنان. والثاني انه لم يستطع، بعد اكتشافه انهم ليسوا كذلك، الخروج بفكرة لتحييدهم دون اظهار عهده على ان قمعي أكثر من اللزوم. لقد بسطت الامور كثيراً لأنني أردت اظهار النقطة التالية: أن عبد الناصر الجديد، كأبي عهد ثوري آخر، مضطر للمرور بفترة من القمعية الشاملة. ذلك لأن على العهد ان يرسى لنفسه «أساساً قمعياً» قبل مجرد التفكير بإرساء «أساس بناء».

تضمنت البرقية الأولى التي تسلمها رئيس مركز وكالة الاستخبارات المركزية في القاهرة جواباً على تقريره الطويل عن تقدم أعمالنا في وزارة الداخلية الطلب إليه أن يبلغني تنويه الاخوين دالس بنجاحي في مهمتي، ثم ان يرفع تقريراً عن احتمالات اجراء «انتخابات حرة وشريفة وديمقراطية في المستقبل القريب». كانت كل المراسلات التي تلت البرقية تتمحور حول الفرضية بأن الحكومة المنتخبة انتخاباً حراً ومنصفاً في بقعة من بقاع العالم ستكون حكماً مناهضة للاتحاد السوفياتي ومؤيدة للولايات المتحدة حتى ولو كان السوفيات يقدمون لها كل ما تحتاج إليه ولو كنا نحن نقف إلى جانب ألد أعدائها.

بتزايد ضغوط واشنطن علينا طلب مني جيم إيخبرغر ان اساعده في اتخاذ دور «محامي الشيطان» في دراسة للوضع العام في مصر كان قد طلبها منه السفير كافري. وبعد قبول السفير بتوقعاتنا تقاط انطلاق تركت الأمور الباقية لي، أو بالأحرى لي ولحسن التهامي ففضينا الشهرين التاليين أياماً من العمر، ذلك اننا بمواقفة عبد الناصر وزكريا محيي الدين، أقوى رجلين في مصر من حيث أمن الدولة، رحنا نتصور خطط انقلاب ضد عبد الناصر. وضعنا أنفسنا في مكان مختلف الشخصيات أو المجموعات المعروفة إما بعدائها للنظام الجديد أو باحتمال صيرورتها منافسة له. ولم نرتق فقط إلى مصاف كبار الخبراء العالميين في طرق زعزعة استقرار

الحكومات والاطاحة بها بل ربما أصبحنا أكبر الاختصاصيين بذلك. علمتنا تلك الفترة العناصر اللازمة لذلك، فوضعنا قائمة مفصلة بالضروريات الأساسية اللازمة، أوسع بكثير مما كان في ذهن ستيف ميد عندما رافق حسني الزعيم في مشوار بالسيارة في شوارع دمشق يدل على الأهداف الواجب السيطرة عليها في ليلة تنفيذ الانقلاب. وبعد ذلك بوضع سنوات عندما جلست مع مجموعة من خبراء المخابرات الأميركيين والبريطانيين نخطط للاطاحة بعبد الناصر جدياً، لم يبد من زملائنا البريطانيين ما دل على الإدراك بأنهم في حضرة الشخص الوحيد في العالم العليم بالخبرة بطرق تنفيذ ما يهدفون إليه .

لا بد لي الآن من الإدلاء باعتراف أئد خطورة من اعترافي السابق: هل تعلمون من كان يعد الكثير من تصريحات عبد الناصر وسيل الدعاية المعادية للولايات المتحدة المتدفق من إذاعة القاهرة – أقوى وسائل الدعاية في الشرق الأوسط – التي أزعجت الدبلوماسيين المحترفين في وزارة خارجيتنا؟ طبعاً أنتم لا تعلمون أننا كنا نحن نعدها. ذلك لأننا كنا ندرك مثلنا مثل عبد الناصر نفسه ان قبضة العهد الجديد على البلاد تتوقف على قدرته في الاستمرار بالعداء لأميركا بشكل مقنع وان ليس في مقدور عبد الناصر المخاطرة بمجرد ابداء أي عقلائية في موافقه حيال سياساتنا المختلفة في الشرق الأوسط. وحتى لو استطعنا تنويم عبد الناصر مغنطيسياً بحيث يطيع أوامر واشنطن دون تردد، لأحجمنا عن حمله على التصرف تصرفاً نعلم مسبقاً بأنه انتحاري. لذلك ساعدناه في دعايته المعادية لأميركا ومن ناحية أخرى بذلنا مجهوداً كبيراً لجعل تلك الدعاية تأتي بنتائج عكسية إذ ضمناها الكثير من السخافات الواضحة مع بقائنا بكامل السيطرة على انتاجها. وذهبتنا في اثنائنا لهذه العمليات إلى استقدام بول لانيبارغر، ولعله أقوى الدعايين «السود» في التاريخ، إلى مصر لتدريب الفريق المصري الأميركي المسؤول عن انتاج الدعايات المذكورة .

لقد كانت مهمتنا، كما ترون، خلق قناة اتصال سرية مصرية أميركية وبعيداً عن البيروقراطية ومنيعة بوجه أي تأثيرات افسادية، والابقاء عليها مفتوحة دون أن يكون لها اي تأثير في ما يمر عبرها . أما هذا الأمر الأخير فهو من اختصاص وزارة خارجيتنا. فإذا ما أدت المراسلات المارة عبر تلك القناة إلى تلاقى الافكار تكون النتيجة طيبة. أما إذا أظهرت تبايناً صادقاً إنما غير قابل للتوفيق، عندئذ لن يكون بطوقنا فعل أي شيء ولن ينبغي علينا فعل أي شيء .

ويترتب علي هنا أن أئدد على ان ذلك هو كل ما يمكن للفعل السياسي ان يحققه. إذ لا يمكنه إلا استغلال الحركية السياسية الجارية في حينه الاستغلال الأمثل، علماً بأنه يستطيع تعديل اتجاهها أو خلق حركات جديدة في بعض الأحيان. ولكنه لا يمكنه إلا نادراً جداً احداث تغييرات داخلية في اي بلد باستخدام قوى خارجية – أكان ذلك في مصر أو في كوبا أو في نيكاراغوا كما هي الحال حديثاً. وعندما كنت لا أزال أعمل في الوكالة جرى نقل كل الموظفين الذين خالفوا هذا الرأي إلى وظائف ادارية داخل الوكالة أو انهم طردوا منها . كان آلن دالس منفتحاً على المنطق، أما تثقيفه جون فوستر (وزير الخارجية) فبالعكس. ولا شك في ان الوزير لم يكن من قمع الذكاء المتوقع كما كان يتصوره رئيسه، الرئيس ايزنهاور، أو كما تصور هو نفسه. أما عناده فيضرب به المثل وهو الذي أضفى على عبارة «عقل مثل الفخ الفولاذي» معناها الجديد. ولما لم يسبق له ان عايش وتعاطى فعلاً مع زبائنه من العالم الثالث اكتفى بالافتتاع الأعمى بأنه يتمتع بتفهم ميكافيلي لكل المشاكل الاقليمية في العالم

بينما لم تكن آراؤه في نظرنا نحن الذين عملنا على الأرض سواء كنا في وكالة الاستخبارات المركزية أو في وزارة الخارجية إلا أقل بدائية من الترهات التي تلف افكار معظم سياسيين الشرق الاوسط . قضيت معظم ما تبقى من سنتي خدمتي في القاهرة ومن سنتين آخرين، بعد استقالاتي من الشركة وعودتي إلى وكالة الاستخبارات المركزية بصفة رئيس لقسم العمل السياسي في مساعدة كيم روزفلت نللمم معاً نظائيا الركام. ركام ماذا. الركام المتناثر من سياسات الوزير دالس التصادمية أكان في مصر أو في بلدان الشرق الأوسط الأخرى .ذلك انه اصر على اتباع سياسات واتجاهات كان موظفو الخارجية والوكالة على يقين من انها ستؤدي إلى كوارث . هل حصل الخطأ من قبلنا؟ هل تأخرنا في انذار الوزير دالس وكبار معاونيه وكبار المعجبين به ومؤيديه في البيت الأبيض بأنه يكس الاخطاء فوق الاخطاء ؟ لقد اخبرناه بكل ذلك وبكل تأكيد . وما على من يثتك بقولي هذا إلا أن يتيقن من ذلك بمراجعة المراسلات حول الموضوع التي بات في متناول من يشاء مطالعتها .

أما نحن العاملين ميدانياً فقد تفيدنا كليا بأربعة مبادئ اعتبرناه على برائتنا من طرق وأساليب واشنطن بأنها تنطبق على مبادئ المنطق السليم لدى رؤسائنا. لا بد اننا أصبنا – من حيث المبادئ المذكورة وان لم يكن من حيث الطاعة لرؤسائنا – باعتبار انه منذ ذلك الحين وحتى الآن والكوارث تحل بأي عملية تنفذ دون التقيد بها . سبق أن ذكرت المبدأ الأول :وهو انه اذا اضطررت لتغيير طبيعة او اتجاه حكومة ما عليك ان تفعل ذلك من خلال القوى الموجودة داخل البلاد .بالطبع هناك لازمة لهذا المبدأ وهي انه في غياب تلك القوى – أو حيث لا توجد قوى نائمة يمكن إيقافها أو تحريكها بدافع من مصالحها وتوجيهها في أفنية تخدم مصالحنا – عليك التخلي عن العمل السياسي واللجوء إلى اسلوب آخر، أو محاولة التكيف مع وضع تشوبه بعض النواقص .ليس هذا المبدأ اكتشافاً جديداً فقد أفصح استراتيجي صيني عن اسمه منذ قرابة الثلاثة آلاف سنة بقوله: إياك الدخول في عراقك لا ترى بوضوح طريقك نحو الفوز فيه؛ وإياك السير في عمل ما إلا إذا كنت على بينة من احتمال مقبول لنجاحه. وعليه يأتي دائماً ثمن الاخفاق في حل اشكال في العمل السياسي أعلى من ثمن الابقاء عليه دون حل. أما كلفة التفصير المفضوح فكثيراً ما تكون انتحارية .

المبدأ الثاني: فهو الذي يلاقي العاملون ميدانياً أئد الصعوبة في ادخاله عقول استراتيجي المقاعد المريحة في واشنطن، وهو أن الديمقراطية والانتخابات الحرة في معظم دول العالم الثالث لا تشكل الحل لمشكلات تلك البلدان أنفسها ولا الحل لمشكلاتها فيها .ففي أكثر الحالات يفوز في الانتخابات الحرة في البلدان المسماة «نامية» واحد من نوعين من المرشحين :فإما أن يكون سياسياً أ فريقياً سياسياً يضع في رأس اولوياته لدى بلوغه السلطة التوقف عن اجراء اي انتخابات حرة أخرى؛ أو غوغائي قطع على نفسه وعوداً يعلم انه غير قادر على الوفاء بها، يبدأ بعد فوزه بمطالبتنا بأنبياء لا نستطيع القيام بها فينحى باللائمة علينا ويتهمنا بأننا وراء تفصيره .

والمبدأ الثالث: هو ان علينا الاعتراف بواقع ملخصه ان الحكومة التي ندفع بها إلى سدة السلطة تضع مصالحها دوماً قبل مصالحتنا. إن أئد الحكومات موالاة لأميركا تمتنع عن السير في خططنا ما لم تخدم تلك الخطط مصالحها قبل مصالحنا وشرط ألا يعرض ذلك قبضتها على بلادها لأي خطر. هذه هي النظرة التي استحال علينا نحن العاملين ميدانياً مع حكومة عبد الناصر اقناع واشنطن بها .فقد كانت الأولوية، كما رأيناها

نحن، وجوب إبقاء عبد الناصر على رأس الحكم ؛ فهو لا يشكل اي قيمة لنا خارجة هذا إضافة إلى انه لم يكن له أي بديل منظور . ورغم ذلك وطلب إلينا المرة تلو المرة حملته على اتخاذ اجراءات يعلم هو مثلنا بأنها انتحارية . ولدى رفضه طلباتنا جاءتنا التعليمات بالتشروع بخطط التخلص منه .

المبدأ الرابع : هو أن علينا الاعتراف بأن القسم الأكبر من عملنا الأفضل مع حكومة نريد بقاءها في السلطة يجب أن يبقى سرياً ليس لأننا بحاجة إلى سرية بل لأن السرية هي رغبة تلك الحكومة . يجب أن نعلم أن القيادة في البلدان التي تتلقى أريحيتنا لا يستفيدون كثيراً على الصعيد الشعبي من اعلانهم عن صداقتهم معنا — علماً بأن أكثرهم يسجلون بعض النقاط لصالحهم بتبجحهم بقدرتهم على استغلالنا . باستثناء حالات قليلة جداً لم يجن الزعماء الاقليميون الذين عرف عنهم الولاء لأميركا إلا فقدان نفوذهم أو حياتهم . إلا ان الاسرائيليين يشكلون إلى حد ما ثبوان القاعدة، هذا مع العلم بأن هؤلاء لا يتأخرون، بين أن وآخر، عن التبحر بأن نفوذهم عندنا أقوى من نفوذنا عندهم على الرغم من المساعدة الضخمة التي تقدمها لهم . فحسب تعريفنا للعمل السياسي في الايام الطيبة الغابرة كان تعاطينا به مع جميع الحكومات، باستثناء الحكومة الاسرائيلية، ناجحاً بمقدار ما حافظنا على سرية . أما الاعلان عنه فلا يعني فقط تخريبه بحد ذاته بل جعل تأثيراته عكسية بحيث تصبح كلفتها أكثر من المنافع التي كنا نتوقعها منه .

ولكن المشكل الرئيسي يكمن خارج مثل هذه الاعترافات ففي سنوات قادمة لا بد أن يكتشف ثاب ما في جامعة ما من أبحاثه لاعداد رسالة الدكتوراه أن الصعوبات في العمليات السياسية الأميركية إبان الخمسينات نجمت ليس من عدم قراءة تقاريرنا في واشنطن بمقدار ما نجمت من اننا في الميدان لم نكن على علم بأن لا أحد يقرأها . إن المبادئ التي أنثرت إليها موجودة في السجلات . فلما عدت إلى واشنطن وجدت خزائن محفوظات كاملة مليئة ليس فقط بأوراق أنبه بمقالات دراسية تعالج بتوسع تفاصيلها بل بتقارير مفصلة عما كنا نقوم به من أعمال، مما يعني ضمناً اننا كنا نراعي تلك المبادئ بدقة . ومع ذلك لم أعتز على وثيقة واحدة لا في ملفات وزارة الخارجية ولا في ملفات وكالة الاستخبارات المركزية تقول لنا وانشطن فيها بأننا نعمل خارج نطاق التعليمات . وفي الواقع عثرت على توبيهين موجهين لي شخصياً مما يعني بوضوح ان وانشطن اعتبرتنا نعمل فعلاً ضمن نطاق التعليمات وانها أنتت بذلك صراحة على «استراتيجيتي» في التعاطي مع حكومة عبد الناصر .

وهكذا تابعنا العمل بثقة عمياء بأننا متفقدون بالحدود المرسومة مع وانشطن بينما كان واقع الحال اننا زججنا عبد الناصر في المأزق تلو المأزق ثم استحال علينا الخروج منها . ومما زاد في سوء الوضع ان الزوار الوافدين علينا من وانشطن يغادروننا مقتنعين بما شرحناه لهم في القاهرة ويرجعون إلى وانشطن فقط للعودة إلى ما كانوا عليه من آراء انعزالية وثابرت وزارة الخارجية تطالب عبدالناصر باتباع سياسات تؤدي به إلى الانتحار السياسي، ورحنا نحن في القاهرة نتنبأ بدقة بما ستكون ردة فعله على طلباتنا، حتى اننا تتبأنا كيف أن تصرفات عبدالناصر والاستراتيجيات الأخذة بالتكون حولها ستبقيه أمامنا بخطوة في اللعبة طالما بقي جون فوستر دالس وزيراً للخارجية .

لم يتمكن الوزير دالس من فهم المبدأ الأول القائل بأنه: «من النادر ان تفوز بلعبة دون معرفتك بأستراتيجته فيها» . هذا فضلاً عن ان الاستراتيجية المضمونة النجاح قد تصل إلى نهاية مأساوية إن هي اغفلت التغيرات

الجزرية الجارية على رقعة اللعبة ذاتها. كان عبد الناصر يقول: «إنني لا أفوم بالعمل بل أرد عليه». دعونا من الكلام بالعموميات فواقع الأمر ان موقفه هذا سهل علي مهمتي.

نعم، نعم، ثمّة إجراء واحد اتخذته عبدالناصر، وقصرنا أنا وكيم روزفلت عن التنبؤ به. فعندما أعلن وزير الخارجية دالس اننا لن نساعد عبدالناصر في بناء السد العالي، دعينا إلى اجتماع عقد في وزارة الخارجية للمساعدة في استقراء ما ستكون ردة فعله. طرحت آراء كثير ولكن رئيسنا المحبب فرانك وإيسنر انفرد بذكر احتمال تأميم عبد الناصر لشركة قناة السويس. دسنا انا وكيم على رجل فرانك تحت الطاولة (اننا نحبه ولم ترق لنا رؤيته يجعل من نفسه موضوع سخريّة أمام الحاضرين) ولكنه ثابر في اصراره على رايه فيما اخذ كبار مسؤولي الخارجية يشرحون له بحنو أبوي أسباب استحالة أو قلة احتمال اقدام عبد الناصر على اتخاذ مثل ذلك الاجراء.

ولكن الرئيس عبد الناصر أمم شركة قناة السويس كما يعلم الجميع (لم يؤمم القناة نفسها كما يظن خطأ بل أمم الشركة) فدعانا فرانك إلى مكتبه ليثمت بنا وقال: «أرجو أن تجلبا معكما الملاحظات التي دونتماها عن الاجتماع في وزارة الخارجية.

دخلنا عليه فإذا به في نشوة الظفر وكأنه يقول: «ألم احذركم؟» ولكن مظهره تبدل عندما عجز عن العثور بين أوراقه على ما يدعم نبوءته. قال بصوت عال: «الا تذكران؟ قلت مرتين أو ثلاث مرات ان عبد الناصر قد يلجأ إلى تأميم شركة القناة».

نظر كيم إلي ونظرت إليه، ثم قال: «لست أذكر، يا فرانك، انك تقوهت بثيء من هذا القليل. أنذكر انت يا مايلز؟»

قلت لكيم: «لم اسمع ذلك منه». ثم توجهت إلى فرانك بالسؤال: «هل انت متأكد من انك فكرت بذلك دون التقوه به؟ فلو نطقت بها لكانت نبوءة خارقة، ولكن...»

ما انفك فرانك يصير على قوله: «انكما تعلمان بأنني قلتها» وما انفكنا أنا وكيم نردد وقد علت مظاهر الدهشة وجهينا بأننا لم نسمعه. كانت لعبة قدرة كثيراً ما رددناها بندم خصوصاً وان فرانك انتحر بعد مرور أقل من سنة على فشل عملياته المفضلة: ثورة هنغاريا. وهنا أود أن أسجل للتاريخ ان فرانك وإيسنر الذي يجهل معظم الأميركيين من هو، رجل عظيم كبير القلب ومن افضل المدراء الذين انتقلت معهم. فيه قال ستيوارت السوب انه: «مات ضحية الحرب كمثل مينة أي جندي في ساحة القتال»، وهو لعمرى، قول يشهد على صحته كل أصدقاء فرانك ومن تعاون معه.

الفصل السادس عشر

العمل السياسي في الخفاء

هل هو شأن جدي؟

سبق لفرانك وإيسنر ان قال لي بأنني سألقى الترحيب دوماً في وكالة الاستخبارات المركزية وبأن فيها عملاً جاهزاً بانتظاري متى ثننت العودة إليها. وعليه، عندما انقضت مدة تعاقدى مع شركة بوز - آلن اند هملتن في مصر في تموز (يوليو) ١٩٥٥ راجعت حسابي في المصرف وتأكدت من أن فيه ما يكفي لشراء بيت جديد في

فرجينيا إضافة إلى سيارتين، فكتبت رسالة استقالتني ثم وجهتها إلى رئيسي جيم آلن رئيس الشركة الذي أجابني برسالة جاء فيها تماماً ما سبق لفرانك ان قاله لي عندما استقلت من الوكالة قبل سنتين (أي انه يرحب بعودتي إلى الشركة في أي وقت أنشاء) مضيفاً بأنه سيحيلني على الاستيداع إذا ما ثبُت ذلك بحيث لا أعتبر مستقبلاً. وهذا يعني أنني ما زلت معتبراً في عطلة بالنسبة إلى الشركة، إلا إذا كان أحد الكتبة في مكاتبها في نيكاجو أو في واشنطن قد قرر تنطب اسمي.

قضيت في القاهرة وقتاً ممتعاً جداً، وعندما استعيد ذكرياتي بين تموز ١٩٥٣ وتموز ١٩٥٥ أدركت انها كانت فترة هامة جداً أفادت حكومتنا وأصدقائي المصريين والشركة، كما جنيت منه منفعة كبيرة. وكما أتمنى لو استطعت القول عينه في السنتين التاليتين. صحيح أنني أول منها سمي اختصاصياً بالعمل السياسي في الوكالة وأول رئيس لوحدة مؤلفة من خمسة رجال اسمها أركان العمل السياسي. وصحيح أن للوظيفة وللقبها رنة مطربة على الغلاف الورقي لكتاب حيث نبذة عن الكتاب و / أو المؤلف. ولكن ما أعطيته فعلاً هو عبارة عن كيس فارغ أمسك به. وبعد أن بدا الفريق بالعمل المفيد اضطرت أن أقضي معظم أوقاتي وعلى مدى سنتين في محاولات دائمة لتلافي عمليات العمل السياسي تقوم بها داخل الاقسام الإقليمية وحدات تتجاهل وجودي.

لكن دعونا نعالج الأهم أولاً. لم يمض يوم واحد على استقراري في عملي الجديد حتى أدركت ان لا أحد من رؤسائي المباشرين – لا آلن دالس ولا حتى كيم روزفلت – كانوا على علم دقيق بما هو عملي بالضبط. ولدى استفساري طالعني كل منهم بجواب مبني على ما قاله الرئيس ترومن وهو يوقع قرار مجلس الأمن القومي رقم ١٠/٢ الذي اخبر به لوكالة الاستخبارات ان تتوسع مهمتها من وكالة لجمع المعلومات والاستخبارات لتشمل «مكافحة الأعمال التخريبية التي يقوم بها السوفييات في الخفاء» بأي وسيلة ممكنة. فالسوفييات يحاربوننا بالجيل القدرة إذاً علينا محاربتهم بسلاحهم. ولكن أفلا يعني ذلك بأننا قد انحدرنا إلى مستواهم؟ وإذا استعملنا الجيل القدرة لمجرد أنهم يستعملونها، أفلا نكون قد ماثلناهم سوءاً؟ أسئلة قد يطرحها اليوم المهتمون بالفضائل والأخلاق ولكنها افتقرت إلى من يطرحها آنذاك.

اسمحوا لي ان أطلب المعذرة منكم، يا معشر الشباب الذين تعدون رسائل لتنهادات الدكتوراه، إذا بدا ما أقوله مفخرة. فالمواد التي باتت في متناول أيديكم بفضل قانون حرية المعلومات تتيح لكم التيقن من انني كنت أول من اقترح في رسائل رسمية انه لا يجوز لأي ذراع من أذرع الحكومة الأميركية، سواء كانت وكالة الاستخبارات المركزية أو غيرها، لا يجوز لها الخروج على العالم بالجيل القدرة لمجرد ان السوفييات يلجأون إليها. في ورقة مؤلفة من عشر صفحات حول طبيعة الصراع الأميركي السوفيياتي – حسبما رأيته – قلت بأن علينا أولاً ان نحدد بدقة الضرر الذي ينوي السوفييات إلحاقه بنا ولأية غاية، وان تقوم بأي عمل يحول دون تحقيقهم مآربهم. أكان نظيفاً أو قذراً، والمعنى في السعي لتحقيق غاياتنا.

وانني وان كنت أول من وضع ذلك في رسائل وأوراق رسمية فأرائي هذه لم تكن من بنات أفكارني، بل يعود معظمها إلى هاري روزنسكي كما يعود الفضل بتوضيحها إلى ريتشارد بيسل وهو أستاذ في الاقتصاد بعث به إلينا البيت الأبيض حيث كان يعمل مستشاراً في تنفيذ مشروع مارشال. بعد اسبوع من انضمامه إلى الوكالة رأى فيه كيم روزفلت حليفاً محتملاً. لم يكن ريتشارد يعرف الكثير عما اسميناه «العقلية المستهدفة» ولكنه وافق معنا

على ان تفهمها ضروري قبل وضع الخطط اللازمة لعمليات مخبرائية ضد أصحابها.ضمت ما سمعته من هاري روزتسكي إلى ما استقيته من ريتشارد بيسل أثناء تناولنا الغداء معاً بضع مرات وتوجهت نحو البنتاغون ووزارة الخارجية ومواقع صنع القرار الأخرى للتعرف إلى أفكار الاختصاصيين فيها بشأن ما سيواجهنا في تصدينا للسوفيات.

وسرعان ما تعلمت من جولاتي درساً بات مذاك يلزمني كاحدى الحقائق البديهية: ان البيروقراطي، تعريفاً، شخص يفصل المشاكل حسب قياس الحل وليس العكس. ماذا يحاول السوفيات ان يفعلوه بنا، وكيف نستطيع إيقافهم؟ كل وحدة من وحدات الحكومة تجيب عن هذا السؤال بالطريقة التي تخدم غاياتها وهكذا تثبت «لعبة» جديدة. انني اسمي ذلك «اللعبة البيروقراطية» واصنفها إلى جانب «اللعبة المحلية الداخلية» المتفرعة من «اللعبة الدولية». اما مكوناتها الضرورية فهي:

ان غاية كل لاعب (أي كل وحدة داخل البيروقراطية) تحقيق موقع مسيطر على رقعة اللعبة، موقع يمكنه من تحديد المشكل بمجمله بطريقة تعطيه الدور الأول في العثور على حل له.

ان الاستراتيجية الرابحة تقوم بكليتها تقريباً على بناء امبراطورية أي جمع عدد أكبر من الموظفين برتب عالية والقاب لا ثقة بها والتمركز في أبنية جديدة فخمة، والحصول على ميزات أكبر من ميزات اللاعبين الآخرين. ان الحل المتفق عليه للمشكل بمجمله بين اللاعبين المتنافسين ليس نتيجة التعاون بلوغ غاية مشتركة بمقدار ما هو عملية توافق بين ادوار مختلف اللاعبين كل لمصلحته.

ان طبيعة «الحل» (إذا جاز حقاً تسميته كذلك) وما يشدد عليه تحدهما الوحدة التي تمكنت من استخلاص أضخم ميزات ممكنة من الكونغرس مع كل متممات تلك الميزات.

إنني اتحدث هنا عن اللعبة كمار رأيتها في العام ١٩٥٣. ومنذ ذلك توالى أدعج أكثر معرفة من دماغي على وصف الصراعات والتنافس البيروقراطية داخل الحكومة، وكلها في النهاية تتوافق مع أكثرية الآراء التي ابدتها منذ نيف وثلثين عاماً: «إن ما يعتبر في حكومتنا على انه سياسة الدفاع القومية» ليست حلاً مدروساً بدقة وتجرد لمشاكل أمن بلادنا بقدر ما هي تسويات توافقية بين البنتاغون ووزارة الخارجية وغيرها ومن وزارات الدولة ووكالاتها فيما يتخذ الرجل المقيم في البيت الابيض دور الحكم بني اللاعبين. في العام ١٩٥٣ كان المقيم في البيت الأبيض الجنرال لدوايت ايزنهاور، العسكري الذي بلغ الشهرة كقائد للقوات التي هزمت المانيا النازية. فبالنسبة إليه كانت الرئاسة آخر مرحلة في مهنته العسكرية. وبالتالي كان البنتاغون دوماً الفائز باللعبة.

لا حظت ان اللغات الشخصية تسبب أعلى درجة من الوهن والارهاق في وزارة الخارجية. فأفراد السلك الخارجي المحترفون، وهم العمود الفقري للوزارة، يعتبرون أنفسهم دبلوماسيين مهنيين فقط. ولما كنت قد قضيت التنظر الأعظم من السنوات الست الماضية في بلدان الشرق الأوسط حيث العادات وطرق التفكير والقيم الاخلاقية تختلف عنها عندنا، دابت على القول بأننا لن نستطيع تحقيق الحد الأدنى من أهداف سياستنا الخارجية في افريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية إلا من خلال الدبلوماسيين وضباط المخابرات الذين، حسب قول آرثني روزفلت لاحقاً، قد درسوا لغة وحضارة ومجتمع شعوب أخرى بحيث يتعلمون التفكير مثلهم ورؤية العالم مثلما

يرونه. ولكن لم يكن عليهم ان يهتموا بتلك الأمور في أيام الوزير دالس. لقد حاول اختصاصيو الأقاليم في وكالة الاستخبارات المركزية العمل مع الدبلوماسيين الأميركيين المحترفين على اساس وحدة القضية ولكن هؤلاء يعتبرون أن السلك الذي ينتمون إليه سلك متفوق عناصره مختارة من ذوي الاختصاصات الشاملة الذين يعتبرون أنفسهم في بيوتهم أكانوا في كابول أو في باريس، لكنهم في كلا المكانين أنبىه بالسمة خارج الماء. من بين اللاعبين الأربعة في اللعبة البيروقراطية الذين زرتهم استعداداً لعملي كرئيس لأركان العمل السياسي وجدت السلك الدبلوماسي أقل الأربعة ادراكاً للأخطار المحيطة بسلامتنا القومية والتي علينا مواجهتها .

لم يكن ثمة حاجة لخبير في تحليل المؤسسات من شركة بوز - آلن اندهلمتن للتوقع بأننا سنكون في معركة دائمة مع الدبلوماسيين المحترفين :فهم لا يحبوننا وبغتناظون من تطفلنا على طبقتهم المختارة .ولما كنا نختبئ وراء السفارات والمفوضيات والقنصليات في الخارج أصر الدبلوماسيون دائماً على الاشارة إلينا بطريقة خاصة تدل على أي شخص يعرف شيئاً عن أجهزة الموظفين إلى «أن هؤلاء ليسوا منا»،وهي عبارة درجوا على استعمالها ليفسروا للأعراب سبب وجودنا معهم . فإن كانوا يمقتوننا في الحالات العادية فقد كانوا بالتأكيد يكرهوننا عندما كان جون فوستر دالس وزيراً للخارجية وأخوه آلن رئيسنا والمدافع عنا . وفي أيام الوزير دالس،وباستثناء بعض الحالات الفردية، تخلى موظفو الخارجية الدبلوماسيون عن أي ادعاء بالاختصاص بالثئون الإقليمية مكتفين بوضع مسودات التحالفات والمعاهدات .

إن ما رآه هؤلاء الاختصاصيون الانعزاليون ونصف المنبوذين هو استراتيجيية سوفياتية غايتها حرماننا من مقومات حياتنا. كانت تلك الاستراتيجية، من حيث مقومات الايديولوجية الماركسية، دفاعية في أسسها .ولم تكن غايتها السيطرة على العالم بل الحيلولة دون سيطرة «الامبريالية والرأسمالية» عليه إذا تعذر ذلك على الشيوعية السوفياتية. لم يكن تفكير اللينينيين الجدد في موسكو من باب حساب التمني حقيقة، بل أمنوا حقاً بأن الاقتصاد في الغرب يقوم على «استغلال» العالم الثالث،فظنوا أنهم إذا ما استطاعوا بشكل ما حرمان حلفائنا الأوروبيين من الوصول إلى المواد الأولية ومصادر الطاقة من افريقيا والشرق الأوسط تنهار «امبرياليتنا الاقتصادية» . وأطلعني رجال مخبرات سلاح الطيران على ما اعتبرته براهين قاطعة عن أن حرمان أوروبا الغربية من بعض المواد الأولية التي كانت تستوردها آنذاك من بلد واحد في جنوب افريقيا يؤدي إلى توقف صناعاتها خلال أقل من شهر .من السهل إذا تصور ما قد يحدث لتحالفات أميركا العسكرية مع دول أوروبا الغربية لو صارت تعتمد على سخاء السوفيات. واتفق ان الاتحاد السوفياتي كان قادراً على التقدم لإمداد الأوروبيين بأي مواد أولية يحتاجونها، بما في ذلك النفط،بعد توقف ورودها من افريقيا والشرق الأوسط .

عدت من جولتي على البيروقراطيات المعنية بسياستنا الخارجية لأجد ان مهمتي قدت لي .فقد حرك كيم روزفلت فريقي أثناء غيابي وطلب من مساعدي الأول، وهو شاب ذكي وخلق يحمل شهادة دكتوراه اسمه بوب ماندلستام،القيام بأي عمل له صفة العمل السياسي كي لا يلاحظ فرانك وايسنر ركوداً في نشاط وحدتنا فيسرق منا غرف مكاتبنا ويجردنا من الميزانية المخصصة لنا .وسرعان ما أطلق بوب لمخيلته العنان وراح يعمل لتطبيق بعض الافكار التي رعاها منذ أيام الجامعة .

بدأ العمل بتفعيل ما أسماه «السحر في الطبقات الراقية» وهي نظرية من النشاط السياسي تقوم على دراسة مفصلة عن أن الزعماء العالميين يتخذون قراراتهم على أنها موحى بها إلهياً بطريقة أو بأخرى. فقد بعث إلينا رئيس وحدتنا العاملة في كابول بتقرير موثوق عن أن السياسيين الأفغان بلجأون في حل بعض المعضلات المستعصية إلى صراع الديوك داخل مجلس النواب . بمعنى أن كلاً من فريقى النزاع يلقي بديك في قاعة المجلس فينتقل الديكان حتى ينفق أحدهما . عندئذ يرفع الرئيس ما تبقى من الديك الفائز و يعلن نهاية النزاع السياسي . وبالفعل استشار بوب أحد مدربي مصارعة الديوك في المكسيك، ولكن كيم أوقف المشروع قبل توسعه معتبراً، بكل أسف، أنه يجب تعريف رؤسائنا تدريجياً بتلك الأساليب المستوردة وبما ستنمخض عنه مخيلاتنا في المستقبل. هذا إضافة إلى أن استغلال خرافات وتطيرات الشعوب الأسيوية والافريقية من شأنه إثارة مشاعر الليبراليين بيننا فيتهموننا «بالعنصرية».

ولما طلع بوب بفكرة زرع المنجمين لدى بعض الزعماء في بلدان أخرى لم تلق فكرته معارضة تذكر . بل حصل فوراً على تأييد من كيم وعمل الاثنان على تذليل مقاومة فرائك وإيسر مذكرين إياه بما لبعض منجمي جورجيان من نفوذ في الحياة الاجتماعية في واشنطن . فقد كان بعض سيدات المجتمع الراقى في العاصمة يستنصرن منجمهن بأسماء المدعوين إلى حفلاتهن، كما أنه من المعلوم أن بعض رجال الكونغرس – لن أذكر أسماءهم – اعتمدوا على نصائح شخص ظريف في جورجياون ملقب بـ « الجد موسى » الذي يعتمد بدوره على تعاويز السحر والتعودنة التي لفتته إياها وكالة الاستخبارات المركزية .

ثم كان ثنيء اسمه حركة التسليح الاخلاقي وهي حركة سياسية دينية تضم أشخاصاً من مختلف الأديان أسسها أحمق أبله اسمه فرائك بوخمان، وتزعم بأن غايتها تعميق روحانية حياة أعضائها وتحملهم بالتالي على التصرف بمسؤولية وإيثار وتسامح في المجتمع . استرعى المستوى الاجتماعي الذي انتشرت فيه تلك الحركة انتباه واهتمام بوب، ذلك أنها استهدفت بشكل يكاد يكون حصرياً القادة والزعماء كما أن مطبوعاتها موجهة إلى هؤلاء . باختصار، انها لأمر رهيب .

تحرك برنامج التدريب على التجيم ببطء في بادئ الأمر ولم تظهر منه أي نتائج تذكر إلى أن زرعتا قارئاً للغيب إلى جانب نكروما رئيس جمهورية غانا فأفنعته بضرورة القيام بزيارة رسمية إلى الصين الشيوعية وهكذا كان نكروما خارج البلاد عندما قام صديقنا الجنرال آرثر انكراه بحركته الانقلابية وأظهر البرنامج فائدته أيضاً بعد بضعة أشهر على ذلك عندما برمجنا جهاز كمبيوتر أفنعت استقراءاته لمستقبل الرئيس الاندونيزي أحمد سوركانو باتخاذ اجراءات مختلفة تلاءمت مع أغراضنا . وأمنت لنا ترتيباتنا مع حركة التسليح الاخلاقي فنوات سرية مفيدة تنفذ عبرها ليس فقط إلى افكار زعماء في افريقيا وآسيا بل وإلى افكار زعماء في أوروبا أيضاً . وفيما كان بوب يجري ترتيبات مماثلة مع حركة «الوجوديين الكونيين» التي أسسها الأهل الأخر رون هوبارد، كاتب قصص الخرافات العلمية، كنا في طريقنا نحو بلوغ قدرة في العمل السياسي يستحيل معها إلى مهزلة «العمل السري» المفوض والبالغ النفقات والقيل المرود الذي أخذت تقوم به وكالة الاستخبارات المركزية بعد أن استلمها وليم كايسي .

أما أنتم أيها المشككون من القراء، وبا من تظنون أن كلامي هذا مزاح، فانبذوا تلك الأفكار من عقولكم في سنوات الخمسينات أدرك بعض منا على الأقل ان معظم التحركات الجارية على رقعة اللعبة الدولية، وان معظم التحركات في الألعاب الداخلية الدافعة إليها تأثرت بالخرافات التقليدية أكثر منها بالمنطق المكيافيلي .وهل يستطيع أحد المناقشة اليوم في ان تأثير رئيس اركان البيت الأبيض الافطس دونالد ريغن في أفكار الرئيس رونلد ريغن؟ يتساوى مع تأثير العرافة المكتومة الاسم التي تستشيرها زوجة الرئيس ريغن. وكى أتقى الكلام المبطن بشأن هذه المهزلة الأخيرة، أشعر بوجود القول هنا بأن التقدماء منا الذين لا يزالون يتذكرون الأيام الطيبة، أيام فرانك وإيسنر وكيم روزفلت وس فيتزجيرالد وفرانك لندساي وأرثشي روزفلت وإيامي أنا، يعتقدون بأن تفهقر فعالية وكالة الاستخبارات المركزية بدأ يوم أخذ مدراؤها يفكرون تفكيراً «عملياً» اي العمل انطلاقاً من الفرضية بأن شعوب العالم الاخرى تفكر على طريقة رجال الأعمال الأميركيين القائمة على الوقائع والأرقام فقط. تنفسنا الصعداء عندما ثناع الخبر بأن رئيسنا يستشير منجماً عوضاً عن استشارة وزير الخارجية أو مستشار الأمن القومي .

فمنا أنا وبوب وبعض الباحثين بجولة فيما بعد على اقسام الأقاليم ورؤساء مكاتبها وطرحنا عليهم الأسئلة التالية :«ماذا يمكن أن يلحق الضرر بالمصالح الأميركية مما يجري في منطقتكم ؟ لماذا؟ وكيف يمكننا تعديل الوضع ؟ غطينا الارض كلها من افغانستان إلى البانيا والجزائر واليمن وبوغسلافيا وزامبيا. ولم نكن في الواقع نبحث عن كل ما نستطيع العثور عليه من المشاكل، بل من أخطار واضحة المعالم يمكن استعمالها مشاريع استرثنادية نختبر بها أصول العمل السياسي المتواضعة التي تصورناها آنذاك .

سئلتنا مثلاً :«لماذا لا تجربون الاتحاد السوفياتي»؟

أجبنا :«علينا أن نتعلم السير قبل الركض .»

أما الجواب الأكثر تردداً على أسئلتنا فكان البلد الفلاني لا يقدر الاسلوب الغربي للديمقراطية حتى قدره، فهو لا يجري «انتخابات حرة» في مواعيد منتظمة، أو ان الأفكار الغربية المتصلة «بحقوق الانسان» لم تصبح بعد جزءاً من الحضارة المحلية. أما ردة فعلنا على تلك الأجوبة فكانت، «حسناً»، ولكن كيف يلحق ذلك الأمر الضرر بمصالحنا؟ بالفعل وجدنا حالتين أو ثلاثاً حيث الانتخابات الحرة إلى درجة معقولة تشكل مبدأ مقبولاً في المجتمع من جهة وخطراً حقيقياً على مصالحنا، ذلك لأن الشعوب لمقنها أميركا، تقترح باستمرار إلى جانب المرشحين الذين يتعهدون بالحق الضرر بمصالحنا وإنما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .ففي بلدان كهذه من الصعب أن يكون من مصلحتنا الحماس لتشجيع «حرية التعبير» كما نفهمها وتقبلها في بلادنا .

وورد علينا أيضاً طراز آخر من الأجوبة ان دل على شيء فعلى داء «الزبائية» الذي يصيب الكثيرين من خبرائنا الافليميين. فمثلاً يعود إلى واشنطن في اجازة سنوية مسؤول عن مكتب افليمي أو رئيس فرع في بلد ما ويخبرنا بأن «الفلانيين يقاتلون العلانيين وان شرارة الحرب العالمية الثالثة ستتطلق من ذلك البلد بالذات!» .وأمام مثل تلك الأقوال لم يكن بوسعنا سوى التناؤب ثم القول، بأن علينا وضع تلك التشرارات جانباً نظراً لكثرة ما بين أيدينا من قضايا، إلى ان تكون قد أصبحت تشكل خطر حريق داهم .وكان الواقع البسيط، ولا يزال، أن من جميع الحروب المحلية التي اندلعت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لم يكن منها واحدة حسبنا انها قد تسبب

حرباً عالمية ثالثة استناداً إلى طبيعة خلافاتنا مع السوفييات .و عندما رفعنا تقاريرنا – حسبما راينا – إلى وزارة الخارجية ووزارة الدفاع والبيت الابيض، توجهت إلينا الاتهامات بأننا معتدون بأنفسنا،وتتقصنا سعة المخيلة،وقصيرو النظر أو مجرد جهلة .(أثارت الأوضاع على رقعة الالعب الدولية، وما تزال، آراء متصلبة مبنية على معلومات ضئيلة، أكثر تصلباً مما يسمح به في أي مجال آخر من مجالات النشاط البشري).

غير اننا نتمتع بتفوق على متهمينا :فنحن نعلم ما نتحدث عنه فيما هم لايعلمون .استخباراتنا الممتازة تبيّننا بأن الاستراتيجيية السوفيائية موجهة إلى نقاط الضعف في الغرب ولا تقوم على نقاط القوة السوفيائية معتبرة ان أكثر نقاط الضعف قابلية للاستغلال هي الدول التي يحكمها قوم فاسدون مستبدون يستمدون قوتهم من معرفتهم من ابن تؤكل الكتف . إن الدول التي حددتها مجموعتي الصغيرة على انها خليفة بأولوية الاستهداف هي بلدان في افريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية يحكمها زعماء موالون لأميركا تجعلهم تصرفاتهم فريسة سهلة لعمليات الاستخبارات السوفيائية .عجزنا عن افناع اي ادارة جمهورية بأن هؤلاء الزعماء يشكلون لنا ارباكاً باهظاً – فضلاً عن كونهم أهدافاً سهلة المنال للعمل السياسي السوفيائي بحيث يصعب اعطاؤهم أي مناعة ضد الانقلابات – علماً بأن البعض منهم يصلحون أهدافاً لتدريبنا باعتبار ان بعض أعضاء الكونغرس لم يسبق لهم ان سمعوا بهم قط.

منذ ذلك الوقت (١٩٥٥) وحتى اليوم صدر عشرات من الكتب عن «أخطاء» خفية ارتكبتها وكالة الاستخبارات المركزية. كل تلك العمليات كانت شبه عسكرية ومن النوع الذي كرهناه نحن قدماء الخبراء في العمل السياسي،الخفي منه والعلني .تعطي تلك الكتب انطباعاً بأنها تشمل مجمل مجهودات الوكالة خلال السنوات الأربعين الماضية.أما الواقع فهو انها لا تشكل كلها سوى جزء يسير مما فعلته الوكالة لابقاء العالم مكاناً آمناً للمصالح الأميركية وللحيلولة دون اشتعال حرب عالمية ثالثة. لم تلق أي عملية أرثوذا فريقي الصغير او لعمليات الأخرى التي أجريت على غرارها أي تغطية اعلامية. وعلى الرغم من انها لم تكلف مبالغ كبيرة كغيرها (لسنا بحاجة إلى جنود وأسلحة ودعم لوجيستي) فقد جاءت نتائجها الصافية أعمق بكثير واستمرت مدة أطول فضلاً عن انها لم تحدث أي ارباك بسبب تسرب اخبارها في الصحف.

في هذه الأيام،عندم أظهر في مقابلات تلفزيونية أو انترك في ندوات يناقش فيها موضوع الوكالة أراني الوحيد الذي يصر على التأكيد بأن التركيز هو على ما تقرأه في الصحف عن عمليات الوكالة يتطرق بالتحديد إلى عمليات مكشوفة وليس إلى عمليات خفية وأضيف بان للوكالة من النجاح أضعاف ما عليها من تقصيرات ولكن اخبار النجاح لا ترد مطلقاً في الصحف .بالطبع قوبلت، وتقابل،أفوالي هذه دائماً بالفقهة الصابخة وبالتحدي التالي :«حسناً، هل تفضل وتخبرنا عن نجاح واحد لا غير»؟فأجيب :«هنا يكمن السر. نجاحي الخفية ليست معدة للاعلان كذلك التي يكتب عنها المحررون .إنها خفية،خفية،وهذا ما يحول دون وفوفكم عليها وانني لست على وثلك اطلاعكم عليها».لا داعي للقول بأن هذا الجواب قلما يقنع أحداً.إلا أن الادلاء به يبعث في نفسي الكثير من الرضا والارتياح.

قفز كتابي حول أصول الجاسوسية الحديثة (نشر في بريطانيا تحت عنوان: «عالم الجاسوسية الحقيقي» وفي الولايات المتحدة تحت عنوان : «من دون عباءة أو خنجر» إلى لائحة الكتب الأكثر مبيعاً بسبب ما نشر عنه من

مراجعات وصفته على انه «خليط بارع من الخداع والتحريف» و «نتاج من التلغيق الهزالي الصاخب». فصرحت ادعى للائتراك في مختلف أنواع الندوات اليسارية المعقودة بالوكالة وفي كل منها ترد اسماء ثلاث عشرة دولة اتهمت الوكالة باجراء عمليات فيها تنصف بالاخلاقية وبالأخطاء الفادحة وبالحاق الأذى بالمصالح «الحقيقية» للولايات المتحدة . أما البلدان الثلاثة عشر الدائمة الذكر فهي : «بورما والصين والفلبين وكوبا واندونيسيا والتيبه وسنغفورة والبرازيل وتشيلي والكونغو واليونان وايران وغواييمالا. لقد ارتكبت الوكالة بعض الهفوات في تلك البلدان وغيرها ولكنها حازت في الوقت نفسه على تنويهات بأعمالها فيها جميعاً باستثناء الصين وكوبا . ولما كانت التنويهات التي تشير إلى النجاحات لم تصل أخبارها إلى الصحف مطلقاً ولا هي بلغت مسامع لجان المراقبة في الكونغرس.

غير ان ما لفت انتباهي هو ان السرية التي درجنا عليها كانت بعيدة عن الكمال . ومع الوقت وتخفيض القيود على موظفي الوكالة الذين صاروا أدباء ومؤلفين حصل تسرب لا بأس به من المعلومات . بعد أن ألهمت مجموعة أركان العمل السياسي جذوة النشاط فيها من جديد نجحت الوكالة في أكثر من مئة عملية سياسية خفية داخل أكثر من ثلاثين دولة . وعلى الرغم من ذلك ثابر اعداء الوكالة على تجاهل كل النجاحات تجاهلاً تاماً رغم علمهم بها.

وكي لا أكون مجحفاً بحق أولئك أبناء (كذا وكذا) اعترف بأن القضية قد تكون قضية تعريف . فبالنسبة اليهم تنطبق عبارة «العمل السياسي الخفي» فقط على تلك العمليات التي أريكت الوكالة خارج الولايات المتحدة وداخلها وتلك العمليات هي : (١) إما تشبه عسكرية أو متصلة بالأعمال العسكرية كذلك التي في فيتنام وافغانستان واميركا الوسطى، الخ (٢) أو ممولة من قبل الوكالة او عبر قنواتها وان تكن في معظم الحالات ليست بادارتها (٣) نفذت في معظمها على أيدي متعاقدين (أي غير محترفين) أو عسكريين بدعم من الجيش أو سلاح البحرية أو سلاح الطيران . (٤) انها ليست «خفية» مطلقاً أي انها نالت تغطية صحفية واسعة .

أما نحن في دائرة أركاننا الصغيرة فنعرف «العمل السياسي» على انه واحد أو أكثر من انواع العمليات التالية :
«اللوبي»:

رتبنا في البلدان المستهدفة مصالح صناعية وتجارية افنعناها بتنظيم وسائل غير علنية للضغط على حكوماتها ووفرنا التدريب اللازم لموظفي فروع العلاقات العامة فيها على غرار ما تفعله عندنا لجان التعديلات لتتلاءم مع الأوضاع المحلية في تلك البلدان . كان بعض ما دعونا إليه و علمناه قانونياً كلياً وفوق الطاولة، وبعضه مختلفاً عن ذلك . أما نسبة ما هو قانوني منها إلى ما هو غير قانوني فنتقارب مع النسبة المقابلة عند اللجان الأجنبية العاملة عندنا .

المستشارون الأميركيون :

لم أدرك قبل انتهاء دورة السنتين التي قضيتها في مصر بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٥ وانخراطي في أصول العمل السياسي خلالهما، مدى ما بلغته عملياتنا تلك من الصيرورة نموذجاً يحتذى في أصول ذلك العمل . فقد تيسر لي الوصول الفوري إلى أهم اعضاء مجلس قيادة الثورة . وعندما غادرت مصر كان لنا فيها خبراء اميركيون دائمون يعملون في دوائر الشرطة والأمن العام والمخابرات . وكان لنا أيضاً على أسس تعاقد مؤقت

خبراء مثل بول لاينبارغر يعاونون وزير الأعلام والرئيس عبد الناصر نفسه في أصول إصدار الصحافة والاذاعة اخبار وتعليقات تبدو في ظاهرها مؤيدة للسوفيات ولكنها تلحق بالحقيقة بالسوفيات وبالشيوعية من الضرر أكثر مما تسديه إليهم من خدمات، إضافة إلى اخبار وتعليقات تبدو في ظاهرها مناهضة للولايات المتحدة وتسدي لنا في الواقع من المنافع أكثر مما تلحقه بنا من أذى . أما الخير ثبير من كنت، وكان أنذاك رئيس مكتب الوكالة المختص بشؤون التفديرات القومية، فقد أعطى المخابرات والباحثين في مصر دروساً قيمة في أصول تحرير خلاصات يومية بسيطة ومليئة بالوقائع التي يحتاجها الرئيس عبد الناصر فعلاً، عوضاً عن تلك الترهات التي كانت تملأ بريده اليومي . و عبر وسائل الاتصال هذه وغيرها أقمنا علاقة وثيقة مع نظام عبد الناصر الثوري مكنتنا من تفهم دوافعه العامة ونواياها المحددة بحيث نستطيع التنبؤ بتحركاته والتكلم معه مباشرة في أي وقت تدعو الحاجة إلى فناعة بالعدول عن اجراءات اعتبرناها مضررة بمصالحنا المشتركة . على كل حال لم يكن لنا ان تفنح عبد الناصر بعدم القيام بأعمال تعود بوضوح بالنفع على بلاده وحدها دون العودة بالنفع علينا .

مستشارون آخرون غير مصريين :

بدأنا تشكك في المراحل الأولى من علاقاتنا معه بأن عبد الناصر يستعين بخبراء غير الذين نوفرهم له، أي ان ثقته بنا هي دون المئة بالمئة . (لماذا شرع حسن التهامي إذاً يأخذ دروساً لتحسين لغته الالمانية؟) تأكدت شكوكنا عندما أخبر العقيد السابق في فرقة أس . اس الالمانية أوتو شكورزني مسؤول الوكالة في مدريد بأن الملحق العسكري في السفارة المصرية هناك اتصل به طالباً منه المساعدة في تجنيد ضباط المان قد يرون في مصر مخبأ مناسباً لهم يقيمهم مطاردي النازيين السابقين . فهل باستطاعة الوكالة تقديم العون ؟ اننا بالطبع قادرون . وبمساعدة أوتو المذكور اختار ضابط الوكالة الذي يتعاون مع الجنرال راينهارد غيلن في بولاخ [مركز المخابرات الالمانية الغربية بالقرب من ميونيخ] بعض الجنرالات والعقداء وغيرهم من الضباط الالمان البلهاء بحيث يمكن الاعتماد عليهم لتخريب الجيش المصري إلى درجة لا يعود يعرف معها طريقة من القاهرة إلى الاسماعيلية ناهيك عن قتال البريطانيين هناك .

لفكرة زرع المان متهمين بجرائم الحرب لدى حكومات تشرق أوسطية حسنة عديدة . ذلك انهم ضد الاميركيين كما هم ضد السوفيات فضلاً عن كونهم غالباً معادين للسامية أي ضد اسرائيل . والواقع ان أكثرهم كانوا ضد العرب أيضاً ولكنهم يتمتعون بمقدار من الذكاء لاختفاء ذلك . المهم انهم كلهم انتهازيون نفعيون على استعداد لخدمة من يدفع لهم لذلك كانوا على استعداد كامل لتقديم اي معلومات أردنا وصولها إلى أربابهم الشرق أوسطيين . كان من الطبيعي ان نواجه بعض الصعوبة في الحصول على موافقة لمشاريع تتضمن استعمال النازيين أو النازيين السابقين ولكن الصعوبات اضمحلت عندما اعترف اصدقائنا في الموساد في اسرائيل بأنهم يستخدمون النازيين السابقين في بعض اغراضهم المثبينة وللغايات عينها التي استسغنا نحن استعمالهم لأجلها .

مستشارون محليون :

لعل افضل طريقة للتأثير في موقف رئيس الدولة في أي بلد، ومنها بلدنا، هي عبر أشخاص من مجتمعه ومن جنسيته ودينه وأصوله الاثنية له ثقة شخصية بهم . ركز «بوب» في عملياته تلك على أشخاص من ضمن هذه التصنيفات في استعانتهم بالمنجمين وقارئ الكف ومستقري الأرقام والسحرة ومستحضري الأرواح والمؤولين

وغيرهم من المشعوذين .وجدنا اننا لم نحتج، إلا في حالة واحدة أو اثنتين،إلى «زرع» مشعوذين أئينا بهم من خارج بطانة الأشخاص المستهدفين ودرناهم على طريقتنا .لقد دلنا استعراض سريع للحكومات التي اخترناها اهدافاً لنا أن الزعماء المحليين الذين يعتمدون إلى حد ما على المشعوذين هم أكثر عدداً من الذين لا يعتمدون عليهم. ولما كان المشعوذون في خوف دائم من التولية بزبائنهم في الاتجاه المغلوط (انهم مشعوذون لكنهم ليسوا بلهاء) فقد أسعدهم الحصول على مساعدتنا. فيها يستطيعون استبدال ابهامهم بمادة صلبة،وبهم نستطيع تلقيم اهدافنا معلومات تبدوا وكأنها نزلت عليهم من مصادر فوقية .

لعل الرئيس عبدالناصر هو وحده بين رؤساء الدول في افريقيا وآسيا الذي لم يعر المشعوذين اهتماماً كبيراً . ولكنه كان يستمع باهتمام إلى مساعدة وأصدقائه المقربين الذين يرتاح إلى مجالستهم بعد يوم طويل من العمل المضني. وكان من بين هؤلاء مثلاً صديقه الأقرب محمد حسين هيكل الذي باستطاعته إيصال «الكلمة» الاميركية له بوضوح واقناع أقوى بكثير مما استطاعه أي من النكرات الذين تغلوا منصب سفير الولايات المتحدة إبان السنوات الأخيرة من حياته وكثيراً ما قلنا مازحين بأن الولايات المتحدة ليست بحاجة إلى سفير لها في واشنطن طالما بقي محمد حسين هيكل إلى جانب عبدالناصر يجتمع به ساعة أو اثنتين في الاسبوع يتلو على مسامعه ما أرسلته واشنطن إلى رئيس مجموعة وكالة الاستخبارات المركزية في القاهرة .من الصعب تسمية محمد حسين هيكل «عميل لوكالة الاستخبارات». ولكن المعلومات التي كان يقدمها لعبد الناصر لخدمة أغراضه خدمت في الوقت نفسه أغراضنا .

عملاء ذوو نفوذ :

تشمل هذه العبارة في أي بلد مختلف أصناف ذوي الأهداف والرغبات الشخصية التي تتلاءم تلاءماً مناسباً مع ما نبتغيه والذين يمكنهم، بقليل من التشجيع والتأييد،التحول إلى أشخاص أكثر تأثيراً وفعالية مما كانوا عليه أثناء وقبل المساعدة والتشجيع. كما يوجد في أي بلد مستهدف أشخاص مستقلون بعملهم قادرون على نفعنا إذا ما تركوا يتصرفون حسب معرفتهم ويشعرون بالاهانة إذا ما عرضنا عليهم بدلاً عن خدماتهم أو إذا ما لمحنا لهم بأن ما قالوه لنا أو فعلوه أفادنا بمقدار ما أفاد القضية المحلية التي يعتنقون. هؤلاء يجب أن ندعمهم وثنائهم .ولكن يوجد في أي بلد أذهان متوقدة بحاجة إلى توجيه وتأييد ولا يهمها من اين يأتيانها .في أيامي كان على رئيس الفريق في البلد المعني اكتشاف الأفضل من بين هؤلاء الناس أكانوا في الحكومة أو خارجها (في وسائل الاعلام أو الجامعات أو المؤسسات الدينية أو في أي مكان قد يكون منبراً لهم) ووضع ترتيبات رسمية معهم لتبادل الأفكار وتقديم المساعدات المالية وغيرها، وفي حالات قليلة جداً تقديم مكافأة مقابل الخدمة المسداة .

المساعدات المالية للصحف واتحادات العمال والحركات السياسية والمرثحين:

فخلافاً للاتهامات التي تساق ضدنا منذ بضع سنوات،اننا لا نملي على الصحف ما نريدها ان تنشر ولا نوجه اتحادات العمال في كيفية استعمال قوتها ونفوذها ولا نصدر تعليمات صريحة للحركات السياسية وقادتها بما عليها قوله أو فعله . عوضاً عن ذلك اخترنا من بين هؤلاء من تصرفوا ويتصرفون بطرق تتلاءم مع غاياتنا وقدمنا لهم الدعم اللازم كي يستمروا في سلوك نهجهم. وفي سنوات لاحقة صارت عمليات وكالة الاستخبارات المركزية ضد حكومة الهند في تشبلي مثلاً ممتازاً يدرس في الصفوف .فقد اتهمنا «بشراء» الصحف واتحادات

العمال .ولكننا لم نفعل .جل ما فعلناه اننا قدمنا للصحف الورق الذي حرمتهم الحكومة منه،وأما لاتحادات العمال طعاماً مجانياً بعد ان أفقلت الحكومة مخازن تموينهم .يخطئ خطأ فادحاً كل من يظن بأننا قدمنا لهم ما حسن قدرتهم في ماكانوا يفعلون للاطاحة بحكومة سلفاتور اليندي .
الاقناع :

في بداية عهد الوكالة استعملنا كلمة ارهاب دون ارباك .فالارهاب عوضاً عن الاغتيال هو ما لجأنا إليه عندما رغبتنا في ثني أي مجموعة أو دولة عن الايتيان بأي عمل من شأنه تعريض مصالحنا المشروعة للخطر .وجاء حصول أي قتل أو تشويه صدفة غير مقصودة.ثم أخذنا نستبدل كلمة الارهاب بكلمة «الاقناع» الأكثر لطفاً خصوصاً بعد ان تفوق خصومنا علينا في استعمال الارهاب وسيلة للعمل السياسي،واكتشف اختصاصيوننا في شؤون الدعاية ان ما تحمله كلمة «ارهاب» من معان اضافية تصلح في حربنا ضد الجاسوسية.ومنذ ذلك الاكتشاف صار فريقنا يقنع والفريق الآخر يرهب.أما التعبير اللطيف والرقيق «مقاتلو الحرب» (المقاتلون في سبيل الحرب) فلم يظهر إلى الوجود إلا بعد مرور بضع سنوات على ذلك .

تعني كلمة «الارهاب» لأي اختصاصي بالدعاية أي عمل ينطوي على العنف وتتنطبق عليه التحديدين التاليين:(١) انحراف عن الاعراف المقبولة عموماً في الاعمال الحربية و (٢) شرط ان يكون الفريق الآخر هو الذي انحرف عن تلك الاعراف.أما بالنسبة لمخططي العمل السياسي أو لمحلي المخابرات فالارهاب عمل يقصد منه تخويف العدو وردعه عن القيام بنشاط معين أو استفزازه للقيام بعمل لا عقلاني يخدم اغراضنا الاستراتيجية. مثلاً على ذلك ما اتخذناه من اجراءات في أوروبا المحتلة ابان الحرب العالمية الثانية حيال المتعاونين مع الالمان من فرنسيين وهولنديين وبلجيكيين.فقد أثنت الناس عن مجرد التفكير بالتعاون معهم. وإبان الانتداب البريطاني لفلسطين استعمل الصهاينة،أي عصابات تسييرن والإرغون الارهاب لتدمير معنويات البريطانيين ولإثارة المعارضة في بريطانيا مما أدى في النهاية إلى خروجهم من فلسطين. لم تلجأ وكالة الاستخبارات إلى هذا الاسلوب إلا نادراً منذ العام ١٩٥٥ وحتى مغادرتي الوكالة وشروعي بالعمل الفردي المستقل. وقد استعملته بفعالية كلما أرادت إثارة دولة بوليسية ما لضرب شعبيها بطريقة تبرز طبيعتها المتعسفة فتسهل لنا عملنا في انشاء حركات مقاومة.

قدرات الملاذ الأخيرة :

استعيد من وقت إلى آخر ذكريات أعمالي الماضية علني أجمع مواداً أولف منها حكايات أروبيها لأحفادي قبل الرقاد فأجد نفسي بين انقلابات وتزوير انتخابات وأنكالات أكثر عنفاً من تبديل أنظمة الحكم وغير ذلك من نشاطات لجأنا إليها من وقت إلى آخر. إنها في الواقع مواد القصص البوليسية وحكايات الجاسوسية وروايات تند الأعباب التي تشاهدها على شاشة التلفزيون — ناهيك عما يرويه كتاب يساريون من دعاية مناهضة للوكالة وجدت طريقها إلى الصحفيين الفضوليين،هذا فضلاً عن نتائج تحقيقات لجان الكونغرس. أما المواد المسلية والمثيرة مثل خبر بعنوان :«رجل عض كلباً» تقرأه في الجريدة فتحظى باهتمام أكبر بكثير من الاخبار العادية التي نطالعها كل يوم.وعلى الرغم مما عندي من ذكريات محببة عن الانقلابات والأعمال الجريئة التي كان لي ضلع فيها فإني

استعيدها في مخيلتي وكأنها حكايات من الطفولة. على كل حال احتفظنا حتى آخر يوم لي في الوكالة بقدرات على تنفيذ عمليات الملاذ الأخير فكذت ألقى بانتظام دروساً في قسم التدريب على كيفية تخطيط وتنفيذ تلك العمليات. ماذا فعلنا إذا بكل ذلك التطوير للوسائل والأساليب؟ أما الجواب فهو أننا سجلنا خلال السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة النجاح تلو النجاح. وأعتقد بأنه من الانصاف القول أن جميع العمليات التي نفذتها الوكالة بالأساليب والوسائل الواردة جاءت ناجحة برمتها. ولهذا السبب عينه لم تحصل على اعتراف بها داخل الوكالة وخارجها، في حين ان كوارثنا العديدة حصلت على الشهرة والتمجيد في الداخل على الانتشار الاعلامي الواسع في الخارج. وباعتبارنا نعمل في الخفاء كنا نتمنى عدم الحصول على الشهرة والتمجيد، ونسعد بالحصول على الميزانية اللازمة وعلى الترقيات المستحقة.

إن العمليات التي شرعنا بها بين عامي ١٩٥٥ و١٩٥٧ تعامل حتى اليوم على انها سرية ولكنني استطيع ان أبوح بكل ما يستأهل البوح به في بضع جمل قصيرة انما لن أفعل ذلك قبل نثر بعض الحكم، إن العمل السياسي الذي يتميز بالكمال هو تعريفاً عمل لا يتخلله الحدث. ذلك لأن لا شيء يحدث خلاله. إنه ترتيب مستمر وليس عملية متسلسلة كما انه ليس سلسلة من الأعمال تبدأ من نقطة انطلاق وتصل إلى نهاية. إن العمليات التي وصفتها أعلاه تحت عنوان: «قدرات الملاذ الأخير» قد تكون شواذاً عن القاعد ولكنها (تعريفاً أيضاً) لن تكون مطلقاً كاملة الصفات.

قلت سابقاً ان العمل الأول الذي قام به أركان العمل السياسي كان وضع قائمة بأسماء الدول حيث توجد مواد أو مواقع ضرورية كلياً لبغائنا ورفاهيتنا كالمواد الأولية وأماكن تصلح لإقامة مواقع عسكرية أو بحرية ملائمة في حال قيام حرب أو مناطق يسهل اجتيازها لتقصير طرق تنقل الجيوش والأمدادات. أذكر ان القائمة شملت بعضاً وثلاثين دولة ومنطقة (حسبنا ما يسمى العالم العربي منطقة جرافية واحدة) تتناسب مع حاجاتنا.

خلال السنتين اللتين قضيتهما بالعمل الجدي كاختصاصي بالعمل السياسي أرسلت الوكالة إلى الخارج أكثر من فئة من مختلف الاختصاصات ودربت عدداً مماثلاً، أو أكثر، من المحليين الكفوئين في البلدان المستهدفة. وقع الاختيار عليهم أولاً لأنهم أظهروا مواهب واضحة في مجالات عملهم وثانياً، ثانياً فقط، باعتبار انهم قد يكونوا في المستقبل عملاء يمكن الاتكال عليهم. وفي الوقت نفسه اتخذ رؤساء مراكزنا في ذلك البلدان اجراءات مفيدة للفرقبن مع الشرطة المحلية ودوائر الأمن وبعض الصحف والمجلات المختارة والاتحادات العمالية والمنظمات الدينية وغيرها من المنظمات وأبقوا تلك الاجراءات سرية ليس لوجود أي عنصر غير قانوني أولاً أخلاقي في النشاطات التي نؤيدها بل لالتصاق وصمة بقبول المساعدات المالية من مصادر أجنبية.

كم أتمنى لو أستطعت القول بأن الأوضاع لم تقلت من أيدينا قبل مغادرتي الوكالة. فالواقع المؤسف هو أن زمام الأمور أفلت في العالم كله وبات على الوكالة القيام بأعمال تفوق مجرد ضبط الاوضاع في البلدان التي توجد فيها مواد حيوية من أجل سلامتنا ورفاهيتنا. في الوكالة نفسها ظهر الميل البيروقراطي الطبيعي باتجاه التوسع. فراح رؤساء الاقسام يقيمون لها فروعاً في بلدان لم تكن بحاجة إلى تغطيتها. ولدى وصول رؤساء الفروع إلى مراكز عملهم الجديدة لم يكتفوا بفرك الأكف والانتظار بل راحوا يعملون بجد واجتهاد لإقناع أنفسهم ولاقناعنا في واشنطن

بأن المناطق اليت عينوا فيها بؤرة للعمل السياسي الذي إذا لم يوضع له حد سيتقضى إلى البلدان المجاورة الواردة على قائمتنا.

ليس هذا جزءاً من تفسير أسباب نمو وكالة الاستخبارات المركزية من وحدة حكومية سهلة الإدارة تقدم خدمات لا تقدر بثمن، إلى امبراطورية واسعة أصبحت بفعل ضخامتها وتعدد نشاطاتها هدفاً للاستخبارات السوفياتية أولاً ثم «لبلهائها النافعين» من الأدباء والمفكرين الأميركيين وأخيراً لأعضاء الكونغرس وغيرهم ممن لهم الحق المشروع بالاهتمام ببعض نشاطاتها. وبصرف النظر عن: من هو المسؤول، الوكالة نفسها أم أعداؤها، فإنه لمن الواضح للفرد وللجميع ان الوكالة وما استحوطت إليه في أواخر الثمانينات تختلف كلياً عن ذلك القسم من المؤسسة المتقدمة المركبة بحكمة وذكاء الذي كان لي فيه دور في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات. لقد استمر هذا القسم بالذات يعمل بنجاح حتى انتهى أمره في الهجمة والحملة على الوكالة في السبعينات. إن جميع الذين يتشاطرونني ذكرياتي عن وكالة الاستخبارات المركزية ونشاطاتها الأولى حسب ارتدادات مجلس الأمن القومي لمختلفة سيوافقون على ان بذور انهيارها لم يزرعها أركان العمل السياسي الاصيلون.

الفصل السابع عشر

ايران وغواتيمالا: ١٩٥٣

سيده القفط وشركة الفاكهة المتحدة

فيما كنت أستعد في اوائل ١٩٥٣ للثروع بعلمي الجديد مستشاراً ادارياً في مصر ساد سكوت مستغرب في الأقسام التي تتعاطى مع الشؤون المصرية في وكالة الاستخبارات المركزية. وفجأة لم يعد بالامكان الاتصال بـ كيم روزفلت أو بفرانك وايسنر أو بالذال للبحث بقضايا تلك المنطقة من العالم التي شغلت لعدة أشهر المرتبة الأولى من اهتمامهم. وفي صبيحة أحد الايام دعاني كيم إلى مكتبه ليسر السبب في أذني يبدو أنه خلال الأسابيع القليلة السابقة قام نقاش حاد على مستوى سياسي مرتفع بين الحكومتين البريطانية والأميركية حول ما يجب فعله بشأن امكانية قيام ذلك المخادع العجوز محمد مصدق، رئيس وزراء إيران، بانقلاب على الشاه وبتأميم شركة النفط البريطانية الايرانية، والتحول بالتالي إلى عقبة في وجه مخططات الوزير دالاس بإقامة «الحزام الشمالي» لاحتباط مخططات السوفييات التوسعية.

بعد تبادل التحيات قال كيم: «بؤسفني ان أؤخر سفرك إلى مصر، فالحاجة تدعو لأن تقوم ببعض الاستكشافات». كان علي ان اذهب إلى ايران للحصول على اجوبة عن أربعة أو خمسة أسئلة يمكن اختصارها بسؤال واحد: هل نستطيع أو هل ينبغي لنا القيام بعمل سياسي لدعم الشاه ولتنويه سمعة مصدق ومنع مؤيديه من القيام بما خشيت وزارتنا الخارجية البريطانية والأميركية من قيامهم به؟ جاءت تحرياتي حول أسئلة كيم باجوبة أعتبرها موثوقة. نعم، نحن بحاجة إلى عمل سياسي غير عادي في إيران لحماية المصالح الأميركية والبريطانية هناك. أما الغاية من العمل السياسي فيجب أن تكون ازاحة مصدق من الحكم وجعله أضحوكة بين الناس، وزج كبار مؤيديه في السجون واعطاء افضل الشاه أي مساعدة قد يحتاج إليها للانطلاق ببرنامج علاقات عامة يظهر للشعب الايراني دقة المأزق الذي مروا به وخطورته، وكم كان حظهم كبيراً لخروجهم منه.

لا بد لي من كلمة عن المصادر التي استندت إليها لتأمين الاجوبة عن أسئلة كيم.

بدأت تحرياي في مكتب إيران في وكالة الاستخبارات وريفيه في وزارة الخارجية حيث حصلت على نتائج ممتازة، ذلك أن أكثرية الموظفين في كليهما سبق لهم ان خدموا في إيران ويعرفون جيداً. وفي إيران نفسها وجدت أن كبار المسؤولين في السفارة وفي مركز الوكالة اختصاصيون ذو كفاءة بثقوى المنطقة وأوضاعها، لا مجرد دبلوماسيين محترفين يعدون الأيام التي تفصلهم عن الانتقال إلى مركز أعلى في دولة ما من دول أوروبا الغربية. فكان هناك السفير هندرسون وهو صديق شخصي لآلن دالس وكيم روزفلت والاب الروحي لجميع قدماء الموظفين الذين اشتغلوا في بلدان الشرق الأوسط. وتعرفت على أربعة من كبار موظفي السفارة النظاميين يتقنون الكلام بالفارسية، يتحلون بالثجاعة الكافية لينزلوا إلى الشوارع ويتحسسوا بمشاعر مختلف طبقات المجتمع حبال الأوضاع.

رئيس مكتب الوكالة في طهران رجل ثغل جده لأبيه منصب وزير الدفاع في فرنسا مرة واحدة، وجده لأمه منصب وزير الدفاع في إيطاليا مرة واحدة أيضاً. أما هو فضابط مخبرات ممتاز يتقن اللغات الثلاث، ونائبه (أستطيع الكثف عن هويته باعتبار انه أطم اللثام عنها منذ سنوات عديدة): جون والر، الذي مضى يترقى حتى بلغ منصب مفتش عام الوكالة قبيل تقاعده وفي الوقت الذي مست حاجة الوكالة إلى مفتش عام اي عندما كان السناتور/ فرانك تشيرش وغيره في أوج حملتهم المسعورة على الوكالة - أمن لي هؤلاء جميعاً الزاد الكافي للاجابة عن كل أسئلة كيم ومنها آخرها: إذا ما أيدنا انقلاباً ثببهاً بذلك الذي ساعدت في التحريض عليه في دمشق، فإلى أين تراه يؤدي بنا؟ بكلام آخر هل تنتج العملية وماذا سيترتب عليها؟ أجبت بنعم، انها ستنتج وستكون نتيجتها ملائمة لنا عن الأميركيين وللبريطانيين وللإيرانيين كذلك، شرط ان يكون الثناه حكيماً وحادراً في تثبيت موقفه المستعاد والا تصعد خمرة التفاؤل إلى راسه.

وعند عودي إلى واشنطن أراد مني كيم اسداء أي نصيحة يمكنني أسداؤها عن كيفية اجراء الانقلاب - إن كان سيحدث انقلاب حقاً للحصول على بعض المساعدة في الاجابة عن هذا السؤال اتصلت بما يسميه موظفو قسم إيران «وكالة الاستخبارات المركزية الحقيقية» أو «وكالة الاستخبارات داخل وكالة الاستخبارات» وهي وحدة صغيرة ترأسها زوجة موظف الاتصالات اللاسلكية الملقبة «بيدة الققط». أظن بأنني أول من كتب عنها وعن وحدتها ليس فقط لقلّة عدد الذين يعلمون بوجودها إن داخل أو خارج الوكالة، بل ربما لأن لها وسائلها الخاصة في التعاطي مع من يختلس النظر تحت خباثها .

أطلعني كيم على وجود بيده الققط فيما كنت على وشك السفر إلى طهران وحذرتني من الاقتراب منها، ولكنه بدل رأيه عندما تذكر بأنها هي وحدها على اتصال مجد «بالخطط». وهم مجموعة من المرتدين الأميركيين المتحدرين من أصل إيراني (فرس، بلوخيون، أكراه، تركمان، الخ). جاءوا بحثاً عن عمل مع المقاولين الأميركيين، اضافة إلى «عمالقة الزركانة» وهم مجموعة من الرباعين الذين تدعو الحاجة إليهم في قيادة المظاهرات المأجورة والسيطرة عليها - كما حدث مرة عندما كانت الجماهير تتادي «يعيش مصدق والموت للثناه» فحولوا النداءات إلى «الموت لمصدق يعيش الثناه». وأخبرني كيم ان من مواهبها الشخصية القدرة على

التظاهر بأن السكر يتعتمها في حين تكون صاحبة وصافية الذهن، أو انها تجهل الفارسية واللهجات الايرانية الأخرى علماً بانها نشأت وترعرت في تبريز/ وتتقنها كلها مثل أهل البلاد.

لاحظت عندما رأيتها للمرة الأولى ان شكلها يوحى بما ليست عليه، ذلك انها وقد جاوزت الأربعين تبدو في العشرينات من عمرها وعلى نوع مستغرب من الجاذب. لا بد انها أدركت أن الايرانيين يعتبرون النساء اللوانى يتمتعن بجاذب جنسي خاليات من العقل، فجعلت تسريحة شعرها الاسود الطويل كعكة تلفها في مؤخرة رأسها واختارت نظارة غليظة الاطار واعتمدت الثياب السوداء، ولم تنس مطلقاً ارتداء الشادور خارج البيت تستر به وجهها. مظهرها العام يوحى بأنها من الايرانيات المطالبات بحقوق المرأة سبق لها أن قضت سنة في كلية الاقتصاد في لندن .

بينها كوخ قريب من السفارة الأميركية «يشكل جزءاً من ملابسها» حسب وصف كيم وهو في الواقع كذلك .انه يعج بالقطط والأطفال الصاخبين، منه تتبعث أفرق الروائح وفيه يعلو الصراخ حتى ليكاد يستحيل تبادل الأحاديث العادية. «الملائكة الصغار»، كما تسميهم يلعبون في الغرفة المجاورة لعبة الطيب. وفجأة انبعث زعيق جمد الدم في عروقي علت عليه سيدة الققط قائلة: «لا بد ان ضجيج الأطفال يرتفع كثيراً في بعض الأحيان، فلا تأبه بهم». ولما هدأ الصراخ والزعيق وحل السكوت في البيت، قالت: «من الأفضل ان أرى ما هم عليه». أما ما كانوا عليه فكان انهم قطعوا هرة حية بالمششار إلى قطعتين. ذلك ما شاهدته بام العين عندما خرج كبيرهم وهو في قرابة العاشرة من العمر يحمل بكل يد نصف الهرة المشنورة. انشعلت السيدة سيجارة وقالت له بهدوء: «أرمها خارجاً، أفلمت ترى اننا نحاول التحدث كأشخاص متمدينين؟»

حصل ذلك الاجتماع صبيحة اليوم الثالث لوصولي طهران، أي بعد عثورها علي ذلك انها لو لم تعثر علي لما استنطعت العثور عليها لأن احداً في السفارة لم يجرؤ على الاعتراف بانه يعرفها ناهيك عن ارشادي إلى منزلها. عندما علمت هي بوجودي، ولعل ذلك صدفة بواسطة زوجها، أرسلت لي سيارة الأسرة، تلك الفولكسفاغن المهلهلة التي أفلتني إلى بينها حيث تناولنا قحداً من الشاي المنعق وشاهدت ضحية لعبة «الجراح البيطري». ثم قمنا بجولة في المدينة، فإذا بها تعرف كل شارع وطريق وزاروب وزقاق وزاوية ومنعطف فيها.

قضيت صبيحة ذلك النهار اتعرف بمساعدتها طبعاً إلى الاهداف الواجب التحكم بها على كل من يقوم بانقلاب (كالاذاعة والمحطات الكهربائية الرئيسية ونقاط التحكم الأساسية في شبكة الهاتف، ومنزل رئيس الوزراء مصدق ومنازل غيره من الشخصيات الواردة اسمائهم في قائمة المطلوبين، الخ). ثم أخذت أرسم الطرق التي ستسلكها قطعان المتظاهرين والتقاطعات حيث يحدث ازدحام السير والمخارج التي تلجأ إليها الشرطة عندما تدعو الحاجة إلى السيطرة على جمهور الرعاع المتظاهرين.

استغرقت استطلاعاتي هذه طيلة قبل الظهر وعند الساعة الواحدة قالت كاثي (كاثرين لا أعرف ماذا هو اسمها الحقيقي): «حان وقت الغداء» قادنا سائق سيارتها إلى نسخة فارسية عن المطاعم التي يرتادها سائقو الشاحنات في أميركا. كان المطعم مليئاً «بالقطط البشرية» التي أنثرت إليها في فقرة أعلاه . قالت كاثي: «هؤلاء محترفون وليسوا مسيئين اطلاقاً وسيكون العم كيم بحاجة إليهم مهما كان نوع الانقلاب الذي يخامرهم». تبين لي من حديثي العابر مع البعض منهم أن جمع جمهور يكفي للقيام بانقلاب مؤبد للشاه ليس قضية صعبة وان «القوى القومية»

التي يكثر التخوف منها لن تشكل عائقاً في طريق الانقلاب. واستطعت كذلك تكوين صورة لا بأس بها عن «الثعب» الإيراني وعن شعوره تجاه الثناه ومصداق وثركات النفط الأجنبية. ولما عدت إلى واشنطن كان التقرير الذي رفعته إلى كيم كل ما احتاج إليه لاقناع الأخوين دالس بوجود الأقدام على «عملية اجاكس» إضافة إلى الارتدادات الأولية لطرق تنفيذها .

لا بد لي هنا من تصحيح بعض ما ورد في الكثير من الكتب والمقالات التي اعتبرتني «العبقريّة الكامنة وراء عملية اجاكس» أو «الدماغ الذي يحرك كيرمت (كيم) روزفلت أو ما قاله البعض بطرق مختلفة من أن العملية ما كانت لتتجح «لولا التخطيط والاعداد الممتازين» اللذين قمت بهما. بعد نجاح العملية ببضعة أيام قال الثناه وهو يتبادل الأنخاب مع كيم في القصر الشاهاني: «انني مدين بعرضي إلى الله وإلى شعبي وإلى جيثي وإليك وبالطبع إلى مساعدك المستر الذي لن أذكر اسمه». وعندما علق الرئيس إيزنهاور وسام الأمن القومي على صدر كيم، قال الأخير بتواضعه المميز: «الحق انني لا استحق ذلك. نحن مدينون إلى أحد مساعدي الذي يفضل عدم ذكر اسمه».

الواقع ان الفضل كله يعود الى كيم في صيروره عملية اجاكس نموذجاً حياً لعملية العمل السياسي الكاملة. فقد استعملت عناصر من داخل البلاد وفعلت متناعر وقوى محلية لاستنهاضها. تضمنت العملية السيطرة على الجيش واعادة توجيهه استهدافاته بشكل أكثر فعالية من أي عمل آخر قمت به، واقامة توازن بالغ الاتفاق بين القوة العسكرية وبين التأييد الشعبي. والواقع ان جميع الاجراءات الروتينية قد اتخذت حسب الخطط المرسومة (الاستيلاء على الاذاعة وقطع الاتصالات الهاتفية، الخ.) ولكن العملية سارت بسلاسة لم تكن لتستدعي تلك الاجراءات ومع ذلك كله كلفت الشعب الأميركي أقل من مليون دولار علماً بأنه رصد لها ثلاثة ملايين يبقى الأهم من ذلك كله انها نجحت على المدى البعيد مثلما نجحت على المدى القريب. فقد بقي الثناه على عرشه عشرين سنة أخرى استمتع خلالها شعبه ببحبوحة لم يشهدها من قبل — مع الاعتراف بالطبع بأن الشعب تحمل الاحباطات والتوترات مثله مثل اي شعب آخر يسير نحو التعصرن بسرعة تفوق ما تفوق الثقاليد استيعابه. انتهى كل ذلك بعدما تحولت الحكومة الأميركية إلى سياسات تشبه جداً ما دعا إليه المفكرون اليساريون وما قاومناه في العام ١٩٥٣ .

لماذا إذاً واستيائي واستياء المهنيين الآخرين من وكالة الاستخبارات المركزية رغم كل ما حققته من نجاح؟ المؤسف ان الموظفين الجدد، والموظفين القدامى الذين أعيد تدريبهم لابد تعلموا شيئاً أو اثنين مما تعلموه في غرف الدراسة عن وكالة الاستخبارات. ولكن السادة رؤساءنا لم يتعلموا شيئاً بل فانتهم كل مقاصدها. لقد كانت في الواقع الفصل الأخير في حكاية المدنية كما عرفناها، وفي الوقت نفسه الفصل الأول في حكاية وكالة استخبارات مركزية معسكرة التنظيم وبيروقراطية الغايات لا أشعر بأن لي فيها مكاناً فقد راحت تنافس البنتاغون من حيث ضخامة الحجم وعدد الموظفين وضحالة كفاءتهم المهنية أدى ذلك إلى استقالة كيم روزفلت واستقالتي أنا وإلى انكال الحكومة الأميركية على قوى خارج الوكالة لتحقيق ما ظننا ان ارشادات مجلس الأمن القومي ترمي إليه.

من «اجاكس» إلى لعبة غوايمالا

الواقع هو ان ما جاء في أعقاب عملية اجاكس، وليس العملية بحد ذاتها، هو الذي خيب آمالنا نحن الاثنيين وبالتحديد كانت عملية غوايمالا هي السبب، وبالتحديد أكثر هو ان كبار مسؤولي الدولة وكبار العاملين في الوكالة من ذوي التوجهات العسكرية الطابع اعتبروا عملية اجاكس على انها جاءت بالسوابق لنجاح عملية غوايمالا .وإذا كانت اجاكس قد تلاءمت مع جميع مواصفات بنائي الامبراطوريات داخل وكالة الاستخبارات المركزية نفسها وفوقها كذلك .وليس في اذهان هؤلاء البنائين سوى اعتبارات «لعبتهم» الداخلية والبيروقراطية .

دعوني أوضح الموضوع على النحو التالي :كانت وكالة الاستخبارات المركزية يوم ولدت في مخيلة مؤسسها منظمة تشبه جداً الاوركسترا السمفونية أو فريق كرة القدم حيث لكل واحد من أفرادها الكفاءة الرفيعة في اختصاصه كما انه يسعى باستمرار لبذل أفضل مجهوده لها وضمنها – تماماً مثل المسؤولين عن مكتب إيران في واشنطن والمسؤولين في سفارتنا في طهران وقد زرت الفريقين، كما مر معنا، قبل الشروع بعملية اجاكس . ولكن تحولنا سريعاً إلى البيروقراطية (وقد أدركت الآن ان هذا أمر محتوم) حيث اضحى موظفونا يتنافسون فيما بينهم على المراكز داخل الوكالة. انعكس مختلف «الألعاب الشخصية» داخل اللعبة البيروقراطية التي راحت الوكالة تنافس فيها سائر الوكالات الحكومية للحصول على ميزانيات أضخم وعدد أكبر من الموظفين والمزيد من التقدير على الصعيد الوطني .لقد حملتنا طموحاتنا البيروقراطية إلى تلك المجالات عينها التي ينبغي على أي وكالة استخبارات تحاكيها ان هي أرادت الحفاظ على طبيعتها .

لن أحمل القراء وزر حكاية أخرى من حكايات عملية غوايمالا التي تشر منها الكثير من عشرات الكتب والمقالات منها ما فيه بعض الصحة ومنها ما يفتقر إليها .بل أكتفي بالقول بأنني وطني الشعور والولاء مئة بالمئة وبأنني رأسمالي مئة بالمئة وبأنني أؤمن بأسلوب الحياة الأميركي وبأسلوب الديمقراطية الأميركي – لنفسي وللاميركيين وان كنت أنكك بملاءمته للحضارات العديدة التي تعاملت معها .ومع ذلك وبمثل هذا الموقف الايديولوجي، وعلى الرغم من عدم علاقتي بعملية غوايمالا فإنني اعتبرها اهانة وطنية كان من ثنائها في نهاية المطاف، وان لم يكن بشكل فوري آنذاك عام ١٩٥٥، إنزال السخط على وكالة الاستخبارات المركزية وعلى المسؤولين. عن اتخاذ القرارات واصدار الأوامر فيها .

إلا انني لم أر أي دليل يثبتر إلى ان الذين تنغلوا مناصب القيادة فيها سعوا للبروز أو كانوا غير شرفاء بأي شكل من الأشكال. ولكن الأسوأ من ذلك انهم برهنوا عن بلاهة – أو ان سداجة تصرفهم في مناصب تستدعي منتهى الميكافيلية والحذافة كانت بمثابة البلاهة .

ولكن إليكم بعض ما عثرت عليه بشأن عملية غوايمالا :

أولاً – انها نتيجة تحريض الوكالة من قبل شركة يوناييتد فروت وهي شركة رفضت شركة بوز آلن اندهملتن المختصة بالاستشارات الادارية التعامل معها . وقد دلت تحريات بوز آلن الأولية ان كبار المدراء التنفيذيين في شركة يوناييتد فروت كانوا ليعتبروا من طراز قديم لا يصلح اشراكهم في روايات تشارلز ديكنز، وعلى انخفاض في مستوى الذكاء لا يقوون معه على فهم توصيات بوز آلن لو انها قدمت لهم. في الواقع ان قول مهاجمي وكالة الاستخبارات المركزية بأن مسؤولي شركة يوناييتد فروت «تستغل السكان المحليين» قول ملطف جداً ذلك

أن الشركة خربت بيوت الاهالي ودمرت اقتصاد غواييمالا. وبالمقارنة معهم يبدو مدراء شركة النفط البريطانية الايرانية كأنهم خربجو كليات ادارة الأعمال في جامعة هارفرد أو ستانفورد .

ثانياً – أعتمد مدراء الشركة في تعاطيهم مع حكومة غواييمالا ليس فقط على التعسف بل اعتمدهم مقروناً بانعدام الشرف. سبق ان صفحت عن بعض التجاوزات الرأسمالية ولكن مدراء شركة يوناييتد فروت على درجة من انعدام الشرف المفضوح الذي لا يطاق بحيث ان الأكاذيب التي اختلقوها ونقلوها للمسؤولين في غواييمالا (ولم يكن هؤلاء من خلاصة النزاهة) هي في الواقع عبارة عن مجموعة اهانات وثنائم لا يحتملها أحد. فعندما استمكنت حكومة غواييمالا، مثلاً، مساحات واسعة من اراضي الشركة التي لم تكن (الشركة) في وارد استعمالها، عرضت الحكومة ثمناً لها المبلغ الذي أوردته الشركة رسمياً في سجلاتها ولكن الشركة طالبت بضعفيه متذرة بكل صفاقة انها أوردت ذلك الثمن فقط «لاغراض ضرائبية» وانه اسلوب معترف به في كل مكان لتقادي دفع الضرائب «حتى في البلدان المتقدمة» .

ثالثاً – كانت الشركة أحد زبائن مكتب محاماة سيليف اند كرومويل الذي يملكه الاخوان دالس، كما كان لكل واحد تقريباً من كبار موظفي الحكومة الأميركية الذين لهم اي صلة بعملية غواييمالا علاقة مالية بالشركة – ومنهم مساعد وزير الخارجية لشؤون الدول الأميركية، ومدير شؤون الأمن في وزارة الخارجية، ووزير التجارة وحتى نائب وزير التجارة وحتى نائب وزير الخارجية الجنرال بيدل سميث الذي صار فيما بعد أحد أعضاء مجلس ادارة الشركة مما ساعد الذين يهاجمون الوكالة على القول بأن تعيينه في المجلس كان مكافأة له على الخدمات التي قدمها للشركة من أجل انجاح عملية غواييمالا. ولكن الصدمة التي جاءتني من ذلك ان أحداً من هؤلاء السادة الكرام لم يفقه مدى تأثير علاقته تلك في جعل العملية هدفاً لدعاية المخابرات السوفياتية، والحكومة الأميركية ووكالة الاستخبارات هدفاً لهجمات «الأغبياء المفيديين» من بين المفكرين الأميركيين، وفي إثارة عداوة الأذكياء والوطنيين من الأميركيين الذين بدأ الشك يرقى إلى قلوبهم حول «المستوى الاخلاقي الرفيع» الذي ما انفك وزير خارجيتنا الورع يدعي انه يمتلكه .

رابعاً – فيما نستعيد ذكريات تلك العملية بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة عليها نرى انها كانت شبه عسكرية من الصنف الذي لم يكن لوكالة الاستخبارات شأن في التدخل بها، عملية كان لا بد من ان تفودنا إلى «عمليات مكثوفة – مخفية» قادتنا بعد ثلاثين سنة إلى نيكاراغوا وتضمنت خرقاً لكل مبادئ العمل الخفي، حتى إلى وقت عملية اجاكس. ولكن عندما تورطت وكالة الاستخبارات المركزية في حرب كوريا وبعدها في فيتنام جاء اجلها. وراحت تعتمد على مهووسين من البنتاغون يتصرفون على هواهم. لا شك انهم مقاتلون ممتازون في الحروب السرية غير المعلنة. ولكن تلك الحروب تخاض ضد حكومة أو ضد قواتها العسكرية بقوى من خارج البلاد، وغرضها في الأصل دحر العدو لازالة زبائنته أو تحويله إلى قيمة مفيدة.*

* ملاحظة: نذكر الإشارة إلى ان المفصود بتسمية «حزب الله» في ايران آنذاك هي منظمة «ودائبان اسلام» بقيادة صفوي وزعامة آية الله السيد أبو القاسم الكاشاني، والتي وفقت إلى جانب حكومة الدكتور محمد مصدق .

الفصل الثامن عشر

رقعة اللعبة على ضفاف النيل

مصر والولايات المتحدة

أوردت في صفحات سابقة كيف يلعب الزعماء والفاعلون في مجتمع ما ثلاث لعبات في آن معاً (اللعبة الشخصية، واللعبة المحلية واللعبة الدولية – ولعبة رابعة في بعض الأحيان هي اللعبة البيروقراطية)، وكيف يمكن لشخص ذكي أو لوكالة أو لحزب سياسي أو حتى دولة تتحلى بالذكاء أن ينجس الواحد منهم في تداخلات اللعبة ويلتصق بمصدر النشاط وينتهي إلى الكارثة المحتومة.

لنأخذ مثلاً رئيس أي شركة كبرى يبشر بإجراءات في الشركة تترك انطباعاً طيباً في نفوس المساهمين خلال السنة الجارية، علماً بأنه يعرف أن إجراءاته تلك ستؤدي إلى مشاكل هامة بعد عشر سنوات – وبعد عشر سنوات نراه يستمتع بدفع أنسعة الشمس بالقرب من حوض السباحة في حديقة بيتة بينما يشقى شخص آخر وراء مكتبه السابق في مواجهة المساهمين. ولننظر أيضاً إلى هؤلاء القادة السوفيات، هم ليسوا بأغبياء، فقد تأكدوا منذ زمن بعيد من أن التثبوتية لا تؤدي إلى الغاية المنشودة، ومع ذلك فهم لا يستطيعون التخلص منها لأنها هي التي أوصلتهم إلى مراكزهم ومناصبهم ولأنهم سيقطعون ضحايا اللعبة البيروقراطية إن هم لم يتمسكوا ويستمتروا بها. ولننظر كذلك إلى رئيس الجمهورية في الولايات المتحدة الذي أعطانا الازدهار بإغرافنا في ديون تكاد لا تحصىها الأرقام ونال هو الشعبية العارمة، هذا مع علمه بأن رئيساً ما في المستقبل، غيره هو، سيشتقى سعيًا لتسديد تلك الديون.

دعونا نلقي نظرة من هنا على العوامل التي سارت بوكالة الاستخبارات المركزية في انزلاقها نحو الهاوية. بدأت الوكالة العمل في أيام رئاسة هاري تروين ومهمتها انبأؤه بما يجب أن يعرفه من أجل حل مشاكل البلاد على رقعة اللعبة الدولية. ولكن الرئيس تروين، ذلك الرجل البسيط و«نموذج الأميركي العادي»، لم يكن ضليعاً في الشؤون الدولية، فكان على وكالة الاستخبارات ليس فقط إرثاده إلى وسائل حل مشاكله بل أيضاً تعريفه بتلك المشاكل، اعتبر الرئيس أن السوفيات مصممون على غزو العالم وانهم ينوون تحقيق نواياهم بأساليب تتعارض مع اتفاقيات جنيف. لذلك أجاز سلسلة من التوجيهات صدرت عن مجلس الأمن القومي وخولت وكالة الاستخبارات المركزية، وهي أصلاً هيئة لجمع المعلومات، بالتمدد إلى مجال العمليات الخفية التثبوتية بما اعتبره (عن حق) الأسلوب الذي يستعمله السوفيات ضدنا.

ثم جاءت أزمة كوريا وحربها التي أدخلت إلى الوكالة أشخاصاً ذوي صفة شبه عسكرية. وتلتها عملية اجاكس وعملية غوايتيمالا فكانت بداية النهاية. والأسوأ من ذلك أننا بدأنا نأتي إلى سدة الحكم برؤساء اعتبروا بأنهم يعرفون ما هي المشاكل التي تواجههم، أو ابتهجوا بالحصول على تفسيرات لها ليس من خلال أسرة الاستخبارات بل على أيدي اختصاصيين في العثور على حلول. إن الذين قرأوا بإمعان ما كتبتة حتى الآن يدركون أن الأشخاص والمنظمات المختصين بالعثور على الحلول ينزعون إلى العثور على مشاكل جديدة وإلى إعادة تعريف المشاكل القائمة كي يطبقوا عليها ما لديهم من حلول .

لم يمض وقت طويل حتى صارت الوكالة تمد البيت الأبيض بالمعلومات التي يطلبها، لا بتلك التي يحتاجها. بكلام آخر راحت الوكالة تتحرى عدد الفرق العسكرية وتغرس الدبابيس الملونة في الخرائط وتجمع من المعلومات ما اعتبر البيت الأبيض انه بحاجة إليها استعداداً لدرء حروب لم يكن السوفييات بوارد خوضها أو ثنها والأسوأ من ذلك ان البيت الأبيض اندفع في اجراءاته هذه دون تفهم ولو بدئي للاستراتيجية التي اختارها السوفييات لأنفسهم. وقامو بممارستها، فاستحال عمل الوكالة في أواخر الخمسينات جمعاً لمعلومات تتلاءم مع استراتيجيا افترض مخططونا العسكريون مسبقاً بأن السوفييات قد تبنوها. طبعاً كان هؤلاء المخططون أئد الناس نفوذا في الحكومة الأميركية لأن ميزانية البنتاغون أضخم من ميزانية أي وزارة أو هيئة في الدولة فكان بالتالي على أهل البنتاغون تبرير ضخامتها. لم يتوقف فرع وكالة الاستخبارات المركزية المختص بروسيا السوفياتية عن الاتيان بمعلومات ممتازة تشير إلى ان الاستراتيجيين السوفييات حصروا تفكيرهم آنذاك بنوع من الحرب الباردة لا صلة لها بحرب نووية ولا بحرب تقليدية. ووجدت تلك المعلومات طريقها من سلة البريد الوارد إلى المسؤولين المختصين إلى سلة البريد الخارج دون ان تشير ولو شرارة اهتمام واحدة.

تحولت وكالة الاستخبارات المركزية إلى وكالة تنعم بميزانية كبيرة بأت الحلول فيها تأتي في المرتبة الأولى. فأخذت على عاتقها عدة عمليات شبه عسكرية وجب ان تكون من مسؤولية البنتاغون. ثم راحت تقوم بعمليات عسكرية في جوهرها - كغيرها من العمليات العسكرية تتطلب اعداداً كبيرة من الرجال وكميات ضخمة من المعدات ومبالغ طائلة من الأموال. وأخيراً أخذت تبحث عن مشاكل لا تستدعي الكثير من الذكاء إنما تستوجب حلولاً باهظة التكاليف، أملاها عليها أحد عباقرتها ذلك يبسل. فرضيته الأساسية قامت على ان جمع المعلومات بالوسائل التقنية اللابشرية يأتي بمعلومات واقعية دقيقة، بينما تشوب بواطن الضعف البشري المعلومات التي يجنيها الجواسيس العاديون. قلنا له :حسناً، اننا نعلم كل شيء عن الجواسيس ولسنا بحاجة لأن نخبرنا بنقاط ضعفهم. ولكن معدائك التقنية لا تستطيع قراءة الافكار ولا تستطيع ان تخبرنا بشيء عن الدوافع والنوايا والتخصية (هنا تدخل اللعبة التخصية) والعوامل الأخرى ذات التأثير في رسم الخطط والسياسات. وعندما تحلل، ابتداء من الحاضر ورجوعاً إلى الماضي، المعلومات الواقعية الواردة من اجهزتك التقنية فإنك ترتكب خطأ الافتراض بان العقلية التي رسمت تلك الخطط والسياسات إنما هي مثل عقليتنا نحن الأميركيين، فلا يسعك إذا بالوسائل التقنية اكتساب تفهم للخصائص الحضارية التي تؤثر في القرار الذي يحاول الشخص المستهدف اتخاذه.

ما زلت أذكر بوضوح إلام تحولت وكالة الاستخبارات المركزية خلال الفترة الواقعية بني ١٩٥٥ و١٩٥٧، وكيف أخذ يدب في نفوس رؤساء المكاتب الإقليمية والعاملين في المواقع والمحطات خارج البلاد الشعور بأننا مواطنون من الدرجة الثانية. فانتني أن أذكر انه حدث آنذاك فرار جاسوس إلى المعسكر الآخر ونجحت إحدى عمليات الاختراق في مجال الاستخبارات. دعينا إلى مكتب المدير لاجتماعات دامت يومين، فكانت وكالة الاستخبارات التي شاهدناها قيلول عيد الميلاد لعام ١٩٥٦ مختلفة كلياً عن تلك التي أسسناها قبل عشر سنوات. وبالمقارنة مثلاً، كان آلن دالس بالنسبة إلى ذلك يبسل مثل طبيب الضاحية بالنسبة إلى بحاتة في علوم الطب، علماً بان لكل منهما بالطبع سيئاته وحسناته. ولكونهما مصدرى الإلهام الأولين في الوكالة كان ينبغي أن يشكلا فريقاً

عظيماً لو تعاوننا سوية وكلهما عملاً في اتجاهين مختلفين. وفي أواخر الخمسينات اندفعت الوكالة تعمل في كل الاتجاهات من طائرات التجسس و «الارهاب الجراحي» والعقاقير والجيوش الخاصة و«البنى الداعمة» وغيرها، فباتت بنظر ريتشارد هلمز، رئيس مكتب العمليات الخاصة، خارجة عن كل سيطرة وأشراف.

قضيت أنا أيضاً الستينين الأخيرتين من خدمتي في الوكالة في ما يصعب وصفه بعمل الاستخبارات التقليدي. ولانعدام توافر ما هو أفضل ثرغنا أنا وكيم روزفلت نعمل في ما أسميناه الدبلوماسية الخفية، أي مناورات دبلوماسية وراء الكواليس لم نكن لتقوى على القيام بها لولا وجود جون فوستر على رأس وزارة الخارجية وأخيه آلن على رأس وكالة الاستخبارات المركزية. إسمياً، كنت أنا رئيس وحدة أركان العمل السياسي وتحملت مسؤوليات عملي بكامل جديتها. ودأبت لدى عودتي من مصر على قضاء معظم أوقاتي في نشاطات الأركان التي سبق أن وصفتها: (١) تحديد أمكنه من العالم فيها أخطار تهدد سلامة الولايات المتحدة ولا يمكن إبطال مفعولها إلا بالعمل السياسي حسب تعريفه له، (٢) ثم استنباط أئد الوسائل فعالية وأرخصها ثمناً للقيام بالعمليات اللازمة. وعندما رقي فرائك إيسنر إلى رتبة نائب المدير لثنؤون التخطيط، حل محله دزموند فيتزجيرالد وهو من بقايا مكتب الخدمات الاستراتيجية قضى كل سني خدمته في الشرق الأقصى. كان دزموند بهي الطلعة وجنتلمان من الطبقة الرفيعة لا يثق «بالوسيلة» ويعرف محدودياته كما انه بحاجة إلى أحد لمراقبة منطقة لا يعرف هو عنها شيئاً ويراقب كذلك مسؤول الوكالة في تلك المنطقة أي كيم روزفلت .

هكذا صارت تحال علي أكثر فأكثر عمليات سياسية خاصة من الدبلوماسية الخفية المتعلقة بالشرق الأوسط، وأو هكذا ظن الاخوان دالس. عندما تطل مشكلة في المنطقة يفكر الاثنان فوراً بكيم روزفلت ونادراً ما فكري بأي دبلوماسي محترف علماً بأن في وزارة الخارجية عدة لجان تتعاطى مع مختلف أزمات ومشاكل الشرق الأوسط. وكان كيم يحضر معظم الاجتماعات وادعى أنا إلى بعضها. أما إذا كان لا بد لأحد ان يتوجه إلى إيران أو إلى مصر أو الأردن أو المملكة العربية السعودية ليقابل الشاه أو عبدالناصر أو الملك حسين أو الملك سعود فلا يخطر ببال الاخوين دالس إلا كيم أو أنا وفي بعض الحالات كلانا معاً وفي حالات أخرى نذهب برقعة بعض المحترفين المرموقين مثل أفريك هاريمان أو روبرت اندرسون أو أرك جونستن .

نما هذا التقليد من إيام غرفة الالعاب التي ساعدت في انشائها وكانت آنذاك فكرة طيبة. ويبدو لي الآن، بعد مرور وقت طويل على انشائها انها لم تحقق من أحلامنا بمقدار ما توقعناه. ومع ذلك أبرزت على رقعة الالعاب بعض الحالات التي تحتاج إلى اعادة النظر فيها. غير اننا أخفقنا في المكان الذي كان ينبغي لنا النجاح فيه: التشديد على ما يتخذ على رقعة الالعاب الدولية من قرارات تؤثر تأثيراً عميقاً في المصالح الأميركية في الخارج إنما يتخذها لا عبون يعتبرون ان المصالح الأميركية تأتي في المرتبة الثانية بعد مصالحهم، والتشديد أيضاً على انه عند تضارب مصالح اللاعبين الأجانب مع مصالحنا يجب أن تتحمل المصالح الأميركية إلى حد ما تبعاً لذلك التضارب. فاللاعب، أيأ كان، يعطي الأولوية لمصلحة بلاده أولاً وبأقصر قدر مستطاع. وعبارة «أقصى القدر المستطاع» هذه هي ما يضعه نصب عينيه أي خبير في العمل السياسي يطلب إليه التعاطي مع قضية اللعبة الدولية. إننا نحاول في تعاطينا مع اللاعبين الآخرين، الاصدقاء منهم والأخصام، ان نخفض إلى الحد الأدنى مقدار ما يمكن ان يولوه من أولوية لمصالحهم على حساب مصالحنا. وعليه يجب الا

تصدمنا أو تدهشنا محاولاتهم الحصول على أقصى ما يستطيعون من منافع على حساب مصالحنا عندما لا تكون مصالح الفريقين متطابقة. ففي اللعبة الدولية يكثر الكلام عن «تطابق المصالح» ولكن دبلوماسيين المحترفين، العلنيين منهم والمستترين، أعلم من أن يثباطروا جون فوستر دالس تبرمه من رفض الدول الأخرى القبول بمبدأ أن كل ما هو مفيد لأميركا مفيد حكماً للعالم كله .

لم يخالفني أصدقاؤى البريطانيين الرأي حول هذا الموضوع ولكن معرفتهم بعلاقتي بالرئيس المصري جمال عبد الناصر عكرت الأجواء بيننا لذلك أرى من المناسب في هذا المجال الخوض في احد أوجه «التجربة الناصرية» التي لاتزال مجهولة عندهم :انه الدور الذي قامت به وكالة الاستخبارات المركزية في قضية السويس والخلاف الذي نشأ بينها وبين الحكومة البريطانية، كما وبينها وبين الحكومة الأميركية. لقد ناقشت هذا الموضوع مراراً حتى لتكاد تنفزز نفسي لذكره . ولما كنت أكتب للتاريخ (فهذا نوع من السيرة الذاتية أدونها) سأطرح مفهومي لدور وكالة الاستخبارات المركزية في تلك القضية علماً بأننا، نحن العاملين في المواقع ظننا أن عملنا يتطابق مع مصالح السياسة الأميركية، في حين كان يخالفها في بعض الأوقات . وأود هنا أن ألفت الانتباه إلى انني لست في معرض الدفاع عن ذلك المفهوم (علماً بأنني أظن ان التاريخ قد برهن على صحته)، فأنا هنا أطلع القراء على مضمونه .

لننظر أولاً إلى رقعة اللعبة. في عدد من الاعتبارات الهامة اختلفت رقعة اللعبة الدولية التي حسبنا اننا نلعب عليها عن تلك التي حسب البريطانيين اننا كلانا نلعب عليها. فمع التزامنا التزاماً لا رجوع عنه بتأييد اسرائيل، كنا على بينة تامة أيضاً بما سيكلفنا ذلك من عداة عربي ومن خطر على مصدر هام للنفط . ومع العلم بأننا نحاول احلال السلام بين العرب واسرائيل، كانت الغاية الأهم من ذلك إرضاء الرأي العام عندها مع ما يتضمنه ذلك من ادراك تام ان استمرار حال العداة أمر كتبت علينا معايشته . وفيما كانت كلمات ونستون تشرشل عن الامبراطورية لاتزال في أذان البريطانيين كنا قد أصبحنا متعاطفين علناً مع الحركات القومية، إذ اعترف وزير خارجيتنا علناً باعقاده بأن سياسات بريطانيا «الاستعمارية» تحد من حرية التحرك الأميركي وبأنه يحاول إبعاد حكومتنا عن تلك السياسات .

لم نحمل على محمل الجد كلام تشرشل وايدن من ان عبد الناصر قد «أطبق بكثا يديه» على شريان حياة الامبراطورية وان القضية باتت قضية موت أو حياة الامبراطورية البريطانية، كلام راح الاثنان يلقيانه علينا نحن الأميركيين بروح أبوة متعالية وكأنا زمرة من الأولاد المعاقين . فقد بدالنا ان حبل حياة الامبراطورية (ترعة السويس) ليس تحت رحمة عبد الناصر، بل على العكس فإن دواقعه لابقاء حبل الحياة هذا مفتوحاً باتت أقوى من ذي قبل .

ثانياً: كان هناك عبد الناصر نفسه. عندما فكرنا ببيلي غراهام مسلم، تصورناه لمثل رقعة اللعب هذه، فكان جمال عبد الناصر أقرب تشبيه معقول به. ذلك اننا لم نلحظ في لعبتنا مكاناً للدمى أمثال نوري باشا السعيد وغيره ممن جعلهم البريطانيين على رقعة لعبتهم. فقد ابتغينا زعيماً في مصر، زعيماً تتناسق آراؤه إلى حد ما مع آرائنا ومع آراء شعبه أيضاً ليتمكن من البقاء والاستمرار زعيماً محبوباً . واعتبرنا انه إذا كان لا بد له من صب عداة على شيء (وكان لا بد له من ذلك حسب المبدأ القائل بأن تأليب الاتباع ضد شيء أسهل من جمعهم لتأييد شيء) وبالتالي فضلنا ان يوجه عداة نحو «الاستعمار» على أن يوجهه ضد اسرائيل . ورأينا ان لابس حتى في ان

يتخذ موقفاً عدائياً من أميركا نفسها شرط ألا يتردد موقفه هذا بالضرر علينا وان يكون له مئة منفعة صريحة . يبقى ان أهم ما ابتغيناه منه أن يكون زعيماً شجاعاً قوياً له من الجرأة ما يمكنه، عند توافر الفرص النفسية المناسبة من اتخاذ قرارات صعبة، علماً بأنني أعود وأندد هنا على وجوب ان تكون قراراته تلك ملائمة لمصالح مصر والولايات المتحدة معاً .

ثالثاً: كان على الرقعة أيضاً لعبة اسرائيل. ففي شباط (فبراير) ١٩٥٥ ثن الاسرائيليون غارة على غزة ذهب ضحيتها أكثر من ثلاثين قتيلاً . وقد وجدنا فيها رغم وحثيتها انها من وجهة نظر الاسرائيليين انطباقاً تاماً مع أصول اللعب. ذلك انهم لما فقدوا كل امل بقبول عبد الناصر بعقد صفقة سلام معهم حسب شروطهم رأوا من الأفضل ان يكون «عبد الناصر» الذي يريدونه معهم على رقعة اللعب الدولية عدواً عنيداً عوضاً عن عدو معتدل قد يتمكن يوماً من اغراء الأميركيين باعتداله وعقلانيته. والواقع ان عداء عبد الناصر قبل الغارة على غزة انصب على الاستعمار البريطاني (لاحظوا الفرق: العدو هو الاستعمار، بريطانيا) كما كان اهتمامه بالصراع العربي الاسرائيلي محدوداً - حسب اعتقادنا. ولكن الغارة سببت سلسلة من الأحداث كان واحد منها نقلة على رقعة اللعب صبت في مصلحة اسرائيل وقربت أزمة السويس، ان الاسرائيليين ماهرون في تخطيط نقلاتهم على رقعة اللعبة الدولية .

رابعاً: كان هناك بعد الغارة انقلاب ومضادة . من الواضح ان الغارة قضت على أي ميل لدى عبدالناصر نحو مساندة مخططات وزير الخارجية دالس لاقامة ترتيبات دفاعية اقليمية (وحولت إلى مهزلة حججنا امام عبد الناصر بأن عدوه الحقيقي هو روسيا السوفياتية وليست اسرائيل)، وأثارت عاصفة من المطالبات المصرية بالحصول على اسلحة أميركية ارفقت بتهديدات واضحة من قبله بأنه سيتحول إلى الاتحاد السوفياتي إذا ما تعذر عليه الحصول عليها. وكانت النقطة التي غيرت طبيعة اللعبة بأكملها حصوله على الاسلحة السوفياتية وإعلانه عن ذلك في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥ وفيما مضينا في وكالة الاستخبارات المركزية نصر على زملائنا في الخارجية بأن عبد الناصر سيتخذ تلك الخطوة، فقط لأننا كلاعين ينبغي علينا الاعتراف بأن أياً منا كان ليتخذها لو وجد نفسه في موقف كموقفه، استمرت وزارة خارجيتنا هي الأخرى في اصرارها على انه يخادع . على كل الأحوال، وبناءً على أمر من الأخوين دالس ذهبنا أنا وكيم روزفلت إلى مصر لاقناع عبد الناصر بأن علينا نحن الفريقين الاستفادة من شعبيته الكبيرة المفاجئة للمغامرة باتخاذ قرار بغيبض: أي تحريك مخطط يؤدي إلى عقد اتفاقية سلام مع اسرائيل .

خامساً: الوزير دالس قصير النظر وقليل العقل. فقد غبنا عن ذاكرته كلياً! لم يكن قد مضى يوم كامل على وصولنا أنا وكيم إلى القاهرة، وفي أعقاب حصولنا على موافقة عبد الناصر على «القرار البغيض»، أصدرت وزارة الخارجية بياناً صحفياً بأن مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الاوسط جورج ألن سيتوجه إلى القاهرة ليلبغ عبد الناصر «انذار». لم يكن من الصعب على احد(وعلينا بشكل خاص) ادراك ما حمل عبد الناصر على ان يرمي في سلة المهملات نص الخطاب الذي «أعدته» له لاعلان خبر صفقة الاسلحة السوفياتية، ويستبدله بخطاب غير معتدل حسب المقاييس الغربية. ومنذ ذلك اليوم أخذت العلاقات تنتقل من سيئ إلى أسوأ فعبء الناصر يتخذ اجراءات نعتبرها نحن منطبقة مع أصول اللعب بينما يتخذ الوزير دالس، الذي أصبح في موقع

المبادرة، اجراءات وخطوات لا تعطي عبد الناصر أي مجال إلا مجال التصعيد باتخاذها الاجراءات المعاكسة التي توقعنا منه اتخاذها .

سادساً: جاء تراجعنا عن عرضنا السابق بتمويل مشروع سد أسوان. أدركنا تماماً، نحن رجال وكالة المخابرات المركزية ضرورة سحب عرضنا بتمويل مشروع السد العالي: فأعضاء مجلسي الكونغرس من الولايات الجنوبية خافوا من ان يمكن المشروع المصريين من زرع مساحات اضافية قطناً؛ أما الاعضاء الذين يمثلون الولايات الغربية فغاظهم ان ننظر بعين الرضا إلى بناء سد في مصر بينما لا يحصلون هم على الأموال اللازمة لبناء سدود في ولاياتهم. كما كان هناك احتمال ان يؤدي الإصرار على منح مصر قرضاً إلى تعريض كل مشروع اقامة وكالة الانماء الدولية للخطر. وفي احدى الامسيات، بعد انصراف الموظفين إلى بيوتهم، جلس جون فوستر دالس وييل راوتري الذي حل محل جورج آلن في منصب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط، جلسنا حتى ساعة متأخرة من الليل يكتبان توضيحاً لسبب سحب القرض غايته الهاب متشاعر عبدالناصر، والله أدري ما السبب؟! أما نحن في الوكالة فلم تكن لنا أي علاقة بالتوضيح المذكور. وعندما سأل آلن دالس كيم روزفلت عن رأيه به كان غضب كيم منه يعادل ثورة جمال عبد الناصر، علماً بأن كيم مارس من ضبط النفس مقداراً يفرق بقليل ما مارسه عبد الناصر. أفلقت ردة فعل كيم آلن دالس فما كان منه إلا ان اخذنا أنا وفرانك وايسنر وكيم إلى وزارة الخارجية حيث جلسنا حول طاولة نحاول ان نتبأ بردة فعل عبد الناصر. كان رأيي ورأي كيم وكذلك رأي بعض الزملاء في الخارجية ان ردة فعله مهما تكن لن تكون في صالح ما أسميناه بسخرية «قضية السلم في الشرق الأوسط». ولكننا لم نتقدم بأي مقترحات محددة – باستثناء ما أوردته في فصل سابق عن تطرق فرانك وايسنر إلى احتمال قيام عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس فأسكتناه أنا وكيم. سابعاً: كان على الرقعة أيضاً السخط البريطاني على تأميم عبد الناصر لشركة قناة السويس. فعند الاعلان عن التأميم أطبق البريطانيون فوراً على المبادرات. جاريناهاهم في لعبتهم على الرغم من معرفتنا من ان الاستخبارات البريطانية على ما هي عليه من تفوق في مناطق الشرق الأوسط الأخرى لم تكن على علم بكل ما يجري داخل حكومة عبد الناصر وبالوضع العام في مصر. في احد الاجتماعات التي عقدتها برفقة بعض زملائي في وكالة الاستخبارات المركزية مع ضباط من المخابرات البريطانية قبل قرابة الشهر من الهجوم البريطاني الفرنسي الاسرائيلي على مصر (العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦) للبحث في ما يجب ان نفعله بشأنا، عبد الناصر، عرض علي احد الضباط البريطانيين وثيقة سرية جداً تبين تنظيم المخابرات المصرية. ظننت في بادئ الأمر انه يمازحني ! ذلك لأنها الترجمة الانكليزية للتنظيم الهرمي الذي أعدته بمساعدة زملائي في شركة بوز آلن أند هملتن. ويبدو ان نظائرها البريطانيين كانوا في جهل تام حيال ما كان يفعله فريق وكالتنا في مصر طيلة السنتين المنصرمتين.

كان أكثر ما أزعجنا عدم تصرف البريطانيين تصرف اللاعبين المتمرسين ذوي الأعصاب الهادئة. فكل ما قاله لنا زملاؤنا في المخابرات البريطانية والخارجية البريطانية لا يمت بان صلة إلى أي ضباط أو مدنيين مصريين يمكنهم تشكيل حكومة إذا ما أزيل عبد الناصر من الحكم، أو إلى الوضع العام في مصر. ولم تكن أقوالهم أكثر من اقتراضات وتكهنات، كما بدا انهم لم يكثرثوا – لأكثر من الاطاحة بعبد الناصر، بصرف النظر عن النتائج، بغية البرهان للعالم أن مغروراً برز حديثاً مثله لا يستطيع التباهي بالدوس على ذنب الأسد

البريطاني دون عقاب. إن موقفهم هذا أثبته بموقف بطل من أبطال الاثطرنج العالميين حاول تحطيم الطاولة لأن مبتدئاً في اللعبة استطاع زجة في موقف حرج .

إذا، ماذا كان يترتب علينا فعله؟ من المهم ادراك بأنه فيما كانت واثنظن تجاري لندن في الارغاء والازباد، وفيما طرأت بين أن وآخر في ذهن الرئيس ايزنهاور نفسه فكرة «الاطاحة بعبدالناصر» كنا نحن العاملين على الأرض على اتصال حميم بركاريا محيي الدين وغيره من كبار المسؤولين المصريين بشأن حسنات وسيئات التأميم (كما لو كنا زواراً متجربين قادمين من كوكب آخر)، نصفق للحسنات وننبه بحزم من السيئات. وكانت حجتنا مع عبد الناصر بكل بساطة على النحو التالي: «حسناً، لقد كسبت هذه الجولة، ولكن وقبل ان تأتي جولة أخرى لا تستطيع كسبها، لماذا لا تستغل الفورة المؤيدة لك حالياً لاتخاذ اجراء خليق برجل دولة باتجاه تحقيق السلام في المنطقة كلها؟» وافق! بدأ بالاعلان (بمصدافية لم ترض وكالة الاستخبارات المركزية وحدها، بل كذلك وزارة الخارجية التي ما انفكت حتى اعلائه تهزأ بالموضوع) عن انه سيبقى ترعة السويس مفتوحة للملاحة، وسيدفع التعويضات اللازمة لمالكي الشركة السابقين وسيراعي كل القضايا الأخرى التي اعتبرها محامونا حداً أدنى لتصفية النزاعات القانونية التي نجمت عن التأميم .

دعا عبد الناصر مندوبين عن الدول التي درجت سفنها على استعمال قناة السويس للبحث في ظلاماتهم . وتبين ان ليس لهم اي ظلمات مشروعة. وعندما استقال المرشدون البحريون الأوروبيون استقالة جماعية، حل محلهم مرشدون مصريون وأمنوا الملاحة عبر القنال (الممر البحري) وحازوا رضا الجميع . والأهم من ذلك كله ان عبد الناصر أبلغ الرئيس ايزنهاور بأنه على استعداد، بعد هدوء الضجة القائمة حول قناة السويس، للاستماع باهتمام إلى أي اقتراح قد يتقدم به ايزنهاور لوضع برنامج عملي قابل للتطبيق من أجل تخفيض التوتر العربي الاسرائيلي «على السكة المؤدية إلى سلام دائم» .

وجدنا في ذلك كله ما يرضينا . أما البريطانيون فلم يرضوا عن شيء معتبرين ان قناة السويس هي «قناتهم» وانتهى الأمر .

زود العاملون منا مع عبدالناصر بتعليمات واضحة جداً بأن مهمتنا الأولى هي المحافظة على بقائه في السلطة . وعلى الرغم من كل سلبياته لم ير وزير الخارجية دالس أي سبب يحول دون ذلك. فهو محام قضى كل حياته المهنية في معالجة قضايا ذات صلة بالقانون الدولي، وعليه لم ير ان لبريطانيا أي قضية من الناحية القانونية . فالرئيس عبد الناصر لا يستطيع تأميم القناة ذلك انها دون أدنى مجال للشك جزء من أرض الدولة المصرية فلا مجال إذاً لتأميمها، كما انه تصرف من ضمن حقوقه في تأميم شركة القناة وهي شركة مسجلة في مصر حسب نصوص القانون المصري دون غيره، مهما أراد السير انطوني ايدن وصف اجراء عبد الناصر بالخدعة القانونية. فالقضية بالنسبة للمحامي دالس قضية قانون، والقانون هو القانون. إضافة إلى ذلك فقد سبق ان تقبلنا برضا عدة تأميمات أخرى، وان كانت أقل رهجة من الناحية السياسية، وكلها مثابها لقضية تأميم شركة القناة واقتصر اصرارنا على تأمين التعويض المناسب أو الوعد المقبول به سواء كان موضوع التأميم شركة او مؤسسة أو أي شيء آخر لم يستعمل ضدنا .

وأخيراً: كان هناك لعبتنا نحن. فحسب أصول لعبة العمل السياسي الخفي التي أضحينا نؤمن بها إيماناً ثابتاً لم يكن في الهجوم البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر أي بصيص من المنطق بل كان أسوأ عمل يمكن القيام به خصوصاً وان تنفيذه جاء ساذجاً جاعلاً من مساندة وكالة الاستخبارات المركزية الحالية لثوار الكونترا تبدو بالمقارنة ذكية جداً هل يصعب على أحد تصور نتائج التفنارك مع إسرائيل العدو المقيت ليس عند العرب وحدهم وكذلك في العالم الإسلامي كله؟ تصوروا ان الفرنسيين والبريطانيون دخلوا ساحة القتال «لفصل بين الفريقين المتنازعين» أي بين مصر وإسرائيل، ليقولوا لهما بالتراجع عشرة أميال عن قناة السويس بينما كان الإسرائيليون لا يزالون على أربعين ميلاً عنها. أفلا يستطيع الإسرائيليون تفسير ذلك الأمر على انه يعني السماح لهم بالتقدم ثلاثين ميلاً باتجاهها ! القضية كلها غياب، بل غياب مطبق .

استمر كبار المسؤولين في وزارتي الخارجية والدفاع في بريطانيا بالاصرار على انه لو قمنا بتأخير فرض الانسحاب على غزة مصر أربعاً وعشرين ساعة فقط لسقط حكم عبد الناصر .في الواقع دهشنا لذلك الكلام الفارغ الذي لا تؤيده أي معلومات استخباراتية . فلم يكن لدينا أي معلومات تشير إلى امكانية صدته، وإذا كان لدى البريطانيين من معلومات حوله فلم يطلعونا عليها، إضافة إلى ذلك لم يتمكن أي منهم من افادتنا عما سنحصل عليه من المنافع لو انه سقط فعلاً .

ولننظر الآن إلى ما حدث فعلاً .فبدلاً من ابقاء قناة السويس مفتوحة أمام الملاحة البحرية أدت العملية إلى إفعالها وهو أمر يستطیع التنبؤ به أسخف محلل استخباراتي سواء كان أميركياً أو بريطانياً .قطعت مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية علاقاتها الدبلوماسية ببريطانيا وفرنسا والاردن والعراق علاقاتهما الدبلوماسية بفرنسا وحدها، ولكن علاقاتهما ببريطانيا تعرضت لتوتر شديد مهد الطريق لانقلاب عسكري في العراق بعد قرابة السنتين، مما أدى إلى سقوط حلف بغداد. أما على الصعيد الدولي فقد انصب على بريطانيا وفرنسا ليس فقط لوم روسيا السوفياتية والصين الشيوعية بل وكذلك لوم بعض دول (الكومنولث) – رابطة الشعوب البريطانية مثل كندا وباكستان والهند وسيلان . وظننا بأن أصدقاءنا البريطانيين قد تعلموا الدرس . أكثرهم لم يستعد من الدرس تديناً وعزوا فشلهم إلى الضغوط الأميركية ولا يزالون يصرون حتى اليوم بأننا تخلينا عنهم في وقت حاجتهم إلينا، رافضين التصديق بأننا كأمركيين، على الرغم من اننا عملنا بصلابة وثيقة مع جمال عبد الناصر منذ أن بدأ يفكر بالقيام بثورته وحتى وفاته المبكرة، تفهمنا خلفية أزمة السويس تفهما فاق ادراكهم لها.لم يبالوا مطلقاً بأن التاريخ أظهر خطأهم. لعلنا كنا آنذاك أمام «حمافة تاريخية» قامت على افكار تثبت مسبقاً مع تجاهل تام لكل الاثباتات المعاكسة. ولكنني فكرت آنذاك، وما زلت، بأن البريطانيين يزدهرون في الحمافة ويؤمنون أوضاعهم بطريقة ما .

نعم. هكذا سنعمل، ذلك أن خبرة البشرية الطويلة تشير إلى ان الانسان يسيء العمل في مهنة الحكم والحكومة أكثر منه في أي مجال آخر تقريباً من مجالات النشاط البشري. إن في هذه الحكمة ما ينطبق على الحكومة في أميركا أكثر منه في بريطانيا، لا سيما في ما يختص باللعبة الدولية . ولكننا نحن أيضاً نؤمن أوضاعنا في النهاية بشكل ما، لنعود ونخرط الأمور من جديد. انضح بعد انقشاع غبار قضية السويس اننا سجلنا بعض التقدم الآن على رقعة اللعبة الدولية. ولم يخف على أحد أن عبد الناصر خرج من أزمة

السويس أقوى مما كان عليه وأكثر شعبية في مصر وفي الشرق الأوسط كله. ومع ذلك تعمد، عبر سفيرنا في القاهرة ريموند هير، تقديم الشكر لما اسدته له الولايات المتحدة من مساعدة إبان الغزو الثلاثي، وذكر السفير في الوقت نفسه بالوعد الذي قطعه له سابقاً «بعمل شيء ما» من أجل تخفيض التوترات مع إسرائيل». وأعرب زعماء العالم العربي الآخرون عن تقديرهم «لوقوفنا بوجه إسرائيل وحلفائها» ومنهم نوري باثنا السعيد الذي لا يزال الكثيرون من البريطانيين يصرون حتى اليوم بأنه أيد الهجوم الثلاثي وهو الذي قال لسفيرنا في بغداد: «إن الهجوم الثلاثي عبارة عن مغامرة جنونية» كانت لتشكل له ارباكاً جدياً لو انها نجحت. وقد أخبرني موظفون في الأمم المتحدة أذق بكلامهم ان وفوداً من العالم الثالث صارت تلامي مندوبينا في الهيئة الدولية بإتسامة، وهو أمر استصعب تصديقه في بادئ الأمر. ومع الأسف لم يدم الامر طويلاً ذلك لأن اقتراح سفيرنا في القاهرة «بوجود استغلال الفرصة المؤدية لتثبيت موقع قوى لنا»، ذلك الاقتراح ترجم في واشنطن بشيء سمي «مبدأ أيزنهاور».

صحيح، مبدأ أيزنهاور! هذا الذي اعلن عنه بالادراك الدقيق للتوقيت الذي اشتهر به وزير خارجيتنا جون فوستر دالس وكان تعهداً بان تقدم الولايات المتحدة قواتها المسلحة من أجل الدفاع عن أي حكومة في الشرق الأوسط «تعرض لخطر العدوان المسلح المكتشف من قبل أي دولة واقعة تحت سيطرة الشيوعية الدولية». ففي ذلك الوقت لم يكن في الشرق الأوسط كله دولة واحدة واقعة تحت سيطرة الشيوعية الدولية، ولا اي دولة مهددة بعدوان شيوعي. بل على العكس من ذلك كان السوفييات يعرضون السلاح والمساعدات الاقتصادية والدعم السياسي لأي دولة في الشرق الأوسط تقبل بذلك. فكان من شأن مبدأ أيزنهاور إثارة غضب تلك الدول العربية عينها التي كنا نحاول استمالتها بواسطة حملات عملنا السياسي، ومن جهة أخرى تدهيب ميول الفساد الاخلاقي لدى المرتزقة السياسيين العاملين لحسابنا .

وهنا ينبغي ان أكرر ما سبق ان كذبت مرات عديدة مثلاً عما قاله لي مرة عبد الناصر: «ان عبقريتكم أنتم الأميركيين تكمن في انكم لا تاتون مطلقاً بأعمال غبية واضحة، بل فقط بأعمال غبية تجعلنا نفكر باحتمال وجود أنبياء فاتنا الانتباه إليها». وأضاف بانه يعتبر مبدأ أيزنهاور «احد أكثر الاخطاء حنكة يمكن لدبلوماسي من دولة عظمى ارتكابها». كذت شاباً آنذاك وأعرف البلدان الأخرى معرفة أوثق من معرفتي لبلادي. وقد احتجت لعدد أكبر من سنوات الخبرة في واشنطن لأدرك ان الكثير من «تحركاتنا الغبية»، إذا كانت كذلك، اتخذت لأسباب وجيهة جداً وليس من قبل اناس أغبياء .

كان ذلك الدرس نقطة تحول في حياتي وأحد حقائق الحياة التي عدلت بموجبها لعبتي الشخصية .

الفصل التاسع عشر

مايتر كوبلاند وشركاه

هل يبجشون عن الحقيقة

جاءت نقطة التحول في حياتي وأنا في أواسط الثلاثينات من العمر يوم أدركت ألا أحمل على محمل الحقيقة والواقع كل ما يتلفظ به الناطقون باسم حكومتنا بغية إرضاء الرأي العام، وان ما يقولونه لا يعكس بالضرورة

جوهر ما يفكرون به في أعماق نفوسهم، وان ذلك ليس نفاقاً بل انعكاساً لحاجة السلطة لتنفيذية. إلى تعديل اجراءاتها من أجل مجازاة ما يفرضه الكونغرس عليها ولكن دون كثف أوراقها أمام اللاعبين الأجانب . احتجت إلى سنة أو اثنتين في العمل في واشنطن لأتعلم ان أي حكومة ديمقراطية، عندنا أو في الخارج، تضطر في بعض الاحيان إلى الخلط بين «الملح» و«المهم» (تعلمت خلال الحرب العالمية الثانية ان الاثنتين قليلاً ما يتطابقان) وان الضغوط الداخلية قد تحملها على التصرف بشكل يبدو متهوراً للمراقب العادي. وسرعان ما خرجت بالنظرية التالية: يوجد في عقل الأمة الباطن شيء من البراغمية الباردة التي تتحكم بها «المؤسسة» . والمؤسسة هذه، أو سمها ما تئنت تستغل الأخطاء والانتكاسات القصيرة الأجل وتحوها على المدى البعيد إلى انتصارات.

في بحثي عن الحقيقة وراء تصرفات حكومتنا حتى العام ١٩٥٧ خطر لي ان اتقرب حول موضوع التعثر الظاهري بطرح السؤالين: «إلى اين نحن متوجهون حقاً؟» و«هل ثمة كسب لنا هناك؟» كنت في وضع سمح لي أن أعلم بعدم وجود مخطط شامل أو عقري استراتيجي يعمل وراء الستار في توجيه تصرفاتنا إضافة إلى عدم وجود أي استراتيجية مرسومة بوضوح – باستثناء مهازل مثل مبدأ ايزنهاور ومعميات مثابفة طبخت تلبية لأغراض الحرب النفسية. إنما كان في أعماق ذلك كله مهارة خارقة في تخفيض الخسائر وزيادة المكاسب إلى أقصى الحدود الممكنة بحيث نخرج في النهاية رابحين. لقد نجحت ديمقراطيتنا في تأدية اغراضها لأنها أوصلت إلى مواقع القيادة أشخاصاً يحسنون التكلم بلسانين.

رأى جيم إيلبرغر (ايخ) كل ذلك بوضوح أكثر مني وكان قد سبق له ان عمل في فريق العمل السياسي في مصر عام ١٩٥٥، حيث كتبنا معاً تقريراً عنوانه: «مشاكل القوى التي تواجهه حكومة ثورية». وبعد ترجمته إلى العربية واطلاع زكريا محيي الدين عليه وفر لنا بعض الارشادات لتثبيت ثورة عبدالناصر. ووضعنا في اعقاب قضية السويس تقريراً مثابهاً اقترحنا فيه على الحكومة الأميركية خطوات واجراءات وتوصيات تستطيع الاستعانة بها لتثبيت ما أصابنا من مغام من جراء وقوفنا بوجه الغزو البريطاني الفرنسي الاسرائيلي. لست أدري مطلقاً إذا كان أحد قط اطلع عليه باستثناء أفراد فريقنا، ولكنه فتح أمامي آفاقاً واسعة. ورحنا أنا وإيخ نبحت جيداً عما إذا كان ثمة اسلوب ما في الأعمال الجنونية التي ترتكبها حكومتنا وكلها بالطبع تسير في اتجاه معاكس لما ورد في تقريرنا من توصيات، فعثرنا على القليل من الجنون وعلى الكثير من الاساليب.

ركزنا على ما اعتبرناه أكثر الأفكار جنونية، أي انشاء ما سمي «لجنة مستعملي قناة السويس»، وجوهر هذه الفكرة ان يقوم جمهور من الوجهاء بزيارة القاهرة ليوضحوا لعبدالناصر ان تأميم القناة مرفوض عند دول العالم الأخرى، وان عليه بعد انتهاء تسليته بالموضوع اعادة القناة إلى رجال رائدين يعرفون ادارة أمور كهذه. رأينا انا وإيخ في تلك الفكرة مجالات واسعة لمسرحيات هزلية ساخرة (وكننا ومعنا كيم روزفلت قد عفنا محاولة العثور على شيء منطقي واحد في تلك الفوضى) فاندفعنا بكل حماس لاستغلالها فيما انهمك كيم بأعمال خفية حقاً. وتمكن فعلاً من افناع آلن دالس ثم أخيه جون فوستر بإيفاد روبرت اندرسون (الملقب بوب الشريف) المقرب من الرئيس ايزنهاور للتحويل على العاهل السعودي بقطع عائدات النفط عنه ان هو تواني عن الانضمام

إلى جبهة مناوئة لعبد الناصر تشمل المنطقة كلها. كما أرسل كيم صديقنا القديم وبلبور «بيل» إيفلاند للتأكيد من تفاهم بوب التشریف مع الملك سعود.

لا ريب في ان اختيار هذين الرجلين كان بحد ذاته ضرباً من العبقرية النادرة. ذلك ان بوب التشریف لم يكن من أحنق محرقي الدبلوماسية المرموقين، فهو وان كان مترفعاً عن الصغائر، على استعداد لأن يقول لجليسة أن يرمي نفسه في البحر إذا كان في ذلك ارضاء لمرثده الرئيس ايزنهاور. وسبق لـ كيم روزفلت ان عرف بيل إيفلاند على انه محترف ينزع إلى مخالطة الشخصيات المرموقة الأخرى الأقل منه ذكاء ولا يتواني من جهة أخرى عن خربطة مجهودات تلك الشخصيات اذا كان في ذلك ما تشرح له صدور المسؤولين عن ملفه الشخصي في واشنطن. أما اندرسون (بوب التشریف) فيحسن الكلام كأبي مؤمن مفوه بقضية فضلاً عن ان لا مجال مطلقاً للتشكيك في انه لا يستطيع التفاهم أبداً مع أشخاص ينتمون إلى حضارات أخرى. وهكذا، وبتضافر مجهودات ذينك الشخصيين لن يحصل أي سوء تفاهم أو أي غموض. وعليه عندما قال اندرسون للملك سعود ما معناه ان الولايات المتحدة ستتوقف عن شراء النفط السعودي إذا تواتت السعودية عن الاثتراك في حملة مناهضة لعبدالناصر ظن الملك ان أذنية تخدعانه وسأل اندرسون بماذا سيستعوض الأميركيون عن النفط السعودي؟ فأجابه اندرسون: «بالطاقة النووية» وزكى إيفلاند قول اندرسون.

لم أقف مطلقاً على نوايا كيم آنذاك، إنما على ما علمته انه تلقى برفية بعد عودة الشخصيتين المذكورتين إلى واشنطن تعيد بأن الزيارة كانت ناجحة. بعد ذلك شبكنا كيم، أيخ وأنا، في سلسلة الاجتماعات التي أقيمت على ذكرها في الفصل السابق، وفي محاولات متقطعة للتعاطف مع الحركة المناهضة لعبدالناصر التي درجت في تلك الحقبة. وتضمنت حملاتها فيها تضمنت مساعدات مالية للأردن، وتعاوناً مع البريطانيين للاطاحة بالحكومة السورية، وتقوية سبل الاتصال بعبدالناصر حتى يكون هناك حركة انقاذ مؤبدة له في حال فشل محاولات حكومتنا الرامية إلى الاطاحة به. غير ان جمعية مستخدمي قناة السويس ظلت ما ظنناه أنا وأيخ (ثم انضم كيم إلينا) أملنا الاكبر.

المفروض باختصار ان تكون تلك الجمعية منظمة مؤلفة من الدول الخيرية التي تستخدم القناة، مهمتها ادارة الممر البحري وتأمين المرثدين والخدمات وتحصل الاتاوات واعطاء مصر «حصتها العادلة» منها. ارسلت الدعوات إلى من يلزم للحضور إلى لندن يوم ١٩ أيلول (سبتمبر) ومنها كتاب إلى عبدالناصر يعبر عن الأمل بتعاونه. وفي خطاب ألقاه في حفل تخريج ضباط في سلاح الطيران المصري أعلن عبدالناصر عن نيته تشكيل «جمعية لمستخدمي» ميناء لندن من مختلف الجنسيات مهمتها السيطرة والاثتراف على الميناء وأضاف بأنه ينوي أيضاً ارسال كتاب إلى وزير الخارجية الأميركي جون فوستر دالس يطلب فيه تعاونه معه. أما ما حصل في اعقاب ذلك فالكل يعرفه.

قيل لي عن وجود «محاضر مباحثات» في الملفات السرية التي افصح عنها الآن. كتبت فور عودتي من رحلة سريعة لزيارة زكريا محيي الدين في القاهرة بعيد عودة أيخ إلى واشنطن. وحسبما أذكر قدمت لمحيي الدين آنذاك رواية معدلة عما قاله أيخ لي ولكيم روزفلت. ثم سألته رأيه من فكرة براءة خطرت ببال أيخ وهو في طريق عودته من لندن إلى واشنطن، وهي انشاء منظومة نقل مشتركة تسهم بملكيته شركات النفط ودول الشرق

الأوسط العالمية في إنتاج أو نقل النفط؟ أي كونسورتيوم يتألف من الحكومات وصناعة النفط يملك ويدير خطوط أنابيب النفط وقناة السويس على غرار طريقه ادارة خطوط السكك الحديدية في الولايات المتحدة. كان ذلك قبل بضعة أشهر من العدوان الثلاثي على السويس، لذلك ليس من الصعب ادراك بأن محضري هذا وجميع الأوراق الأخرى المتصلة بالموضوع قبع في درج مكتب آلن دالس ولم يقرأه أحد. وبعد أقل من اسبوع على تراجع قوات الغزو الثلاثي عن منطقة السويس عاد آلن إلى المحضر واستمسك به ختبة خلاص وحيدة في متناوله. أعدت كتابته مراراً بالتعاون مع آيخ لتتسبغه مع ملاحظات كان فرائك وإيسنر وغيره قد دونوها في الهوامش ثم أخذنا النص النهائي إلى مساعد وزير الخارجية آنذاك هربرت هوفر الابن الذي قال: «انه حري بالتفكير به». وعليه أجيذ لكل منا، آيخ وأنا القيام بزيارة نيوبورك ونيكاغو وسان فرانسيسكو لمناقشة الفكرة مع المسؤولين التنفيذيين في شركات النفط الذين تعرفنا إليهم خلال اجتماعات ما سمي لجنة الطوارئ لقضايا الشرق الأوسط» التي حضرناها في الأشهر السابقة.

لم يعر أي من هؤلاء اهتماماً يذكر بفكرة منظومة النقل المشتركة، ولكنهم اهتموا بالدراسة المضنية التي انطوت الفكرة عليها، فعرضت ثلاث من الشركات الخمس التي زرناها (ستاندرد أويل - في نيو جرزي - وسوكوني موبيل، وغولف، وتكسلس وستاندرد أويل أوف كاليفورنيا) عرضت علينا وظائف فيها وقالت الشركتان الباقيتان بأنهما على استعداد للتعاقد معنا بصفة خبراء شرط ان نؤمن زبائن آخرين. وبعد اسبوعين من تلك المحادثات اضافة إلى دراسات قمنا بها، على حساب عملنا في الوكالة بالطبع، صعدت خمرة الثقة بالنفس إلى رأس كل منا. وفي أعقاب حديث أجريناه مع كيم الذي تلقت ثقة بالوكالة لظمة قوية أثناء جلسة بينه وبين آلن وفرائك ورئيس قسم الشرق الأقصى حول عملية اقتراح القيام بها في اندونيسيا، قررنا اعتماد مخطط للأجل الطويل تقبل أنا وآيخ بموجبه عرضاً تقدمت به شركة غولف أويل لنعمل معها بصفة مستشارين على ان ينضم كيم إلينا بعد استقراره. وفي غضون اسبوع كنا قد تعاقدنا ليس فقط مع شركة غولف بل وكذلك مع أحد أكبر المصارف العملية واحدى اضخم شركات الطيران، شرط ابقاء تعاقدنا معها سرا لأن مراسلينا فيهما لا يرتاحون لعلاقتنا بوكالة الاستخبارات المركزية. وكان دخلنا من عقودنا تلك يربو على ثلاثة أضعاف رائبنا من الحكومة.

أسباب متعددة حملتنا على القبول بصفة الاستشارية في شركة غولف، منها ان مقرها يقع في مدينة بيتسبورغ في ولاية بنسلفانيا حيث ولد آيخ وترعرع، وانه لا يوجد في الشركة خبرة مثل خبرتي، وهي الوحيدة التي ليس فيها خبراء في الشؤون الاقليمية. فهي تحصل على معلوماتها الاقليمية من شركة بريتش بتروليوم، شريكها في شركة نفط الكويت التي تمدها بنصائح أبوية لا قيمة واقعية لها. ولا بد ان المدراء التنفيذيين في الشركة البريطانية اعتبروا شركاءهم الأميركيين ابناء عم ريفيين يجب الا يتعدى دورهم تكديس الأرباح على ان يتركوا شؤون الشرق الأوسط لخبرة البريطانيين.

قد يكون التنفيذيون في غولف أبناء عم ريفيين ولكنهم زبائن ممتازون عند عميلين عتيقين من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية لما يمكنهما تقديمه لهم من معلومات. فهم يجهلون شؤون الشرق الأوسط وحضارته الغربية عنا ويدركون جهلهم هذا فضلاً عن كونهم انكباء. رالف رودن، نائب الرئيس التنفيذي هو الذي اكتشف النفط في الكويت ولم يسبق ان اكتشف من النفط في العالم أحد أكثر منه. إنه لا يعرف الكويت ولا الشرق

الأوسط ولكنه على درجة من الذكاء تكفي لتقدير الخبرة لدى مشاهديها. أما رئيس الشركة بيل وإيتفورد فمعروف بأنه أفسى وأثنت وأكثر التنفيذيين أهلية وعدوانية في صناعة النفط ان لم يكن في الصناعة الأميركية اطلاقاً. وهناك أيضاً دايفيد بروكتر، رئيس مجلس ادارة غولد وهو أنبه برئيس قبيلة هادئ الطبع يتمتع بحكمة وطول اناة وكان قد تجاوز سن الشباب راينا فيه امكان التقدير بان شخصين نشيطين مثلنا يحتاجان إلى عطلة قصيرة بين الحين والآخر.

وثمة الشركة عينها التي كانت قيمة موجوداتها عام ١٩٤٦ تقدر بسبعمئة واثنين وعشرين مليون دولار وارتفعت إلى أكثر من ثلاثة مليارات ونصف المليار دولار خلال احدى عشرة سنة، فيما بلغ دخلها خلال الفترة نفسها ستة أضعاف ما كان عليه. وأهم ما عرفناه عنها ان ثلثي دخلها يأتي من عملياتها خارج الولايات المتحدة: من الكويت موقع أهم مخزونات النفطية، وان كلفة انتاج البرميل الواحد أقل من ١٠ سنتات فيما تبيع البرميل بدولار و ٨٥ سنتاً. أبناء عم ريفيون حقاً! على الرغم من بعد تفكيري عن التجارة أدركت ان هؤلاء الرجال الثلاثة هم أكثر من مجرد مدراء في حائوت قروي. وخطر لي، لما كانوا رجال أعمال من أعلى المستويات، بأنهم لا شك يقدرون أهمية المعلومات التي تنقصهم ويمكن لشركة مثل «شركة كوبلاند أند إيلبرغر». كما سمينا شركتنا، ان توفرها لهم.

وأخيراً أحببنا مهمتنا. فبدلاً من العمل لدى شركة أخرى من شركات النفط العالمية ذات المصالح في دول متعددة، انحصرت مهامنا في دولة واحدة في الشرق الأوسط هي الكويت. في الواقع لم تكن مهمتنا مراقبة الكويت بمقدار ما كانت مراقبة جميع تطورات الشرق الأوسط التي قد تؤثر في مصالح شركة نفط الكويت التي تملك غولف نصفها – ومن تلك التطورات تقلبات قلق الاسرة الحاكمة في الكويت من التطورات السياسية في العراق ومصر اللتين ما انفك قادتهما عن التفكير بخطط يقدمون هم فيها نكاهم بينما تقدم الكويت الأموال. لست أظن، رغم الفاصل الزمني بين يومنا هذا والأعوام من ١٩٥٧ حتى ١٩٦٠ أن أحداً استطاع القيام بعمل دقيق ومجدي كالذي قمنا به أنا وأيخ. لقد انتقلت بعد تلك الفترة مع شركات النفط السبع الكبرى باستثناء شركتي تكساس وبريتش بتروليوم، وثلاث من كبريات شركات النفط المستقلة واستحقت كل فلس جنيته منها. ولقراء الذين يطمحون ان يصبحوا مستشارين كباراً أقول: إن أقل الشركات حاجة إليكم هي الشركات الاقرب إلى التعاقد معكم. وهذا القول قابل للانطباق على الزبائن الذين تعاملوا معنا آنذاك – مصرف ضخمة، وشركة طيران عالمية ثم شركة من كبريات شركات البناء، وقد قمنا لصالحها ببعض التجسس الصناعي – وكانت كلها بمنتهى الرضا من خدماتنا طيلة فترة شراكتنا أنا وأيخ .

بيروت في صيف ١٩٥٧

وفي أواسط تموز (يوليو) ١٩٥٧ وصلنا بيروت واستقرنا في منازل مريحة وفتحنا مكاتبنا بلصق مكاتب شركة التابلاين المشرفة على ادارة خط انابيب النفط الممتد من الظهران في المملكة العربية السعودية إلى صيدا في لبنان، لحساب شركة النفط العربية الأميركية (أرامكو) التي تملكها أربع من شركات النفط الكبرى السبع، أي موبيل وستاندرد نيو جيرزي وتكساكو وستاندرد كاليفورنيا. وبفضل زميلنا القديم في وكالة الاستخبارات المركزية جيم انغلتن، اخذنا نقيم الحفلات وصرنا خلال ستة أشهر نعرف باننا نقيم أسخى الحفلات في بيروت.

لا بد لي هنا من بعض التوضيح للحفلات التي أقمناها بتمويل من قبل انغلتن. فهذا الرجل هو الشخص الوحيد في اسرة المخابرات في كل من واشنطن ولندن الذي كان متيقناً من ان هـ . آ . ر . (كيم) فيلبي هو عميل لدى الاستخبارات السوفياتية وسبق له ان قال ذلك لفيلبي نفسه في احد مطاعم جورجتاون فأجابه فيلبي ضاحكاً: «لن يصدقك أحد» غير ان جيم انغلتن قال لي، دون أن يضحك، أن علي، ولو لمرة واحدة التخلي عن شعوري بالثقة بالناس وانضم إلى عدد صغير من المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية الذين يؤمنون بامكانية انتماء فيلبي إلى الاستخبارات السوفياتية. وأضاف مقترحاً أن أراقب فيلبي (الذي سبق ان استقر في بيروت قبلنا ببضعة أشهر) وانه سيتكفل بدفع كل النفقات – نفقات الحفلات نظراً لأن عملي في مكافحة الجاسوسية هذا سيكون تحت غطاء الاتصالات والعلاقات الاجتماعية.

ما كاد يمر اسبوع أو اثنان على وجودنا في بيروت، ولم يكن قد تسنى لنا بعد مجرد التفكير بـ كيم فيلبي حتى جاء هولمقالبتي. كنا قد دعونا بعض الاصدقاء القدامى من أيام دمشق، ومنهم سام پوپ بروار مراسل صحيفة نيويورك تايمز وزوجته اليانور عندما دخل فيلبي علينا برفقتهما. تعرفت إليه وأحببته عندما التقينا عام ١٩٤٢ وكان يدرس في فرع الاستخبارات العسكرية البريطانية آنذاك وجاء في زيارة للولايات المتحدة لیساعد في تدريب الموظفين الجدد في مكتب الخدمات الاستراتيجية. وتكررت لقاءاتنا في واشنطن في مناسبات اجتماعية ومهنية. عندما دخل علينا في بيروت برفقة سام وزوجته قابلناه بالترحاب خصوصاً وان زوجتي لورين وهي اختصاصية بالتنقيب عن الآثار انذهلت لرؤيته لأن أباه ساينت جون فيلبي كان يعيش مع زوجته البديوية في المملكة العربية السعودية. ومذ ذاك أخذنا ندعوه باستمرار طالما وكالة الاستخبارات المركزية تسدد فواتير الحفلات.

لقد استحققت كل فلس دفعه لي جيم انغلتن. فقد رتبت مثلاً تعاوناً مع احد كبار ضباط الأمن العام اللبناني لمساعدتي في بعض أعمال التجسس كوضع فيلبي قيد المراقبة ورصد تحركاته. ودلتني المعلومات التي زودني بها ان فيلبي لا يزال على عادته القديمة في التخلص من المراقبة. وجاءني من صديقي في الأمن العام ان فيلبي شوهد في بعض أعرب أحياء بيروت، الحي الأرمني القريب من طريق الثمام حيث تبين فيما بعد ان له هناك ثقة في أعلى طبقة من احدى البنايات يرسل منها اشارات بالضوء الأسود إلى موظف إشارة في الاستخبارات السوفياتية يطل عليه من الآلاف النوافذ الواقعة على خط بصره .

وأخيراً عرفت بعلاقاته الغرامية بإيليانور زوجة سام بروار واستنتجت بأن تحركاته الخفية كانت في خدمة تلك العلاقات. بعد زواج فيلبي وإيليانور بلغت انغلتن جزيل شكري لتكاليف الحفلات (إذ لم أعد بحاجة إلى من يسدها عني) وقلت له بأن فيلبي وزوجته من الزوار الجديرين بالدعوة وبأن مراقبتي له ليست سوى إضاعة للوقت. ومع ذلك أصر انغلتن على متابعتها، كما استمر آل فيلبي يترددون على آل كويلاند ان في المنزل او في القارب حتى فر كيم فيلبي إلى الاتحاد السوفياتي في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣، وأرسل في طلب زوجته .

أما أحداث الشرق الأوسط التي اعتبرنا أنا وأيخ قد تؤثر في أوضاع الكويت وفي قلق الأسرة الحاكمة فكانت لحسن الحظ الاكثر تطابقاً مع كفاءتنا: انها التأثيرات الجانبية للعبة هذا القرن المشارفة على بدايتها حيث جلس كيم روزفلت في جهة يقابله جمال عبد الناصر في الجهة الثانية. لا بد لي هنا من التشديد على انني رغم بقائي

في وكالة الاستخبارات المركزية على علم تام باستمرار علاقاتي الطيبة مع عبد الناصر وبعض أفراد حكومته، لم يكن لي وصول إلى معلومات عما تفعله حكومتنا في مكافحته باستثناء ما استقيته من ملاحظاتي ومن زملاء سابقين في الوكالة اختاروا إثماني على بعض المعلومات رغم معرفتهم بأنني اعتبر العمليات المناهضة له خطأ ما بعده خطأ. وطيلة أيام أزمة لبنان في العام ١٩٥٨ تابعت تزويد رئيس مجموعة الوكالة في بيروت بكامل المعلومات عن اتصالاتي بالمصريين ولم اشعر من الناحية الثانية بأي موجب لتبليغيه أي معلومات عنهم أعلم بأنها قد تكون مفيدة للوكالة في عملياتها المناهضة لعبد الناصر، حتى ان بعض أصدقائي المصريين انهموني باللعب على الحبلين، لكنني لم افعل. وتأكيدياً لذلك أقول بأن كيم روزفلت هو الشخص الوحيد الذي تلقى تقارير شركتنا، وانني في موقع استطيع التأكيد منه بأن كيم تعاطى مع تلك التقارير بأقصى الحرص على سربيتها. وبعد قرابة السنة استقال كيم من الوكالة، لا لينضم إلى شركتنا، بل ليتبوأ منصب نائب رئيس شركة غولف اويل (أي انه عاد وأصبح «رئيسنا» ثانية) واستأنف علاقته الودية مع جمال عبد الناصر. لم يفتح كيم جانب عبد الناصر في خلافه المستمر مع حكومة الولايات المتحدة بل تعامل معه كصديق حول الحيلولة دون استمرار انزلاقه نحو الهاوية.

أظن انه كان باستطاعتي البقاء بعيداً عن اصدقائي في الوكالة لولا شيء واحد هو شعوري بالحنين إليها! فقد كنا نسبح في الاموال ونعيش كالأمركيين الأثرياء خارج بلدهم (بيوت فخمة والكثير من الخدم، الخ.) نعاثر طبقة رجال الأعمال الأثرياء في بيروت، ومع ذلك اقتعدت اصدقائي واجتذبتني مركز الوكالة كما يجتذب الفرائشة نور السراج. إضافة إلى ذلك كانت المباراة القائمة مع عبد الناصر قد قاربت درجة الغليان عندما فصلت الوكالة إلى فريقها في بيروت عدداً من الأصدقاء القداماء من مختلف مراكز الشرق الأوسط الأخرى وكذلك من واشنطن وبينهم بعض «الثباب اللامعين» المنتمين إلى اركان العمل السياسي الذي لم يكن قد مضى وقت طويل على استقالتي منه.

ومما زاد في حنيني بروز الخلافات بين الوحدات ذات الاختصاص بحيث وجدت نفسي أقوم بدور الأب الروحي فأستمع إلى تذمر مختلف الرفقاء وأفف بالطبع على معلومات عما يجري في عالم التأمير والخداع والعمليات المخفية. أما رئيس فرع بيروت وهو عادة صديق مقرب فقد اعتبرني خصماً له. ورغبة مني في اظهار حسن النية تجاهه درجت على زيارته أكثر من مرة في الأسبوع لتأثير عليه كيف يدير وحدته. قد يظن المرء بأنه قدر حسن نيتي ومساعدتي حق قدرها، لا، بل قال لي: بالأأ أندخل بشؤون لا تعينني. وما أن أخرج من مكتبه حتى راح يرسل البرقيات راجياً ومستعظفاً ريتشارد هيلمز إيعادي عنه. ولكن لا يمر وقت طويل حتى ترده برقية من الأخوين دالس يطلبان إليه فيها «الوقوف على رأي كوبلاند وآيخلبرغر حول الوضع» فيقفز عن مقعده ليرتطم رأسه بالسقف. لم يفهم المسكين أبداً انني ما كنت أفصد إلا مساعدته.

أحجمت حتى الآن عن ذكر بعض الاسماء ولكن لما كان رئيس الفرع هذا قد انتقل إلى العالم الآخر بات باستطاعتي المخاطرة بإغضاب جماعة الأمن في الوكالة. إنه غصن زغبى الأميركي اللبناني الاصل، رجل ممتاز بكل معنى الكلمة إضافة إلى تفوقه المهني. لم تكن عداوته الحقيقية موجّهة لي بقدر ما كانت موجّهة لأحد الأصدقاء القدامى في الوكالة. انه وبلبور إيفلاند. مسكين وبلبور فقد استهلكت المسكرات طاقاته وتصح فيه

مقولة «أنه عدو نفسه اللدود» كان لتأؤنا الأول به انا واينخ في العام ١٩٥٤ في القاهرة حيث جاء برقفة العقيد آل غير هارت لاقناع الرئيس جمال عبد الناصر بأن عدوه الحقيقي هو الاتحاد السوفياتي وليس إسرائيل، رغم كل التواهد المناقضة لذلك. ما ان شاهدته أنذاك حتى احببته، على العكس من آينخ، لأنه أخبرني في الدقائق الأولى لتقائنا بعدم اقتناعه بالمهمة وبأن «جون فوستر» ألحقه بالعقيد للتأكد من تبليغ الرسالة لعبد الناصر «بشكل له رنة الواقعية» وكانت أنذاك كلمة «واقعية» لا تعني شيئاً لمن يتلفظ بها بل يترك تفسيرها لمن يسمعها. كما ان ذكره اسم «جون فوستر» هكذا جعلني اعتبره من الثئلة لأن كيم روزفلت هو الوحيد في الوكالة الذي يسمح لنفسه بالاشارة إلى وزير الخارجية باسمه الأول.

تطابقت آراء باقي أفراد فريق الوكالة في القاهرة مع رأي آينخ، وبعد اجتماع سريع معهم (كنت أنذاك كما تذكرون «خريجاً وفيياً» أما آينخ فمن اهل البيت) وأجمع الرأي على اللجوء إلى خطة قديمة متبعة في الوكالة في معاملة الزوار الذين نريدهم أن يشعروا انهم منا دون أن نعتبرهم منا حقيقة. أما الخطة فهي ألا نخبرهم بشيء ذي قيمة إنما بشرح مستفيض اي ما كثر دون أن يدل وبتكتم شديد مصطنع. ولما كان ولبور من ثله الذين تعرفون ماذا، اكل الطعم ..؟

اكتسب ولبور تقدير كيم خلال الفترة الفاصلة بين زيارته الأولى للقاهرة وانتقاله إلى بيروت ليساعد غصن زغبى، أو ليعرقل له عمله، حسب الظروف يوماً بيوم. فقد صار صلة الوصل بين كيم ونظرائنا البريطانيين حول قضية السويس، ينقل إليهم ما كثر دون أن يدل ويأثينا بمثيله من عندهم وما كنت لآتي على ذكر خلافه مع غصن لو لم يكن من النوع الذي يكثر حصوله في عالم الدبلوماسيين والجواسيس وأصحاب المقامات الرفيعة من تهريج لا يحصل فعلاً في الوكالة وان ملأ أفلام التلفزيون عنها .

انتخابات عام ١٩٥٧ في لبنان

كان التدخل في الانتخابات اللبنانية عام ١٩٥٧ احدى العمليات التي شرعت بها الوكالة من ضمن محاولاتها لمكافحة نفوذ عبد الناصر الأخذ بالتوسع نتيجة لمبدأ ايزنهاور. بل يجوز القول الوقوف بوجه تدخل سوريا ومصر فيها، حفاظاً على مصالحنا ومصالح لبنان ومصحة «العالم الحر» بكامله ولأسباب فائتتي آنذا، وأنا على يقين من انها ستقوتتي الآني لو حاولت البحث عنها والتدقيق في موجباتها كان للوزير «جون فوستر» ولسفيرنا في بيروت دونالد هيث ولغصن زغبى مرشح كل واحد منهم من المرشحين الطبيعيين أنما لكل منهم نقطة ضعفه .

أبدى ولبور مهارة فائقة ليس فقط في افساد محاولات السفير هيث الرامية إلى الالتفاف على أوامر الوزير دالس التي تقفز فوق السفير والسفارة بل كذلك في تضليل الشخصيات القادمة من واشنطن بين الحين والحين للتيقن من حسن تنفيذ الوكالة والمسؤولين في السفارة والأشخاص «غير الرسميين» للتعليمات المتصلة بالثروبيج لمبدأ ايزنهاور. وعلى الرغم من كفاحه المستمر ضد مسؤولي الوكالة في بيروت والاداريين في واشنطن بشأن الاسراف في النفقات حافظ على علاقات طيبة مع الأخوين «ألن» و«جون فوستر» مستمراً في دوره داخل اوركسترا كيم روزفلت الموجهة ضد عبد الناصر. من هنا ما زلت اعتبر الفترة بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٦٠ على انها حقبة ولبور إيفلاند في السياسة العربية الاميركية .

ما انفك الرئيس جمال عبد الناصر طيلة السنوات التي تلت تأليف «شركة كوبلاند آند إيكسبرغر» مباشرة، يسجل الانتصار تلو الانتصار فيما كانت الوكالة ووزارة الخارجية تهزم أمامه مع الاصرار على احراز النصر النهائي – نصر على عبد الناصر وليس على القوى الوطنية المناهضة لإسرائيل ولكل ما هو أميركي والتي استساغ الوزير دالس تسميتها «الثيوغية الدولية». إن متابعة اللعبة عن كثب أثبتت بمحاولة حسم النقاش بين ولدين حول من بدأ الشجار بينهما، فكل منهما يقول: «بدأ الشجار عندما رد لي لكمتي». فالرئيس عبد الناصر قال ان حصوله على الاسلحة السوفياتية عام ١٩٥٥ مجرد جواب على رفضنا امداده بها يوم كانت طائرات اسرائيل تنز على علو منخفض فوق القاهرة خارقة جدار الصوت فتحطم زجاج نوافذ الفنادق. أما نحن فادعينا بأن الحركة الأولى في اللعبة كانت صفقة الأسلحة السوفياتية وان سحبنا عرض المساعدة في بناء السد العالي (الذي اعتبر عبد الناصر الاعلان عنه في الصحف إهانة) كان «ردة فعلنا» عليها. وكرت السبحة: تأميم ترعه السويس، فالعدوان البريطاني الفرنسي الاسرائيلي على مصر ثم مبدا إيزنهاور .

على الرغم من انعدام الخبرة الاختصاصية في اعلان المبدأ المذكور، ظن البعض منا أن بالامكان استعماله غطاء لبعض التحركات الرامية إلى متابعة النقاط التي كسبناها لدى عبد الناصر عند معارضتنا للعدوان الثلاثي على مصر. لكن للوزير دالس رأياً آخر .فقد سارع إلى الاعتراف بأنه تعاطف سرياً مع البريطانيين ولم يسكته عن المجاهرة بذلك إلا معارضة الرئيس إيزنهاور للهجوم في خطاب القاه. ثم جاء حبس شحنات القمح عن مصر وكذلك المساعدات المالية فيما كانت تصارع لاجلاء غبار حرب السويس، فاستغل عبد الناصر كل ذلك أحسن استغلال في حملاته الدعائية وفي عملياته الخفية في مختلف الدول العربية .لقد حاول مرتين الاطاحة بالحكم في الاردن وقتل، وقتلت الوكالة في محاولتين لقلب النظام في سوريا .أما الفرق فكان ان عبد الناصر سوى أموره مع الملك حسين، بينما استمرينا نضغط على سوريا حتى فقدنا آخر أمل لنا فيها. في ذلك الوقت دأبت الولايات المتحدة على تقديم المساعدات للدول العربية الصديقة فيما راح السوفيات يقدمون المساعدات العسكرية لدول غير صديقة لنا وان لم تكن بالضرورة صديقة لهم. أدرك اختصاصيو الوكالة بالثؤون السوفياتية ذلك الواقع فيما أحجم الاخوان دالس عن ادراكه. فبالنسبة إليهما كل دولة مناهضة لأميركا هي حكماً دولة ثيوغية .

يؤسفني ان ليس في حوزتي نسخ عن جميع التقارير التي بعثنا بها إلى شركة غولف اوبل في بينتسبورغ خلال تلك الفترة وما زلت أذكر ان رؤساءنا هناك سورا للطريقة التي ابقينا فيها على حصة غولف من الارباح على مستواها. فقد كانت نظرتنا إلى مهمتنا انها لم تكن فقط ارشاد الشركة ولا الكوئيين إلى ما يجب ان يخبثوه بل وكذلك ما يجب ألا يخبثوه. ومن خلال عملنا هذا تعلمنا درساً جديداً بشأن العمل الاستثنائي .

طلب منا رئيس شركة غولف بيل وايتفورد ألا نحاول تسويق المبالغ التي نتقاضها بالاكثر من التقارير عن كل ما نشاهده. وقال: «ليس لدينا الوقت الكافي هنا للقراءة». وصدف ان سكرتيرته سربت لنا انه بعد اجتماع لمجلس الادارة سأل رالف رودز، وهو أهم صلة لنا بالشركة، «لماذا ندفع الرواتب لهذين الرجلين؟» جاء استقهامه هذا بعد مرور شهر على بدئنا بارسال رسائل إلى الشركة نقول فيها ان لا تطورات جديدة. عند تبليغنا رسالة السكرتيرة عمدنا إلى استعمال طريقة الوكالة القديمة: «قل لهم ما كثر وقل دلالة، واحطه بهالة من السرية والتكتم». رأينا في

غمرة تسطير التقارير للشركة ان لا بأس من ادخال بعض الظرف فيها إضافة إلى بلاغتنا وسعة اطلاعنا فاعتمدنا اسلوباً في التقارير جعلهم «يشعرون» حقاً باجواء الشرق الأوسط حيث مصدر معظم مداخيلهم.

اتبعتنا الطريقة عينها مع شركة الطيران والمصرف المتعاملين معنا وفي غضون سنة ارتفع عدد زبائننا إلى سبعة. ثم انتقال كيم روزفلت من وكالة الاستخبارات المركزية وانضم إلى شركة غولف اوبل برتبة نائب الرئيس المختص بالعلاقات مع الحكومات الاجنبية مستقراً في مكتب فخم في واشنطن. لم يطل الامر كثيراً حتى بعث إلينا بكتاب مطلعته: «هذه أصعب رسالة أكتبها على الاطلاق» وانتقل من تلك العبارة إلى الاعتذار عن الاجراء الذي اتخذ مصراً على ان وجوده داخل شركة غولف اوبل فيه فائدة لنا جميعاً. وبلهجة أكثر جدية بلغنا انه ذلك الحين فصاعداً علينا رسال جميع التقارير إليه لا إلى رالف رودز. ففعلنا وإذا به بعد فترة وجيزة يجني الدولارات السميئة، حسب علم رودز. أما نحن فكنا نستلم حصتنا دون تحصيلها بعرق الجبين فيها الشركة تجهل ما نرسله إليها عبر مكتب كيم في واشنطن.

أحدث انتقال كيم من الوكالة إلى الشركة تغييرات في حياة كل منا (انا وأيخ). فبانقاله إلى مكتب في واشنطن يليق بشخصية نفطية رفيعة المقام استطاع بسهولة الحفاظ على علاقات اجتماعية ودية مع كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية لقرب المسافة بينه وبينهم. قبلنا بحماس ان يحل كيم محلنا في عقدنا مع الشركة من جهة ومع الوكالة من جهة أخرى حسب ترتيب اعتبرته ملائماً ولم يعتبر أيخ إلا مجرد نافع. وأخذ أيخ يتلصق في العمل وبشكك في هويته الضارة ويشكو من أزمت منتصف الحياة ويعبر عن حاجته إلى الاسراف في المجون. فأدركت ان نهاية شركتنا قد دنت. وفي نهاية العام ١٩٥٩ فسخت شركة غولف عقدها مع «شركة كوبلاند آند إيلبرغر» بينما استمرت انا أعمل لدى زبائننا الآخرين وطلق أيخ زوجته واستقر في باريس. ومع ان شركة غولف وكيم استغذت عن خدمات أيخ استمرت أبعث بالتقارير إلى غولف عبر مكتب كيم في واشنطن مع الاحتفاظ بعلاقاتي بالزبائن الخمسة أوسمة أو الستة الآخرين. تمكنت بذلك التدبير من تفادي مشاكل التمويل ومن الحفاظ على مظاهر العلاقات الطيبة مع أصدقائي القدامى في الوكالة علماً بأنه عندما يبعث كيم بتقارير إليهم يشير إلى انها تأتيه «من مصادر عليمة جداً وموثوقة جداً».

منذ العام ١٩٦٠ وحتى وفاة عبدالناصر في العام ١٩٧٠ كانت أهميتي الأساسية لشركة غولف وزبائني الباقين وللوكالة ولكيم وحتى لنفسي، استمرار علاقتي بأصدقائي في مصر. وقرابة منتصف احداث العام ١٩٥٨ في لبنان بعث زكريا محيي الدين باحد كبار ضباطه إلى بيروت للاتصال بي وبسفير مصر فيها عبدالحميد غالب، فيما راح غصن زغبي و«قيادته الاقليمية» يجيشون طابوراً من منتجي الأفلام والدعائيين ومهندسي الصوت والصيادلة المختصين بعقائير التأثيرات النفسية وتشكيلة من الاختصاصيين المختلفين الذين يحسنون العربية والكردية والأرمنية وغيرها من اللغات المحكية في المنطقة. وهكذا، وفيما كان سادتنا الحكام في واشنطن يتشدقون بالموافق ويلقون باللائمة على «الثيو عية الدولية» بوصفها سبب كل علل العالم، دأب الاختصاصيون بالعمل السياسي بللمة ما امكن من الحطام للحفاظ على التوازن بين فريقى الحرب المصطنعة في حقيقتها. ولا وجوب للقول بأن التقارير عن اجتماعات متعددة ضمن زغبي وكبار أعضاء فريقه والسفير المصري ومبعوث زكريا محيي الدين وحضرتها انا أيضاً في منزل أحد وجهاء بيروت إبان احتدام أحداث لبنان عام ١٩٥٨ - لا وجوب للقول بأنها أرسلت بالطريقة

الروتينية إلى مقر الوكالة في واشنطن بحيث لا يطلع عليها من هم أرقى رتبة من الضابط المختص بشؤون المنطقة.

من هنا يجوز تشبيه ما تسميه الحكومة الأميركية فرق عملها الفعلي بالسلك السابح بهدوء في الأعماق غير أنه بالانواء المزمجرة فوق سطح الماء، إذ ما انفكت تلك الفرق تخرج من هزيمة لتعوض في احوال معركة خاسرة آملة في نهاية المطاف بتحقيق الظفر الأخيرة. أما «فريقي المصري»، كما كان يسمى الزغبي جهدي المتواضع فتشهد قيام الوحدة التي هندسها عبدالناصر بين مصر وسوريا، وتعايش مع تفككها واستمر حياً إبان ضلوع عبد الناصر في قضية اليمن وقتلة في محاولتي انقلاب في الأردن، تماماً كما بقي «فريق دالس» على قيد الحياة رغم عدد من النكسات ابتداء بقلب نظام الحكم الموالي للغرب في العراق وانتهاء بفرض عبد الناصر الحصار على ميناء العقبة واجبار قوات الأمم المتحدة على الخروج من سيناء. لقد كان لعبد الناصر صراعه مع موقف الحكومة الأميركية المؤبد لإسرائيل ومع اصرار دالس على البحث عن وجود «الثبوعية الدولية» وراء كل شيء، بينما كان ينبغي عليه الادراك أن ما يحصل إنما هو بدافع القومية الوطنية لافعل الثبوعية الدولية. أما نحن الأميركيين فقد اثبتنا بتزايد قوة اندفاع عبد الناصر واصراره على قضم أكثر مما يتسع له فوه».

الفصل العشرون

عبد الناصر ونقطة اللارجوع

عدت إلى القاهرة لأجد ان سياسات «مصر أولاً» التي اتبعتها زكريا محيي الدين تحتضر وعلى وشك ان تتبثق عنها حقبة من اللعب السياسي أكثر إثارة من أي حقبة أخرى عايشتها في حياتي. ففي آخر محاولة لاقناع عبد الناصر باتباع سياسة «مصر أولاً» طلب زكريا محيي الدين من رجل الدولة والممول الأميركي الشهير روبرت أندرسون (بوب الثريفي) اختيار فريق من اصحاب الملايين الأميركيين من اصدقاء الرئيس جونسون واصطحابهم إلى مصر ليشاهدوا بأنفسهم ما يقوم به من أعمال، بغية إثارة اهتمام الرئيس الأميركي وأدارته «بالعجلة التي تحاول التوقف عن الصرير». وفي أوائل العام ١٩٦٧ رافق سفير مصر في واشنطن محمد حبيب عدداً من أثرياء ولاية تكساس في زيارة لمصر للتعرف إلى الرئيس عبد الناصر وللحصول على انطباع مقبول عن الاقتصاد المصري والعودة به إلى الرئيس جونسون. نجحت الزيارة ولكن ومن أجل تدعيم حسن الانطباع كان على زكريا محيي الدين تقليص الجيش وتسريح موظفي الحكومة الفاضلين عن الحاجة واعادة الصناعات المؤممة إلى القطاع الخاص. رضى الشعب المصري بالتقشف المفروض، ولكن المساعدات الأميركية الاضافية لا توازي ما طلبه زكريا محيي الدين من تضحيات تقشفية جديدة .

أخيراً تسنى للمسؤولين في سفارتنا في القاهرة ما يغرزون فيه اسنانهم: تزايد التملل في صفوف الشعب! ونتج عن ذلك تزايد الرضا في واشنطن عن سياسات زكريا محيي الدين «المؤيدة لأميركا». في الوقت نفسه أخذنا ندرك ان الاسرائيليين لم يكن فقط بمقدورهم التعاطي مع اعدائهم، بل انهم يكرهون قيام منافسين لهم. فما أن شعروا بوجود بوادر تعاطف في واشنطن مع سياسات زكريا محيي الدين حتى كذب القتل لحكومة عبد الناصر .

أخذت الأحداث تتوالى وراح الاسرائيليون يسجلون النقطة بعد النقطة على استاذ اللعبة، الرئيس عبد الناصر، يستدرجونه من فخ إلى آخر مسددين له الضربة تلو الضربة بين الفخ والفخ، فيما هو يزداد شععية ويحول الهزيمة إلى فوز مهيب، وهو فوز يخدم مصالحهم أكثر من خدمته مصالحه .

باختصار مبسط جداً، بدأت الحكاية بخطوات من جانب زكريا محيي الدين. ويبدو ان الخطوة الأولى كانت تقريراً سرية الاسرائيليون إلى السفير المصري في بروكسل لخصوا فيه تصريحاً لمندوب أميركي أدلى به في أحد اجتماعات حلف شمال الأطلسي وجاء فيه ان محاولات الحكومة الأميركية «العمل مع العرب» لوضع خطط من أجل الدفاع عن الشرق الأوسط، أخفقت بسبب «تفاسهم عن التعاون» معها ضد الدعاية المعادية لأميركا الصادرة عن اذاعات القاهرة من جهة، وتعاطف الصداقة المصرية السوفياتية من جهة أخرى. وانتهى التقرير إلى التأكيد بأن الولايات المتحدة شرعت فعلاً بوضع خطط للدفاع عن مصالحها في الشرق الأوسط قوامها تركيا واسرائيل.

أعقب ذلك سلسلة من الغارات الاسرائيلية الخاطفة على سوريا والأردن ادعى الاسرائيليون بأن غايتها «الاقتصاص» من الهجمات لفلسطينية على اسرائيل. ولما عجز عبدالناصر عن الحصول على أي معلومات ثابتة عن النشاط الفلسطيني في تلك الحقبة، رأى ان تصرف اسرائيل جزء من الاستعدادات لاقامة «محور اسرائيلي تركي». (لا استطيع توضيح العلاقة. كل ما أعلمه، حسبما قاله حسن التهامي آنذاك انه يرى العلاقة وأفنعني بأن عبدالناصر يراها أيضاً). وعندما دمرت غارة اسرائيلية قريبة السموع السورية* أعلن الاسرائيليون بأن الغارة لم تكن لمجرد العقاب بل لتدمير قاعدة شرع السوريين بينها لتقوم منها قوات نظامية سورية بهجمات تخريبية على اسرائيل. وبعد غارة مثابمة على قرية سورية أخرى المح رئيس وزارة اسرائيل ليفي اشكول إلى ان الاسطول الاميركي السادس يرسو على مقربة من الثواطئ لدعم اسرائيل في حال قرر السوريون ان الوقت حان لقيام حرب فاصلة ضد اسرائيل، وانطلقت الخدعة، واعتبر السوريون ان الوقت قد حان فعلاً.

أخذ الاسرائيليون ينتعبون الاستفزاز بالاستفزاز في حملة مقرونة ببرنامج حادق من المعلومات التضليلية اتخذ منحنيين: حمل الأول عبدالناصر على الاعتقاد بأن اسرائيل على وشك شن هجوم واسع على سوريا هدفه الاظهار ان مصر لا تقوى على مساعدتها؛ وحمل العالم على تصور العكس أي ان عبدالناصر يعد لمهاجمة اسرائيل. ثم جاءت أكثر الحركات دهاء. ففي رسائل عسكرية سرية مكتوبة بالثغفيرة تبادلها الاسرائيليون فيما بينهم وهم على ثقة تامة بأن السوفيات سيلتقطونها ويحلون رموزها، أو هموا العالم بأنهم يخادعون. وعليه انبأ السوفيات عبدالناصر، تماماً كما خطط الاسرائيليون، ان باستطاعته التصرف باطمئنان بالظهور بمظهر القوة في عمل ما يظهر للمعجبين به من مؤبديه العرب بأنه «بطل وحامي الحمى».

- إذا كان المفصود بلقظة Samu قرية السموع في منطقة الخليل الجنوبية، فإن اسرائيل شنت هجومها على القرية المذكورة بتاريخ ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦. ولا توجد قرية سورية بهذا الاسم. هناك خطأ او انباس.
- ربما كانت اسمخ هي المفصودة.

كان عبدالناصر في تلك الاثناء لا يزال في وضع من الارتباك الشديد (وأظن بأنه أدرك ان الاسرائيليين قد فاقوه حنكة) حمله على الاعتقاد بأن أقل وسائل «عرض العضلات والقوة» كلفة وأسهلها المطالبة بإجلاء قوات الأمم المتحدة عن الحدود المصرية الاسرائيلية في منطقة البحر الأحمر وإحلال قوات مصرية محلها. لا ريب في ان طلباً كهذا في مثل تلك الظروف مدعاة لاستهجان شديد. ولكن الامين العام للأمم المتحدة يو ثانت فاجأ الجميع، ومنهم عبدالناصر بالاستجابة للطلب. وهكذا تحول عبدالناصر إلى أسير طلبه، ولم يعد في وسعه التراجع عنه دون تحمل خسارة معنوية فادحة، كما لم يبق امامه سوى حركة واحدة يقوى عليها: فحاصر مضائق تيران وحرّم الاسرائيليين من الوصول إلى ايلات مينائهم الوحيد على البحر الاحمر. ومما زاد الوضع سوءاً ان تصرفاته تلك قوبلت بالترحيب العارم في الدول العربية وعلى رأسها سوريا. فألقى خطاباً لا بد لأي زعيم عربي أن يلتقي مثله في ظروف مماثلة، تضمن عبارات مثل «نحن على استعداد لمجابهة اسرائيل...» و«نحن نقرر الزمان والمكان، لا اسرائيل». كلام حماسي ينطوي على التهور، إنما استساغه مستمعوه العرب واغبط له زعماء اسرائيل إذ كانوا بانتظار مثل تلك الفرصة.

أما بخصوص ما حدث في أعقاب ذلك فإنني أتكلم من خلال خبرتي الشخصية. فقبل يومين من استغلال الاسرائيليين للفرصة التي قدمت لهم على طبق من فضة قال وزير خارجية مصر للموظف في السفارة الأميركية ريتشارد باركر ان عبدالناصر عنى كل كلمة تقوه بها وانه من الأفضل ان تحاول حكومتنا البحث عن وسيلة «لنزع قبيل الوضع المتفجر». بطريقي إلى بيروت صباح اليوم التالي مررت بزكريا محيي الدين وسمعت منه قولاً مماثلاً. وفوق ذلك قال لي ان الأثير ازدحم بالبرقيات المتبادلة أثناء الليل بين القاهرة وواشنطن وان الولايات لامحده ستقوم بكل ما في وسعها من أجل السلام. وأضاف زكريا، وهو نائب رئيس الجمهورية والشخصية الثانية في مصر بأنه سيجتمع إلى نائب الرئيس الأميركي هيموبرت همفري على متن طراد أميركي في البحر الأبيض المتوسط، وسيتوصلون إلى اتفاق ما، أي اتفاق، يمكن مصر من الاستجابة إلى رغبة الرأي العام العالمي وسحب قواتها من المنطقة العازلة ثم يدعو عبدالناصر قوات الأمم المتحدة للعودة إلى مواقعها. وأنهى زكريا كلامه بالقول: «وهكذا ينتهي كل شيء أجبتة قائلاً: «زكريا، من المفروض ان استقل الطائرة ظهراً إلى بيروت، كما أن الطائرة المتوجهة إلى لندن تغلق في نفس الوقت تقريباً. وبعد سماعي ما قلته لي سأركب الطائرة الثانية لأبتعد إلى أقصى ما يمكن عن الشرق الأوسط. فالاسرائيليون ليسوا مجانيين ليفوتوا على أنفسهم الفرصة التي مندم إياها جمال (الرئيس عبدالناصر). لقد قضوا سنوات في انتظارها مع علمهم التام بأنها قد لا تتاح لهم ثانية». وبالفعل توجهت إلى لندن. وفيما كان زكريا يحزم حقائبه راجياً الاجتماع بنائب الرئيس همفري، ضرب الاسرائيليون ضربتهم ودمروا اسلحة طيران مصر وسوريا والأردن وقتلوا ألوفا من جنود الدول الثلاث (ولم يفقدوا إلا أقل من سبعمئة قتيل) واحتلوا بعضاً من أراضيها ولا يزالون (باستثناء سيناء التي أعادوها لمصر في أعقاب اتفاق عقده مع السادات خليفة عبدالناصر).

هل انتهى جمال عبدالناصر؟ كلا! مساء ٩ حزيران (يونيو)، أي بعد يوم واحد من قبوله وقف اطلاق النار ألقى عبدالناصر خطبة فعل الندامة فأبكت الامة بأسرها معلناً استقالته، دون سابق بحث في الأمر مع أي من وزرائه، وتعيين زكريا محيي الدين رئيساً للبلاد. وصلت القاهرة في اليوم التالي وقبل لي ان الصمت والجمود سادا مصر

كلها فيما كانت مكبرات الصوت تنقل خطبته والجماهير مسمرة على الأرصفة تستمع بوجوم، ولولا صوته لكان يسمع رنين سقوط دبوس على الأرض. وما ان انتهى من إلقاء خطبته حتى انفتحت أبواب الجحيم فراحت زمامير السيارات تزعق والجماهير تجعش بالبكاء وانضم المثناة في الثوارح بعضهم إلى بعض كأنهم في مظاهرة نظمت مسبقاً يهتفون: «جمال، جمال»، بصوت واحد ثنق عنان السماء.

أخبرني حسن التهامي الذي أفلني بالسيارة من المطار ان عبدالناصر لم يخبر أحداً ممن كانوا في منزله بمضمون الخطاب ولم يستثن أحداً حتى أقرب الناس إليه مثل عبدالحكيم عامر ومحمد حسنين هيكل، علماً بأن ترتيبات كثيرة قد اتخذت مثل تركيب مكبرات الصوت واحتياطات أمنية أُنارت كلها إلى ترقب شيء هام. أخذت البرقيات تنهال على القاهرة من جميع أنحاء العالم العربي تتأند عبدالناصر البقاء في منصبه و «التأثر لذلك اليوم!» فقبل الرئيس جمال عبدالناصر المنائحات «ونزل عند إرادة الشعب» فارتاح العرب وكذلك إسرائيل (وهي بحاجة إلى عبدالناصر العدو لا إلى زكريا محبي الدين المعتدل).

كان ذلك درساً لن أنساه تكونت خطوطه الكبرى في ذهني من الاذاعات والصحف التي اطلعت عليها في لندن. وصلت القاهرة في ١٠ حزيران (يونيو) وعلمت من حسن التهامي ان امتعتي قد نقلت من ثقتي إلى جناح في الطابق العاشر من فندق هيلتون حيث أفتت لسنتين متتاليتين. أمضيت اليومين التاليين لوصولي بأصدقائي المصريين القدامى الذين استطعت العثور عليهم (لم أتمكن من الاجتماع إلى زكريا) وبأصدقائي في ما تبقى من سفارتنا وبمختلف المرسلين البريطانيين والأميركيين الذين تجمعوا في الفندق. قضيت يومين في اعداد تقرير لزبائني ثم سافرت إلى باريس ومنها إلى واشنطن حيث اطلعتني اصدقائي في وكالة الاستخبارات المركزية ان الوكالة تتبعت تطور الأحداث منذ البداية وأنهم رأوا بوضوح أكثر مني أن «تصرفات زكريا محبي الدين الموالية لأميركا» لم تحمل على محمل الجدية في وزارة الخارجية وفي البيت الأبيض.

عدت بعد اسبوعين إلى القاهرة لأجد ان اصدقائي المصريين تعلموا الدرس جيداً. فبعد الحكيم عامر، رئيس أركان الجيش المصري وصديق عبدالناصر الحميم، قابع في بيته يلحق جراحه ويستعين بتدخين الحثيش. وزكريا محبي الدين استقال من رئاسة الوزارة للمرة الثانية وراح يولي اهتمامه لمزرعته في المحلة الكبرى. وحل محمد حسنين هيكل محل عبدالحكيم عامر في صداقة عبدالناصر وصار صلة الوصل بين عبدالناصر وبقايا سفارتنا التي تحولت بعد قطع العلاقات الدبلوماسية إلى فرع المصالح الأميركية في السفارة السويسرية، وكذلك رفيقي الدائم في كل زيارتي لعبدالناصر. في اجتماعي الأول به بعد الحرب استقبلني عبدالناصر بحرارة، خصوصاً بعد أن أعربت له عن اعتقادي ان بإمكان مصر الاستمرار في علاقات مع الغرب مفيدة للفريقين عبر المضي في حسن علاقات عملية بدتة لا سياسية، مع المؤسسات التجارية الاميركية، ومن ضمن ما يراه ضرورياً لما يعتبره «مصالح أميركا السياسية» .

من دون أي تفسير لكيف واين ومتى حصل ذلك، قال لي انه سمع لتوه كلاماً مثابهاً من فم صديقنا المشترك روبرت اندرسون (بوب التشريف). حملني ذلك الاجتماع على اعادة النظر كلياً في عملي الاستشاري. فاجتمعت في اليوم التالي بممثل شركة ستاندرد أويل اوف انديانا في مصر، وبممثل شركة طيران بان اميركان الذي عينني

مستشاراً لقاء دفع فوائري في فندق هيلتون. ثم ذهبت إلى بيروت حيث انتدبت مستشاراً لشركتين للكمبيوتر والالكترونيات ولشركة بناء كبرى و عدتها جميعاً بحسن المعاملة في مصر والمملكة العربية السعودية.

وكان باستطاعتي تقديم المزيد من الوعود ذلك ان تقاريري لزبائني الأوائل وتوقعاتي الدقيقة عن حرب الأيام السنة وتأثيراتها المتوقعة في سير اعمالهم ساهمت كثيراً في زيادة الطلب على خدماتي. أما الخطوط العريضة التي اعتمدها في خدماتي فكانت محصورة في النقاط الخمس التالية .

- — إن الغاية، من حيث مصلحة زبون بمفرده، تقديم ادارته المركزية المعلومات اللازمة لتتخذ الادارة القرارات الصحيحة بشأن امكانية استمرارها في العمل المربح من جهة والضامن لسلامة موظفيها من جهة أخرى في البلدان التي لها فيها توظيفات مالية.
- — اننا في جميع الحالات نجمع المعلومات في البلد المعنى نفسه وليس عنه وبوسائل مثروعة وعلينة.
- — إننا نستقي معلوماتنا الاساسية (بالمقارنة مع «معلومات عامة»- شائعات وثرثرة صالونات، الخ.) من الآراء العلمية والتفكيرات العقلانية لدى المسؤولين في الشركة لايت تتعاطى معنا. ذلك اننا نجري بانتظام دقيق مقابلات مع جميع موظفيها الذين سبق ان تأكدنا من سلامة معلوماتهم وصدقها، والقادرين على تفسير الأحداث المحلية في ضوء الحضارة المحلية.
- — استطعت في نهاية الامر اقناع زبائني الكبار (أهمهم شركات النفط) بان موظفي مكاتبهم المختصة بالعلاقة مع الحكومات يجب أن يكونوا ممن يحسنون اللغتين ويشعرون بدقائق الحضارة المحلية وقادرين أيضاً على إقامة علاقات طيبة مع الشرطة ودوائر الأمن بغية الحصول على معلومات ذات طبيعة عامة. إن أهميتي كمستشار نابعة من انني أجمع المعلومات من جميع المكاتب المختصة بالعلاقات بالحكومات وأصهرها معاً ثم أعد التقارير لكل زبون حسب حاجته.
- — عندما أصبحت جهودي الاقليمية معروفة (لست اعتمد السرية بششاطها) تحولت مكاتب العلاقات الحكومية هذه ومكاتبني في بيروت والقاهرة إلى ملقني لجميع اصناف مروجي الاثاعات، ومخططي المؤامرات، وبائعي المعلومات، ودعاة القضايا المختلفة — اضافة إلى عملاء السفارات (ومنها سفارتنا) وعملاء الحكومة المحليين. واتبعنا في مكاتبني الطريقة الكلاسيكية لتحليل المعلومات: لا تسئل عن «ماذا» انما سئل عن «لماذا». قد تأتيك المعلومات من نوع رديء ولكن مجموع الحقائق، وأنصاف الحقائق، والأكاذيب المقصودة لخدمة أغراض شخصية، يكمل الأحجية التي تشكل التفهم.

إن النجاح الذي لقيته عائد إلى القدرة على تقبل المتناقضات وإلى نوع من المهارة في مساعدة زبائني على التكيف معها بإبعاد مصالحهم عن سياسات حكومتنا دون التنازل لها. على المستشار السياسي ان يكون حاذقاً في تفهم وتقدير ماهية ومدى أصالة المشاعر المعادية لأميركا وقادراً على مقاومة اغراء التعاطف معها. قد يكون الشعور بالكراهية الذي يكنه الكثيرون من الاجانب لنا صادقاً. ولكن لا بد من دوام التذكير بأن هؤلاء الأجانب أنفسهم ينقلون عنا أزياءنا وبشاهدون أفلامنا ويستمعون إلى أغانينا، ويعجبون سراً بفوزنا في مختلف المجالات. فالأميركي الذي يكثر من التمثل بأهل البلد الذي يقبم فيه يجعل من نفسه اضحوكة بين أهل البلد. والشعوب المنتمية إلى حضارات أخرى تحب الأميركيين الذين يحبونها ولكنها تشكل بالأميركيين الذين يحاولون الهبوط

إلى مستواها (أو الارتقاء إليه). إن أردتشي روزفلت، وهو من أرباب الذين يحسنون التفاهم مع شعوب تنتمي إلى حضارات أخرى يتعمد الكلام بأقصى لكزة اميركية في نطقه بالعربية حفاظاً على التقيد بهذه القاعدة.

عودة إلى القواعد ... لمراقبة أوضاع بلادي

بدأت أدرك خلال فترة ما بعد حرب الأيام الستة ان الخبرة والمعرفة المكتسبين من العمل السياسي الخفي الناجح لازمتان في مجالات واسعة من النشاطات بين حكومة وحكومة خارج نطاق الدبلوماسية التقليدية وفن سياسة الدولة. فمئذ أواخر الستينات وحتى تقاعدي «الأخير» اشتهرت في قرابة العشرة أو أكثر من الأعمال السياسية الخفية واستطعت حمل حكومات متنوعة على احترام اتفاقات عقدها مع زبائني وكان بإمكانها لولاي تقضها، وحلقت عدة عقد مستعصية في مفاوضات هامة، عقد عائدة إلى سوء تفاهم سياسي (أو عائدة في بعض الحالات إلى ادرك سياسي واضح وصحيح). وتابعت كذلك اخطاء الحكومة الأميركية على رقعة اللعبة الدولية (وفي حالات عديدة بموافقة ضمنية ومساعدة خفية من قبل وكالة الاستخبارات) من أجل بلوغ معادلات تمكن زبائني من الحصول على عقود مربحة أو من الاستمرار في أعمالهم بموجب العقود المبرمة معهم.

بعد القيام بتلك المهمات وغيرها عرض علي مصرف تجاري بريطاني العمل معه في العام ١٩٧٤ لاختطاره بتوقعاتي عن موعد استقالة الرئيس نيكسون في أعقاب فضيحة وانترغايت، وكان غرض المصرف معرفة متى يشتري أو يبيع الذهب في أسواق المال العالية. فانتقلت إلى ثنفة في برج واردمن في واشنطن واستمر أبنائي، بعد انتهاء والعقد مع المصرف، بتسديد بدل إقامتي فيها حيث رحلت أراقب السياسة داخل الولايات المتحدة. وهكذا صار لي، إذا جاز التعبير، مقعد داخلي فيما استفاق ضمير الأمة بعد حرب فيتنام. كان من شأن تدمير ادارة نيكسون إسالة لعاب «الصحفيين المتقيين» الذين أخذوا يعدون العدة للتحقيق في اوضاع وكالة الاستخبارات المركزية والشركات الكبرى متعددة الجنسيات ومختلف المجموعات والأفراد المؤيدين للشعور الوطني القديم الطراز. وكان ثمة ما يحمل على الاعتقاد بأن الاستخبارات السوفياتية اخذت تعتمد على «مناهضة مناهضة الشيوعية» كما درجت في الولايات المتحدة في الثلاثينات أقل من اعتمادها على الشيوعية التقليدية. فمناهضة مناهضة الشيوعية معروفون باليمينيين السذج، أو «البلهاء النافعين». ولكنهم يبغضون وبخافون القلة المدركة التي قد يحملها الرأي العام على محمل الجدية.

قبل طرده من وظيفته زارني جيم أنغلثون ليريني رزمة من وثائق الكرملين المترجمة التي اعطاها له عملاء من الموساد. ومع الأخذ في الاعتبار ان الاسرائيليين ادخلوا عليها بعض التعديلات وهي في طريقها بين موسكو وواشنطن فقد تبين من الوثائق ان ما يعده السوفيات من حملات لا علاقة له مطلقاً بوسائل الدفاع التي يخطط لها استراتيجيونا العسكريون. أخبرني جيم انه ناقش محتويات تلك الوثائق مع مرتد سوفيائي انتقل حديثاً إلى الغرب اخبره بأن المخابرات السوفياتية اكتشفت في أعقاب ترددي الوضع في فيتنام شعور الأميركيين بعقدة الذنب فقررت الالتقاء بكامل ثقل حربها النفسية وراء تزكية ذلك الشعور ليس بواسطة قنوات دعايتها العادية بل بتدبير احداث في مختلف انحاء العالم يتهاقت عليها اليساريون في وسائل اعلامنا ويسيدون تفسيرها. وأتار المرتد السوفيائي إلى أن المخابرات السوفياتية اختارت تثليلي والفيلبيين وكوربا الجنوبية وزاير أهدافاً مفضلة ليس لأن

الأوضاع فيها سيئة في عين السوفيات أو في عيننا، بل لأن أحداثاً تثار فيها ستكون مشاهد تلفزيونية أُنذ إثارة لمخيلة الرأي العام الأميركي وأكثر إساءة للعاب الاعلاميين .

ولكن السوفيات وجدوا داخل الولايات المتحدة أكثر المواضيع قابلية للاستقلال. ففي السبعينات كانت الخلافات حول مواضيع داخلية محددة مثل الخلاف بين مؤيدي الإجهاض ومعارضيه موضوعاً هاماً بالنسبة للاستراتيجية السوفياتية باعتبار انه يحول طاقات الأميركيين في خلافاتهم الداخلية عن الاهتمام بالمصلحة الوطنية العامة. ورأى السوفيات في الاقليات الأتنية عنصراً هاماً يخدم استراتيجيتهم :اليونانيون الأميركيون للوقوف في وجه أي خطة دفاعية يتصورها البنتاغون تتطوي على التعاون مع تركيا، واليهود الاميركيون لزعة العلاقات الأميركية العربية، والعرب الأميركيون للوقوف في وجه أي مخطط يرمي للحفاظ على سلامة مصادر لمدادنا بنفط الشرق الأوسط وقد يشتمل على تعاون مع اسرائيل. إن مجموع الضغوط التي تسببها تلك القضايا إضافة إلى ضغوط أخرى ناجمة عن مواضيع تخريبية الطابع، تشكل عبئاً على امننا القومي أُنذ تأثيراً من أي شيء استطاع السوفيات تحقيقه بوسائلهم الذاتية. لقد سعى السوفيات لجعل أميركا بلداً يضطر فيه الزعماء السياسيون إلى اكتساب تأييد ليس ٥١ بالمئة من المقترعين بل خمساً وعشرين مرة اثنين بالمئة زائد واحد بالمئة، ويكون هذا الواحد بالمئة من المقترعين بانتظار الفرصة التي تسمح له بتجريح كفة الفريق الذي يقدم له السعر الأعلى. فمن مصلحة السوفيات ان ننهمك «بالعبة المحلية» حيث «يتنافس افرقاء متعددون ويسعى كل لتأمين مصلحته الخاصة، بشكل ينعكس على تحركاتنا على رقعة اللعبة الدولية. كانت تلك الحقبة في برج واردمن المناسبة الأولى خلال خمسة وعشرين عاماً التي أُنح لي فيها مراقبة بلادي من المنظار المهني فصرت أرى زعماءها مثنغلين بالقضايا المحلية والداخلية بحيث لم يكن بمقدورهم الانضواء تحت لواء سيادة يدعمها الحزبان لرسم وتنفيذ «سياسة خارجية خارجية» [عن حق وحقيق وبكل معنى الكلمة] تخدم مصالح البلاد بأجملها.

ربما كان كبير أنبائي، مايلز الثالث، يفكر بالتخلي يوماً عن هوليود ليصبح وبدعم منها وزيراً للخارجية . ولعله من أجل ذلك جاءني باقتراح يرمي من ورائة إلى توسيع آفاقه في المستقبل. والاقتراح بسيط خلاصته تكريس مواهبى الفذة لمراقبة أوضاع بلادي وتصور ما تستطيع المخابرات السوفياتية انجازه داخل الولايات المتحدة بلجوئها إلى الأساليب التي تستخدمها وكالة الاستخبارات المركزية على مسرح سياستنا الداخلية. وقال انه لا يريد الحصول على آراء رجال الاستخبارات المهنيين بل يود الحصول على فكرة ن الأخطار المحدقة بأميركا كما يتصورها هو والأميركيون الافحاح مثله. وعليه، وبالتعاون مع فيرونريك رود من السكرتيرة الخاصة سابقاً للوزير السابق هنري كيدنجر، وضعنا ورقة عمل بعنوان: اثنتا عشرة طريقة لتدمير أميركا». ولما كانت فيرونريك قد انضمت إلى مكنتي بعد استقالتها من خدمة كسينجر نكلفتها باجراء مقابلات مع عدد من المواطنين الراسخين في يمينتهم والوقوف على آرائهم واقتراحاتهم. جاء ما كتبتة خلاصة لاجماع آرائهم مثيراً للاهتمام لسببين: الأول، تبيان أن ما فعله ببلدنا يكاد يتطابق مع ما كان السوفيات يودون فعله لو لم نسبقهم إليه. والثاني انه أظهر بشكل مذهل المواقف الفكرية التي كان من شأنها تكريس رونالد ريغن أكثر رؤساء هذه البلاد شعبية في القرن العشرين.

أما بالنسبة لي شخصاً فقد فعل الدرس في نفسي ما فتح عيني إلى ان اليمينيين الأميركيين المتطرفين، شأنهم شأن أمثالهم البريطانيين، يبنون آراء بالغة التشدد استناداً إلى معلومات بالغة الضحالة. اعتقدت قبل ذلك الاكتشافين ان الذين يرسمون لنا مثالياتنا ليسوا متقسمين بين اليسار واليمين أو او بينهم «الحمام» من جهة و«الصفور» من جهة، بقدر ما هم إما براغماتيون (ذرائعيون) عمليون يصرون على وجوب وجود فكرة واضحة عن نتائج أي عمل قبل الاقدام عليه. أو مثاليون يؤمنون بوجوب القيام «بالعمل الصحيح» مهما كانت نتائجه. وظننت أيضاً اننا نحن اليمينيين دائماً براغماتيون وان المثاليين حكماً يساريون. إلا انه تبين لي كذلك ان نسبة الاقتناع إلى المعرفة لدى المفكرين اليمينيين متقاربة جداً مع مثيلتها لدى نظرائهم اليساريين وان اليمينيين أكثر مثالية من اليساريين وانهم يعدلون المعلومات لتتناسب مع آرائهم بدلاً من اعتماد العكس.

تبادر لي فجأة ان موافقتي على الأفكار الواردة في ورقة «الائتني عشرة طريقة لتدمير أميركا» انما هي منبثقة من آراء لا تستند إلى معلومات. فأقربائي في السياسة على حق انما لعدة اسباب مخلوطة كما انهم اتخذوا لأنفسهم ادواراً لم أفو على القبول بها، فقد اعتبروا أنفسهم «قلقة» في حين كلمة «دفاع» تقي بالعرض، وصرت كلما أصغيت إلى تكرار آرائهم أخال نفسي أسمع صوت البعض والكرهية الوارد في العهد القديم المناقض للقيم الواردة في الأنجيل التي جعلتها جزءاً من طريقتي في الحياة. وشرعت بان أي تحرك قد تقوم به على رقعة اللعبة الدولية وفي ذهننا كلمات سقر تثنية الاثنتراخ الوارد في الاصحاحين السادس والسابع [الشهادات الفرائض والأحكام والوصايا التي أوصى بها الرب] سيؤدي بنا إلى صعوبات لن تقوي دولة بقوة دولتنا على معالجتها وتخطيها.

وفيما كنت انهي سنواتي الثماني من مراقبة ادارتي كارتر وريغن ضم أبنائي وغيرهم من كبار العاملين في صناعة السينما والتسجيل الموسيقي جهدهم وقدموا تبرعات لعدد من المؤسسات الخيرية تتكلم باسم «الاميركيين الأميركيين» أي تلك الاقلية التي تدين بالولاء لبلد واحد هو الولايات المتحدة ولا توزع ولاءها بين الولايات المتحدة وایرلندا أو بينها وبين اليونان أو بينها وبين اسرائيل. جاء آخر تبرعاتهم حمولة طائرة من المواد الغذائية والطبية لبلد في شرق افريقيا حيث يموت آلاف الناس جوعاً. رافقت الطائرة بطلب من مرسلها وزرت مخيماً رأيت فيه الألوف ممدبين على الأرض لا يقوون على الوقوف من هزالهم. بعد جولتي تلك تحدثت إلى أحد كبار موظفي حكومة ذلك البلد واستخلصت من كلامه ما يلي :

(١) — انه يعتبر الألوف المرتمين أرضاً «أفقين» والذين يستطيعون الوقوف على اقدامهم واستعمال البنادق «عموديين» .

(٢) — إذا انخفض عدد سكان افريقيا بقراءة الستة ملايين شخص لن يكون ذلك بمثابة كارثة عالية أو فكرة سيئة ؛

(٣) — المح من خلال ملاحظات أخرى إلى ان حكومته مدينة بعرفان الجميل إلى السوفيات أكثر منها إلى الأميركيين والأوروبيين الغربيين، لأن السوفيات يقدمون السلاح «للعموديين» القادرين على تأييد حكومة تعمل «من اجل مصلحة الشعب كله»، بينما لا تقدم نحن الغربيين سوى الأطعمة التي لا تشفي بل تطيل أمد البؤس والثقل الذي يعيشه «الافقيون» الذين لا خير يرجى منهم. من هنا رأيت ان لا بد لي من

التفكير ثانية بمضامين مفهوم «نحن - هم» الوارد تكراراً في العهد لتقديم من لكتاب المقدس (التوراة)

الفصل الواحد والعشرون

نظرية مكافحة الكارثة

و«بيت النمل»

بعد انقضاء قرابة الاسبوع على اتخاذي قراراً بتأليف هذا الكتاب رن جرس الهاتف في منزلي في لندن ووجدت على الطرف الآخر من الخط صديقاً حميماً هو نائب الرئيس المختص بالعمليات في أوروبا في إحدى شركات النفط التي تعاملت معي سابقاً. طلب مني بصوت لا يخلو من التوتر موافاقته إلى بيته القريب من بيتي وقال انه بحاجة إلى خدمة شخصية هامة. طالعتني في غرفة المكتبة عنده رئيس دائرة أمن الشركة القادم من نيويورك ومحامي الشركة في لندن ورجل متوسط في السن يرتدي بدلة رمادية لم يعرفني به أحد. أما موضوع الخدمة المطلوبة فهو اختفاء كليمنتين، ابنة صديقي «بوب» (اسم مستعار) وعمرها خمسة وعشرون عاماً وقد مضى على اختفائها ليلتان.

الوقائع المتوافرة بسيطة. غادرت الفتاة منزل أبيها عند الساعة التاسعة مساءً يوم الاحد فيما كان أبوها يستضيف زهاء عشرين مدعواً لوليمة عشاء درج على اقامتها كل شهر تقريباً. لم تخبر أحداً بسبب خروجها في برد تلك الليلة الممطرة. انقضى منتصف الليل ولم تعد فقلق أبواها. وخلال مكالمات هاتفية دورية درج أبوها على اجرائها في منتصف ليل كل يوم أحد مع رئيس الشركة «جون» (اسم مستعار) في نيويورك، جاء على ذكر اختفائها فأبدى جون اهتماماً غير عادي بالموضوع ووجه إلى بوب أسئلة لها مغايرتها عن عاداتها الشخصية، مصرراً عليه الاتصال بمسؤول أمن الشركة في نيويورك اذا تخلفت عن العودة عند الساعة التاسعة من صباح الاثنين. وهكذا فعل بوب فاستقل مسؤول الأمن طائرة الشركة وتوجه إلى لندن .

سألت: ما المطلوب مني، فأجابني المسؤول: «العثور على الفتاة دون الاستعانة بشرطة لندن». ولما نظرت إلى بوب مومناً بالرفض قال: «لست أدري منك بسبب عدم معالجة هذه القضية على انها عائلية بل على انها تخص الشركة. ومن ضمن الخدمة الشخصية التي أرجوها منك ضم جهلك بالموضوع إلى جهلي به وساعدني للعثور على ابنتي علماً بأن الشركة ستدفع بدل أنعابك مهما بلغ». وهنا انحلت عقدة لسان المسؤول عن أمن الشركة فقال انه استقال من مكتب التحقيقات الاتحادي وانضم فوراً إلى ملاك أمن الشركة ليجد أن رؤساء الجدد يتابعون عن كثب قضايا الارهاب الدولي عموماً واحتمال خطف مدراء الشركات خصوصاً. أضاف: «ليس من المفروض ان اطلعك على ان في مكتب التحقيقات ملفاً خاصاً بكليمنتين وفيه انها ثوهدت أخيراً برفقة بعض الأشخاص المشبوهين جداً. استنتجت فوراً بأن هؤلاء ينتمون إلى هيئة تسمى «اللجنة البريطانية العربية لتفاهم أفضل» كنت على علم بأن كليمنتين تحضر اجتماعاتها .

قبلت المهمة وقمت برفقة مسؤول الأمن في الشركة واسمه الحقيقي جيرى كوالسكي ومعنا بوب وصديقي قائد شرطة المنطقة نبحث عنها في المحلة فلم نعثر عليها. عدنا إلى بيت بوب لاستجماع أفكارنا وخلال الحديث أخبرني بوب ان ابنته تلتقي فعلاً بمن قد يبدو للنيويوركيين «أشخاصاً مشبوهين جداً». أصر بوب على ان

كليمنتين «فتاة أميركية عادية» لا علاقة لها بالسياسة وان كانت لها آراؤها بشأن الصراع العربي الاسرائيلي .
فقد تعلمت في مدرسة في بيروت وما يزال رفاقها السابقون في المدرسة يتصلون بها من وقت إلى آخر،
وبعضهم فلسطينيون. التقت بوب إلي قائلاً: إننا إذا لم نعثر على أي دليل في لندن ينبغي أن أذهب إلى نيويورك
لوقوف من جون على سبب الاهتمام الذي أبداه مساء الأحد الأسبق أثناء مكالمتهما الهاتفية. هنا فقط تكلم
صاحب البذلة الرمادية. أنه المشرف على «المشاريع الخاصة» في الشركة وهو مخول بتغطية كافة نفقاتي
إضافة إلى بدل انعاب يكفي للتعبوض عن تنازلي للقبول بمهمة ليست لمن هم في سني وفي مركزي الاجتماعي .
ولما كنت قد بائست بوضع هذا الكتاب وانهمكت في الاطلاع على مشاكل الارهاب الدولي ومتابعتها
بصفتي خريجاً وقيماً من وكالة الاستخبارات المركزية، وجدت في الخدمة الشخصية المطلوبة مني فرصة لا
يجوز تفويتها مطلقاً. قضيت اسبوعاً في لندن أنتقل بين أصدقائي في مختلف دوائر التحري والأمن ومكافحة
الاجوسوبية أجمع المعلومات حول نشاطات الفلسطينيين في لندن من خطف واستقطاب مؤبدين وتحويل أموال
وتعاون مع الجيش الجمهوري الايرلندي وغيرها. ثم توجهت إلى نيويورك وواشنطن فوجدت في الأولى ان
السلطات تنظر إلى النشاطات التي قد تشير إلى اسباب اختفاء كليمنتين على انها مواضيع تستدعي اتخاذ
اجراءات وقائية دون أي اشارة إلى الفلسطينيين أو أي مجموعات أخرى قد تحظى بعطف ما داخل دول نفطية
.أما في واشنطن فوجدت ان مكافحة الارهاب باتت صناعة نامية ومتوسعة يحدد فيها السياسيون الأهداف ويقوم
مدعو الاختصاص بها بللمة الحطام. لم ترتدني مقابلاتي في المدينتين إلى أي دليل يقودني إلى كليمنتين وإلى
سبب اختفائها، ولكنها انارت بصيرتي حيال ملابسات اختفائها والجو المبني على الافتراضات والتكهنات الذي
تحاول فيه الحكومة الأميركية التعاطي مع موضوع الارهاب الدولي .

لن أحاول وصف متاهات التعاطي هذا بل سأعلق فقط على كيف قادني البحث عن كليمنتين للوصول إلى
نظرية «مكافحة الكارثة» كما يفهمها اي مقامر يعرف كيف يتجنب الدخول في طريق مسدود. فالطريق الذي بدأ
صباح يوم ممطر في منزل بوب في لندن لم يلبث ان تشعب منه طريقان ثم أربعة ثم ستة عشر وهكذا حتى
صار ككرة الثلج ممتداً إلى بعض أقطار أوروبا وافريقيا والشرق الأوسط فخرج على اكثر من مئة دبلوماسي
ووكالة استخبارات ودائرة شرطة، وأدى إلى اكتشاف عشرات الارهابيين غير المعروفين سابقاً والمجموعات
السياسية السرية من جنسيات مختلفة، دون اكتراث يذكر باختفاء كليمنتين، علماً بأن صدفة غريبة أدت إلى
العثور عليها.

أمسك كاوالسكي بطرف الخيط الذي أدى إلى العثور على كليمنتين بأن ركب رقماً هاتفياً مخلوطاً. ولما كان
ذلك الرقم سرياً غير مدرج في الدليل اعتبر المتكلم على الطرف الآخر منه ان باستطاعته الحديث ببعض
الحرية باعتبار ان الرقم ليس معروفاً إلا لدى ثلثة معينة وذكر ثانياً عن «فتاة اميركية مفقودة» تلك هي الصدفة
التي أدت إلى التحركات التي أوردت ذكرها أعلاه وإلى العثور على كليمنتين. ومن خلال تأملي في كل ما جرى
قلبت نظرية الكارثة رأساً على عقب وأسميتها «مكافحة الكارثة».

انبعت طريقة بسيطة أدت بي إلى تطوير نظرية «مكافحة الكارثة» رسمت على ورقة ما بذل من جهد في
البحث عن كليمنتين على شكل شجرة عائلة جاعلاً الغاية الأساسية محل الجذع وتناجها محل الفروع التي تشكل

كل منها غاية جديدة تسبب نتائج جديدة فانتهيت إلى فروع وأغصان متشابكة لا تعني شيئاً سوى الدلالة على اندفاع من أجل غاية واحدة، وعلى وجود الكثير من الطرق المسدودة والمتطلبات المغلوطة. وتبين من خلال ذلك كله ان معظم المثنركين في هذا الجهد شاح نظرهم عن غاية بحثهم الأساسية أو انهم اثناء بحثهم ألتهم قضايا لا علاقة لها بموضوع نشاطهم فخاصوا فيها لبلوغ نهاياتها وكثف غموضها. ورسمت على ورقة شفافة كل ما استنطعت اعتباره ذا صلة واضحة بموضوع البحث وطبقت الورقة الثانية على الأولى فتعرفت إلى مواطن النقص وبدا اكتشفت ما اسميته «النمط» أي الطريقة التي يتبعها فريق من الناس يعملون معا في مهمة رسمية أو ينتمون إلى حضارات مشتركة ولهم حوافز مشتركة، في مواجهة تحد واضح المعالم. ففريق كهذا يبدأ بالبحث عن قضية واحدة أو بالعمل على مسألة محددة ثم يوسع بحثه محدداً تصنيف القضية ويتوسع بتفسيرها ثم تدفع وحدانه المختلفة في اتجاهات متعددة وتبقى الغاية المشتركة سليمة .

اللاعب الأهم على رقعة اللعبة الدولية

كان من دواعي اعتزازي بالطبع ان يضعني زملائي في مصاف ألبرت إينشتاين وغيره من العباقرة .ولكنني اعترف بتواضع كلي ان نظرية مكافحة الكارثة ليست سوى اظهار صلة العلوم النظرية الصرفة بالعلوم التطبيقية في مجال التحقيقات والتحريات. ولكن فلننظر فيها، إلى جانب ما قلته في فصول سابقة عن مستويات اللعبة وعن تفاعل الدوافع الشخصية في نفس أي لاعب بمفرده، وننظر عبر ذلك إلى تصرفات اللاعب الأهم على رقعة اللعبة الدولية، اي الحكومة الاميركية .

لنأخذ مثلاً مجلس الأمن القومي. فهو يتألف من رئيس الجمهورية ونائبه ووزيري الخارجية والدفاع ورئيس أركان القوات العسكرية ومدير الاستخبارات .من المفروض ان يلتزم المجلس اسبوعياً لدراسة «تسييق السياسات الداخلية والخارجية والعسكرية المتصلة بالأمن القومي». ومن المفروض ان يكون موضوع البحث ما يقدمه تخص لقبه الرسمي «مساعد الرئيس» ولكنه يعرف عموماً على انه مستشار الرئيس لثؤون الأمن القومي. والمفروض في هذا الاخير ودائرته المؤلفة من أكثر من اربعين موظفاً جمع كل المعلومات الواردة إلى البيت الأبيض عبر وكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من الوكالات وتصنيفها في ابوابها وتحويلها إلى تقارير تحدد بدقة ووضوح الأخطار على الأمن القومي في حقبة معينة .

من حيث المبدأ، لا بأس في تركيبة كهذه. ولكن توضيحاً لنظرية مكافحة الكارثة دعونا ننظر في «أسوأ سيناريو ممكن تصوره»، ألا وهو: ادارة الرئيس ريغن. فمن يدين مستشارية لثؤون الدولية: وزير الخارجية المثهود له بالذكاء الحاد والكفاءة الرفيعة مع الافتقار الكلي إلى اي خبرة في التعاطي مع الأجانب والحكومات الأجنبية، وينقصه فوق ذلك «التحسس» بأي حضارة غير الحضارة الأميركية، اضافة إلى انه يتحول إلى العاطفية بعيداً عن المنطق لدى مواجهته أشخاصاً لا يقدرون ويحترمون «القيم الأميركية» مثله. ومن بينهم أيضاً مدير وكالة الاستخبارات المركزية وهو رجل يتحلى بمستوى رفيع من الحكمة والكفاءة، ولكنه لم يبرهن عنهما في مجال جمع وتحليل المعلومات بل في مجال ادارة حملة ريغن الانتخابية. وبرهن المستشار الثالث الهام في سبحة المستشارين، وقد قضى بعض الوقت في العمل في حقل الأمن القومي واكتسب خبرة ضئيلة فيه، برهن ان المعرفة الضئيلة مجلبة للمخاطر.

يتبين مما أوردته ان تركيبة الاستخبارات والأمن القومي في ايام ريغن لم تكن مثالية، وان سابقتها أفضل منها وان تلك التي تنتظم في عهد الرئيس جورج بوش قد تكون افضل بكثير. ولكن من طبيعة الأمور ان اي منظومة مناط بها تحليل وتلخيص المعلومات ووضعها على مكتب رئيس الولايات المتحدة معرضة لتأثيرات قوى الفساد والافساد وبالتالي ليست مثالية. ففي اعتقادي انه لو حاول السيد لي اياكوكا ادارة شركة كرايزلر استناداً إلى معلومات هزيلة كالتالي ينتلقاها رئيس الولايات المتحدة لأفلسست كرايزلر خلال سنة أو أقل .

ولكن الولايات المتحدة ليست على أبواب الافلاس، او نستطيع على الأقل القول بأن احتمال هزيمتها في اللعبة الدولية أدنى بكثير مما تشير إليه المعلومات الموثوقة. وهذا ما يتقلني إلى نظريتي: «مكافحة الكارثة». وإلى ما اسميناه في وكالة الاستخبارات المركزية القديمة «بيت النمل». يقول المؤمنون بالكوارث ان خفقان جناحي فراشة قد يثير تياراً خافتاً يؤثر تأثيراً محدوداً جداً في اتجاه مجرى هوائي أقوى وان مجموع تلك التحولات قد يحدث اعصاراً في بقعة كانت لتبقى هادئة لولا ذلك الخفقان. كما ان مجنوناً يطلق النار على سياسي محلي في بلد مغمور فتتوالى الأحداث وتؤدي إلى نشوب الحرب العالمية الثالثة. أما نظرية مكافحة الكارثة فأقول فيها بأن في المستويات الوسطى من موظفي وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية والبيت الابيض إدراككم وأبكم وصلب مجند بطريقة ما وراء غاية مشتركة دون ان يكون الموظفون المشار إليهم على معرفة بتلك الغاية، أو معرفة بعضهم البعض. فمن دون جلبه يحول هؤلاء برتابة دؤوبة جبال رؤسائهم التكتيكية إلى كومات استراتيجية صغيرة يدفعون بها بهدوء الصفحات الداخلية في صحفنا. كان جيم أنغلتون الخبير بمكافحة الجاسوسية يقول لنا: إن النملة الواحدة خالية من اي نكاء ولكن ليدت النمل، كمجموعة، نكاء جماعياً مذهلاً. هكذا يبدو حال «نملاتنا» اي مجتمع الاستخبارات الأميركي الذي لا يعرف افراده بعضهم بعضاً كما انهم ليسوا على دراية حتى بوجوده. فنظرة تفحص دقيقة على كوارث كانت محتملة الحصول ونزع قتيلا بحيث كادت لا تستاهل الاعلان عنها تبين ان كبار صانعي القرارات عندنا يرسمون السياسات التي تنتهي إلينا (كقولهم «اننا لا نفاوض الارهابيين») ولكنهم لا يحددون المنحى الذي تتخذه سياساتهم تلك.

سأعطيكم على ذلك مثلاً. فبعد اختطاف سفينة السياح «اكيلى لاورو» قرر كبار مستشاري الرئيس ريغن الرد المناسب: قصف الجهة المفترض ان تكون وراء الاختطاف أي حكومة العقيد معمر القذافي في ليبيا. وهذا ما فعلته اميركا. كانت غارتنا غلظة وعلى الرغم من إنكار البعض ذلك، فقد اعتبرها المهنيون في دوائر استخباراتنا وفي الخارجية خطأ فادحاً. ولكن الرئيس ريغن وجورج ثولتز وكاسبر واينبرغر ووليم كايسى وغيرهم من كبار رجال دولتنا صنفوا للغارة على ليبيا على انها نجاح باهر وتبجحوا بأنها اسكتت القذافي وأوقفت الارهاب الدولي ولو مؤقتاً. لا شك في انكم تذكرون الحكاية ونفي وزير الخارجية ثولتز ان يكون هدفها قتل القذافي والتخلص منه، علماً بأنه اضاف وعلى وجهه ابتسامة مأكرة بأنه لو مات القذافي فلن تتساقط دموع ممثل الحكومة الأميركية في المآثم).

لاريب في انكم تتصورون ان الحكومة الاميركية تصرفت بعد الغارة كما لو انها حلت المعضلة فعلاً. فلو ان كبار المسؤولين عندنا آمنوا حقاً بما هناؤا أنفسهم عليه، افلا يخلدون إلى الاسترخاء وتخفيض ميزانية مكافحة الارهاب؟ أو لا يعيدون زوجات دبلوماسيينا إلى ازواجهن في العواصم التي اعتبروها معرضة للارهاب أكثر

من غيرها. لا، على العكس، فقد تعززت الاجراءات الأمنية حول بعثاتنا الدبلوماسية في الخارج وأعيد إلى الولايات المتحدة زوجات وأولاد الدبلوماسيين في أكثر من عشر بعثات، وزيدت ميزانية مكافحة الارهاب بأكثر من ستة مليارات دولار اضافية .

وخلال السنة التي تلت الغارة على ليبيا تضاعف عدد المحاولات الارهابية ولكن قضى على اكثرها قبل تنفيذها. حصل ذلك أثر زيادة اليقظة في منظومتنا الامنية وباستبدال من عينوا انفسهم «خبراء مستشارين للبيت الأبيض بشؤون الارهاب الدولي» بمهنيين اصليين .بعد الغارة على ليبيا سيطر ضباط سوفيات صغار على مقدرات ادارة التفدافي وأدخلوا التحسينات على نشاطات ارهابية حسب ارشادات الخبراء السوفيات .إلا ان «نملات» وكالة الاستخبارات المركزية اخترقوا بصمت خلايا تدريب الارهابيين الآخذة بالانقضاء خارج ليبيا، وحولهم إلى مقاتلة بعضهم البعض. جرى كل ذلك فيما كان كبار المسؤولين في حكومتنا، بمن فيهم المسؤول الأول عن الدائرة المختصة بذلك، غافلين تماماً .هذه هي النقطة التي اردت بلوغها، اي انه فيما قامت «النملات» بمهمتها كانت هي الأخرى تبدو جاهلة بأن عملها انما يتناقض مع الاعتقاد بأن الغارة كانت ناجحة .

اني أو من بفعالية حكومتنا على وجه العموم وبقدراتها الداخلية على انقاذ نفسها من نفسها، وان كنت أرتاب في بعض الأحيان بحسن قيادتها – لا أعني القادة أنفسهم بل منظومة القيادة في اي دولة ديمقراطية. فهناك قدرتنا على انجاح سياسة خاطئة بمجرد الالتقاء بثقلنا خلفها .لقد أخطأنا مرات عديدة في الماضي، ولكن ثمة دلائل تشير إلى احتمال فقداننا ما نحتاج إليه لتركيز قوانا وطاقاتنا لمواجهة القوى التي تحاول تدميرها .إضافة إلى ذلك ثمة ما يحمل على التشكيك في ان قوتنا ليست من الصنف المناسب لمواجهة اخطار وثيقة، كقوة الاسد أو الفيل إذا هاجمت إياً منهما اسراب من النحل السام. قد نستطيع منازلة دولة عظمى في حرب تبدأ غداً وقد نظفر فيها . ولكن وحتى مع مساعدة الاسرائيليين – بل وعلى الاخص بمساعدة الاسرائيليين! – لن تتمكن من هزيمة الايرانيين و«العرب» والعالم الاسلامي او العالم الثالث كله ان هو قرر التحول ضدنا. لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن الاستراتيجيين السوفيات يدركون هذا الامر تماماً وبأن الحرب العالمية الثالثة التي يتصورونها ستكون مواجهة بيننا وبين قوى غير محددة الشكل في العالم الثالث يدعي فيها السوفيات موقف الحياد. ومع استمرار تفاولي بمستقبلنا استطيع الاشارة إلى عدة وسائل تمكننا من تحسين أوضاعنا، علماً بأنني مررت بها ضمناً في الفصول السابقة. فمن حيث انني أو من بما عندي من خبرة أقول ان «العمل السياسي الخفي» الذي نجحت فيه بشكل فريد مكن في بعض الحالات أمن الولايات المتحدة من تجنب اخطار جديدة، وساعد في احيان اخرى زبائني التجاريين على البقاء المربح في أمكنة كانوا لولا مهارتي ليطردوا منها. وأستطيع القول بأن نشاطاتي لم تربك زبائني ولا بلدي ولم تربكني .

اما الذين يقولون بوجود منع العمل السياسي الخفي فإنهم يريدون التخلي عن الحل قبل ادراك ماهية المشكلة ادراكاً كاملاً. فالزعماء الذين لا يهتمون إلا للنتائج والذين كتب علينا الاعتماد عليهم يبدأون مناقشة المشكلة من نهايتها. فقد يقررون ان من الأفضل ترك المشاكل دون حل على المخاطرة بطول قد تخلق المزيد من المشاكل . أما إذا قرروا ان المشاكل جديدة إلى حد يتحتم معه إيجاد الحل فليهم النظر في كل الحلول الممكنة. وإذا ما وجدوا حلاً أخرى أهدد فعالية وأقل كلفة وأخف خطراً فمن واجبهم اللجوء إليها. وإذا ما رأوا ان لا وسيلة

أخرى فإلهم التسليم بأن لا حول ولا قوة إلا بالعماح بالعمل السباسب الخفى . وهنا لا يكون التساؤل «عما إذا وحب القيام به»، بل : «كيف ينفذ» .
الفصل الثاني والعشرون

كلمة ختامية في السيرة الذاتية

أرى الآن وقد تجاوزت الخامسة والسبعين ان السنوات ما بين ١٩٨١ و ١٩٨٧ أحدى سني حياتي . صحيح ان أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من العمر غالباً ما تكون سنوات رائعة في حياة الانسان، ولكن للتبخوخة بهاؤها وروتقها. وأني لأفضل أواخر السبعينات وأوائل السبعينات عليها ما دام الانسان ينعم بصحة العقل والجسد. فحذار من كلام عجوز يقول العكس. ففي هذه الفترة تكون قد حققت من الحياة ما تيسر لك تحقيقه من نجاح، وبت في وضع يسمح لك بتقييم انجاز اذك أو سقطاتك ويؤهلك لادراك ما فاتك ادراكه من عملة يوم كنت غارقاً في محاولة انجازه وقد بدالك في حينه انه يؤدي إلى كارثة محتومة. ومن المفروض بك وقد بلغت الخامسة والسبعين ان تكون قد جمعت ثروة – هذا ان كنت قد أدركت في شبابك «ان المستقبل هو من نصيب الذين يخططون له»، وتذكرت ايضا ان الماضي كان المستقبل في ما سبقه من أيام .

كان العام ما بين تموز (يوليو) ١٩٨٠ والشهر عينه من العام التالي من أعظم سني حياتي .فبعد حفلة ثنيقة أقامها الاصدقاء في ١٦ تموز ١٩٨٠ احتفالاً بعيد ميلادي السابع والسبعين قضيت ما تبقى من ذلك الصيف أجوب جنوب البلاد داعياً لتسمية جورج بوش مرشحاً عن الحزب الجمهوري لانتخابات الرئاسة. ولما فاز رونالد ريغن بالتسمية حولت نشاطي نحو حث الناس على انتخابه رئيساً. وأسست بالتعاون مع بعض زملاء القدامى في وكالة الاستخبارات المركزية «عصية بوش» ليكون نائب الرئيس الأفضل معرفة بأحداث العالم شهدته الولايات المتحدة في تاريخها. ومن أجل ذلك أقمت حفلات ولقاءات متعددة في منزلي أولها وليمة صباحية على شرف جورج بوش وزوجته يوم تنصيب ريغن في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠، وكنت في المساء بين ضيوف الشرف في الحفلة الرسمية لمناسبة التنصيب. وهكذا انهالت علي بين شهري كانون الثاني (يناير) وأذار (مارس) ١٩٨٠ الاتصالات من زبائني القدامى في شركات النفط والطيران والمصارف لتدويرهم عما تخبئ لهم الايام في عهد ريغن، ببذلات انحاب مضاعفة .

أردت من الكلام عن نشاطي هذا الاشارة إلى انني واجهت صعوبة في الفترة الأولى من عهد ريغن التي لولاها لما اكتملت هذه السيرة الذاتية . غير انني استطيت وصف السنوات السبع التي تلتها واختتمت بها نشاطي في مجال العمل السباسب الخفى بأنها «سنوات هامة». ذلك انه عندما اخذت ادارة ريغن تعيين الهواة في المراكز الحساسة في مجال السياسة الخارجية – مهندس صناعي عمل في حقل التفاوض مع الاتحادات العمالية صار وزيراً للخارجية، ومدير تنفيذي في شركة بناء أصبح وزيراً للدفاع، والمشرف على حملة ريغن الانتخابية استحال مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، ومحام من كاليفورنيا أضحي رئيس أركان مجلس الأمن القومي – عند ذلك أخذت الشركات الأمبركية ذات المصالح المنتشرة في انحاء مختلفة من العالم تتكلم أكثر فأكثر على سياساتها الخارجية الخاصة بها. وفي اعتقادي ان تساؤل المسؤولية الحكومية عن مجريات الأمور على رقعة

اللعبة الدولية هو من الأسباب التي حملت الشركات على الاقتراع إلى جانب ريغن. أفلم نسمع تكررأ في خطبهم المؤيدة لريغن «ان الحكومة الأقل تدخلاً هي الحكومة الأفضل حكماً؟»

غير ان أعداء «التدخل الحكومي الواسع» ومنهم الرئيس ريغن بنفسه، تجاهلو ظاهرة جديدة أخذت بالانتماء داخل الادارة الجديدة. لقد عوض الهواة عن جهلهم بحماسهم، ولعل بعض السبب في ذلك انهم لم يولوا خشونة اللعبة التي دخلوها فجأة ما تستدعيه عن اهتمام. فلا ريب في ان الجميع يذكر كيف فوجئنا جميعاً بكوكبات من اللوبيين ينزلون عليهم من كل اتجاه مدعين العلم والخبرة في مختلف اوجه ومجالات السياسة الخارجية، وهم في الحقيقة لا يعرفون شيئاً يذكر عما يدعون، بل جل ما يتحلون به مقدره على اجترار الكلام المتلائم مع الآراء التي كونها مسبقاً كبار مساعدي ريغن المثار إليهم. لذا باتوا يظهرن في ندوات تلفزيونية على انهم «مستشارون في البيت الابيض». وراحت هوة العداة تتوسع بين هؤلاء المتطفلين وما أثنأوه من «معاهد»، ومن هنا تضخمت بدلات انعابهم لقاء الاستشارات الموثوقة المرفوعة إلى الشركات الخاصة .

وما أن تركزت ادارة ريغن في مواقعها واطمأنت إليها حتى قررت ان باستطاعتها التخلي عن خدماتي، مما يدل على انها نيست تماماً الثمن الباهظ الذي اضطرت ادارة كارتر قبلها دفعه لارتكابها الخطأ عينه . ومع ذلك لم أجد نفسي عاطلاً عن العمل إذ ان الشركات الأميركية الكبرى العاملة على مستويات عالمية أخذت تخفف من اظهار اميركييتها وتسمي نفسها «متعددة الجنسيات» للابتعاد عن الحكومة الأميركية وسياساتها الخارجية، معتمدة أكثر فأكثر على اساليبها الخاصة في جمع المعلومات وفي توفير أمنها .

وسرعان ما أصدبنا نعيش في عالمين مختلفين أدركهما بعضنا، داخل الحكومة وخارجها، عندما أعلن الرئيس الجديد بعد تصديبه بأيام معدودة ان الارهابيين الذين يخالفون «أصول السلوك الدولي» سينالون «عقاباً سريعاً وفعالاً». وما عثم حتى أخذ ريغن يشكل اللجان الحكومية المختلفة بغية تحييش امكانات الامة «لخوض حرب ضد الارهاب» مومناً بوضوح إلى وزارتي الخارجية والدفاع وإلى وكالة الاستخبارات المركزية وإلى مكتب التحقيقات الاتحادي ومصلحة الاستخبارات في وزارة الخزانة: «إن الحرب» سيكون النهج الاساسي في السياسة الخارجية حتى اشعار آخر. فكان في وزارة الخارجية «مكتب مكافحة الارهاب» وعلى رأسه السفير اثنوني كوايستن، وهو دبلوماسي محترف له من الحكمة ما جعله يدرك بأن لا هو ولا أي شخص آخر في الخارجية يمتلك معلومات تذكر عن الموضوع. ولم يطل الأمر حتى تألفت اعداد من اللجان ومن «فرق العمل» ومهمتها الترويج لاهتمام الادارة بالقضية أكثر من اهتمامها بطها – «مركز مكافحة الارهاب» اقيم داخل وكالة الاستخبارات، و«فريق الدعم في الحالات الطارئة»، داخل الوكالة أيضاً، و«قيادة العمليات الخاصة المشتركة» في وزارة الدفاع، وقوات «دلنا» في الجيش، وسواها من القوات الخاصة للتدخل والانتشار السريع، وما هذا إلا غيض من فيض .

نما حول معظم تلك البدع العديد من الطفيليين الذين يدعون لنفسهم الخبرة في موضوع الارهاب، علماً بأنه لم يتسن إلا لقلة ضئيلة منهم أي خبرة مباشرة بالارهاب او الارهابيين أو بالظروف التي سببت قيام الارهاب والارهابيين .

ما ان مر عامان أو ثلاثة أعوام على وجود ادارة ريغن في الحكم إلا وكانت واشنطن مغمورة بفيضان من المعلومات المغلوطة والمدسوسة حول الارهاب، والارهاب في المدن، والارهاب الدولي والارهاب الحكومي، وما يسمى بـ «الارهاب المؤسساتي». وقد اثارَت هذه الضجة اهتمام السوفيات ذلك ان الحكومة الاميركية كانت غارقة في الحيرة عينها التي تخدم أرغض لينينيي موسكو الآخذين بالنمو حول غورباتشوف فقد أوضح هؤلاء بطرق مكثوفة لا حاجة معها إلى التجسس والاستخبارات ان الولايات المتحدة، حسب تصورهم للحرب العالمية الثالثة سبجد نفسها مضطرة للخوض في حالات تنشر فيها بأن عليها القيام بدور دولة قوية، بينما يرى العالم كله انها مجرد من كل قوة. وبوجود ادارة ريغن في الحكم كان في متناول اليد صنف جديد كلياً من «البلهاء المفيدين».

وأثناء انشغال واشنطن الرسمية بالتعرف والصلاحيات القانونية والأولويات والتساؤل عما إذا كان السوفيات وراء أكثر أعمال الارهاب الدولي أو كلها، كاذت شركات النفط والطيران والمصارف الدولية وشركات البناء الكبرى تعمل مع حكومات بلدان فيها أهم ما يستهدفه الارهابيون في مجالات الخطف والتعدي على الأفراد والتخريب وأساليب الارهاب الأخرى. ومع هذا كان الجهد بعيداً عن الأضواء والضجيج وفعالاً رغم ابتعاده على قدر الامكان عن الحكومة الاميركية وان كان بيت النمل قد قدم لنا مساعدات دون أن يدري بها. ومن ناحية ومع كل ما خربه الأميرال تيرنر في وكالة الاستخبارات ايام ادارة الرئيس كارتر، أبقى فيها على نواة صلبة من الاختصاصيين الكفوئين لغوياً كل بثؤون الاقليم المخصص له الذين استمروا على اتصال بين الحين والحين . ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم لم يحصل في أي من الشركات التي استعانت بخبرتي وخبرة أمثالي، خطف مسؤول أو عمل تخريبي في مذبذباتها أو خطف طائرة تابعة لها .

وفيما أنا أكتب هذه الصفحات ينهكك الرئيس بزياراته الوداعية في واشنطن ويعمل الرئيس المنتخب جورج بوش ومعاونوه المرجليون استعدادا لدخول البيت الأبيض. ويخامرني الرجاء بأن يتحلى الرئيس بوش، وهو الذي رأى العالم بعيني رجل الأعمال، بالعقلانية الكافية لأن يتركه وثنائه ضمن ما يكفي من حدود. وأرجو كذلك ان يعين في مراكز السياسة الخارجية العليا رجالاً ناضجين يدركون معنى المسؤولية وأعباءها ويتحاشون ارتكاب الأخطاء أكثر مما يصرون على فعل ما يرونه صواباً. ففي الشؤون الدولية، وان لم يكن بالضرورة في الشؤون الداخلية أيضاً، يصح قول ادموند بيرك بأن قيمة الحكومة ترتفع بانخفاض ما تبديه من حماس .

تري لماذا، بعد ان يكون الرئيس ومستشاروه قد قرأوا وهضموا كل ما كتبتنه، لماذا يلازمي الشعور بأن تصرفات الحكومة الاميركية حيال قضايا الأمن القومي ستستمر كما لو التزمت حبل الصمت ؟ ولما كان هذا الكتاب سير ذاتية نظنت من الأفضل اختتامه بالاجابة عن سؤال حول سيرتي كلها.

كيف أرى موقعي في هذا العالم اللامثالي الذي تخيلته؟

الحياة لعبة وسجال

منذ سنوات عديدة طلب إلي وجبه من أصدقائي مساعدته في كتابة بضع مئات من الكلمات ليلقيها في ندوة موضوعها «بهذا أو من». ومع علمي بأنه التزم في حياته بادئ ثابتة وصارمة (مثلاً: «النزاهة هي في العادة أفضل سياسة يتبعها المرء، إلا ان لهذه القاعدة حالات ثنائة») فقد تعذر عليه التعبير عنها، كما انني لم أتمكن

من مساعده. وعندما صدر الكتاب أخيراً، تضمن أفعالاً لأكثر من أربعين شخصية من بريطانيين وأميركيين، لم يستطع فيها أي منهم الإسهام بأكثر من إشارة إلى المبادئ التي وجهت حياة كل منهم. أما أنا فلم أواجه تلك الصعوبة لأنني أنظر إلى الحياة على انها لعبة.

لا بد لي هنا أن أقص عليكم حكاية عن ابنتي ليني حدثت عندما كانت في السابعة أو الثامنة من العمر. بدأت الحكاية عندما دخلت ليني قفص العصافير في حديقة منزلها في بيروت ووجدت ببغاءها «أوسكار» ميتاً. علا صراخها ونحيبها وراحت تلمم الجدران برأسها حتى قمت لأستدعي طبيباً يهدئ نوبتها الهستيرية بالمسكنات . ولكن خطرت لي فكرة أفضل. اخذتها من يدها الصغيرة وذهبت بها إلى الترفة المطلة على البحر وجلسنا على الأرجوحة. بصوت ملؤه الحنان حاولت ان أضغ الكارثة في اطارها الصحيح فبدأت بالقول: «اسمعي يا ليني، ليست هذه نهاية العالم فأتنبأ كهذه تحدث لنا أيضاً لأن الموت من حقائق الحياة. دعيني أقول لك ما سنفعله سأدع هاغوب النجار يصنع له نعتاً صغيراً تقرثه أمك بقطعة من الحرير ثم ندعو الكاهن الأب يبار ليتلو صلاة قصيرة ثم نضع اوسكار في النعش، وندعو لك أصدقاؤك إلى حفلة وداعه يكون فيها المتلجات والمنعشات والحلوى وكل توابعها ونضع النعش وفيه اوسكار الصغير في أحد قواربك الصغيرة وتقف عند الشاطئ نخني ونلوح له فيما القاب يبتعد في البحر. سيكون ذلك مأتم كمأتم أبطال الفايكن القدماء».

كان اعجابي ببلاغتي قد تملك مني فيما ليني تستوعب كل كلمة أتقوه بها عندما سمعنا صوتاً غريباً خافتاً ينبعث من القفص. نهضنا عن الأرجوحة وتوجهنا إلى مصدر الصوت الآخذ بالارتقاع فوجدنا اوسكار واقفاً على ارجوحته يتقرربثه. وقفنا مثدوهين لبضع ثوان ثم نظرت ليني إلي قالت بحماس: «دعنا نقتله».

هل أدركتم ما أحاول قوله؟ فلو نظر الناس نظرة دراية حقاً إلى الأمور لرأوا في كل قضية تواجههم وصلة في لعبة الحياة، ولبانت الكوارث قابلة للاحتمال، بل ونوعاً من المتعة. ففي آذار (مارس) ١٩٨٦ تعرضت لحادث سير خطير ولم يبق سالماً إلا القليل من عظام جسدي، فقضيت ستة أشهر في المستشفى معظمها في أيام مبرحة. ولكنني في الواقع استمتعت بها. وكان ذلك الحادث والاستشفاء الذي تبعه خبرة جديدة في حياتي قضيت الكثير من وقتي في المستشفى أفكر بالاسلوب الذي سأكتب عنه به.

* * *

ملأت الصفحات السابقة كلها بالحديث عن «الألعاب» و«خطط الألعاب»، الخ. حتى ان البعض منكم الذين بلغوا هذه الصفحة سئموا منه. وغايتي من كل ذلك الوصول إلى النقطة التالية، في سيرتي الذاتية: وجدت انكم اذا كنتم ترون الحياة على انها «لعبة» – وهي تعبير استعمله بالمعنى الذي يستعمله الاستراتيجيون العسكريون والسياسيون والتجاريدون وليس بمعنى اللهو والمجون – فإن في ذلك فوائد عديدة، منها القدرة على الاقتداء بالقول «دع الأمور تسير في أعنتها...» فلا تدع السعيدة منها تحملك على اجنحة الخفة وفقدان الصواب، ولا السيئة منها تسحقك. ففي مقال كتبتة مرة لا حدى المجالات بعنوان: «هل ثمة حياة بعد الولادة» قلت اننا جميعاً نولد وجميعاً نموت (البعض يبكرون كثيراً) ويتخلل هذين الحدئين الكثير من الافعال منها الجيد ومنها السيء ولكننا نحاول تغليب الجيد على السيء. يبقى المهم هو اننا نعمل ما يستهوننا عمله وان حياتنا تكون جيدة بمقدار ما نستطيع المعادلة بين «المتع» و«القيم». (بمعنى «له مغزى» و«لدلالة».

وما هو «القيم»؟ يعود أمر تعريفه إلى كل امرئ بمفرده، ولكن إذا جاز لي استعارة بعض كلمات السير نورمن انغل الذي قضيت بين يديه بضعة أشهر في نيويورك في أواخر الثلاثينات، أقول ما يلي: ان القيم التي تتوقت عليها صفة مجتمعنا تتأثر بالقوى العاطفية أكثر من القوى العقلانية وقد تكون تلك القوى عمياء وباطلة كما قد تكون خيرة. وكان السير نورمن يصر على ان بمقدور كل فرد بمقدار قليل من ترويض النفس ضبط القوى اللاعقلانية الموجودة في كل واحد منا. لقد غابت عن ذاكرتي رتبة التدريب الذاتي الذي اقترحه، ولكنني اتبعت اسلوباً تخصصياً أو صبي به من يشاء: ان مجرد الادراك بأن «الحياة لعبة» هو بحد ذاته تدريب كاف. تصر زوجتي على القول بأن وصف الحياة أو أي شيء آخر بأنه لعبة انما هو انتقاص من قيمة الحياة. ولكن الخطأ الذي ترتكبه في ذلك هو اعتبارها كلمة «لعبة» تعني ذلك اللهو الذي مارسته في صباها أيام الدراسة. فقد ثارت تأذرتها عندما وصفت الأتھر السنة التي قضيتها في المدينتنفي بانها « فترة من الخبرة الممتعة». ومن أجل تنوير قراء مثلها يعتبرون ان كلمة «لعبة» تعني كرة القدم أو كرة السلة أنسد على القول بأنني أكتب حصراً عن الألعاب «الجدية» [أو السجال] التي كتب عنها عالم الرياضيات الشهير جون فون نويمان والعالم الاقتصادي الذائع الصيت أوسكار مورغنثايرن في كتابهما القيم «نظرية الالعب وصلتها بالتصرف الاقتصادي» وتلك التي كتبت عنها في كتابي القيم المتبع في معهد وكالة الاستخبارات المركزية وعنوانه «ألعاب دون رياضيات لمختلف ضباط الاستخبارات». ان النظرة إلى الحياة على انها لعبة لا تتطوي على اي انتقاص؛ انها تجعل المرء يرى الأمور في نصابها الحقيقي، من حيث «الحصول على أقصى المنفعة» و«تحمل أدنى الخسائر» حسب قول فون نويمان ومورغنثايرن. وهي في الوقت نفسه توفر المعايير التي تحدد ما هو الأقصى وما هو الأدنى.

فكروا في ذلك. ان مجرد التأمل به يجعل منكم أناساً أفضل حتى ولو لم تدركوا الغاية «المفتاح» أو (الغز) التي حاولت اطهارها منذ الصفحة الأولى من هذا الكتاب .